رواية

خولة حمدي

ياسمين أبيض





إهداء

إلى سلمى، الأمّ الشّجاعة

وريّان، طفلها البطل

من أجلهما كُتبت هذه الرّواية

«لم نلتق غير مرتين.

في المرة الأولى حفظتْ اسمي،

وفي المرة الثانية حفظتُ اسمها.

وفي المرة الثالثة لم نلتق (...)

لم أقل لها في المرة الأولى: أحبك.

ولم أقل لها في المرّة الثانية: أحبك.

ولم نشرب القهوة معًا...».

محمود درويش

-1-

فبراير ٢٠١٦

تلك رحلة لم تحسب يومًا حسابها. لكن ها هي تعبر الحدود من جديد الآن، وتمضي في طريق سلكته في الاتّجاه المعاكس منذ سنوات، هربًا بوليدها وسلامة عقلها وذكرى زوجها.

تخطّت ياسمين بوّابة الطائرة وانسابت مع تيّار المسافرين في اتّجاه مكاتب مراقبة الجوازات في مطار ليون «سانت إكزوبيري» الدّولي. لقد هبطت في هذا المكان ذاته منذ ما يقارب الاثني عشر عامًا. ثمّ هجرت البلاد وأقسمت ألّا تطأ قدمها تلك الأرض بعدُ!

لكن ها هي تحنث بقسمها، تعود مجبرة لا مخيّرة. أطعمت عشرة مساكينٍ كفارة ليمينها مذ اقتنت تذكرة الطائرة، ثمّ حزمت متاعًا قليلًا في حقيبة صغيرة ورحلت. وقفت في طابور الانتظار، تقبض أصابعها على جواز سفرها الفرنسيّ بينما نظراتها تتطلع في توتّر إلى مكاتب المراقبين الذين

يفصلها عنهم حاجز زجاجيّ سميك وعدد من الوافدين من رفاق رحلتها.

لم تكن مطلوبة للعدالة، وليس في صحيفتها الجنائيّة سوابق تذكر. لكنّها غادرت البلاد فرارًا، بعد أن تكرّرت زيارات رجال المباحث لمسكنها بلا سبب، غير التّضييق عليها وتشويه سيرة زوجها الرّاحل. لم يكن ذنبه إلّا أنّه قد استشهد فداءً لقضيّة آمن بها، وتعارضت مبادئها مع قوانين الدّولة الفرنسيّة المجحفة.

لم يكن ينبغي لها أن تخشى شيئًا.

كانت مواطنة فرنسيّة منذ الولادة، وقد جدّدت جواز سفرها قبل وقت قصير في السّفارة الفرنسيّة بتونس بلا معوّقات. دخلت المبنى الحصين المحاط بالأسلاك الشّائكة وخرجت بسلام، وبين كفّيها وثيقة حديثة تعلن انتماءها إلى تلك البلاد التي ضربت في أديمها رايات العداء.

لم يكن عليها أن تهاب شيئًا.

لكنّها ترتجف. تسري في أوصالها رعدة لا تملك السّيطرة

عليها. تقترب خطوة أخرى، تضع جواز سفرها على سطح المكتب الصّقيل وابتسامة مداهنة ترتسم على شفتيها. ترتفع عينا موظّف الجوازات السّابرة إليها. يتنقّل بصره في ارتياب بين صورتها الحاسرة على الجواز -فقد كان غطاء الرّأس ممنوعًا في صور الوثائق الرّسميّة الفرنسيّة- ووجهها الذي يحيط به حجاب عسليّ، ثمّ يأخذ في الرّقن على لوحة المفاتيح بأصابع مرنة ومحترفة. تزدرد لعابها في عصبيّة، كأنّها على وشك الإغماء. تعيد إليها البذلة الرّسميّة الزّرقاء أشكالًا من المشاهد الكابوسيّة القديمة. يأتي الفرج أخيرًا حين يمدّ إليها الموظّف جوازها وهو يقول بلهجة مهذّبة:

-نهارًا سعيدًا.

تردّ المجاملة بمثلها بصوت لا يكاد يَبين، وتنطلق خطواتها مبتعدة لا تلوي على شيء، وقد عادت إلى وجهها ألوانه. انتعشت أساريرها وهي تقف على الرّصيف الخارجيّ للمطار، وتستقبل نسمات المساء الباردة. لقد تجاوزت مرحلة الخطر بنجاح، والآن فلتنجز مهمّتها.

كانت السّاعة قد تجاوزت الثّامنة مساءً حين وصلت عند مدخل منزل والدها. كان الظّلام قد هبط على المدينة منذ

دقائق قليلة، لكنّ الوقت ما زال يسمح باستقبال زائر غير معلن.

كانت لتعلن عن زيارتها لو أنّه ردّ على اتّصالاتها، في أيّ وقت من الشهور الستّة الماضية!

ولعلّها لم تكن لتتكبّد عناء السّفر لو أنّه فعل!

كانت اتّصالاتهما متباعدة في الأصل، وكانت تبادر دائمًا. يجمعهما اتّصال قصير مقتضب مرّة في الشّهر، وفي المناسبات والأعياد. لم يكن هناك كثير حديث مشترك بينهما. لكنّه والدها رغم كلّ شيء، تحمل خلاياها جيناته ويسري دمه في عروقها، ومن واجبها برّه، ولو باتّصال قصير بين حين وحين.

غير أنّه لم يعد يردّ على اتّصالاتها في الشّهور الأخيرة. لم يكن الوضع ينذر بالخطر بادئ الأمر. خمّنت انشغاله، سفره ربّما، لم يكن من المستغرب أن يغفل عن ردّ الاتّصال. اكتفت برسالة قصيرة تسأل عن أحواله وتعلمه بجديدها. نشاط المكتبة، نموّ عزّ الدّين، الأشياء المعتادة.

لكنّه لم يردّ على الرّسالة قطّ.

بعد أسابيع، عاودت الاتّصال. فتكرّر الأمر. لا ردّ على الضّفة الأخرى. بدأ القلق يغزو صدرها. كتبت رسائل إلكترونية لأخويها ريّان وسارة. كانت تلك وسيلة التّواصل الوحيدة بهما: رسائل رسميّة جوفاء متملّقة بشكل متباعد. لكنّها تتابع صفحتيهما على مواقع التّواصل. كتبت إليهما هنا وهناك، تسأل عن أحوال الوالد أوّلا، ثمّ تؤكّد على ضرورة الاتّصال بها للأهميّة.. فلم تحظ إلا بالتّجاهل!

بعد شهور من الانتظار والمحاولات، أفضت إلى والدتها بمخاوفها. شيء ما يحدث مع والدها. قالت فاطمة تطمئنها:

-لعلّه قد غيّر رقمه.. ولعلّ ريّان وسارة لا يحرصان على قراءة الرّسائل!

لم تكن علاقة والديها طيّبة بعد الطّلاق. مضى كلٌّ منهما في سبيله وانقطعت بينهما كلّ أسباب الودّ. وكذلك انتهت علاقة كمال بزوجته الفرنسيّة إيلين بجفاء وعداء، ولعلّ ابنيهما قد انحازا إلى والدتهما بعد الانفصال. ذلك يفسّر تباعد تواصلهما بها، كونها نصف شقيقة. لكنّ شيئا ما بداخلها كان

ينبّئها بأنّ في الأمر خطبًا ما. لم يكن والدها ليقطعها بلا مبرّر.

استمرّت في محاولات الاتّصال لبعض الوقت، ثمّ جرّبت أن تراسل والدها على بريد الجامعة. إن كان قد غيّر رقم شريحته دون إخبارها، أو فقد رقمها بشكل ما، فعليها أن تصل إليه بكلّ السّبل المتاحة. تخيّلت أن تطالع رسالة واردة ذات يوم كُتبت بلهجة ارتياح:

«شكرا لتواصلك يا ياسمين، لقد فقدت أمل الاتّصال بك بعد أن تعطّلت شريحة الهاتف وفقدت كل أرقام المعارف والأصدقاء!».

تخيّلت كثيرًا، لكنّ السيناريو المشرق والمطمئن لم يحدث. بعد أن مضى أسبوعان بدون ردّ، دخلت على البوّابة الرّقمية لمركز الأبحاث الذي ينتمي إليه وراسلت بعض زملائه. اعتذرت عن التطفّل أولا، ثمّ عرّفت بنفسها: ابنة البروفيسور سامي كلود التي تعيش خارج البلاد وتجد صعوبة في الوصول إلى والدها!

بعد أيّام قليلة، جاءها الجواب الحاسم:

«البروفيسور كلود لم يزر المختبر منذ شهور، وغيابه غير المبرّر يثير قلق الجميع!».

عندئذ أسقط في يدها.

لم تكن مخاوفها من فراغ، وكان عليها أن تفعل شيئا. تركت عزّ الدّين -مرغمة- في عهدة جدّته زهور وسافرت بمفردها، لترفع اللّثام عن سرّ اختفاء والدها المحيّرا والآن، ها هي تقرع جرس الباب بعصبيّة وترنو إلى الفناء المعتم. بعد أمدٍ طويل، فتح الباب وظهر رجل فرنسيّ أشقر في منتصف الثلاثينيات في شرفة الطّابق الأرضيّ. صاح في ضيق وهو يطالعها من بعيد:

-من الطّارق؟

حدّقت فيه في شكّ. كانت الشّرفة مظلمة، لكنّها ميّزت هيئته العامّة. لم يكن ريّان بالتّأكيد. قالت بصوت متشنّج:

-أليس هذا منزل سامي كلود؟

-آسف، لا أحد بهذا الاسم يقيم هنا.

-آه...

كان ذلك آخر آمالها، أن تعثر عليه في بيته! هل تكبّدت مشقّة السّفر بلا فائدة؟ جمّدت الخيبة قدميها لثوانٍ. ثمّ تحاملت على نفسها وتراجعت معتذرة. أين يمكن أن يكون؟

راودها خاطر مفاجئ، فتوقّفت عند مدخل المنزل المجاور وقرعت الجرس. قالت في اعتذار عندما ظهرت سيّدة مسنّة في الباب:

-أنا ابنة جاركم سامي كلود، أحاول الاتّصال به منذ شهور دون جدوى.. هل تعرفين إن كان قد انتقل من المنزل؟

كانت تذكر تلك الجارة بشكل خاصّ. قديمًا، كانت تلمحها كثيرًا وراء نافذتها، ترقب في فضول الرّائح والغادي. إن كان أحد على علم بأحوال الجيران، فستكون هي بالتّأكيد.

أومأت السيّدة وقد تعرّفت إلى ياسمين. كان شكلها العربيّ غير مألوفٍ في الجوار، لذلك فقد بقيت زيارتها التي امتدّت شهورًا في صيف ٢٠٠٤ عالقة في ذهنها. كانت تتابعها باستمرار بنظراتها الثّاقبة وهي تقطع المسافة يوميا بين

منزل والدها ومحطّة المترو، حتّى انتقالها المفاجئ إلى باريس.

قدّمت تقريرها على الفور مثل متحرٍ خاصّ، كأنّما قد سرّها أن يهتمّ أحد بما تعرفه:

-لقد تذكّرتك! لكن لا علم لي بانتقال سامي كلود. لقد رحلت إيلين بعد طلاقها، وجاءت صهباء روسيّة للإقامة معه.. لكن منذ سنة تقريبا اختفت الرّوسيّة، وعادت ابنته الصّغرى للإقامة هنا...

-سارة؟ تقيم هنا؟

-نعم، مع صديقها...

شكرتها ياسمين بحرارة، ثمّ عادت بخطوات مصمّمة إلى بوّابة المنزل. قرعت الجرس من جديد، وما إن أطلّ الرّجل الأشقر حتّى بادرته في إصرار:

-أريد الحديث إلى سارة، من فضلك!

بدا عليه التّردّد لبرهة. لعلّه همّ بالإنكار مرّة أخرى، لكنّه انتهى إلى الاستسلام. استدار بلا حماس ثمّ اختفى في الدّاخل. مضت دقائق طويلة ثقيلة قبل أن يظهر شبح سارة. كانت البنت اليافعة ذات الوجه المنمّش في ذاكرتها قد غدت سيّدة شابّة في السّابعة والعشرين. وكان شبهها الطّفيف بإيلين قد غدا أشدّ وضوحا. اقتربت حتّى ما عاد يفصلهما إلّا بوّابة معدنية واطئة. وقفت مكتوفة الذّراعين وقالت بدهشة مصطنعة:

-ياسمين؟ ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

-كيف حالك يا سارة؟ جئت أبحث عن والدي، فقد انقطعت أخباره عنّي. جيّد أنّني وجدتك!

ندّ عن سارة صوت أشبه بالضّحكة المتشنّجة، وبدا عليها الانزعاج من الوقفة. هل كان ليخطر ببالها أن تأتي ياسمين من وراء البحر المتوسّط، لمجرّد السّؤال عن والدهما؟

-والدي؟ لا أعرف عنه شيئا.. لعلّه سافر إلى روسيا مع ناتاشا!

-دون أن يخبر أحدًا؟ متى رحل وكيف؟

هزّت سارة كتفيها في لا مبالاة.

-لا أدري! لم أره منذ شهور.. خرج يومًا ولم يعد.

-ألا يقلقك هذا؟ أن تنقطع أخباره بشكل مفاجئ؟ إنّه حتّى لم يطلب إجازة من العمل وانقطع عن المختبر والجامعة بشكل غير متوقّع! يجب أن نبلّغ الشّرطة عن اختفائه!

هتفت سارة في حدّة:

-لا! الشرطة، لا!

ثمّ أضافت بابتسامة متكلّفة:

-سيظهر حين يرغب في ذلك، لا تشغلي نفسك بالأمر!

حدّقت فيها ياسمين غير مصدّقة. لم يكن يبدو عليها أيّ قدر من القلق، وبقدر ما كان ذلك مربكًا، فقد أوحى إليها بحقيقة الأمر: سارة تعرف أين هو والدها. قالت في ريبة:

-سارة، أنت تخفين عنّي شيئًا. هل حصل لوالدي مكروه؟

جاء صوت الرّجل الواقف في الشّرفة متأفّفا:

-فلننته من هذا الأمر الآن!

استدارت سارة لتبادله حديثًا صامتًا من خلال النظرات والإشارات لثوانٍ، ثمّ عادت لتواجه ياسمين بملامح جامدة:

-حسنًا.. إن كنت مصرّة. إنّه يرقد في مصحّة خاصّة.

هتفت ياسمين في لهفة:

-مصحّة؟ ما الأمر؟ هل هو بخير؟

-لقد أصيب بالخرف! لم يعد يتعرّف إلى أحد. لم نرد أن ينتشر الخبر.

تمتمت في صدمة:

-الخرف؟ هكذا، فجأة؟

هزّت سارة كتفيها في استهانة. فعلمت ياسمين أنّها لن تحرز تقدّما إضافيّا، فاكتفت بطلب عنوان المصحّة. أملتها سارة المعطيات على عجل، ثمّ انسحبت إلى الدّاخل. حين غيّبتها جدران المنزل، انتبهت ياسمين إلى أنّ البوابة ظلّت موصدة طيلة الوقت. لم تدعُها أختها -نصف الشقيقة- إلى الدّخول ولو مجاملة، مع أنّ حقيبة سفرها المنتصبة إلى جوارها تنبئ بالرّحلة الطويلة التي خاضتها.

كان الحاجز المعدنيّ الماثل بينهما يذكّرها بحواجز أخرى نفسيّة وعقديّة تفصلهما، والآن لم يعد بالإمكان حتّى أن يجمعهما فضاء مكانيّ واحد. تنهّدت وهي تتناول هاتفها. ستبحث عن فندق تقضي فيه الليلة أوّلا، ثمّ تستأنف مهمّتها في الصّباح.

-2-

لم تكن أجواء المصحّات بالغريبة عنها.

تنساب الذكّريات إلى وعيها تدريجيّا مع كلّ خطوة تخطوها عبر الممرّات المتشعّبة. ضمّت حقيبة يدها إلى جسدها وسارعت الخطى. لم يكن ما يتملّكها حنينًا، بل كآبة. لقد عاشت أسوأ أيّامها في المصحّات، أيّام بحث رسالتها، وأيّام محاولة إيلين الانتحار، وإصابة هيثم، ورقود عزّ الدّين في الحضانة الصّناعيّة.

سارت خلف الممرّضة حتّى انتهت إلى غرفة «سامي كلود»، حسب سجّلات المصحّة. وقفت عند المدخل في تحفّز، وقد تعالى القرع على طبول صدرها. تطلّعت إلى الرّجل المسنّ الذي استطال شعره وتشعّثت لحيته البيضاء في شكّ. كان يجلس حذاء الجدار البعيد، وقد سرحت نظراته إلى الحديقة عبر زجاج النّافذة المغلقة. كان يبدو ساهمًا، في عينيه تبلّد ولا مبالاة. يده المعروقة التي تستقرّ في حجره قد نتأت عظامها بشكل يوحي بالهزال الذي تمكّن من جسده النّحيل.

لم يكن بوسعها أن تتعرّف إلى «سامي كلود» في ذلك الشّبح السّاكن!

لقد كان والدها من أشدّ النّاس اهتمامًا بمظهره. كان وجهه حليقًا أملس على الدّوام، وشعره أسود لامعًا لا تخالطه شعرة بيضاء واحدة! كان يصبغه باستمرار، تدرك ذلك. وقد كان جسده رياضيًا ممشوقًا، وهندامه أنيقًا، ليتماشى مع شباب صديقته الثلاثينيّة!

لكن هذا الرّجل المهمل المستقرّ بلا حراك، لا يمكن أن يكون سامي كلود! ولا حتى كمال عبد القادر!

التفت أخيرًا ناحيتها وقد قاطع حضورها ذهوله عن العالم، فالتمعت في عينيه نظرة مألوفة. تجمّعت العبرات في عينيها على الفور وقد تملكّها يقين مفاجئ: لقد كان هو! ولقد تعرّف إليها!

نظرت إلى الممرّضة في استفسار:

-هل يعرف من هو؟ يذكر المحيطين به؟

ظهر الاستغراب في عيني الممرّضة وهي تراجع الملفّ الطبيّ بين يديها:

-لا أظنّه قد شكا من الخرف مطلقا! لكنّه مصاب بانهيار عصبيّ، فقد القدرة على النطق.

حين جاء الطّبيب المباشر لحالته، استمعت في ذهول إلى شرحه: جاءت به سيّدة شابّة منذ ستّة أشهر تقريبًا إلى الطّوارئ، كان قد تعرّض إلى نوبة قلبيّة. تلقى قسطرة استعجاليّة ثمّ احتاج إلى نقاهة مطوّلة. كان يفترض به مغادرة المصحّة بعد أسابيع قليلة، لكنّ أحدًا من أفراد عائلته لم يحضر لاصطحابه أو حتّى للسّؤال عنه. كان مجرّدًا من كلّ المتعلّقات الشخصيّة: لا هاتف، لا محفظة جيب ولا مفاتيح بيت أو سيّارة. لم يكن بحوزته وثيقة هويّة أو بطاقة ائتمانيّة أو تأمين صحّي! ولم يكن يستحضر أرقام هواتف أحد من معارفه. بدا مثل مشرّد مجهول الهويّة! حكى قصّة عجيبة عن كونه أستاذ جامعة ومدير مركز أبحاث، ولديه من الممتلكات والرّصيد في البنوك ما يمثّل ثروة! وكان يتطلّع كلّ صباح إلى زائري المشفى علّه يلمح أحد ولديه اللذين يتوقّع حضورهما في أيّ لحظة! كانت الممرّضات يتندّرن بشأنه في شفقة ورثاء. بدا كلّ ما يحكيه ادّعاءً وخيالًا، لكنّ

إصراره جعل الطاقم الطبيّ يجاريه: خلال الشّهور الماضية، حاولت المصحّة تسليمه إلى أهله مرّتين. تأخذه سيّارة إسعاف، تصل إلى المنزل الذي حدّده كعنوانه الشّخصيّ، لكن لا أحد يفتح الباب، فتعود السّيّارة أدراجها! في المرّة الثّانية، خرجت سيّدة شابّة وتحدّثت إلى سائق سيّارة الإسعاف. قالت في لطف أنّ الرّجل مشرّد تراه كثيرًا في شارعها، ولقد رأته ملقى على الأرض في حال مزرية وقد أصيب بنوبة قلبيّة، فعطفت عليه وصحبته إلى الطّوارئ.. لكنّها ليست مسؤولة عنه بعد ذلك!

أنصتت ياسمين غير مصدّقة. لا يمكن أن تكون سارة قد فعلت ذلك بوالدها!

-بعد ذلك، أصيب بانهيار عصبيّ من وقع الصّدمة. فقد القدرة على المشي والحركة، وثقل لسانه حتّى ما عاد ينطق. بعد تشخيص حالته، نُقل إلى قسم الأمراض النّفسيّة.. وهو يقيم هنا منذ ذلك الحين...

ابتلعت غصّتها، ثمّ قالت في سرعة:

-شكرا لرعايتكم كلّ هذا الوقت.. سآخذه من هنا على الفور!

حين وقفت عند مكتب الاستقبال تنهي إجراءات الخروج، أدركت أنّها لم تكن رعاية مجانيّة بأيّ حال. طالعت الرّقم الذي ظهر على فاتورة العلاج في ذهول: مائتان وثمانون ألف يورو! أنّى لها بهذا المبلغ؟ هل كانت تتوقّع أقلّ من ذلك، وهو يقطن المصحّة منذ ستّة أشهر؟ وضعت القلم على المنضدة في قلّة حيلة، ثمّ نظرت إلى الممرضة في رجاء:

-هل يمكن تأجيل الدّفع ريثما أتّصل بشركة التأمين الصحيّ؟ سأرتبّ الأمور وأعود لأخذه هذا المساء.. أعدك!

أومأت الموظّفة بالإيجاب. لقد انتظرت ستّة أشهر، لن يضرّ يوم إضافيّ.

عادت إلى منزل والدها وهي تستشيط غضبًا. لقد كذبت عليها سارة. لكنّ هذا أهون ذنوبها. لقد ألقت والدها في المصحّة، ونهبت وثائقه وممتلكاته ومنزله! أيّ بنت تفعل بوالدها هذا دون ذرّة تأنيب ضمير؟ إنّها لا تصدّق أنّ الطفلة التي عرفتها فيما مضى بريئة ومشاغبة، قد غدت وحشا لا تكاد تتعرّف إلى ملامحها فيه!

وقفت تقرع الجرس بانفعال لدقائق طويلة دون جدوى. ثمّ

أخذت تنهال على البوابة الحديدية بضربات صاخبة. هتفت بصوت عال:

-سارة، أعرف أنّك هنا! اخرجي الآن حالا!

كان بوسعها أن تتخطّى البوابة المعدنية المنخفضة، لكنّها ستكون مخطئة حينها بتجاوزها أسوار ملكيّة خاصّة -رغم أنّها نظريّا ملكيّة والدها- فهي عمليّا تحت سيطرة غرباء! اقترافها لأدنى خطيئة سيجعلها الجانية، لكنّ مثولها في الخارج، وصراخها الذي يصل إلى مسامع الجيران سيشكّل ضغطا على سكّان المنزل القابعين خلف الأبواب المغلقة متحصّنين بالصّمت!

-ما الذي فعلته بوالدك يا سارة؟ سرقت منزله وأمواله؟ ما الذي جرّأك على هذا؟ وكيف سمح لك ضميرك؟

تستمرّ في الطرق العنيف والصّراخ:

-متى صار والدك عبئًا عليك، وقد كنت مدلّلته طوال حياته؟ لقد كانت كلّ طلباتك مجابة، فلم يكفك ذلك حتّى امتدّت يدك إلى كرامته؟ كيف سوّلت لك نفسك تركه في

المصحّة والتخليّ عنه؟

فُتح الباب فجأة، وظهر الرّجل الأشقر. كانت سارة أجبن من أن تواجهها. ألقى إليها محفظة صغيرة في حجم كفّ يدها، وقال في غلظة:

-هذا كلّ ما لديه عندنا.. لا تعودي إلى هنا مرّة أخرى!

التقطت ياسمين المحفظة في لهفة. تفحّصت محتوياتها في حرص. كان تحوي بطاقة هويّته وجواز سفره بالإضافة إلى بطاقة التّغطية الصحيّة ورخصة القيادة. تنهّدت. كان ذلك كافيًا في الوقت الحاليّ.

عادت إلى المصحّة، ووضعت الوثائق بين يدي موظّفة الاستقبال في أمل. لكنّها رفعت إليها نظرة خائبة وهي تقول في أسف:

-بطاقة التغطية الصحيّة منتهية الصّلاحية!

حدّقت ياسمين في البطاقة عديمة الجدوى في حيرة. ثمّ تطلّعت إلى الموظّفة في إشفاق:

-هل.. يمكن تقسيط المبلغ؟

ابتسمت السيّدة في تفهّم وقالت:

-يمكنك المرور إلى مكتب المحاسبة، سيجدون حلّا بالتّأكيد.

حين غادرت قسم المحاسبة، كانت قد أمضت صكوكا وسندات كفيلة بإفلاسها. لم تكن المكتبة تدرّ من الأرباح ما يكفي لتغطي نفقات المصحّة المشطّة. لكنّها لا تملك حلّا آخر. كان عليها إخراجه من هناك على الفور. كفكفت دمعتين تدحرجتا على وجنتيها في صمت، ثمّ تناولت هاتفها في تصميم.

-رنيم، كيف حالك؟

حاولت السّيطرة على انفعالاتها وهي تقول:

-أحتاج إليك! أريد رفع قضيّة تحيّل على أختي!

***

دفعت كرسيّ والدها المتحرّك خارج المصعد، ومضت في الممرّ القصير حتّى مدخل الشقة (٤٠٤). تسافر إلى الماضي مرّة أخرى. بعد منزل والدها في ليون، تطوف ببقاع سكناها القديمة في باريس. لقد حسبت أنّها لن تجد مسوّغا لتدلف تلك البناية مجدّدا. لكن ها هي ذي!

حين اتّصلت برنيم وشرحت وضعها، أوصتها بالمرور على المكتب. كانت رنيم في القاهرة، لكنّها تحتفظ بنسخة من مفاتيح الشقة في مكتبها، ورئيسها المباشر جورج سيتكفّل بقضيّتها! جفّفت دمعها الذي انهال بلا استئذان أثناء المحادثة، وقد تملّكها الامتنان. كانت رنيم دائمًا في الخدمة، وكانت تعلم أنّ بوسعها الاعتماد عليها.

أدارت المفتاح في القفل ودخلت برفقة والدها الذي لا يكاد يعي حضورها. كان في ضباب من الذّهول معظم الوقت. جال بصرها في المكان في فضول وحنين وتركت العنان لفيض المشاعر يغمرها. كانت الأريكة العريضة التي استضافت مناجاتها ورنيم اللّيلية وسهرات الفضفضة الجماعيّة قد تغيّرت بأخرى ذات طراز حديث، واختفت لمسات سكينة التي تنضح شرقيّة وأمومة لتترك مساحة

لمزاج رنيم الثائر والعصريّ. كان المطبخ نظيفا والثلاجة فارغة، كما يليق بشقة خالية معظم الوقت، تهبط فيها رنيم اضطراريّا مرّة كلّ شهر بما تستوجب رسالة الدّكتوراه خاصّتها.

تنهّدت ثمّ قالت بابتسامة صغيرة تستدعي انتباه والدها، وهي تضع حقيبتها على الطاولة المنخفضة:

-ما الذي تريده على العشاء؟ سأطلب وجبة سريعة من المطعم القريب.

التفت حين وصله صوتها، لكنّ نظرته سرعان ما انطفأت. لم تكن واثقة من استيعابه أو اهتمامه. وكان يحزّ في نفسها ما آلت إليه حاله من تدهور. تنهّدت مرة أخرى، ثمّ تناولت هاتفها لتطلب العشاء.

ألقت نظرة على والدها السّابح في ملكوت آخر، ثمّ انسحبت إلى غرفتها القديمة. كانت قد غدت غرفة التّوأمين الآن، تملؤها الدّمى والألوان الزّاهية وتعلّق على جدرانها أعمالٌ فنيّة ذات طابع تجريديّ يجيده الأطفال دون الخامسة! ابتسمت وهي تجلس على طرف السّرير وقد

تذكّرت طفلها. إنّها تشتاق إليه أكثر من أيّ كائن على وجه البسيطة! إلّا أنّها اتّصلت بوالدتها أوّلا.

-لقد وصلنا إلى باريس.

-متى تعودين؟

-لا أعرف! أنتظر الاجتماع بالمحامي .. حتّى أعرف أكثر بشأن القضيّة.

-ماذا عن كمال؟ ماذا تنوين بشأنه؟

زفرت ياسمين، ثمّ قالت بلهجة صارمة:

-أظنني أحضره برفقتي.

شعرت بالغصّة في صوت فاطمة المضطرب:

-لم أكن أتوقّع منك أقلّ من هذا.. لقد أحسنت تربيتك، ولم تخيّبي ظنّي!

قاومت ياسمين رغبتها في البكاء، فقالت متصنّعة المرح:

-لا تقلقي، لن أتخّلى عنك أبدًا إذا مرضت!

لكنّ فاطمة أردفت بلهجة جادّة:

-غيرك كان ليودعه دار مسنّين ويرحل! والدك لم يَبرّك في صغرك ليستحقّ برّك في كبره!

سكتت ياسمين في حرج. لعلّ تلك الفكرة راودتها في وقت ما، ولو لجزء بسيط من الثانية، لكنّها طردتها على الفور. كانت تكلّف نفسها فوق طاقتها بتحمّلها نفقات المصحّة. لكنّها وجدت نفسها مدفوعة بطاقة خفيّة. ستفعل أيّ شيء ليستردّ الرّجل الفخور كرامته واعتداده بذاته.. وفوق ذلك صحّته وصفاء ذهنه. لم تكن قد يئست من أمره بعد.

أنهت اتّصالها بأمّها ثمّ اتّصلت بزهور. ملأ البشر وجهها حين ظهر وجه عزّ الدّين الصّغير على الشّاشة. إنّها تعرف من أين تستمدّ كلّ طاقتها التي لا تنضب! ذلك الكيان الذي لم يمض من عمره إلّا سنوات خمس هو مصدر سعادتها وقوّتها وشجاعتها!

-ماما، متى ترجعين من السّفر؟

-قريبا يا حبيبي، قريبا. أعدك ألا أتأخّر!

كان وجهه مستديرًا شديد الشّحوب، لا تخطئ العين بياضه غير المعهود، وشعره سبطًا رماديًا لامعًا، وفي عينيه الباهتتين شقاوة ومرح، لكنّ جسمه الهزيل لا يسمح بإطلاق العنان لروحه حتّى تمارس ما تهوى من مقالب. كان كثير المرض، تقسّم يومه مواعيد الأدوية المختلفة. وكانت تعزّي ذلك لولادته المبكّرة. لم يكتسب المناعة الكافية. جاء إلى العالم وهو لم يستعدّ لمواجهة مصاعبه بعد، وكان الأطبّاء يتوقّعون أن تسير الحال إلى الأفضل مع نموّه. لكنّها لا تلمح الضوء في آخر النّفق بعد. لذلك لم يكن يفارقها في أيّ وقت من اللّيل أو النّهار. كان ممنوعًا من اللّعب مع أقرانه، أو التعرّض الطّويل إلى أشعّة الشّمس، فكانت هي شريكة مرحه الدّائمة. أمّا ذلك السّفر المباغت فهو أوّل عهدهما بالتّباعد الطويل منذ مغادرته حضانة المشفى.

استمرّت في دردشة مرحة مع الطّفل الذي راح يحدّثها بكلّ تفاصيل يومه، قال في حماس:

-لقد طاردت الدّجاجات اليوم في السّاحة!

-حقّا فعلت؟

-نعم! لكنّها كانت تفرّ بسرعة.. لم أمسك أيّا منها!

-ألم أوصك بعدم الرّكض يا حبيبي؟ لم يكن عليك مطاردتها...

-لكنّني أردت ذلك!

قال في عناد وفي عينيه استياء واضح. تدرك رغبته مثل كلّ الأطفال في سنّه في الأشياء الممنوعة. لكنّ الممنوعات في حالته كثيرة، وتتجاوز قدرته على الاستيعاب. قالت ياسمين في ضيق:

-حبيبي، أين جدّتك؟

ما إن استلمت زهور الهاتف حتى سألتها ياسمين في قلق:

-كيف كان حاله اليوم؟

بدا على الجدّة التردّد، ثمّ قالت:

-لقد أغمي عليه عند الظهيرة.

شهقت ياسمين في جزع، فسارعت زهور تقول:

-ماذا أفعل لهذا الولد؟ لقد أصرّ على مطاردة الدّجاجات في الفناء، فتسارعت نبضاته واحمرّ وجهه حتّى كادت أنفاسه تنقطع.. كانت إغماءة قصيرة سرعان ما أفاق منها.

لم تكن تلك المرّة الأولى. لقد عرفت أوقاتًا من الهلع. كادت تفقد صوابها حين حدث ذلك أوّل مرّة، قبل أن يتمّ تشخيص حالته بقصور في عضلة القلب. لقد أصبح كلّ منهم يعرف كيف يتعامل مع حالات الإغماء المفاجئ التي تصيبه في كلّ مرّة يبذل فيها جهدًا زائدًا. تعرف زهور وعبد الحميد كلّ شيء يخصّ خطّته العلاجيّة وأيّ الأدوية يحتاج. لكنّها لم ترغب أن يحصل ذلك في غيابها.

قاطعها رنين جرس الباب فقالت على عجل:

-لقد وصل العشاء.. تناول أيضا عشاءك ثم اخلد إلى النوم!

واستمع إلى جدّتك، اتّفقنا؟

تبادلا قبلات طائرة عبر الأثير ثمّ أنهت الاتّصال.

-3-

مارس ٢٠١٦

صعد الرّبوة المخضرّة بخطى متمهّلة وهو يرمي بصره في أنحاء القرية المتناثرة دُورها على جانبي الجدول الذي يشقّها نصفين. خلّفه القطار على مبعدة بضعة كيلومترات، فاستقلّ سيّارة أجرة حتّى مركز البلدة. ثمّ قطع المسافة التي تفصله عن وجهته مشيًا. كان يحمل على ظهره حقيبته الجلديّة السّوداء التي تلازمه منذ سنوات، ولا تفارقه في رحلاته شمالًا وجنوبًا.

طالع العنوان المدوّن عنده، ثمّ تفرّس في معالم الشّارع الممتدّ أمامه. لم يكن يسعه أن يخطئه. شارع واحد عريض تتراصّ على جانبيه محلّات تجاريّة تسوّق بضائع من أنواع شتّى. ومكتبة واحدة، تتصدّر واجهتها لافتة تجلب النّظر «واحة الأندلس – مكتبة وفضاء ثقافي».

انتبه إلى الولد ذي السّنوات الخمس، يجلس قرب المدخل، يراقب الأطفال يلهون ولا يشاركهم. ابتسم، وهو يحدجه

بنظرة طويلة متأمّلة. كان فيه من الشّبه لأبويه، ولصورة قديمة يحتفظ بها على حائط مبكاه، ما يجعله مألوفًا على الفور. كان شعره الرّماديّ الذي يلمع مثل الفضّة تحت شعاع الشّمس مميّزًا ومغريًا باللّمس. اقترب بهدوء حتّى وقف إزاءه، ثمّ سأله:

-لماذا لا تلعب؟

ردّ الطّفل بلهجة حازمة تتجاوز سنّه:

-ماما تقول ألّا أبتعد عن المدخل.

-طفل مطيع! وأين هي ماما؟

-في الدّاخل.

أشار برأسه إلى واجهة المكتبة الزّجاجيّة.

فتح عمر حقيبته وأخرج صندوقًا من الكرتون، بحجم علبة حذاء. وضعه بين يدي الطّفل، فتساءل ببراءة:

-ما هذا؟

-افتح لنرَا!

بدا عليه التردّد لبرهة، ثمّ غلبه الفضول. فتح العلبة ليُخرج أجزاء طائرة مروحيّة مفكّكة، مع بطّاريات وجهاز تحكّم. بادره عمر:

-هل تريد أن تجرّبها؟

جلسا سويّا على الأرض، يركّبان القطع حتّى تماسكت خلال دقائق واستوت في شكل بهيّ. تأملّ الولد ألوانها البرّاقة وحلّتها الأنيقة مأخوذًا. بعد لحظات، كان عزّ الدّين يطيّر طائرته في السّماء، ويراقبها من مكانه وهي تحوم فوق رؤوس الأطفال المتناثرين في الشّارع، ثمّ تعود لتستقرّ عند قدميه.

-إنّها لك!

اتّسعت عينا الطّفل في امتنان وفير، ثمّ انشغل يشرح طريقة عمل طائرته لجمع الأولاد الذين تحلّقوا حوله في

اهتمام. لم يكن يحتاج أن يغادر موقعه ليحرّك الطّائرة، لذلك لن تغضب «ماما».

ابتسم عمر، ثمّ دفع دقّة باب المكتبة. أحدث دخوله رنينًا آليًّا لينبّه صاحبة المكتبة بقدوم زبون. كانت ياسمين ترتّب رفوف الكتب وترصف مقتنيات جديدة وصلت من العاصمة ذلك الصّباح. التفتت لتستقبل الزّبون القادم وهي ترفع صوتها بالتّحيّة:

-تفضّل، سأكون تحت أمرك خلال لحظات...

ثمّ سقط الكتاب من كفّها، واستمرّت تحدّق في الضّيف المقبل على حين غفلة من الزّمن. خطا عمر في اتّجاهها، والتقط الكتاب الذي استقرّ على الأرض. قرأ العنوان بصوت مرتفع:

-«ذاكرة للنّسيان»!

كان الموقف الغريب ذاته يتكرّر، للمرّة الثّالثة، ويسحب معه ذكريات قديمة لا تمحى رغم تقادمها. لقاءات المترو، ثمّ البيت الصّغير.. والآن، مكتبة في منطقة جبليّة نائيّة من

الشّمال التونسيّ. زفرت ياسمين الهواء العالق في رئتيها من الصّدمة، ثمّ تمتمت:

-عمر! كيف.. كيف وصلت إلى هنا؟

ابتسم وقال:

-لقد كانت رحلة طويلة!

قالت وقد وجدت الابتسامة طريقا إلى شفتيها:

-حمدًا لله على سلامتك.. ومرحبا بك في تونس!

ضحك في حرج، وهو يترك بين كفّيها ديوان محمود درويش. دسّته في موضعه على الرّفّ على عجل، وقالت:

-هل رأيت عزّ الدّين؟ كان يقف في الخارج...

ثمّ ابتعدت تنادي ولدها. زفر عمر في عصبيّة ما إن غابت عن بصره. كان موقفه عصيبًا. لم يكن يعرف بأيّ وجه ستلقاه. هل تعبس، وتلقي في وجهه التّهمة التي يعترف بها

دون مواربة: حرمانها من زوجها؟ أم تشيح عنه وتتجاهل حضوره، مثل كلّ الوجوه التي تذكّرها بألمها؟

لكنّها لم تفعل هذا ولا ذاك. خفّف استقبالها العفويّ والدّمث توتّره.

«لقد تغيّرت»، خمّن في صمت.

وكيف لها ألّا تتغيّر؟ كان آخر عهده بها في فستان زفافها الأبيض، والعالم لا يسع السّعادة التي تسكن صدرها! تفصلها عن تلك اللّحظة مأساة تصيب الفؤاد فلا يبرأ منها أبدًا. يشعر بروحها المرهقة، ويلمح بوضوح شبح الحزن الذي يسكن مقلتيها.

لقد تغيّر هو أيضا.

لقد كانت حياته تتابعًا لمرتفعات ومنحدرات حادّة ومتسارعة، حتّى لم يعد يفاجئه شيء. لكن رغم الهدوء النّسبي الذي يعيشه في هذه الفترة، فإنّ صدره مثقل بالهموم أكثر من أيّ وقت مضى. تلك الشعيرات البيضاء التي أخذت تزحف على فوديه تشي بذلك.

في تلك اللّحظة، دخلت فتاة شابّة وضعت حقيبتها على المنضدة واتّخذت موقعها في مكتب الاستقبال. سألتها ياسمين على الفور:

-نرجس، هل عزّ الدّين أمام الباب؟

-إنّه يلهو بالطّائرة.

-طائرة؟

تساءلت في استغراب، ثمّ هرعت إلى الباب وأفضت إلى الشّارع. حدّقت في ولدها الذي كان قد انغمس في لعبته، وتجمّع حوله أولاد الحيّ يشاركونه تسليته المميّزة.

سألها وهما يقفان عند المدخل، يتابعان حركات الأطفال أثناء لهوهم بالطّائرة:

-فتحت مكتبة إذن؟

أومأت بابتسامة وقالت:

-لقد كان ذلك مناسبًا لي.. أوقات عمل تسمح برعاية عزّ الدّين دون تقصير، وجمع العمل مع الهواية الأقرب إلى قلبي!

لم تسأل كيف عرف بشأن المكتبة، وكيف وصل إليها. كانت قد انطلقت في الحديث عن مشروعها الذي يغمرها حماسًا، حتّى أنّها غفلت عن تلك التّفاصيل الجانبية.

كانت المنشأة أكثر من مجرّد مكتبة. كانت قد اشترت البناء الواقع في طابقين. في الطّابق الأوّل، غرفة قراءة مفروشة بمقاعد وثيرة وإضاءة خافتة، لأجواء حميميّة وهادئة، وقاعة اجتماعات كانت تنشط فيها ندوات ثقافيّة ونقاشات أدبيّة لطلبة الثانوية بتنسيق مع مدرسة القرية والقرى المجاورة.. بالإضافة إلى ورشة حرف يدويّة وقاعة عرض. أمّا الطّابق الأرضيّ فيضمّ المكتبة الهائلة المكوّنة من أقسام عدّة: القرطاسيّة والأدوات المدرسيّة ثم الكتب العلميّة والأدبيّة المحليّة والعالميّة.

هزّ عمر رأسه في استحسان، فأضافت:

-لقد ادّخر هيثم –رحمه الله– مبلغًا كافيًا، استثمرت جزءًا منه في مشروع المكتبة.. الحمد لله، لم يضيّعنا الله.

أطرق إلى الأرض وابتسم في ارتياح. أن يعوّضهما عن غياب هيثم ولو قليلا، كان ذلك يملؤه رضا.

قال فجأة بلهجة مواسية:

-لقد عرفت بشأن البروفيسور سامي كلود.. كيف أصبح حاله الآن؟

رنت إليه في دهشة. لقد عرف والدها بالفعل، جمعهما اختصاص علميّ واحد، وتطلّع إلى اكتشاف لم يكتب له النّجاح. لكن هذا لا يفسّر وصوله المفاجئ ذلك الصّباح.

سارع عمر يقول شارحًا قبل أن تداخلها الشّكوك:

-لقد عرفت بما حصل من الأستاذة رنيم.

-آه.. بالتأكيد.

لم يخبرها بالتّفاصيل. مرّة أخرى، يهبّ للنّجدة، ولا ينتظر منها جزاءً ولا شكورًا. حين عرف بشأن دين المصحّة الذي تحمّلت ياسمين مسؤوليّته، قال على الفور:

أطرق إلى الأرض وابتسم في ارتياح. أن يعوّضهما عن غياب هيثم ولو قليلا، كان ذلك يملؤه رضا.

قال فجأة بلهجة مواسية:

-لقد عرفت بشأن البروفيسور سامي كلود.. كيف أصبح حاله الآن؟

رنت إليه في دهشة. لقد عرف والدها بالفعل، جمعهما اختصاص علميّ واحد، وتطلّع إلى اكتشاف لم يكتب له النّجاح. لكن هذا لا يفسّر وصوله المفاجئ ذلك الصّباح.

سارع عمر يقول شارحًا قبل أن تداخلها الشّكوك:

-لقد عرفت بما حصل من الأستاذة رنيم.

-آه.. بالتأكيد.

لم يخبرها بالتّفاصيل. مرّة أخرى، يهبّ للنّجدة، ولا ينتظر منها جزاءً ولا شكورًا. حين عرف بشأن دين المصحّة الذي تحمّلت ياسمين مسؤوليّته، قال على الفور:

-سأتواصل مع المصحّة لسداد المبلغ في الحال.. وستبلغينها بأنّك توصّلت إلى تسوية مع شركة التأمين.

لم تعترض رنيم، لقد تعوّدت التّغطية على المبالغ التي ينفقها على ياسمين وعزّ الدّين بشكل لا يثير الرّيبة. وهل كانت تتوقّع غير ذلك حين اتّصلت؟ لقد أوصاها بإبلاغه بأخبار أرملة هيثم وولده وتعهّد برعايتهما ما أمكنه ذلك. ولم يكن في تلك الحال يقدر إلّا على الرّعاية الماليّة.

-لقد أصبح بحال أفضل الآن. حين جئت به، كان...

ابتلعت عبرتها وتنحنحت ثمّ عادت تقول بصوت متحشرج:

-لقد عرف أيّاما عصيبة.. لكنّها أصبحت وراءنا الآن.

لم يكن قد شفي من الانهيار العصبيّ، لكنه بدأ يتفاعل مع محيطه بشكل أفضل. كانت ترافقه في جولة عبر الحقول كل مساء. تدفع كرسيّه المتحرّك على الجزء المعبّد من الطّريق حتّى تشرف الشّمس على الغروب، فترجع أدراجها. وكان عزّ الدّين يرافقها، يراقب الفراشات وهي تخفق بأجنحتها الهشّة،

ويقطف باقات من الأقحوان وشقائق النّعمان، بينما تتحدّث هي دون توقّف عن كلّ الأشياء التي تشغل بالها: التعامل مع المزوّدين وشركات التّوصيل من العاصمة، الرّحلات المدرسيّة التي تأتي إلى المكتبة، الدّورات التدريبيّة التي ترغب في الاشتراك بها، وحالة عزّ الدّين الصحيّة التي تشغلها أكثر من أيّ شيء آخر.

لعلّها تحدّثت إليه في الأسبوع المنصرم أكثر ممّا فعلت في حياتها كلّها!

-هل يمكنني زيارته؟

-بالتأكيد. دعني أشرح للموظّفة بعض الأمور وأرافقك إلى البيت...

قاطعها بسرعة:

-هل يمكنني المجيء بعد العصر؟

-لا بأس.. تعرف كيف تجد المنزل؟

أومأ علامة الإيجاب.

-إنّها قرية صغيرة، سأجد من يرشدني.

كان قد جاء مباشرة إلى القرية. قرّر المرور بالمكتبة أوّلا وقبل أيّ شيء. بعد اللّقاء، يمكنه أن يقصد الفندق. كانت المدينة على مسافة نصف ساعة. سيستحمّ ويأخذ قسطا من الرّاحة، ثمّ يعود.

ما إن ابتعد عن المكتبة، حتّى توقّفت سيّارة أجرة عند الرّصيف وبادره سائقها:

-تحتاج توصيلة؟

أومأ شاكرًا، ثمّ ركب إلى جواره.

-أنت غريب عن المنطقة؟

-نعم، جئت لزيارة بعض الأصدقاء.

-ستحبّ طبرقة.. إنّها تبدو في أجمل حللها في هذا الوقت

من السّنة!

جاراه عمر بابتسامة، وسرحت نظراته عبر النّافذة. لقد وافقت الطّبيعة المحيطة به هواه. لم يكن المكان يختلف إلّا قليلا عن الرّيف السّويسريّ الذي يعشقه. سهول خضراء على مدّ البصر تصل ما بين الجبال البعيدة والسّاحل الصّخريّ، وقرى متفرّقة ذات أسقف قرميديّة حمراء، وقطعان ماشية ترعى في حرية.

فكّر أن اتّصال رنيم كان الإشارة التي انتظرها، لينطلق من مكمنه مثل سهم أطلقه قوس مرنٌ إلى البعيد، بلا إرادة حرّة.

لم يكن مستعدّا لتلك الرّحلة، رغم ملازمة الفكرة له منذ أمد. كان يخطّط للزّيارة، منذ غادر السّجن. لكنّه لم يجد الوقت المناسب أبدًا. ليس هناك وقت مناسب لمواجهة الماضي العصيب وفتح بوّابات الحسرة على مصراعيها. كان محتّما عليه أن يراهما، إلّا أنّه في قرارة نفسه كان يدرك أنّه لا يستحقّ ذلك «الشّرف»!

كان يتحضّر إلى الألم، والحنين والإحساس بالذّنب. أليس ذلك ما يغذّي أيّامه ولياليه منذ الحادثة الأليمة؟ لكنّ ذلك

اللّقاء القصير خلّفه مرتاحًا مطمئنًا.

لقد شحنه بقدر من السّعادة حسبه غير ممكن لشخص مبتلى مثله.

-4-

تعالت طرقات على باب المنزل القرويّ، قبيل السّاعة الخامسة عصرًا. كانت شمس الأصيل قد خفّت وطأتها وامتدّ ظلّ شجرة الياسمين ليشمل فناء الدّار حتّى منتصفه. سارع وائل يفتح الباب للزّائر، ثمّ قاده إلى غرفة الجلوس الواقعة يمين المدخل مباشرة.

أطلّت ميساء من شبّاك المطبخ المسدلة ستائره، فأبصرت عمر وهو يسير وراء أخيها إلى مجلس الرّجال. قالت بنبرة شكّ وهي ترفع طفلها الذي لم يبلغ الأشهر الثلاثة:

-ما الذي جاء بعمر الرّشيدي إلى هنا.. بعد هذه السّنوات؟

استمرّت زهور تحرّك القدر على النّار في صمت، في حين قالت ياسمين في هدوء:

-لقد عرف بشأن والدي، فجاء لزيارته.

كان ذلك السّبب المعلن حتّى ذلك الوقت، لكنّه لم يقنعها

بشكل كافٍ، فضلا عن إقناع ميساء التي ترى المؤامرة في كل ما يحيط بها.

كانت ياسمين قد رجعت إلى المنزل بعد انتهاء مناوبتها الصّباحيّة، وتركت لمعاونتها الشّابة نرجس الاهتمام بالمكتبة حتّى ساعة الإغلاق في السّابعة مساءً. لكنّ الشّكوك في داخلها تمتدّ لها جذور وفروع. لقد تساءلت، منذ الصّباح، عمّا جاء به. حتّى أنّها تركت الطّائرة في المكتبة، رغم إلحاح عزّ الدّين، حتّى لا تتعرّض إلى الإحراج. لكنّ قلبها ينقبض رغمًا عنها، بلا سبب.

في الصّالة، جلس عمر في توتّر قبالة والد هيثم وشقيقه الأصغر وزوج شقيقته. كان قد تجهّز منذ زمن لتلك المواجهة، لكنّه ما زال يضطرب خشية. أحنى رأسه في وجوم وقال بصوت عميق:

-لقد تأخّرت في الاعتذار منكم، وتقديم واجب العزاء في هيثم رحمه الله!

دمعت عينا عبد الحميد، وتمتم بصوت مرتجف:

-رحمه الله!

ما زالت ذكرى الفقيد تثير شجونه وتحيي ألم الفراق. أردف عمر:

-لقد كان هيثم رجلا بألف، لم أعرف أحدًا في نبل أخلاقه ورفعة طباعه. ولا أشكّ في أنّه كان ابنًا بارًّا وسندًا لأشقائه وأهله جميعًا...

ارتفع نشيج وائل هذه المرّة. لقد كان طفلا حين رحل شقيقه الأكبر منذ خمس سنواتٍ. لم يحظ بصحبته وقتًا كافيًا. لقد غدا شابًّا الآن، وقد تمنّى لو جمعتهما ذكريات أكثر وأوقات صفاء وتناغم أغزر.

-ولعلّي قد عرفت منه جانبًا لم يطّلع عليه أحد منكم.. وأشعر أنّ من واجبي أن أحدّث بسيرته العطرة، حتّى يخلّد ذكره بما يليق به...

أنصت ثلاثتهم في اهتمام. لم يكن أحدهم يعرف عن نشاط الفقيد أكثر ممّا ردّدته وسائل الإعلام الفرنسيّة في ذلك الحين. أمّا في أعينهم، فقد كان شهيدًا وكفى. لكنّ التّوق

إلى الاطّلاع على التّفاصيل كان يسكن أفئدتهم وتعتمل في نفوسهم تساؤلات لا حصر لها، عمّا كان، كيف ومتى وأين.

أخذ عمر يتحدّث، وأصغوا إليه في خشوع، كأنّ على رؤوسهم الطّير.

عادت ميساء إلى المطبخ بعد أن سلّمت زوجها صينيّة الشاي، وعلى وجهها تعبير غريب.

-الأجواء في الدّاخل ثقيلة ومربكة!

حدّقت فيها ياسمين في فضول، فأضافت ميساء بصوت خفيض:

-أظنّهم يتحدّثون عن هيثم...

بالتأكيد. وهل يمكن للقاء كهذا ألّا يمتدّ إلى رفع الحجاب عن الحادثة الغامضة؟ ودّت ياسمين لو تكون في الغرفة معهم. ولم تشكّ قطّ في أنّ الرّغبة ذاتها كانت تعتمل في صدر زهور وميساء.

امتدّت الجلسة بالدّاخل زهاء السّاعتين، ثمّ خرج عمر إلى الفناء وبرفقته عبد الحميد ورمزي زوج ميساء.

-ألا تبقى لتشاركنا العشاء يا بنيّ؟

اعتذر عمر في حرج، رغم إلحاح الرّجلين. قال عبد الحميد بلهجة حاسمة:

-ستعود لزيارتنا مرّة أخرى!

ابتسم عمر في تأكيد. لم يكن يمانع، بعد أن تبدّدت رهبة المواجهة الأولى.

تدخّل رمزي:

-أوصلك إلى الفندق إذن.

حاول عمر أن يعتذر مرّة أخرى، لكنّ الرّجل أصرّ وأقسم.

-لن تجد نقلا بسهولة في هذه السّاعة إلى طبرقة.

أومأ عمر في تسليم، ثمّ قال:

-أودّ إلقاء التحيّة على البروفيسور كمال قبل ذهابي.

أشار عبد الحميد إلى الباب المقابل ثمّ سبقه بخطوتين. كانت تلك غرفة ميساء في وقت سابق، قبل زواجها. وقد خصّصت لكمال عبد القادر منذ مجيئه برفقة ياسمين قبل أسبوعين. ولم يكن كمال يفارق تلك الغرفة قطّ، إلا حين تصحبه ياسمين في جولة مسائيّة إلى الحقل القريب.

خطا عمر إلى الغرفة الغارقة في الظلام في رهبة، ثمّ ألقى التّحيّة. تحرّك الجسد الرّاقد على السّرير استجابة إلى الصوت. اقترب عمر أكثر، حتّى صار على مبعدة خطوتين من الرّجل. كان وجهه حليقا وشعره مهذّبا، وتفوح منه رائحة عطر رجالي أنيق. فكّر عمر أنّه لا شكّ يلقى رعاية بالغة، لكنّه بدا هرمًا إلى درجة لا تصدّق. قال بلهجة ودودة:

-بروفيسور سامي، أنا الدكتور عمر الرّشيدي.. هل تذكرني؟

كان قد عرفه بذلك الاسم في محيط العمل البحثيّ: «سامي كلود». لكنّه يعود ليكون «كمال عبد القادر» بالنّسبة

إلى المقرّبين. تحرّكت عينا الرّجل ببطء حتّى استقرّتا على وجه عمر، ثمّ انحنت شفتاه في ما يشبه الابتسامة الشّاحبة، كأنّما قد تعرّف إليه، ورفع كفّه بضعة إنشات يردّ التحيّة. جاء صوت ياسمين من ورائه في بهجة:

-يا إلهي، لقد ابتسم!

استدار عمر في دهشة. قالت حين صارت عند قدمي والدها:

-لقد أحرز تقدّما منذ مجيئه.. يلتفت عندما أكلّمه، وإن كان لا يعبّر كثيرًا. لكنّه عابس معظم الوقت، لا يحتمل الضوضاء، وينزعج من ضوء الشّمس، لذلك يمضي سحابة يومه في العتمة، ولا أخرجه إلّا حين يقترب الغروب.. لكنّني أراه يبتسم للمرّة الأولى.

عادت نظرات عمر لتحدّق في الرّجل في صدمة. إن كان ذلك ابتسامًا، فلا شكّ أنّ الوضع كان كارثيّا حقّا. أضافت ياسمين شارحة:

-ما زال فاقدًا للنطق. أحرص على تناوله دواءه، رغم أنّه قد

يكون سيء المزاج ويرفضه.. لكنّني أعتقد أنّه يحرز تحسّنا ولو طفيفا كل يوم. وهذا يكفي لأحتفظ بالأمل...

هزّ عمر رأسه في تفهّم.

-هل يأخذ حصص علاج طبيعي؟

-عفوا؟

-إنّه لا يتحرّك، لذا فإنّ عضلات قدميه وساقيه سيصيبها الخمول لطول الكسل، مثل أيّ جهاز مركون وغير مستعمل. حين يستعيد قدرته على المشي يجب أن يكون جاهزًا...

أدركت ياسمين أنّه يتحدّث عن تجربة. أومأت شاكرة:

-لقد حصرت تفكيري في علاج الانهيار العصبي.. أظنّه كان يحظى بمتابعة في المصحّة، وسأحرص على استمراره في العلاج الطبيعي. شكرا لك.

بعد مغادرته برفقة رمزي، هرولت ميساء نحو والدها، وسألت بفضول:

-ها، ما الذي جاء به؟

تبادل الجميع نظرات حائرة، ثمّ قال عبد الحميد الذي جالسه لساعتين:

-ربّما إذا عاد في الغد عرفنا.

***

كانت لديه خطّة واضحة لنهاره الثّاني في طبرقة.

المزرعة الواقعة فوق الرّبوة كانت تبدو مناسبة على الصّور، وقد أكّدت الزيارة حدسه. كان قد طالع بعض العروض على موقع الوكالة العقاريّة، لكن تلك المزرعة كان فيها شيء مميّز، فقرّر أن يبدأ يومه بها.

كان المنزل الرّيفيّ يحتاج إصلاحًا كثيرًا، لكنّ ذلك لا يخيفه. سيتمكّن من المفاصلة واقتناء العقار بسعر زهيد، ثمّ بوسعه تشكيل المكان حسب ذائقته. وكان ذلك يغمره حماسًا. أنهى جولته بين البناء الحجريّ العتيق وإصطبلات المواشي الخالية والحقل الذي نبتت فيه الحشائش حتّى

كادت تفوق قامته، ثمّ رافق صاحب المزرعة إلى مكتب الوسيط العقاريّ.

قال الوسيط وهو يضع أمام الرّجلين الوثائق:

-سنوقّع اليوم وعدًا بالبيع، في انتظار أن يؤمّن الأخ عمر المبلغ كاملا في زيارته المقبلة.

هزّ عمر رأسه في استحسان، بينما بدا على صاحب المزرعة التململ:

-تعلم أنّك لن تجد سعرًا مماثلًا في المنطقة كلّها! إن تأخّرت في الدّفع فسأضطر إلى وضع المزرعة للبيع من جديد.. عليها طلب مرتفع، لكنّني في حاجة إلى المال الآن. أفضّل من كانت لديه سيولة، لذلك...

قاطعه عمر بسرعة:

-أتفهّم ذلك.. لا تقلق، سأعود خلال أسبوع واحد ومعي المبلغ.

كان يحتاج بعض الوقت لتحويل المبلغ من بنكه السّويسريّ إلى بنك محليّ، ثمّ استخراج صكّ مصدّق لإتمام عمليّة الشّراء. وقّعا على الوثيقة، وتصافحا معلنين إتمام الصّفقة، ثمّ انصرف الرّجل الخمسينيّ. عندئذ قال الوسيط العقاريّ مثرثرًا:

-لقد امتنع الشيخ عبد المجيد عن البيع طيلة حياته، رغم أنّ أولاده قد هجروا القرية إلى العاصمة. لقد ظلّت المزرعة متروكة لوقت طويل، حتّى توفّاه الله.. وبعد وفاته اختلف الإخوة. بعضهم يريد احترام رغبة والده والإبقاء على المزرعة، والبعض الآخر يريد البيع والخلاص من العقار الكاسد. لذلك لبثت مهملة لسنوات، حتّى اتّفقوا أخيرًا على التّفريط فيها بالبيع. الأخ الأكبر الذي كان معنا يريد إرسال ابنه للدّراسة خارج البلاد، لذلك يستعجل إتمام الصّفقة.. أقول هذا لتعلم أنّك لن تجد سعرًا مماثلًا في كلّ المنطقة! لن تتأخّر في العودة، أليس كذلك؟

كرّر عمر وعده:

-أسبوع كأقصى تقديرا!

سأله الوسيط في شكّ:

-ماذا عن المشتري؟ هل يشرّفنا بالزّيارة بعد أسبوع؟

كان القانون التّونسيّ يمنع الأجانب من تملّك العقارات الفلاحيّة، لذلك وجب عليه تسجيل العقد باسم مواطن تونسيّ. وكان يقدّم نفسه إلى الوسيط على أنّه موكّل من طرف تونسيّ مقيم خارج البلاد. قال عمر بهدوء:

-لا تقلق، سيكون في الموعد.

لم يكن صاحب المزرعة المستعجل الوحيد. كان عمر يحتاج إلى الاستقرار في المنطقة في أسرع وقت. يريد أن يكون قريبًا. لقد استنفد الكثير من الشّجاعة ليقدم على تلك الزّيارة. أمَا وقد اتّخذ قراره، فلا مجال للتردّد. كان ينوي المكوث في طبرقة لبضعة أيّام ريثما يعاين بعض العقارات المعروضة للبيع، ويقع اختياره على أحدها. لكنّه لم يتوقّع أن يجد ضالّته بتلك البساطة.

خطا خارج المكتب، ثمّ استدار متطلّعا إلى آخر الشّارع. هناك تقع المكتبة. كانت قرية صغيرة، وكلّ الخدمات تتوفّر

في ذلك الشّارع الرّئيسيّ ذاته: مكتب العقارات الوحيد في المنطقة، والمكتبة الوحيدة، بالإضافة إلى الحلاّق والسبّاك والكهربائيّ وعيادة التمريض...

ابتسم في سرور حين أبصر الولد ذا الشعر الرّصاصيّ يقف عند الباب، مثل الأمس. راقب الولد بنظرة حانية. لم ينتبه إلى لون شعره الغريب والمميّز في الصّور التي ترسلها رنيم. كان يبدو أسود حالكا، يلمع تحت الإضاءة. وكانت بشرته البيضاء حليبية باهتة، توحي بعلّة في جسده. لم يدرك الأمر قبل لقائه يوم أمس.

امتلأ صدره شفقة وعطفا. كان يحتاج أن يهرع إليه على الفور، يحتضنه بين ذراعيه، يمسّد على شعره النّاعم ويستنشق رائحته الطفوليّة العطرة.. يحتاج أن ينفّس عن طاقة أبوّة مكبوتة نشأت داخله فجأة! ويكفّر عن ذنب يعذّبه تجاه الولد الذي حرم من والده بسببه.

في لحظة صفاء نادرة، أدرك أنّ قدره أن يكون أبًا بديلًا لذلك الطفل اليتيم!

قبل أن ينفّذ أيّا من ذلك، فُتح باب المكتبة وظهرت

ياسمين. سمعها تناديه «عزّ الدّين»، ثمّ تهمس بكلمات إضافيّة لم تصل إلى أذنيه. لاحظ حرصها على مناداته باسمه الكامل: ليس عزّ، ولا عزيز، ولا عزّوز، كما يحلو لجدّيه مناداته من حين إلى آخر. كأنّ نسبته إلى الدّين أمر مصيريّ، أو احترام لذكرى والده الذي اختار اسمه.

رفعت بصرها، كأنّما انتبهت إلى وجوده. رفع كفّه بالتحيّة ثمّ مشى متمهّلا حتّى صار قبالتها.

-كيف وجدتَ طبرقة؟

-مدهشة!

-إنّها كذلك.

كان يجب أن تكون كذلك. حتّى إن لم تكن، فهي تبدو مدهشة في عينيه، لأنّه يريدها كذلك. يراها موطنه الجديد، وهو رجل يختار وطنه. مثلما انتقى منذ أكثر من سنة ضاحية لوزان في الرّيف السويسري مستقرّا له، فإنّه اليوم يختار ريف طبرقة، من أجل أهلها. ولعلّ ياسمين قد أحبّت طبرقة، لا لشيء إلّا لأنّها مسقط رأس زوجها الرّاحل!

بعض الأماكن تدخل القلب، فقط لأنّ أرواحًا عزيزة تنتمي إليها.

-عمّي عبد الحميد في انتظارك، يريد أن يصحبك في جولة حول القرية...

-هلّا اعتذرت منه عنّي؟ لقد اضطررت إلى اختصار الرّحلة، وعليّ السّفر إلى لوزان هذا المساء!

-آه! بهذه السّرعة؟

-لكنّني سأعود في وقت قريب، وسأزوركم مجدّدا إن شاء الله.

هزّت ياسمين رأسها في تفهّم، فقال عمر وعيناه معلّقتان بالطّفل الذي يقف عند الباب باستكانة:

-أمامي بعض الوقت قبل العودة إلى الفندق.. هل تسمحين لي باصطحاب عزّ الدّين إلى محلّ البقالة؟

ظهر في عينيها التردّد. قرأ فيهما رهبة وضيقا وقلقا غير

مفسّرين، وقد حزّ ذلك في نفسه. هل كانت تخشى على ولدها منه؟ أردف في فتور:

-إن كنت تمانعين، فلا بأس...

-لم أقصد ذلك.. لكن عزّ الدّين طفل حسّاس. لعلّك لاحظت أنّني لا أسمح له باللّعب مع الأولاد الآخرين. إذا ركض أو سقط أو دفعه أحدهم أو اصطدم بشيء، فإنّ حالته قد تسوء! لا أستطيع تركه دون مراقبة، وأفضّل أن يكون دائمًا برفقة شخص يفهم طبيعة مرضه...

اتّسعت عيناه في دهشة وإشفاق. كان يدرك أنّ الولد عليل، لكنّه لم يتوقّع أن يكون الوضع بتلك الخطورة.

-إن كنت تريد قضاء بعض الوقت معه، يمكنك المجيء إلى المكتبة.

ربّت على رأس الولد بخفّة ثمّ أهداه كفًّا مفتوحة:

-هيّا بنا يا صديقي!

احتضن عزّ الدّين أصابع عمر بكفّه الصّغيرة وسار إلى جواره بابتسامة عريضة إلى داخل المكتبة. كان قد تعرّف إلى الرّجل الذي أهداه الطّائرة بالأمس. انتحى عمر ركنًا من الفضاء المفتوح حيث مقاعد القراءة المتاحة للزوّار، ثمّ انتقى قصّة من جناح الأطفال، وجلس يقرأ لعزّ الدّين، ومن حين إلى آخر تنطلق ضحكات مكتومة من حلقيهما.

راقبتهما ياسمين من موقعها عند مكتب الاستقبال بطرف خفيّ. لم تكن تستوعب حتّى اللّحظة سبب زيارة عمر غير المتوقّعة ورحيله المفاجئ بعد ليلة واحدة! لا يمكنها أن تصدّق مجيئه لمجرّد عيادة والدها، فما جمعهما لم يكن سوى معرفة عابرة. ولا تقتنع بأنّه قد تكبّد عناء الرّحلة ليقدّم عزاءً متأخّرًا لعائلة هيثم، وإن كان هذا السّبب أقرب للتّصديق.

سرحت نظراتها إلى آخر الشّارع عبر الواجهة الزّجاجية. هل كان يقف منذ حين عند مكتب العقارات، أم لعلّها واهمة؟

حين خلت بنفسها في غرفتها ذلك المساء، اتّصلت ياسمين برنيم. كانت اتّصالاتهما قد تكثّفت في الفترة الأخيرة، منذ رحلتها إلى فرنسا. كانت رنيم تطلعها على مستجدّات القضيّة، وتكفيها مؤنة التّواصل مع مكتب المحاماة.

استعذبت أن تكون رنيم همزة الوصل بينهما، رغم عدم قدرتها على مباشرة القضيّة بنفسها.

-رسالة الدّكتوراه تأخذ كلّ وقتي! أحاول أن أنهي البحث خلال سنة من الآن على أقصى تقدير.. لذلك لا أجد وقتا للمرافعات والتردّد على قاعة المحكمة.

-أتفهّم ذلك.

-لكن كوني واثقة، جورج هو أفضل شخص قد تضعين قضيّتك بين يديه -بعدي أنا بالتأكيد!

ضحكت ياسمين بخفوت:

-أنا واثقة من اختيارك.

-سارة رفضت استلام استدعاء المحكمة، لكنّها ستضطر إلى الحضور.. وإلا حوكمت غيابيّا!

-متى تبدأ المحاكمة؟

-الجلسة الأولى تكون يوم الاثنين القادم.

زفرت ياسمين تنفّس عن توتّرها. إنّها لا تحبّذ فكرة تحويل المشاحنات العائليّة إلى قاعات المحكمة. لكن لا خيار لديها أمام تعنّت أختها.

-هل من تحسّن في حالة والدك؟

تهلّلت أسارير ياسمين وقالت بحماس:

-لقد ابتسم بالأمس!

هتفت رنيم تجاوبًا مع نبرة صديقتها المستبشرة:

-هذا رائع!

-هل تعلمين لمن يرجع الفضل؟ لن تصدّقي هذا: عمر الرّشيدي!

صاحت رنيم في السّماعة:

-عفوا؟

-نعم، عمر الرّشيدي كان هنا بالأمس!

سكتت رنيم في صدمة. كانت الأفكار تتدافع في رأسها في تشوّش. حسنًا، عليها الآن أن تبحث عن تفاصيل تسدّ بها ثغرات الحكاية. لكنّها لا تعرف «الحكاية» التي أخبر بها عمر ياسمين، فأيّ ثغرات ستسدّ بالضبط؟ فسكتت.

-قال أنّه عرف منك.. بشأن والدي.

-نعم، بالفعل. لقد تحدّثنا الأسبوع الماضي، و.. أخبرته عن والدك، في معرض الحديث.

-لا بأس بذلك، أعني.. كان لطفًا منه أن يتكبّد عناء السّفر.

لاذت رنيم بالصّمت مرّة أخرى. كان الحديث حقل ألغام، وكلّ كلمة قد تفجّر فخّا.

سألت ياسمين في فضول:

-ما زلتما تتحادثان؟

-ليس كثيرًا.. أعني قد يتّصل كلّ فترة وأخرى.

-ما زال يقيم في فرنسا؟

-استقرّ في سويسرا منذ مغادرته السّجن. لكن.. لديه مسائل مالية عالقة في باريس.

-فهمت.

لم يكن شرحًا دقيقًا، لكنّها لا تملك الإلحاح. تلك مسائل عمل ربّما تقع تحت غطاء سريّة المعاملات التي تجمع المحامي بموكّله. لكنّ ياسمين أدركت أنّ رنيم لا تعرف شيئا عن سرّ زيارة عمر.

وأدركت رنيم أنّ عمر لم يعد يكتفي بالرّعاية السريّة عن بعد.

-5-

حين وصلت مساء الأمس، لم يكن عمر في البيت.

جاءت مدبّرة المنزل البرتغاليّة في الصّباح. حيّتها بِلُغتها حين صادفتها في المطبخ، ثمّ انصرفت إلى أشغالها مثل العادة. لم تكن تبادلها الكثير من الحديث.

حين تزوّجت عمر وسكنت هذا المنزل، كانت المدبّرة قد سبقتها بشهور. لم يكن من المريح أن تتنقّل سيّدة غريبة في أرجاء بيتها بحريّة، وهي كانت تشعر بضيق مستمرّ مثل كلّ سيّدة مشرقيّة أصيلة نشأت على تدبير شؤون مملكتها الخاصّة بنفسها وتتوق إلى خدمة زوجها بتفانٍ. لكنّها لم ترغب في إحداث تغيير في نظام المنزل منذ البداية، ولعلّها بعد مرور بعض الوقت، استعذبت الحصول على مساعدة تفرّغها لمهامّ أخرى. تعرف «لويزا» ما عليها فعله، وأيّ الحدود الخاصّة بأهل البيت لا يجدر بها تخطّيها. تعي كيف تكون شبه خفيّة، فلا يتقاطع طريقها مع صاحبة المنزل إلّا نادرًا. تدلف من المدخل الخلفيّ، وتنساب بخفّة رغم وزنها الزّائد بين الغرف، ثمّ تنسحب بعد أن تلقي بصوتها الحادّ:

-هل تحتاجين شيئا منّي سيّدتي؟

وحين تقول آية في امتنان: «شكرًا يا لويزا، يمكنك الانصراف»، تسحب لويزا الباب خلفها برفق وتذهب.

دخلت غرفتها وأخذت تفرغ الحقيبة التي تكاسلت عنها مساء الأمس في شرود. عادت من زيارة والدها في «بون» لتجد المنزل خاليًا. لا تعرف إلى أين ذهب عمر، ولا إن كان سيعود اليوم. لم تحاول الاتّصال، ليس بعد. ربّما تفعل إذا استمرّ غيابه. لكنّها ستكون مستعدّة لاستقباله إذا رجع في أيّ وقت.

لقد اختارت زوجها بنفسها، وقليل ما تحظى الفتاة بفرصة كهذه: أن تشير إلى والدها، فيخطب لها! لقد كانت جرأة منها. حسبت أنّها إن أمسكت بزمام الأمور ورتّبت أمر ارتباطها فستكون سعيدة.

اختارت رجلًا فريدًا، عالي الهمّة، قويّا في الحقّ، مستعدّا للتّضحية من أجل مبادئه وقناعاته. لقد تابعت قضيّته على الشّاشات مثل كلّ النّاس، وشدّتها عباراته القويّة وحضوره

الطّاغي. وفي لحظة ما، أخذ الحلم يداعبها. كيف لامرأة سويّة أن تتمنّى زوجًا سجينًا؟

لقد كان زواجها منذ وعت على الدّنيا «مشروع العمر»، وليس في ذلك ما يعيبها. إنّ النّفوس العظيمة ترى الفرص في كلّ خطوة، وتستحضر النّيات الخالصة في كلّ عمل. ولم يكن هناك من إنجاز يستحقّ إخلاصها وشغفها أكثر من بناء بيت مسلم قوامه التقوى والثّبات والالتزام بقضايا الأمّة.

كانت تطمح أن تسمو إلى مصافّ المجاهدات، مثل نساء غزّة الباسلات اللاتي تأتيها حكايا ملاحمهنّ البطوليّة، أولئك السيّدات اللاتي انتظرن شريك العمر لعقود حين غيّبته السّجون. لم تكن حكايات طفولتها تشبه قصص الخيال الاعتياديّة التي تستجدي فيها الفتاة عديمة الحيلة انتباه الأمير الوسيم! بل نشأت على نغمات قصص حبّ خالدة، كانت فيها المرأة فاعلا لا مفعولا به. وقد أحبّت أن تنسج قصّة بطولتها الشّخصيّة، فجعلت عمر مشروعها وتذكرة عبورها!

لقد حذّرها والدها من مغبّة الترقّب والتعلّق بالآمال البعيدة، لكنّها رضيت بانتظار عمر، مهما طال غيابه عنها. أربع

سنوات كانت تُعدّ شيئًا يسيرًا، فعمّتها رقيّة التي تعرّفت إلى زوجها أثناء فترة اعتقاله، لم تره خارج السّجن أبدًا! وتلك قصّة عجيبة أخرى ما تنفكّ تثير دهشتها.

كانت رقيّة قد سمعت عن بطلها من أخته التي كانت صاحبتها. كان قد أسر أثناء تنفيذه عمليّة دهس ضدّ جنود الكيان المحتلّ، وحكم عليه بالسّجن المؤبّد ثلاث مرّات، بعدد الجنود الذين قتلهم! صار بطلا تمجّد ذكره الألسن، فأعجبت به قبل أن تراه. وهي كانت شابّة حالمة تراودها خواطر المقاومة والجهاد. فاستأذنت أهلها وأخذت تراسله، في محاولة منها لرفع معنويّاته. بدأ الأمر كمهمّة إنسانيّة نبيلة، ثمّ تحوّلت تلك المراسلة إلى شيء أعمق وأمتن من كلام عابر بين غريبين. خلال سنوات، أصبحت رسائله شغلها الشّاغل، حتّى وجدته يومًا يحدّث أهله ويطلب خطبتها!

كان من الجنون أن ترتبط برجل لا أمل له في الخروج من وراء القضبان، لكنّها وافقت! كان الإعجاب، الذي اشتعلت جذوته عبر الكلمات المخطوطة على الورق، متبادلا. تطلّب عقد القران شهورًا لإدخال الورق إلى سجون الاحتلال ثمّ إخراجه حاملا توقيع الأسير، لتزوره لأوّل مرّة بعد شهور أخرى، وتنظر إليه وجهًا إلى وجه، وقد صار زوجها، ويتبادلا

المحابس! تحكي أنّها حين التقت عيناها بعينيه شعرت بتلك الشّرارة التي تسمّى حبّا. لم تكن قد رأته قبل ذلك إلا في الصّور، وقد خشيت أن يكون اللّقاء الأوّل على غير ما تأمل. لكنّ الحديث المباشر لم يكن إلّا طمأنينة وسكينة، فازداد تمسّك أحدهما بالآخر.

أمّا الإنجاب فتلك مسألة أخرى: لم يكن هناك أمل في علاقة زوجيّة طبيعيّة، فحاولا أكثر من مرّة تهريب النّطف خارج السّجن، وذلك شكل حديث من أشكال المقاومة! بعد تجاوزها سنّ الأربعين، لم تنجح محاولات عمّتها في إنجاب طفل يؤنس وحدتها في انتظار إطلاق سراح معجز لوالده. لكنّها ما زالت تداعب الأمل، وتستمرّ تعمل بمفردها على تشييد منزل الزّوجيّة الذي قد يظلّل سقفه يومًا رأسيهما معًا.. وقد لا يفعل أبدًا.

كانت آية تحلم، وتتمنّى أن يمتلئ بيتها وعمر أطفالا تربّيهم على فكر المقاومة وقضيّة الوطن السّليب. وكانت في جعبتها حكايات كثيرة ترويها عن بطولات أسلافها، لتملأ خيالهم قوّة وعزيمة. لكنّها فشلت في كسب فؤاد الرّجل الذي رهنت سعادتها بالفوز به.

لقد حسبت أنّها رأت الشّرارة بينها وبين عمر في لقاءاتهما الأولى. لكنّ الرّجل الذي غادر السّجن كان مختلفًا عن ذاك الذي دخله! هل كانت رقيّة لتشعر بالاختلاف ذاته، لو أنّ زوجها الذي تعرفه من خلال الرّسائل والزّيارات القصيرة يأتي أخيرًا ليعيش إلى جوارها؟ هل تُغيّر الحريّة المسلوبة طعم الحياة إذا استعيدت؟ وكيف يتأقلم الحرّ مع العالم المفتوح بعد أن ضمّته الجدران الضّيّقة لسنوات وعقود؟

لشدّ ما أرّقها ذلك. لقد فعلت ما بوسعها، أعطت بكلّ جوارحها ولم تبخل، لكنّه لم يحبّها كما أملت، وكما تستحقّ. ما زال قلبه يتفلّت من بين أناملها، ويراوغها. إنّها أنثى في نهاية الأمر، ومهما وطّنت نفسها على التّضحية والصّبر، فإنّها هشّة من الدّاخل. كانت تتوق إلى اهتمامه وانتباهه، لكنّها لا تحظى منه سوى بالشّرود والحضور الباهت.

لعلّ بطل المقاومة ليس زوجًا مثاليًّا.

لعلّه لا يعرف كيف يحبّ، ولا يريد أن يتعلّم.

لعلّه يعجز عن الشّعور بالحبّ.

لعلّه بارد الطّبع متبلّد المشاعر.

بعد مغادرته السّجن، كان عمر شخصًا آخر لا تعرفه. ذلك التّواصل العميق الذي حسبته يربطهما تلاشت خيوطه الوهميّة فما عادت تشعر بها. لكنّه استمرّ في ترتيبات الزّواج التي انقطعت مع حادثة الاغتيال. استأنف كلّ شيء كأنّ سجنًا لم يكن. وخلال وقت قصير، كانت تنتقل عروسًا إلى بيته. لقد عرفت منذ ظهر في فناء منزل والدها في «بون» أنّ هناك خللا ما. غير أنّها أجّلت معاينة الوضع حتّى يجمعهما سقف بيت واحد. حسبت أنّها ستكون قادرة على احتواء ألمه وهي بالقرب منه. لكنّ سنة مرّت على زواجهما، والمسافة بينهما لا تتقلّص ولا تتمدّد. إنّها مسافة ثابتة بين غريبين يتشاركان الفضاء المعيشيّ ولا يتحادثان إلا لضرورة.

لعلّها أخطأت التّقدير في فورة حماسها. لم ترد زوجًا عاديًّا، مشاغله عاديّة تنحصر في تحصيل الرّزق ورعاية الزّوجة والأولاد، فتزوّجت رجلا حياته معقّدة وهمومه لا حصر لها. كانت تعرف أنّه يفكّر باستمرار في مسائل مبهمة، لا يصارحها بها. كلّما حاولت اقتحام عالمه قابلها بالتحفّظ والصّدود. وهو يحتاج الوحدة غالبًا ليعالج الأمور الهامّة التي تشغله. كانت تجلس إلى جواره لساعات، فلا يكاد ينتبه لحضورها وأفكاره

تحلّق بعيدًا في ملكوت مجهول.

وقد كانت تذكّر نفسها باستمرار بواجبها تجاه القضيّة، حتّى تستمرّ حياتها بلا منغّصات. إنّها أكثر شخص يجدر به التفهّم والمساندة. لقد كان عليها أن تأخذ بيده، تكون له الأمّ والزّوجة والصّديقة. لقد بذلت قصارى جهدها خلال السّنة الماضية، لكنّها ما تزال تلمح نظرة الشّرود والغياب في عينيه. قرّرت أنّها ستصبر، وستحتسب أجرها عند الله. لن تتذمّر من جفائه وتباعده، وستجعل عملها خالصا لوجه الله. لقد كان الزّواج ميدان جهادها، وستستمرّ فيه بكثير من الجلد ونكران الذّات.

سافرت إلى «بون» لزيارة والدها منذ أسبوع.

لقد طلب منها عمر الرّحيل.

تلك حقيقة موجعة. بعد كلّ محاولاتها، عرض عليها أن يسرّحها.

لقد تمالكت نفسها أمام والدها، رغم ما تكتمه من براكين في صدرها. لم تقل شيئًا عن سبب زيارتها، وكتمت أمر

خلافاتها وزوجها. أقامت إلى جواره أيّامًا قليلة، تثرثر كثيرًا وتبالغ في إظهار الحماس تجاه حوادث الحياة البسيطة، كأنّما تدفن أحزانها تحت طبقات من الادّعاء. وحين فاض بها الكيل، عادت أدراجها إلى «لوزان». تعرف أنّه لن يأتي إليها، وأنّ استمرار غيابها سيسهّل عليه السّلوى والنّسيان، كأنّها لم تكن يومًا. قرّرت أنّها ستعود إليه، وتواجهه بقلب عارٍ.

لكن ما إن سمعت صرير الباب الرّئيسيّ وهو يفتح، حتّى سارعت ترتّب هيئتها أمام المرآة، تهذّب خصلاتها المنسدلة على كتفيها وتمسح عن مقلتيها آثار الدّمع.

-حمدا لله على سلامتك!

التفت عمر إلى زوجته الشّابة التي جاءت تستقبله ببسمة رائقة ووجه منطلق، كأنّ شيئا لم يكن. لم يتوقع عودتها سريعًا. ربما ودّ لو ينتهي من تنفيذ خطته قبل أن تحاول ثنيه عن عزمه.

لم يكن قد مضى على زواجه سوى سنة واحدة.

كان حفلا بسيطا جمع المقرّبين من العائلتين. جاءت عائشة

وأبناؤها وشقيقه الأكبر من المغرب. وجاء والد آية وأخوالها من ألمانيا، وعقد القران في الفناء الخلفيّ لمنزله الريفي في ضاحية «لوزان».

لم يكن يرغب بالزّواج. تلك حقيقة واضحة يدركها بينه وبين نفسه، ولا يفضي بها إلى أحد.

لقد نجحت آية في وقت مضى في تغيير رأيه بشأن الارتباط، فخطبها. كان ذلك قبل أن ينهار عالمه ويفقد صاحبه، ويواجه حكمًا جديدًا بالسّجن قصم ظهره. كانت تجربة الحبس المتكرّرة تختلف عن السّنتين السّالفتين. كان الانكسار الثّاني كافيًا لتختنق رغبة الحياة في صدره. وهو لم يكن يريد أن يظلم آية. غير أنّها كانت في انتظاره لأربع سنواتٍ كاملة. وأيّ عذر يقدّمه ليفكّ ارتباطه؟ إنّ أيّ تراجع سيكون خيانة وخذلانًا. لن تتفهّم آية ولا عائلتها حتّى لو فتح صدره أمامهم ليعاينوا ركام الحطام الذي بداخله! كان عليه أن يتمّ تلك الزّيجة مهما كلّفه ذلك، ولو كان على حساب سلامته وسعادتها! تلك مسؤوليّة لا مناص من تحمّلها، ليضيف وزنًا إلى أثقال روحه المكبّلة.

بدأت حياته الزّوجيّة متعثّرة. كانت آية شخصيّة حيويّة

ومرحة، سرعان ما غيّرت فضاء المنزل واقتحمت كلّ تفاصيل حياته، وهو رجل تعوّد الوحدة سابقًا، وازداد توحّده خلال الحبس. لم يكن يقصد البرود تجاهها. لكنّها رغم غزارة عاطفتها لا تستوعب الوجع الذي يسكن فؤاده، ولا القلق الذي يقضّ مضجعه، ولعلّها تضيق ذرعًا بسكونه المبالغ فيه وعدم تجاوبه مع مشاعرها الفيّاضة. تبدّت تلك الاختلافات الجليّة بين طباعهما منذ الأيّام الأولى، وكانت محاولاتها المستمرّة لسحبه خارج قوقعته تزيد من انكماشه.

كان يدرك أنّه قد خذلها.

لم يعد الرّجل الذي حلمت أن يشاركها حياتها. لم تعد تراوده طموحات علوّ الهمّة ونصر الأمّة. كان خاليًا من الآمال، مترعًا بالخسارة. اكتفى منذ استقراره في ضاحية لوزان بحياة الدّعة والأمان. ولم يكن يرغب في تغيير ذلك. كان إحساس الفقد الذي سكن قلبه لا يبرحه. ولم يكن يريد أن يتجرّع الكأس حتّى الثّمالة. يكفيه ما ذاقه.

وكانت تتناهى إليه نهنهة بكاء تصدر عنها ليلا، حين تحسبه قد غاب في سديم الحلم. فيضيق صدره وتختنق أنفاسه. لقد كان السّبب في تعاستها. ولم يكن يملك من الكلمات ما

يواسيها. يقتله الإحساس بالذّنب، ويثقله عجزه عن عمل شيء.. أيّ شيء، ليخفّف وطأة خيبتها.

ورغم ذلك التّباعد بينهما، كانت آية تتوق إلى بناء أسرة. لعلّها حسبت أن وجود طفل بينهما سيعيد إلى روحه نضارتها ويردم الهوّة التي تفصلهما. ولعلّ الطّفل يشغلها ويصرف وحشة نفسها في ظلّ الصّمت الذي يهيمن على جلساتهما معظم الوقت. وقد كان امتداد إرثه على الأرض من خلال الخلفة أمرًا ينعش فؤاده. لكنّه لم يكن مستعجلا. لم يكن هناك من داعٍ للقلق بشأن الإنجاب. معظم الأزواج يمضون سنة وأكثر قبل أن يمنّ الله عليهم بالحمل. الأطفال رزق، وهو يؤمن بأنّ رزقه آتٍ لا محالة.

لكنّ خاطرًا ملحًا ظلّ يلازمه، وكان عليه أن يجري الفحوصات الضّروريّة ليبدّد شكوكه أو يؤكّدها.

حين غادر عيادة طبيبه منذ أسبوعين، كان أوّل ما خطر بباله أن يسافر إلى نهاية العالم، ويعيش باقي أيّامه وحيدًا في معزل عن النّاس. لقد حسب أنّ الأسوأ قد غدا في الماضي. لكنّ قدره كان يخبّئ المزيد من الابتلاءات. قبل أن يفرّ إلى آخر الدّنيا، كان عليه أن يواجه شريكة حياته التي

تقاسمه القدر.

جلس ذلك اليوم أمام الطبيب الذي انكبّ على جهازه يطالع نتائج الفحوصات بجديّة. حين رفع عينيه قرأ عمر في ملامحه الإجابة بوضوح قبل أن ينطق بها:

-الحروق التي في جسدك، لم تكن سطحيّة. درجات الحرارة العالية أتلفت جزءًا من خلايا الجسم، وعطّلت عمل بعضها الآخر.

كان يدرك الحقيقة في قرارة نفسه. لقد شعر بها. تملّكه الوعي بها في مرحلة ما، بعد أن كانت مجرّد شكوك تساوره من حين إلى آخر، منذ انفجار المختبر.

ماذا لو...؟

كان سؤالًا جديرًا بالتوقّف عنده. لكنّه كان يستعيذ بالله من وساوس الشيطان. لماذا يفترض الأسوأ؟ يطردها من رأسه، ثمّ ما تلبث أن تتسلّل إليه في هدأة الليل. ربّما تسرّع بالإقدام على الزّواج. ربّما كان عليه أن يفصل في المسألة قبل ذلك. لكن سبق السّيف العذل. قال بهدوء غريب:

-هل أنا عقيم يا دكتور؟

تمهّل الطّبيب، يبحث عن كلمات مناسبة لإعلان الخبر:

-للأسف. حدوث الحمل الطبيعي مستحيل.. ونسبة نجاحه بالتّلقيح الصّناعي ضئيلة!

هل ضحك عمر حينها؟

لعلّ ضحكة عصبيّة متشنّجة فارقت حلقه. لقد كان راضيا بكلّ ما أصابه حتّى ذلك الوقت، وسيدرّب نفسه على الرّضا بهذا القدر الجديد. سيحتاج بعض الوقت، لكنّه سيفعل. لكن ما ذنب آية في كلّ هذا؟ لقد رضيت بالكثير. رضيت بما فيه الكفاية، اختيارًا لا اضطرارًا. لقد انتظرت خروجه من السّجن أربع سنوات بكامل إرادتها. طلب منها أن تنسى أمره، لكنّها لم تستمع. سيقول كفى هذه المرّة. لا يمكن أن يدعها تستمرّ في التضحية بسبب قدره هو.

لقد اتّصلت رنيم بعد يومين من رحيل آية إلى «بون». كانا قد تشاجرا قبل أسبوع، وطلب منها الرّحيل. قال أنّه سيسرّحها، لكنّها رفضت. تختلط المشاعر في صدره. آلمه

إصرارها وأراحه في آن. لم يكن يريد أن يظلمها، ولم يكن يودّ خوض تجربة الفقد والانفصال المريرة.

حين صارحها بما عرفه، راقب ملامحها في اهتمام. لقد دمعت عيناها، لم تُخفِ حزنها. احتضنت وجهها بين كفّيها وبكت. ثمّ سكنت وهدأ روعها. قالت أخيرًا في هدوء:

-يمكننا أن نحتضن طفلا من المخيّم!

لم يصدّق تقبّلها للأمر بتلك البساطة.

كان يكفل عددًا من أطفال مخيّم اليرموك منذ سنوات، العشرات منهم. ما يزال يتواصل مع أبي الحسن ويرسل مساهمته في رعاية الأطفال، رغم انفراط عقد أبناء المخيّم وتفرّقهم في الأرض، بعد أن قصف مخيّمهم ودمرّ أثناء الحرب السّوريّة. لكنّه ما يزال يتحدّث عن المخيّم ويتمثّله في ذهنه قائمًا شامخًا كما تركه في زيارته الأخيرة.

لكن الاحتضان؟ أن يربّي طفلا تحت سقف بيته، يضمّه تحت جناحه ويصطبح على وجهه البريء كلّ يوم؟ نعم، يسعه ذلك. لكن ماذا عنها؟

كانت شابة في مقتبل العمر، وكانت لترغب في الأمومة بلا شكّ، إن لم يكن الآن فبعد حين. حتّى إن نجحت في إخفاء شوقها إلى طفل تحمله تسعًا وترضعه حولين، فلا يمكنه أن يتحمّل عبء حرمانها من ذلك. قد لا تلومه الآن في فورة حماسها، لكنّها قد تفعل في المستقبل. قد تحجب عنه ندمها، لكنّها ستحزن في أعماقها. ستذوي روحها وتذبل، وقد تكرهه حين يكون قد فات الأوان!

قال بصرامة:

-اجمعي حاجاتك، سآخذك إلى «بون».

رفضت في إصرار، وهجر أحدهما الآخر في عناد. استمرّت الحرب الباردة خمسة أيّام بلياليها لم يتبادلا خلالها سوى النظّرات: العتاب من جانبها والقسوة من جانبه. ثمّ رضيت بالسّفر على مضض لتمنحه مساحة للتفكير. قالت أنّها لن توافق على الانفصال. وعدته بالعودة. ولم يعرف كيف عليه أن يتقبّل وعودها، بالسّرور أم الأسى؟

حين اتّصلت رنيم، كان غارقًا في مستنقع الحيرة والحزن. كان سُكون ثقيل وبغيض قد ران على المنزل منذ رحيلها.

حين أنهى الاتّصال، كانت فكرة واحدة قد سيطرت على تفكيره. إن كان سيرعى طفلا، فسيكون عزّ الدّين.

قال وهو يشير إلى الأريكة في غرفة المعيشة:

-تعالي فلنجلس.

لقد افترقا على خلاف ولعله قسا عليها كثيرًا. لكنّ موقفه لم يتغيّر. قال شارحًا:

-لقد كنت في تونس.

رفعت حاجبيها في استغراب، فأردف:

-زرت عائلة هيثم رحمه الله.

انبرت تقول في ارتياح:

-حسنًا فعلت! لقد كان هذا العبء يثقل كاهلك.. لا شك أنك تشعر بتحسّن الآن.

أومأ موافقا، ثم أضاف:

-لقد فكرت في موضوع الاحتضان، وأدركت أنّك محقة...

فاجأها انتقاله إلى موضوع آخر، لكنّها لم تمانع. لعلّ زيارته إلى تونس ساعدت على ترتيب أفكاره.

-أرغب في احتضان عزّ الدّين، ابن هيثم رحمه الله.

حدّقت في وجهه في دهشة.

-ماذا بشأن عائلته؟ هل يوافقون؟

-لم أفاتحهم بهذا الشأن بعد.

-أعني.. كيف يمكن أن تفرّقه عن أمّه؟

-لن أفعل بالتّأكيد!

-إذن.. كيف تحتضنه؟ ألن تحضره إلى هنا؟

تنحنح ليجلو صوته، ثمّ قال:

-أفكّر أن أذهب أنا إليه.

سكتت تحاول استيعاب ما يقوله.

-تذهب إليه؟ تفكّر في الإقامة بتونس؟

-ليس بشكل دائم. لا يمكنني تصفية أعمالي في سويسرا. بوسعي التنقل بين هنا وهناك.

-وماذا عنّي؟

جاء دوره ليغرق في صمت طويل. كان قد عرض عليها الانفصال، ولا يحسب احتضانه لعزّ الدّين يغيّر في الأمر شيئا. ما زال يعتقد أنّها تستحقّ التنعّم بهبة الأمومة، وحرمانها من حقّها فيها ذنب يثقل ضميره. لكن هل يسعه إرغامها على تركه؟ لقد بالغ في صدّها قبل سفرها إلى ألمانيا، لكنّ ذلك لم يفتّ من عضدها. ألا يكون نذلا إذا أهانها أكثر من ذلك وجرح كرامتها؟

هتفت وعلى وجهها علامات الفجيعة:

-أم أنّك تفكّر في الزّواج من أمّ الولد؟!

رفع رأسه مبغوتًا، كانت نظراتها المليئة بالرّيبة تكاد تترك ثقوبًا في صفحة وجهه.

هل ينكر أنّه قد فكّر في الأمر؟

ليس بادئ الرّأي.

حين سافر، لم يكن يطمع في أكثر من الصّفح، والقبول بتواجده حول عزّ الدّين. لكنّ حفاوة الاستقبال وكرم الخلق جعلاه يرغب في المزيد. ثمّ، أليس دخوله حياة الطّفل يعني التّعاطي مع أمّه طيلة الوقت؟ ألا يفترض المنطق أنّ اجتماع ثلاثتهم تحت سقف واحد أأمن للطفل وأكثر استقرارًا وراحة؟ إنّه يريد لهما الأمان والطمأنينة، ويودّ أن يشاركها حمل مسؤوليّتها الثقيلة.

لكنّها لن تقبل.

لقد كان يؤمن، منذ زمن، أنّه لا يصلح للزّواج. لقد حاول مرارًا ترميم ذلك الشّرخ في روحه، لكنّ الدّمار بداخله عميق. وها هو يصطدم بجدار الحقيقة بعد سنة واحدة من عمر زواجه. لم يكن عليه أن يغامر. والآن بعد أن ظلم المرأة الماثلة أمامه تنخر قلبه بنظرات الاتّهام، كيف له أن يظلم أخرى؟ تلك جريمة لا تغتفر.

ثمّ، ياسمين لن تقبل.

هل أنّ خوفه من الرّفض هو ما يمنعه من المحاولة؟ إنّه سيكون صادقًا وصريحًا، كما كان دائمًا. لم يُخفِ قطّ ندوبه العميقة وتلك التي تطفو على سطح جلده، ولن يبدأ الآن. لكنّه يخاف أن يُفسد كلّ شيء. إنّه سيكتفي بأن تسمح له برعاية عزّ الدّين، أن يحمل عنها جزءًا من الثّقل، يسدّ وظيفة الأب ولو بدوام جزئي. سيكون ذلك كريمًا، ومجزيًا، وأكثر ممّا يستحقّ.

لكن في الحقيقة، لم يكن أيّ من ذلك ذا أهميّة. لم يكن يخشى الرّفض لعيب يخصّه، بل ليقينه أنّ ياسمين لن تتزوّج ثانية بعد هيثم. أليست إقامتها مع والديه منذ رحيله إشارة كافية؟

انتبه إلى الوجه الدّامع الذي يرقبه عن كثب. هل كانت أفكاره مقروءة على صفحة وجهه؟

قال أخيرًا مترفّقًا:

-اهدئي.. لن يحصل شيء من هذا.

-لكنّك فكّرت في الأمر، أليس كذلك؟ لقد خطّطت لكلّ شيء، وتريدني خارج حياتك الآن!

هل يمكنه أن ينكر؟ هذا ما يبدو عليه الوضع تمامًا. لكن وهي تصوغه بالكلمات بتلك اللهجة المنكسرة، يشعر لها مثل خناجر تضرب صدره. قال بصوت مرهق:

-آية، أنت تستحقين الأفضل.

ردّت بلهجة ملتاعة:

-وأنا اخترتك أنت!

-أخشى أن تندمي حين لا ينفع النّدم.

-لن أفعل!

-أنت لا تعرفين يقينًا. ما زلت شابّة، ومن حقّك أن تكوني أمًّا، والبقاء معي يعني إنكارك لغريزة فطرك الله عليها.

-كفى يا عمر، أرجوك. أنت تجرحني برفضك!

زفر في إعياء. لقد كان منهكا من الرّحلة، ومن التّفكير، ومن عنادها، ومن مشاعره المتضاربة.

-لا أريد أن تكرهيني يومًا ما.

-لن أفعل، أعدك!

انتهى الجدال عند ذلك الحدّ. قال في استسلام:

-سأعود إلى تونس خلال أيّام، لأنهي صفقة شراء المزرعة. حين أنتهي من إصلاحها، هل تودّين الذّهاب معي لرؤيتها؟

-لا شيء أحبّ إليّ من ذلك!

وابتسمت ابتسامة المنتصر.

-6-

قادت ياسمين سيّارتها الصّغيرة عبر طرقات القرية عائدة من رحلتها الأسبوعيّة إلى المدينة. كانت تمرّ على المزوّدين المحلّيين لتقتني ما ينقص مكتبتها من أدوات، وتغتنم الفرصة لتزور المدارس الثانوية والإعداديّة التي تحرص على إقامة علاقات دائمة مع مسيّريها، لتضمن استمرار النّشاط الثقافيّ في فضائها الخاصّ. أمّا مؤخّرا، فقد ازداد جدول أعمالها مشوارًا إضافيًا. كانت تصطحب والدها إلى عيادة إعادة التأهيل، لتدليك ساقيه وتدريبه على المشي من جديد.

اتّصلت سارة منذ يومين. اكتشفت فجأة أنّ أختها تعرف رقمها! وإلا فكيف حصلت عليه؟ ربّما سجّلته عندها في وقت سابق ولم تفكّر قطّ بالاتّصال بها؟ لكنّها اتّصلت، لا شكّ بعد أن وردتها الدّعوة لحضور جلسة المحكمة. قالت بلهجة مهادنة:

-يمكننا أن نتوصّل لاتّفاق، أنت تريدين نصيبك من الميراث، أليس كذلك؟ ما رأيك في نصف رصيده في البنك، وتسقطين

الدّعوى؟

شعرت ياسمين بتوعّك شديد ورغبة في القيء. صرخت في انفعال:

-هل تقسّمين إرث والدك وهو على قيد الحياة؟! أيّ وقاحة هذه؟

-إنّه عاجز، وغائب عن العالم.. لا فرق بين حياته وموته!

أشعلت لا مبالاتها فتيل غضبها، لكنّها سيطرت على الحمم المتّقدة في صدرها وقالت ببرود:

-ستعيدين كلّ سنتيم سرقته، وسترضخين لحكم المحكمة!

عندئذ، هاجت سارة واستولى عليها توحّش غريب. نزعت عنها قناع البراءة وأنشأت تشتم بأقذع الألفاظ، حتّى اضطرّت ياسمين إلى إنهاء الاتّصال، كي لا تجاريها في سباق السّباب!

وضعت هاتفها وهي تلهث. إنّها لا تصدّق أنّ تلك أختها! لقد

كان والدها ينقد بحدّة تربية إيلين لولديها. لم يكن قطّ راضيا عن سلوكهما، لكنّه قصّر في لعب دور الأب وآثر الانسحاب. اكتفى بدور المتفرّج، حتّى سُحب دون رغبة منه إلى ساحة المعركة.

تساءلت ياسمين فجأة: هل يكون لإيلين دور في تلك الخطّة الانتقاميّة؟

بعد سارة، اتّصل ريّان. صارت تتعرّف إلى تلك الأرقام الدّولية وتردّ دون تردّد. أخواها يتّصلان فجأة وقد أدركا أخيرًا أنّ لهما أختًا ثالثة، بعد أن لجأت إلى القضاء ليفصل بينهم.

-ليس من اللائق أن يتواجه أفراد العائلة الواحدة في المحاكم!

يحاول ريّان أن يلعب دور الوسيط، لكنّ انحيازه جليّ. عن أيّ عائلة يتحدّث؟ عن ابنة تنهب أموال أبيها وتلقي به في مصحّة؟ وعن ابن متواطئ يتستّر عليها، وربّما يشاركها جريمتها؟ قالت في حدّة:

-فلترجع ممتلكات والدنا، وسأسحب الدّعوى على الفور!

قال في ضيق:

-تعيدها لمن؟ إليكِ؟ أنت الوصيّة على أمواله الآن؟

سكتت. صارت المسألة نزالا بينها وبينهما. أحدهم سيضع يده على ممتلكات والدهم باسم الوصاية. لعلّهما لا يثقان بها، لكنّها لا تثق بهما كذلك. لديها دوافع قويّة. لقد كان سليمًا قبل أن يتسبّبا في دخوله حالة الانهيار تلك. قالت بهدوء:

-لن أسمح بعودته إلى فرنسا قبل أن تتحسّن صحّته. لن أكون وصيّة إلا إذا أمرت المحكمة بذلك، وليس من حقّ أحدنا أن ينفق سنتيمًا واحدًا من ماله الخاصّ. فلتُعد سارة كلّ ما استحوذت عليه. هذا ما لديّ.

-كوني عاقلة يا ياسمين، لقد انتهى أمره.. وسارة سترث مثلنا جميعًا، ما الضّرر في قبضها ميراثها قبل الأوان؟ إنّه لا يملك أن يفيد منه شيئا في الوقت الحالي.

قاومت رغبتها في إغلاق الخطّ مرّة أخرى، ثمّ قالت بما

تملك من رباطة جأش:

-فلنتواجه في المحكمة إذن!

توقّفت حين لمحت نرجس الموظّفة لديها تجدّ في مشيها على جانب الطّريق. أطلقت بوق السّيارة لتلفت انتباهها، ثمّ أشارت إليها أن تصعد في الخلف. قفزت الفتاة الشابّة لتحتلّ المقعد الخالي، وأخذت تثرثر في حماسة. كانت الفتاة العشرينيّة تذكّرها بنفسها، حين سافرت أوّل مرّة إلى فرنسا. فتيّة ونشطة. لقد فقدت تدريجيّا جذوة الحماس تجاه العالم والنّاس.

أمام صمت ياسمين ووالدها، أمسكت الشّابّة بزمام الحديث على امتداد الرّحلة.

كان الأحد يوم راحتها الأسبوعيّة، وكانت تمضيه في التبضّع مع صديقاتها، أو التسكّع على الكورنيش، أو في زيارات عائليّة. وغالبًا ما كانت ترجع إلى المكتبة بحصيلة ثريّة من الحكايات، من الشّائعات المنتشرة في القرية، وأخبار السّياسة والفنّ، وفضائح المشاهير.

وكانت ياسمين المنغلقة على ذاتها تستمع إليها بصبر ونصف تركيز، لا تنهرها ولا تصغي إليها إلا بنصف عقل. كانت تعلم أنّ الفتاة قد تركت مقاعد الدّراسة قبل أن تنال الشّهادة الثّانوية، وهي في ذلك لا تختلف كثيرًا عن معظم فتيات القرية. لذلك كانت ياسمين تترفّق بها، وتدفعها بلطف إلى توسيع أفقها عن طريق الكتب التي تهديها إيّاها للقراءة مساءً.

-لقد بيعت المزرعة المهجورة الواقعة أعلى الرّبوة! تعرفين عمّا أتحدّث؟

أومأت ياسمين وأصدرت همهمة خافتة تعلن متابعتها للحكاية الخامسة التي تفضي بها نرجس خلال عشر دقائق، بينما لا تفارق عيناها الطّريق. أردفت الفتاة:

-لقد بقيت المزرعة متروكة ومهملة منذ سنوات، لأنّها مسكونة! لم يكن أحد يجرؤ على الدّخول إليها. أهل القرية جميعهم يعرفون القصّة.. لا أحد منهم كان ليقدم على اقتنائها. بيعت الأسبوع الماضي برخص التّراب. يقولون أنّ من اشتراها غريب!

قالت ياسمين تجاريها:

-غريب؟ من المدينة؟

-بل غريب عن البلاد! أجنبيّ! من بلد عربيّ شقيق إن شئت الدّقّة.

-آه!

همهمت ياسمين في دهشة، لم تكن تدرك أنّ من حقّ الأجانب التملّك في البلاد.

تقول نرجس بلهجة الخبير العارف:

-المسكين، لقد خدع. أغراه الثّمن البخس، ولم يدرك الفخّ الذي وراءه! أحسبه يعود ليبيعها بعد برهة قصيرة، حين يستوعب أنّها لا تصلح للسّكنى ولا للفلاحة. الأشباح التي تسكنها لن تهدأ أبدًا.. وحينها سيشتريها منه أصحاب الأرض مرّة أخرى، بأقلّ ممّا باعوه، وسيقبل مضطرًا.. ثمّ يعيدون الكرّة مع مغفّل جديد!

ابتسمت ياسمين في إشفاق، لا على المشتري المسكين، بل على الفتاة السّاذجة التي تصدّق قصص الأرواح والأشباح. ما زال الشّباب في تلك القرية يمضون أمسيات الصّيف تحت أشجار الزّيتون والتّين والخوخ، في حصص تحضير الأرواح المزعومة! وما زالوا يتناقلون في إثارة قصص الكنوز المدفونة في عمق البراري ويأتي ليستخرجها ساحر مغربيّ قادم من رحلة بعيدة عبر جبال الأطلس، بمساعدة عفريت من الجنّ!

توقّفت السيّارة أمام المكتبة، فنزلت نرجس لتتولّى فتحها، بينما استمرّت ياسمين حتّى المنزل لتقلّ والدها. أخرجت الكرسيّ المتحرّك من صندوق السيّارة، ثمّ ساعدت الرّجل المستسلم على الانتقال من مقعده. كانت تشعر بوزنه يثقل في كل مرّة. قالت مداعبة:

-أنت تأكل جيّدا هذه الأيّام.. أرى وزنك قد ازداد!

تستمرّ في مخاطبته، كأنّها تتوقّع ردًّا لا يأتي. كان ما زال غارقًا في صمته. قال الطّبيب أنّه لا يعاني من علّة جسديّة. مرضه نفسيّ بحت، وهي لم تشكّ في ذلك قطّ. غير أنّ مفاتيح العلاج النّفسيّ لا تُدرك بسهولة. أضافت وهي تدفع

الكرسيّ عبر الفناء الدّاخليّ:

-سارة لم تحضر جلسة الأسبوع الماضي.. لقد أجّلت الجلسة، لكنّها لا تستطيع التهرّب إلى الأبد. لا بدّ للمحكمة أن تنطق بالحكم.. حتّى في غيابها...

تناهت إليها أصوات رجاليّة من وراء باب الصّالة المغلق. توقّفت هنيهة، ثمّ واصلت إلى الغرفة المقابلة. ساعدت والدها على اتّخاذ مجلسه المعتاد على السّرير وقالت:

-سأنظر ماذا لدينا على الغداء وأعود إليك.

أشار برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، فأومأت وهي تسحب الوسادة الإضافيّة ليتيسّر له الاستلقاء.

-حسنًا، الغداء لاحقا إذن.

أغلقت الباب بهدوء ومضت إلى المطبخ. قالت وهي ترفع الغطاء عن الطّنجرة وتستنشق الأبخرة الشهيّة:

-لدينا ضيوف؟

أجابت زهور وهي ما تزال منهمكة في تقطيع الخضار:

-عمر الرّشيدي هنا.

رفعت حاجبيها ولم تعلّق. ألقت في فمها قطعة خيار طازجة وأخذت تلوكها ببطء. إذن لقد عاد. ربّما يعرفون هذه المرّة سرّ زيارته. انسحبت إلى غرفتها حيث كان عزّ الدّين يلهو بهدوء بمكعّبات التّركيب. رفع رأسه بابتسامة عذبة عند دخولها، ثمّ عاد إلى مكعّباته. جلست إلى جواره وقال برقّة:

-كيف كان يومك؟

-جيّدًا.

أجاب باقتضاب دون أن يرفع عينيه عن اللعبة.

لبثت ترقب في حسرة طفلها الذي تعلّم الهدوء والسّكون عنوة، وتخلّى عن طبيعة الطّفولة بسبب مرضه.

لم يكن يغادر تلك الغرفة إلّا لمرافقتها إلى المكتبة، أو الحقل. لم تعد تسمح بخروجه إلى الفناء في غيابها منذ

طارد الدّجاجات. وتلك الغرفة المفروشة بالبسط بشكل كامل والمحاطة بالوسادات الوثيرة من كل جانب صمّمت خصيصًا لضمان سلامته. وكانت تشفق على حرمانه من شقاوة الأطفال ومرحهم، وتشعر بالألم كلّما رغب في شيء لا يمكنها تحقيقه.

غيّرت ثيابها على عجل ثمّ انضمّت إلى زهور في المطبخ. جهّزتا وجبة الضّيافة ثمّ جاء عبد الحميد ليرفعها على صينية. وضعت في طبقين منفردين نصيبًا من المرق واللحم ودخلت غرفة والدها. أيقظته من غفوته القصيرة، ثمّ جلست وإلى جوارها عزّ الدين، وأخذت تطعم كليهما، مرّة تضع اللقمة في فم والدها وأخرى في فم ولدها، وهي لا تتوقّف عن الحديث. تعيد في مرح نصيبًا مما علق في ذهنها من أحاديث نرجس، وتمازح الطفل بشأن ألعابه وقصصه المفضلة.. فإذا ما فرغت، أحضرت طشت الماء والصابون وغسّلتهما، ثم انسحبت من الغرفة لتترك والدها في عزلته وسلامه.

كانت تنهي تجفيف كفّيها حين تناهى إليها صوت انغلاق الباب الخارجي. تنهّدت؛ لقد رحل الضيف. قالت وهي تربّت على رأس ولدها:

-هيا بنا يا صغيري، هناك عمل ينتظرنا.

حين خرجت إلى السّاحة، كان عبد الحميد وزهور يتحادثان وعلى محيّاهما أمارات الجديّة.

-لقد جاء يطلب منّي أن يكون طرفًا في رعاية عزّ الدين.

هتفت ياسمين في تحفز:

-ماذا يعني ذلك؟

-يريد أن يكون قريبًا من الولد ويمضي بعض الوقت برفقته. في غياب والده، يحتاج الطفل إلى وجوه شخصيّات مألوفة في محيطه تعوّض دور الأب.. عمّ إضافي لن يضرّ.

- عمّ إضافي؟ يزور مرة في السّنة ويحضر الهدايا؟

كان في صوتها نوع من السّخرية، كأنها قد اتخذت موقفا دفاعيّا معاديا بشكل لا إرادي. قال عبد الحميد متجاهلا سخريتها:

-يريد أن يكون أكثر من هذا. لقد اشترى المزرعة الواقعة على التّلة وسيقيم فترة لا بأس بها من السّنة فيها. الرّجل جادّ للغاية وقد اتّخذ خطوات عمليّة ليكون قريبا من عزّ الدين.

تذكّرت حديث نرجس ذلك الصباح عن الرّجل الأجنبي الذي اقتنى المزرعة المسكونة. ها قد عرفت من يكون.

لكن لماذا الآن؟

بل لماذا بشكل مطلق؟

غادرت المنزل وهي تشعر بالضّيق. كان يجدر بها الإحساس بالامتنان لرغبته في رعاية ابن صديقه الرّاحل، أليس هذا ما يقوله المنطق؟ لكنّها في تحفّز غير مبرّر.

حين دخلت المكتبة برفقة طفلها، كان وائل يستند إلى مكتب الاستقبال يحادث نرجس، فتندّ عنها من حين إلى آخر ضحكة خافتة. راقبت الشّابّين بنظرة سابرة، ثمّ تنحنحت. استوى وائل في وقفته فجأة، ثمّ قال مبرّرا:

-كنت مارّا من هنا، فأردت أن ألقي التحيّة!

ابتسمت ابتسامة العارف وقالت:

-بالتّأكيد. زهور تنتظرك على الغداء.. لا تتأخّر!

التقط وائل حقيبة ظهره عن الأرض، تناول منها بعض الحلوى ليدسّها في كفّ عزّ الدّين، ثمّ لوّح لهما مغادرًا. كان يرجع كلّ نهاية أسبوع ليمضي يومي العطلة مع العائلة، ويغيب كلّ أيّام الأسبوع في المدينة حيث جامعته. وقد لاحظت ياسمين مؤخّرا أنّه يحرص على زيارة المكتبة في كلّ مرّة. يتوقّف ليحادث نرجس لمدّة تزيد أو تقصر، وينتهي اللّقاء بدخولها.

كانت تعتبر وائل أخًا أصغر، ونرجس أختًا يهمّها أمرها. لكنّها تدرك أنّ وائل ليس جادًا. تعرف ذلك الانجذاب العابر الذي ينشأ بين مراهقين تتقاطع سبلهما. لكنّ وائل سينهي دراسته الجامعيّة قريبا.. ونرجس لم تحصل حتّى على الشّهادة الثّانويّة. سينتبه الشّابّ قريبًا إلى المسافات التي تفصلهما، وهو الذي نشأ في ضواحي باريس. ستلفت نظره بنات المدينة، حالما يفكّر في العمل والاستقرار.. وحده فؤاد

نرجس سيتحطّم. لكنّها لا تملك أن تحذّرها ممّا هو آت. تدرك أنّها ستنكر بداية، وتصمّ أذنيها عن نصائحها بعد ذلك. لتلك السّنّ سمات مميّزة، أهمّها العناد والاعتداد بالذّات.

أفاقت من أفكارها حين أشارت نرجس إلى الرّكن البعيد عن المدخل وهي تهمس:

- لقد جاء زائر المرة الماضية! الرّجل العربيّ...

التفتت ياسمين لتلمح عمر وقد انشغل بتصفح بعض الكتب. ابتسمت في سخرية. نرجس لا تعرف بعد من يكون، وإلّا لانطلق خيالها ولسانها ينسجان إشاعة جديدة بشأن هويّة ساكن المزرعة الجديد.

سار عمر بين رفوف الكتب، كأنّما يبحث عن كتاب بعينه. حاول أن يتذكّر: أين كانت تقف حين دخل المكتبة الأسبوع الماضي؟ توقّف أخيرًا أمام جناح الشّعر. التمعت عيناه في ظفر حين لمح الكتاب المنشود. تناوله في حرص وقلّب صفحاته. دائمًا ما كان يعتقد أنّ الكتب تحمل إليه رسالات خاصّة. لا، ليست كلّ الكتب كذلك. بل الكتب التي تختارها ياسمين!

توقّف عند إحدى الصّفحات وقرأ:

«واعتدت أن أحصي السّوس في صحن حساء العدس، الطبق اليوميّ في السّجون.. واعتدت أن أتغلب على الاشمئزاز، لأنّ الشهية تكيّف، ولأنّ الجوع أقوى من الشهيّة. ولكنني لم أتكيّف قط مع غياب القهوة الصباحيّة، ومع تناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السّجن؟ سألتني صديقة بعد خروجي من السّجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنّهم لا يقدّمون القهوة».

ابتسم. لقد كان محبّا للقهوة فيما مضى، حتّى أنّه كان يسمّيها «الوقود النّظيف»، أسوة بالطّاقة النّظيفة التي يعمل على توليدها. لكنّ ذائقته تغيّرت بعد حادثة المختبر. لم تعد المشروبات السّاخنة محبّبة إلى نفسه، بل يتوق إلى البرودة اللاذعة.

لكن ما وجده فظيعًا في السّجن، هو أنّهم لا يقدّمون الكتب!

كانت رنيم تأتيه بالكتب في حبسه الأوّل. كتب اختارتها ياسمين! لقد عرف ذلك متأخّرا جدّا. لكنّ ذلك عنى له الكثير،

كأنّما هي طاقة نور فتحت وكشفت سرّ ولعه بتلك العناوين. لقد أحبّ مطالعة كلّ الكتب التي انتقتها. من «الهويّات القاتلة» إلى «كتاب التّعافي من الصّدمة»، مرورًا بكلّ الكتب التي طالعها في سجنه. وسيمضي بعض الوقت مع هذا الكتاب الذي سقط من كفّها عفويّا. ربّما يتجرّأ ويطلب منها ترشيحات في وقت لاحق. لكنّه سيكتفي بهذا في الوقت الحالي.

رفع رأسه حين انتبه إلى دخولها وعزّ الدّين، فوجدت البسمة طريقها إلى شفتيه تلقائيّا. اتّجه إلى مكتب الاستقبال وحيّاهما. ثمّ وضع الكتاب الذي كان بحوزته على المنضدة، وقال مخاطبا نرجس:

-سآخذ هذا الكتاب.

بينما كانت نرجس تعدّ القطع النّقديّة، ألقت ياسمين نظرة عابرة على الغلاف: «ذاكرة للنّسيان»، ديوان محمود درويش. كانت قواعد اللّياقة الاجتماعيّة تقتضي أن تهديه الكتاب، مجاملة وإكرامًا للضّيف. غير أنّ تفكيرها مشوّش وتركيزها غائب، وعيناها تتابعان كفّه التي حطّت على شعر عزّ الدين بشكل عفويّ، وأخذت تمسّده بلطف. استلم عمر كيس

مشترياته، وتمهّل ريثما ابتعدت الموظّفة، ليقول أخيرًا:

- لقد كنت في زيارة إلى منزلكم اليوم.. لم أرك هناك، فعرّجت على المكتبة.

هزّت رأسها محاولة السّيطرة على هدوء ملامحها رغم الانقباض الذي ينازعها. أردف يقول:

-لقد تحدّثت إلى عمّي عبد الحميد، لكن كان يجب أن أطلب موافقتك قبل أيّ أحد. أنوي الاستقرار في المنطقة، وأريد أن أستأذنك في تمضية بعض الوقت مع عزّ الدين من حين إلى آخر.

قالت بلهجة باردة:

-أشكر لك جهودك.. لكن عزّ الدين ليس في حاجة إلى أحد. نحن لسنا في حاجة إلى أحدٍ.

شعر بالعدائية الغريبة في صوتها. لم يرها بذلك الانفعال قطّ. كانت تقبض على كفّ الولد في حرص، كأنها تتمسّك به، تحاول إخفاءه عن العالم، أو ضمّ جسده النحيل ليغوص

داخل فستانها. قال بلطف محاولا تهدئتها:

-لم أعتقد قط أن عزّ الدين بحاجة إلى أحد. أدرك أنك تبلين بلاءً حسنًا. أنت أمّ مثالية، ياسمين، وما تقومين به بمفردك عمل جبّار. أحيّيك على شجاعتك وقوّتك.. في الحقيقة، أنا من يحتاج وجود عزّ الدين في حياتي، فهل تسدينني هذه الخدمة؟

في لحظة ما، تداعى جبل المقاومة داخلها، وانفجرت باكية! انهمرت العبرات من عينيها بلا استئذان. ولم يدر عمر ما عليه فعله!

جلست على المقعد القريب مخفية وجهها بكفّ، في حين ضمّت ذراعها الأخرى ولدها إليها، كأنّها ترفض الابتعاد عنه حتى في لحظات انهيارها. ذاك ما كان عليه الأمر: لقد انهارت فجأة مثل مدينة حوصرت طويلا حتّى سقطت أسوارها.

كانت قد تحمّلت الكثير، تدّعي الصمود منذ خمس سنوات. تحمل قناع الجلد باستمرار أمام الجميع، ومذ عادت من فرنسا برفقة والدها ازدادت أعباؤها عبئًا جديدًا. لكنّها ظلّت ترسم البسمة وترسل النّكتة، وتدّعي أنّ كلّ شيء على ما

يرام.

لكنّها لم تكن تقبل أيّ صوت يشكّك في جدارتها!

إنها تفعل كل ما بوسعها، تكرّس حياتها لتحصيل لقمة العيش ورعاية من هم تحت عنايتها. فكيف تواجه ذلك العرض العجيب من رجل غريب يظهر فجأة ليقيّم أداءها ويقرّر أنها لا تأتي بمهامها على أكمل وجه؟

لكنّ كلماته قوّضت توازنها الهشّ من الأسس، وهدمت سيطرتها المزعومة. تمالكت نفسها أخيرًا. قالت بصوت مختنق، تبرّر انفعالها:

-الضغوطات في الفترة الأخيرة كانت عالية.

أومأ عمر في صمت. أشفق عليها من مسؤولياتها المتراكمة، وتمنّى لو تسمح له بمشاركتها إيّاها.

تمنّى لو تفسح له مجالا وتسمح له بدخول حياتها.

تمنّى لو يعود إلى عربة المترو الفرنسيّ، ويمتلك الشجاعة

حينها...

لكنه في مكتبة في ريف طبرقة التّونسيّة الآن، تفصله اثنتا عشرة سنة وانفجار واغتيال وسجن وزواج عن اللحظة المناسبة.

والزّمن قلّما يمنح فرصًا ثانية لمن يحترف تضييعها.

-7-

«لا أحد يريد أن يَنسى.

وبشكل أدقّ: لا أحد يريد أن يُنسى.

وبشكل سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده.

إنّه تاريخ طويل من عملية البحث عن وقيع على زمان أو مكان، ومن حلّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة...».

أغلق عمر الكتاب الذي رافقه خلال رحلته جوّا وبرّا، حين لاحت له القرية من بعيد.

بشكل ما، يغبط هيثم. لقد رزق ولدًا يحمل شرف الاسم ويخلّد مجده. ستذكر عائلة الأندلسيّ -إلى ما شاء الله- أنّ لها شهيدًا سقط دفاعًا عن القضيّة الكبرى، على يد الموساد!

لكنّ أحدًا لن يحمل اسمه هو. تنهّد. «لا أحد يريد أن يُنسى»، وهو لم يكن مختلفًا.

لم يكن يحمل ذلك الهوس بأن يكون له خلف من قبل. لقد آمن بأنّ الرّزق يأتي في أوانه، وبالشكل المناسب. وحيث إنّ مشروع الزّواج كان مؤجّلا، فكذلك كان مشروع الخلفة. لكن ما الذي يجعله متعلّقا بالأمر بهذا القدر الآن، كأنّ سعادته تتوقّف عليه؟ لعلّه اعتقد في لا وعيه أنّ له موعدًا، ذات يوم مع زينة الحياة الدّنيا.. أمّا وأنّ الموعد قد صار سرابًا، فإنّه يمدّ كفّيه مثل ظمآن لا يجد ماءً، ولا شيء يروي ظمأه بعد الآن!

نقد السّائق أجره وترجّل عن السيّارة التي نقلته من المحطّة، ثمّ خطا إلى داخل المكتبة.

وضعت ياسمين على المنضدة جدول نشاط النّادي الثقافيّ وأخذت تعلّم على الفترات الشّاغرة. يوم السّبت، أمسية الشّريط الوثائقيّ. تلك ورشة تلقى إقبالا من معلّمات المدرسة الإعداديّة. كانت تحضّر أشرطة متنوّعة، غالبًا عن عالم الحيوان، والمسائل البيئيّة بما يتناسب مع البرامج التعليميّة.

ورشة القراءة هي الأفضل بالنّسبة لطلّاب المدارس الابتدائيّة، وكانت تنشّطها بنفسها أيام الثلاثاء والخميس. أمّا نرجس فترتّب ورشة الأشغال اليدويّة، تبحث في كلّ مرّة عن أشكال جذّابة سهلة الإنجاز لأمسية الأربعاء. لكنّ رحيل مدرّسة التّاريخ ترك أمسية الجمعة خالية.

تنحنح عمر وهو يقترب من مكتب الاستقبال، فرفعت ياسمين رأسها مبغوتة. كانت مستغرقة في عملها فلم تنتبه لحضوره. ابتسمت وهي تشير إلى ركن القراءة:

-عزّ الدّين في انتظارك.

هزّ رأسه في امتنان ثمّ ألقى نظرة سريعة على المخطّط الذي أمامها قبل أن يمضي إلى الدّاخل.

في كلّ مرّة كانت تراه برفقة عزّ الدّين، تشعر بألم في صدرها. تتخيّل هيثم، وهو يلاعب ولده ويلقّنه أسرار الحياة. تتنازعها عاطفتان متناقضتان: تخشى أن يستبدل عزّ الدّين والده بعمر فينسى ذكراه، وتخشى أن يرحل عمر عنه ويخلّف فراغًا أعظم من السّابق!

لكنّها تعترف دون جهد بأنّ ولدها يضحى طفلًا آخر وهو برفقته.. طفلًا فضوليًا شغوفًا ومرحًا كما لم تره من قبل. ستكون مبالغة منها أن تدّعي ضيقها من تواجده حوله، فتلك أجمل الأوقات التي يترقّبها من أسبوع إلى آخر.

نفضت عنها تلك الأفكار وانشغلت باتّصالاتها على الفور. كان عليها البحث عن نشاط يسدّ فراغ الجدول. وضعت أمامها أرقام المُدرّسات التي سبق لها التّعاون معهنّ، معظمهنّ من المنطقة، أو يأتين من مدينة طبرقة والقرى القريبة.

-مرحبا، كيف الحال؟ كنت أتساءل إن كان وقتك يسمح بتنشيط ورشة في المكتبة؟ نعم، يوم الجمعة متاح.. فعلا؟ آسفة لذلك. شكرا على كل حال...

ثمّ تتّصل بالرّقم التالي، لتتلقى عذرًا مختلفًا. كلّهنّ لديهنّ مشاغلهنّ: دروس خصوصيّة، مسائل عائليّة، ارتباطات شخصيّة، أو غياب الحماس بكلّ بساطة. كانت الورشات ذات طابع أشبه بالتطوّع، فطلّاب المدارس يسدّدون ثمن اشتراك شهريّ زهيد، لضمان الاستمراريّة لا أكثر. كانت خدمة اجتماعيّة للمنطقة وأطفالها ومساهمة في نشر ثقافة الكتاب والمعرفة أكثر من كونها نشاطًا اقتصاديًا مربحًا. خلال ربع

ساعة، كانت قد أجرت زهاء دستة من الاتّصالات الفاشلة.

تنحنح عمر مرّة أخرى ليستدعي انتباهها، فانتفضت من جديد. قال وهو يشير إلى جدولها:

-أعتذر لتطفّلي، لكنّني استمعت إلى اتّصالاتك بدون قصد.. هل تبحثين عن متطوّع لتنشيط ورشة في المكتبة؟

هزّت رأسها مؤيّدة وسألت:

-هل تعرف شخصًا مناسبًا؟

كان سؤالا نصف ساخر، فكيف لرجل أجنبيّ قد استقرّ في المنطقة منذ أسابيع قليلة أن يعرف شخصًا مناسبًا؟ لكنّه فاجأها وهو يشير بإبهامه إلى صدره:

-يمكنني أن أنشّط ورشة تجارب علميّة!

تمهّلت قبل أن تقول في حذر:

-صحيح أنّه عمل تطوّعيّ، لكنّنا نحرص على تواصل

الورشة بشكل دوريّ.. وأنت، لا شكّ لديك مشاغلك خارج البلاد...

قال في ثقة:

-سأحرص على أن أكون هنا كلّ يوم جمعة!

كان وعدًا سخيًّا وغير منطقيّ في آن. لكنّها لم تناقشه، فهو أدرى بأعماله والتزاماته. إن كان يعد بالحضور كلّ جمعة، فيمكنها أن تمنحه فرصة إثبات صدقه. قالت دون حماس:

-حسنًا، لن أرفض عرضًا كهذا! يمكنك أن تضع قائمة بالمستلزمات المطلوبة غير المتوفّرة في المكتبة، وسنحرص على توفيرها من أجل الورشة.

-لا عليك، يمكنني الاهتمام بكل التفاصيل.

ابتسم، وهو يبتعد باتّجاه ركن القراءة حيث ينتظره ولدها، فانبرت تدوّن في شرود اسم الورشة الجديدة ليوم الجمعة في المساحة الشّاغرة.

جاء عمر في الأسبوع التّالي محمّلا بصناديق ملأى بالمعدّات. كان قد اقتنى بعضها من العاصمة، وأخرى جاء بها خصّيصا من سويسرا: مايكروسكوب مصغّر، وأنابيب اختبار وأوعية زجاجيّة بأحجام مختلفة وعشرات القوارير التي تحوي موادّ كيميائيّة متنوّعة. بالإضافة إلى ذلك، كان قد حضّر كتيّبا للتجارب العلميّة المبسّطة وطبعه في عدّة نسخ ملوّنة فاخرة. نقل الصّناديق إلى المخزن تحت نظرات ياسمين الدّهشة، ثمّ عاد وبحوزته نسخة من الكتيّب. قال بلهجة فخر لا تخطئها أذن:

-ما رأيك؟

تصفّحت الدّفتر في اهتمام وإعجاب. قدّرت أنّه قد أفنى ساعات طويلة في تحضيرات جدّيّة. هذا حماس جدير بالإشادة، لكنّ الرّيبة لم تفارقها بعد. عسى أن تستمرّ الورشة طويلا!

في المساء، لمست بنفسها حماس الأطفال للورشة الجديدة التي حملت قدرًا من الإثارة والمفاجآت: كثير من الألوان والفرقعات والأبخرة، وأياد صغيرة تمسك بالأنابيب وتختفي عيونها الفضوليّة وراء نظارات الحماية العريضة، بينما ترتسم

البسمات الشقيّة والجذلة على الشفاه.

حقّقت الحصّة الأولى نجاحًا منقطع النّظير. خرج الأطفال وهم يثرثرون إلى ذويهم عن العلوم العجيبة التي تعرّفوا إليها. حتّى أنّ بعض الأولياء طلبوا الإذن بحضور حصّة الأسبوع المقبل. لكنّ ياسمين كانت تتعامل مع ذلك النّجاح بحذر شديد. كما تخشى على ولدها من اختفاء عمر المحتمل، فإنّها باتت تشفق على أطفال كثيرين سيتعلّقون بحضوره وتجاربه!

لم تكن تطمئّن إلى استمرار وجوده في الجوار. ما هو إلا زائر دائم السّفر، شديد الانشغال. ولعلّ تلك الحماسة تتبدّد بعد فترة، ويصيبه الفتور، وقد تسحبه الأعمال الأهمّ فيهمل الموعد الأسبوعيّ.

هل كان حدسا؟ أم لعلّها مخاوف مشروعة لصاحبة المكتبة التي تحرص على استمرار الخدمات بشكل جادّ؟ ولعلّها شيء آخر تمامًا لا تدرك كنهه بعد.

***

كانت ميساء تشعر بالاختناق في بيتها.

كان رمزي قد وعدها حين خطبها بمنزل مستقلّ خلال وقت قريب. لكنّها تقطن منذ زواجها في منزل العائلة. كانت لديها غرفة بحمام خاصّ، بنيت كملحق للمنزل الأصليّ. ولم تكن تقدر على مغادرة تلك الغرفة. ليس لأنّها محبوسة أو ممنوعة من الخروج، ولكن لأنّ الخروج له ثمن!

كلّما دخلت المطبخ ولو بالخطأ، وجدت الجميع ينسحبون على الفور، وحماتها تقول: «الغداء اليوم من يدي ميساء، عسى أن يكون طبخها اليوم أفضل»! لم تكن تجيد الطّبخ، الكلّ يعلم هذا. وهي تتعمّد إحراجها، أمام عمّها وزوجها وشقيقته. وإذا كانوا جلوسًا في غرفة المعيشة، تقول: «هاتي عنك آدم، الحمّام يحتاج إلى تنظيف وظهري يؤلمني!». وشقيقته، إنّها تنظر إليها بتعالٍ طوال الوقت. كلّما فتحت فاها لتنطق شيئا، انقلب إلى نكتة! تجد بسهولة خطأ في كلّ ما تنطق به، وتجعلها تبدو ساذجة: ابنة باريس المدلّلة التي لا تفقه شيئا عن الحياة! وحين تغلق على نفسها الباب وتلبث في الغرفة، يصلها حديثهم بصوت عالٍ: «هل هي مريضة؟ عسى ألا يكون أصابها مكروه!».. تجعلان البقاء في ذلك البيت عقابًا لا يمكن احتماله!

لم يكن الوضع بذلك السّوء منذ البداية. في السّابق، كان بوسعها أن تتعذّر بالحمل، ثمّ النّفاس.. أمّا الآن، فقد أصبح التهرّب مستحيلا.

جاءت ذلك الصّباح إلى منزل والديها وهي تدفع عربة طفلها في تصميم: لن تظلّ في ذلك البيت بعد الآن.

حدجتها زهور بنظرة قلقة:

-هل تودّين أن يتحدّث والدك إلى رمزي؟

هتفت على الفور:

-لا!

-إذن.. هل تتركين بيتك؟

-لم أقصد هذا. ببساطة، ما دام رمزي في العمل، سأكون هنا. حين يرجع مساءً، يمرّ لأخذي. حين يكون موجودًا، بوسعي الاحتماء به.

-وهل وافق رمزي على هذا؟

التمعت عيناها بنظرة نصر:

-إمّا هذا، وإمّا أن يستأجر لنا منزلا خاصّا. هذا اتّفاقنا. حين يكون قادرًا على الانفصال عن عائلته يكون لنا حديث آخر.

زمّت زهور شفتيها في عدم استحسان، ثمّ تنهّدت:

-أكملي إفطارك ثمّ نتحدّث.

لم ينفع حديث في تحويل ميساء عن موقفها. كانت قد اتّخذت موقفًا صارمًا، ولعلّ ذلك النّوع من الضّغط يسرّع في حدوث ما ترجوه من استقرارها في منزل خاصّ.

-هل يمكنني مرافقتك إلى المكتبة؟

كانت ياسمين تهمّ بالمغادرة برفقة عزّ الدّين، حين اقتربت منها ميساء وفي عينيها نظرة رجاء. مضى أسبوع منذ أخذت تزور المنزل بشكل يوميّ، لتمضي ساعات النّهار بلا عمل. ولعلّها بدأت تضيق ذرعًا بخواء الدّار من أهلها حين

تنصرف ياسمين إلى عملها وزهور إلى السّوق. وتمضي باقي الوقت جالسة في المطبخ، تهدهد طفلها أو تطعمه، بينما ينشغل عنها الجميع!

-ماذا عن آدم؟

-أتركه مع أمّي. لن تمانع رعايته لساعة أو اثنتين!

-وما الذي تودّين فعله في المكتبة؟ تريدين القراءة؟

تنحنحت ميساء، ثمّ قالت في تردّد:

-كنت أفكّر، ربّما يمكنني أن أعطي بعض الدّروس الخصوصيّة في اللّغة الإنجليزية!

-في المكتبة؟

-هل يمكنني؟ ليس لديّ فضاء مناسب.

رنت إليها ياسمين بابتسامة محرجة:

-أنا آسفة. المكتبة فضاء عامّ، وكلّ الأنشطة التي نقدّمها باشتراك شهريّ بسيط.

تنهّدت ميساء، ثمّ قالت:

-حسنًا يا صاحبة المبادئ، ربّما يمكنني أن أنشّط ورشة للغة الإنجليزية؟

اعتذرت ياسمين مرّة أخرى:

-هذا يبدو جيّدًا.. لكن جدول الورشة مليء الآن، ليس لديّ وقت شاغر من أجلك.

لو أنها جاءتها منذ بعض الوقت. كانت أمسية الجمعة شاغرة. لكنّ ورشة التجارب العلميّة تشغلها الآن. زفرت ميساء في استياء، فقالت ياسمين في شكّ:

-ميساء، هل تحتاجين إلى المال؟

-لا، ليس المال مشكلتي.. بل الفراغ! لم يعد بوسعي البقاء طوال اليوم مع آدم. أنا أختنق!

ابتسمت ياسمين في تفهّم. لقد كانت تشعر بالفراغ ذاته قبل أن تملأ وقتها بالعمل في المكتبة. قالت:

-تعالي إذن. يمكنك مساعدة نرجس، أو الوقوف عند مكتب الاستقبال بعض الوقت.

***

نظرت إلى ساعتها للمرّة الألف، ثم تطلعت إلى الشّارع الهادئ في تلك الآونة من النّهار، علّها تلمح سيارة أجرة مقبلة.. لكن لا شيء في الأفق. مرّت ثلاثة أرباع السّاعة على موعد ابتداء الورشة وعمر لم يظهر بعد.

لقد مرّت الحصص الأولى بسلام حين كان موجودًا في المزرعة، لكن منذ سفره إلى سويسرا، بدأت الأمور تسوء. لقد تأخر الأسبوع الماضي أيضا. وصل بعد نصف ساعة من الموعد.. لكنه جاء! غير أنّ التأخير المتزايد والمتكرّر ليس أمرًا مقبولًا. قريبًا سيصل أولياء الأمور لاصطحاب أطفالهم، ولا يمكنها استبقاؤهم أكثر من ذلك.

عادت إلى الدّاخل حيث كانت نرجس تبقي الأطفال

منشغلين بألعاب التّركيب، وأعلنت بلهجة محرجة:

-آسفة يا صغاري، سنلغي حصة اليوم!

تعالت همهمات مستاءة وعبارات متحسّرة، ثم ترك الأطفال مقاعدهم وتفرّقوا بين أرجاء المكتبة، في انتظار وصول ذويهم. اقتربت منها ميساء وقالت في رجاء:

-هل يمكنني أن أنشّط الورشة اليوم؟

حدجتها ياسمين في شك:

-أنت واثقة؟

هزّت ميساء كتفيها وقالت:

-لا أزعم أنّ بحوزتي مخطّطًا مدروسًا، سيكون الأمر ارتجاليًّا.. نوعًا ما. لكنّني كنت أتخيّل في رأسي منذ زمن، كيف يمكن أن تكون الورشة. أظنني أستطيع خوض التّجربة!

أشارت ياسمين براحتها في اتّجاه القاعة علامة إعطائها

الإذن، فتهلّلت أسارير ميساء. صفّقت بكفيها وهي تصيح بصوت واضح:

-يا أطفال، هيّا بنا إلى القاعة.. ستبدأ الورشة الآن!

سرعان ما تجمّع الأطفال من جديد وتبعوها إلى الدّاخل.

راقبتها ياسمين في اهتمام وهي تعطي درسها الأوّل، تتنقّل برشاقة بين مقدّمة القاعة ومؤخّرتها لتمنح كلّ الأطفال فرصة المشاركة. كانت تنطق الكلمات ببطء، وتستخدم بطاقات رسوم استعارتها من المكتبة لتشير إلى معاني الكلمات. حين فرغت من درسها، كانت البهجة تعمّ المكان. ابتسمت ياسمين وهي تستقبلها مهنّئة:

-كنت رائعة!

حدجتها ميساء بنظرة جانبيّة تعني «ألم أقل لك؟».

-هل يمكنك اصطحاب عزّ الدّين إلى البيت؟ لن أتأخر.

لوّحت لطفلها وهو يغادر المكتبة برفقة عمّته. عليها أن

تعترف: لقد أنقذت ميساء الأمسية.

كانت الساعة قد شارفت على السّابعة، حين وصل عمر لاهثا عند باب المكتبة. كانت ياسمين تتهيّأ للمغادرة بعد أن انصرف كلّ الزبائن وانتهت من ترتيب دفاترها كما تفعل نهاية كلّ أسبوع. رفعت نظرها إلى القادم المتأخر، ثم أشارت إلى السّاعة. قال معتذرًا:

-لقد تأخرت الطائرة! لم أجد حتّى سيارة أجرة من محطة القطار.. لقد ركضت إلى هنا. فعلت ما بوسعي، لكن الظروف اجتمعت ضدّي!

تنهّدت ياسمين. كانت تدرك أن هذا سيحصل، حين عرض تنشيط الورشة. بأيّ منطق يسافر المتطوّع من قارّة إلى أخرى ليحضر الحصّة ثم يرجع أدراجه؟! قالت بهدوء:

-هذا ليس مؤتمرا عالميا يأتيه المحاضرون من كل أصقاع العالم، لكننا نقدّر قيمة الوقت. هو وقت أطفال في قرية صغيرة ووقت ذويهم البسطاء، لكنه وقت يستحقّ الاحترام...

قاطعها ليجدد اعتذاره:

-بالتأكيد، هذا أمر لا شك فيه!

وأضاف في سرّه: لو أنّ الطائرة اللعينة أقلعت في موعدها!

أردفت ياسمين متجاهلة تبريراته:

-لكنك بكل وضوح لا تستطيع الالتزام بموعد الورشة.

-سأفعل، أعدك أنني سأفعل.. أطلب فرصة أخرى!

لم يبد عليها الاستماع، كانت قد اتّخذت قرارها:

-ما رأيك في هذا.. حين تكون في المنطقة يمكنك تنشيط الورشة. مرّتان في الشهر كافيتان.. وسنجد حلّا لسدّ فراغ الأسبوعين الآخرين؟

زفر في ارتياح. ظنّها ستطرده بلا رحمة. كان يروم كسب ثقتها، ولم يبد أنّه قد أفلح. لكن ذلك الاتفاق يبدو عادلًا ومناسبًا. لم يكن يودّ الاعتراف بذلك، لكن الرحلة الأسبوعيّة

كانت تربك نظام عمله.

تنفّست ياسمين الصّعداء. كانت قد وجدت بالفعل من يمكنه تنشيط الورشة بحماس وكفاءة.

-8-

«وماذا أيضا؟ عليك أن تكون أبيض، فهناك ما هو أغلى من الحرية ومن الحياة.

ما هو؟ البياض!

(ويقول علماء التّاريخ الطبيعي أن السّمور حيوان صغير ذو فراء أبيض، شديد البياض، وإذا أراد الصّيّادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين، ثم يأخذون في مطاردته، وحين يصل السّمور إلى المكان الذي وسّخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل أن يطارد أو يقتل على أن يمرّ في الطين ويوسّخ بياض فرائه، لأنه يفضل البياض على الحريّة وعلى الحياة)».

أخذت منه الصّفحات الثلاثمائة أكثر من المعتاد. كتاب بهذا الحجم، كان بوسعه إنهاؤه في جلسة واحدة. لكنّه صار رفيق رحلاته. يرتشف صفحاته على مهل، مثل قهوة باردة. يتجرّع صفحة أو نحوها، ثمّ يسرح فيها وعبرها. لقد صدق حدسه.

كان ذلك الكتاب يتحدّث إليه بصخب. كلّما قرأ خاطرة لمحمود درويش، وجد لها صدى عجيبًا في وجدانه.

البياض! أين هو من البياض؟ لم يكن سمّورًا. انتهى إلى ذلك الاستنتاج في مرارة. لقد كانت حرّيته وحياته غاليتين، حتّى أقنعته رنيم برمي التّهمة كاملة على هيثم! قبِل أن يلطّخ يديه بالطّين، في سبيل حياة أطول وحرية أكبر. لم يعد أبيض. فقدَ طهره ونقاءه إلى الأبد، وسكن اللّون الرّماديّ داخله. لقد أقنع نفسه بالحجج التي ساقتها في تلك الآونة. بدت حقيقيّة وموضوعيّة. غير أنّها لوثّت بياض روحه.

تفقّد بريده الإلكترونيّ كما يفعل كلّ صباح. يتابع أخبار معاونيه في مصنع البطاريّات وشركة التّصدير السّويسريّين، ويمضي بعض الوقت يردّ على بعضها ويدوّن تعليماته وملاحظاته. لكنّه توقّف عند رسالة خاصّة، كانت أهمّ من كلّ شيء آخر. فتحها والتهم بعينين متلهّفتين سطورها القليلة، ثمّ تنهّد.

كان يصله كلّ أسبوع تقرير متحرّ خاصّ كلّفه بمهمّة في غاية الدّقّة. منذ غادر السّجن، لم يفارقه الجزع من أن يكون مراقبًا. كان المتحرّي مكلّفًا بمتابعة التحرّكات في مواقع

العمل، وحول المنزل الرّيفيّ. أيّ حضور غريب ومتكرّر، أيّ تحرّك مثير للشّبهات، وأيّ تغيير في طاقم فرق التّنظيف البلديّ أو الشرطة المحليّة كان يرفع إليه بشكل عاجل.

لقد مرّت خمس سنوات. كان من الحريّ بمن يريد الاعتداء عليه أن يكون قد نسي أمره بعد كلّ هذا الوقت. لكنّه يعرف أنّ الكيان الصهيونيّ لا يقبل الخسارة، ويكرّر المحاولة إذا فشلت الأولى. لم يكن يعرف تحديدًا إن كان هو بشخصه المستهدف من عمليّة الاغتيال، أم «مدير شركة ياسمين الأندلس»؟ كلّ الأدلّة المنطقيّة كانت تشير إليه كـ«صاحب نشاط مشبوه»، من حيث علاقاته وتنقّلاته. لكنّ نوعيّة الإصابات التي تعرّض إليها كلاهما كانت توحي بأنّ هيثم كان هدفهم الرّئيسيّ!

لم يكن خائفًا على نفسه، لكنّ وجود أشخاص في حياته يعني أنّ ما يهدّده يهدّدهم. لم يكن ليغامر بإقحام آخرين في دوّامة الخطر خاصّته. ولم يكن ليقدم على السّفر إلى تونس إلّا بعد أن اطمأنّ إلى غياب الرّقابة المثيرة للرّيبة منذ أكثر من سنة.

لم يكن قد عاد إلى التّعاون مع صفوف المقاومة

الفلسطينيّة بشكل علنيّ منذ الحادثة. لقد أدلى بشهادة مفصّلة، وقدّم قائمة اسميّة -كما أوحى إليه عزّام- ليبرّئ نفسه. لقد أبدى تعاونًا، ليخفّف حكمه، ويقضي على الشّكوك تجاهه، ولعلّه نجح في ذلك. يحسب أنّ حياته باتت آمنة وخالية من المخاطر الآن. لكنّها حياة خاوية، تفتقر إلى الأهداف الرّفيعة والقضايا السّامية.

هل يحسب أنّه قد استحقّ العقاب، لخيانته البياض؟

تستمرّ تلك الفكرة تلحّ عليه في إصرار وهو يتحرّك في أرجاء المزرعة.. وهو يجلس في الشّرفة أعلى التلّة.. وهو يسرح بنظراته إلى الأفق البعيد.

في أحايين كثيرة، هيّئ إليه أنّه يقرأ قصّة حياته بين الصّفحات. كيف؟ كيف لكلمات خطّها قلم شاعر عن تجربته الخاصّة والحميميّة أن تخاطبه بتلك الدّقّة، وتجرّده من قناعه بتلك القسوة، وتعرّي سوأة قلبه؟

أمضى الشّهور الأخيرة في عمليّة استصلاح المنزل القديم. لم يكن البناء بجودة نظيره السّويسريّ الذي احتفظ بأصالته وطابعه العريق. بل إنّه قد اضطرّ إلى هدم بعض الأقسام

المتهالكة من الملحق، وخيّر توسعة الشّرفة المكشوفة مكانها. من موقعه في غرفة المعيشة كان يمكنه الإشراف على القرية من علٍ من خلال واجهة زجاجيّة عريضة تضفي لمسة حداثة فاخرة.

رغم دخول فصل الصّيف منذ أسابيع، فإن الطّقس في مرتفعات طبرقة ما يزال منعشًا. وكان ذلك يهوّن عليه مشقّة الرّحلة. في الفناء، كان جمع مكوّن من سبعة عمّال يتحرّكون بنشاط، يرصفون الألواح الخشبيّة في الشرفة. هتف بصوت حازمٍ:

-يجب أن يكون المكان جاهزًا في نهاية اليوم.

رفع رئيس العمّال كفّه عاليًا علامة الرّضا، ثمّ استدار يعلن توجيهاته بصرامة.

كانت آية تصل ذلك المساء. وكان قد دعا عائلة هيثم إلى الغداء ظهر الغد، احتفالًا باكتمال الأشغال. لم تكن الإقامة في المزرعة مريحة حتّى ذلك الوقت. كان يشغل غرفة نائية قرب الحضائر، في انتظار أن يصبح البناء الأساسيّ صالحًا للسّكنى. وكان يتوق إلى استضافة عزّ الدّين في المزرعة من

حين إلى آخر، بدلا عن لقاءات المكتبة. قبل ذلك، كان عليه أن يثبت أنّ المزرعة آمنة، وأنّه قادر على الاهتمام بالطّفل كما يجب. وكان هذا الهدف من الدّعوة.

بدا مثل طالب مجدّ يستعدّ لعرض مشروع تخرّجه على لجنة تحكيم متطلّبة وهو يجول في أرجاء المكان، ويطمئنّ إلى جاهزيّته. كان الخشب في كلّ مكان، الأراضي خشبيّة والأعمدة كذلك. لا نتوءات حادّة ولا موادّ خطرة في الأفق. كلّ شيء مهيّأ خصيصًا لضمان سلامة الولد. ابتسم وهو يطالع الدرّاجة الجديدة المستقرّة في جانب الشّرفة والمزوّدة بعجلات توازن. كانت هديّة لعزّ الدّين، ولشدّ ما يتطلّع إلى مشاركته اللّعب بها في القريب.

نظر إلى ساعته. حان وقت السّفر إلى العاصمة لاستقبال زوجته في المطار. وتلك مسألة أخرى. لم يكن قد تحدّث إليهم عن آية حتّى ذلك الوقت. وقد حان الوقت ليفعل، بشكل مباشر. سيقدّمها إليهم مساء الغد.

***

قرّر عبد الحميد أنّهم سيركبون سيّارتين. المسافة قريبة

ولا داعي للمبالغة. تركت ياسمين سيّارتها، وركبت وراء ميساء وزوجها مع الطّفلين، في حين قاد عبد الحميد سيّارته وبرفقته زهور وابنه الأصغر. قال رمزي وهو ينطلق مبتعدًا عن منزل العائلة:

-هل عمر الرّشيدي متزوّج؟

ران صمت قصير على الرّكاب، قبل أنّ تهزّ ميساء رأسها علامة الإيجاب، وتقول:

-أحسبه كذلك.

تذكر ياسمين بوضوح أنّه تحدّث عن فتاة يريد خطبتها. ولعلّ زفافه كان وشيكًا.. قبل الحادثة. لو أنّه تزوّج حينها، لكان دعاها وهيثم. لا شكّ أنّه لم يفعل، ليس قبل الحادثة. لكنّه قد يكون فعل، بعد مغادرته السّجن. لم يكن قد تحدّث عن زوجته قطّ، وهي لم تتساءل بذلك الشّأن قبل الآن.

أصرّ رمزي:

-لستِ واثقة؟

-أظّنه قد تزوّج.. لكن لماذا تسأل؟

-لا يهمّ إن كان متزوّجًا.. تعدّد الزّوجات مباح في المغرب.

تأفّفت ميساء بصوت عالٍ:

-وما همّنا به إن عدّد أم لم يعدّد؟!

-ما الذي تقولينه يا ساذجة؟ الرّجل ثريّ، وهو مهتمّ بالإقامة بيننا، فلماذا لا نزوّجه إحدى بناتنا؟ لديّ أخت شابّة وجميلة، ربّما تروقه!

ندّت ضحكات مكتومة عن ميساء وياسمين. كان رمزي يدير مشروعًا فلاحيًا في أراضي العائلة بعد أن أقنع كلّ أعمامه بتوكيله على الأرض. لكنّ مساعيه الحثيثة لم تؤت ثمارها حتّى تلك الآونة. لعلّه بحاجة إلى شريك ميسور الحال يضخّ بعض الأموال لإحياء المشروع.. وعمر كان شريكًا مثاليًا، غير أنّه كان ليقنعه بيسر، إن هو أصبح فردًا من العائلة.

توقّفت السيّارتان أخيرًا عند مدخل المزرعة. ظهر شبح عمر

في البعيد، وإلى جواره شابّة حسناء، تبدو ممشوقة القوام رغم فستانها الفضفاض. همست ميساء إلى زوجها:

-هاك جواب سؤالك!

ترجّل جميعهم، وساروا باتّجاه عمر الذي حيّاهم بحرارة، ثمّ قال وهو يشير إلى السيّدة الواقفة إزاءه:

-زوجتي آية.

عانقت آية السّيدات بألفة، ثمّ توقّفت أمام ياسمين. قالت بثقة:

-أنت ياسمين، أليس كذلك؟ لقد سمعت الكثير عنك!

استسلمت ياسمين إلى ذراعيها تضمّانها أطول من الأخريات بقدر وقد تملكّها التوتّر. كان بوسعها أن تردّ المجاملة، لكنّها في الحقيقة لم تسمع كلمة واحدة عن زوجة عمر ذات اللّهجة المشرقيّة الواضحة.

-أنا آية، من فلسطين. سررت بلقائكم جميعًا.

همست ميساء إلى زوجها ساخرة:

-هل تقدر شقيقتك على منافسة هذا الأداء العالي؟

تحرّكت آية بأريحيّة، مثل سيّدة بيت واثقة، وقادت ضيفاتها إلى غرفة المعيشة، بينما اتّجه الرّجال إلى المجلس الخارجيّ. في الدّاخل، كانت مائدة إفطار سخيّة قد مدّت سلفًا، عليها أصناف من الطّعام المشرقيّ والمغربيّ: حمّص ومتبّل وورق عنب وكبّة، بالإضافة إلى «طاجين برقوق» وحريرة ساخنة. قالت آية بابتسامة رائقة:

-أردت أن أعرّفكنّ بثقافتينا في آن، لمسات من تقاليد أهلي في الأكل وأهل عمر أيضا!

كان عمر قد استأجر خدمات سيّدتين من القرية لمساعدتها في تحضير المائدة، لكنّها كانت قد تدرّبت على تلك الأصناف في وقت سابق حتّى أتقنتها، وما كان عليهما إلّا تنفيذ تعليماتها من تقطيع للخضار وتشكيل للكبّة، بينما أشرفت بمهارة على التّتبيل وضبط المقادير.

تحلّقت السيّدات الأربع حول الطّعام وأصبن منه حتّى

شبعن، وهنّ يتجاذبن أطراف الحديث بألفة ومودّة. كانت آية مضيّفة بارعة، فقد أشعرتهنّ بالرّاحة على الفور، وأدارت دفّة الحوار بكياسة حتّى تتعرّف إليهنّ دون تكلّف. ثمّ تعاونّ جميعهنّ على حمل الأطباق إلى المطبخ، واجتمعن ثانية على الأرائك حول فناجين الشاي والكنافة والبسبوسة والمكسّرات.

همس عزّ الدّين إلى أمّه في رجاء:

-هل يمكنني الذّهاب إلى جدّي؟

ربّتت ياسمين على رأسه وقالت:

-اذهب، وكن حذرًا.

أومأ الطّفل في انصياع ومشى بخطوات رزينة نحو المجلس الواقع في الجهة الثانية من الشرفة. راقبته ياسمين بعين حارسة حتّى دلف إلى المجلس، بينما كانت نظرات آية ترقبها بدورها بفضول واهتمام. ثمّ قالت بصوت عالٍ:

-نسيم الأصيل منعش، هلّا جلسنا في الشرفة؟

نال اقتراحها استحسان الجميع وتوجّهن واحدة إثر الأخرى إلى الصّالون الخارجيّ. تحيّنت آية الفرصة مع انصراف زهور وميساء، وسارعت تمسك بكفّ ياسمين تستوقفها. قالت في امتنان حين خلت الجلسة إلا منهما:

-لقد أسديتنا معروفًا عظيمًا بالسّماح لنا برعاية عزّ الدين.

بدت الحيرة على ملامح ياسمين. لم تكن تدرك قصد آية، فهي سمحت لعمر بقضاء بعض الوقت مع عزّ الدين، لأنه كان صديقًا مقربًا من والده. لم تحسب أن الاتفاق يشمل زوجته. ليس أنها تمانع أن تكون آية جزءًا من العائلة الموسعة والمعارف الذين قد يتعاطى معهم ولدها في المستقبل، لكنها لا تنتظر منها أن تلعب دورًا يذكر في العناية بولدها.

- أنت تعلمين.. لم يرزقنا الله الذرية.

ابتسمت ياسمين وقالت تخفّف عنها:

-ما زال الوقت مبكرًا.. لم يمض على زواجكما سوى وقت قصير، فلا تشغلي بالك بهذا، كل شيء يأتي في أوانه.

تنهدت آية وقالت في تأثّر:

-أنت لا تعرفين إذن؟ لن يكون بوسعنا الإنجاب. الأطباء أكّدوا أن حدوث الحمل مستحيل!

انفرجت شفتا ياسمين في صدمة، ثمّ تمتمت تواسيها:

- أنا آسفة لذلك!

- لا عليك، هذا قدرنا.. لقد اقترحت على عمر أن نحتضن طفلًا فلسطينيًّا يتيمًا من مخيم اليرموك. لكنّه فضّل أن يرعى ابن صديقه الشهيد...

حدّقت فيها ياسمين في ارتباك وهي تحاول استيعاب كلماتها.

ثمّ.. أصبح كل شيء واضحا في ذهنها.

شلّتها الصدمة لثوانٍ. ما الذي يخطط له عمر بالضبط؟ هل جاء بزوجته ليضع عزّ الدين بين ذراعيها، ترعاه كأمّ بديلة؟ يعوّضها عن طفل لن تزرقه؟ استرجعت كلماته منذ أسابيع:

لقد كان هو بحاجة إلى عزّ الدين أكثر ممّا يحتاجه الطفل. لم تصدّق ادعاءه في تلك اللحظة. حسبته نوعًا من الاستعارة، فالمتصدّق بماله أو وقته في حاجة إلى الفقير لأنه يرجو حسنات يجنيها من فعل الخير.. لكن هذا النّوع من الاحتياج، لم يخطر لها على بالٍ قط!

-أرجو المعذرة!

تركت الغرفة على الفور ومشت باتّجاه المجلس، توقّفت حين لمحته على الجانب الآخر من الشّرفة، يجرّب الدّراجة التي اشتراها له عمر، بينما يقف عمر قبالته يشجعه على تحريك الدّواسات برجليه. في حين جلس الآخرون على مقربة يتابعون المشهد. هتفت بلهجة صارمة:

-عزّ الدين، تعال إلى هنا.. يجب أن نذهب الآن!

جاءت آية على أثرها، تحاول أن تشدّ ذراعها، وقد أربكها تغيّرها المفاجئ، والتفت الجميع إليهما في دهشة. همّ عمر بالاعتراض، لكنّ شيئا آخر شتّت انتباهه على الفور. كان الطفل الذي استدار بغتة عند نداء والدته قد فقد توازنه وسقط على جانبه محدثًا جلبة ومطلقا صرخة متألّمة. كانت

الدّواسات المعدنية قد خدشت ساقه طوليّا. لم يكن جرحًا عميقًا، لكنّه أخذ ينزف بغزارة.

هرعت إليه ياسمين في ذعر، بينما سارع عمر إلى علبة المناديل. حاول تضميد الجرح النازف، لكنّ الدّماء كانت تأبى أن تتوقّف. كان عليه الذّهاب لإحضار حقيبة الإسعافات الأوّليّة، غير أنّ قدميه لا تقويان على حمله. كانت عيناه معلّقتين بالولد ويداه تعملان باستماتة، رغم أنّ جهوده لا تجدي. خلال لحظات، كانت بركة حمراء قد تشكّلت تحت ساق الطفل الذي لم يكفّ عن البكاء.

صرخت ياسمين:

-ضمادة، فليحضر أحدكم ضمادة!

استمرّ عمر يشدّ على ساق عزّ الدّين وكأنّه في ذهول عن العالم من حوله. كان في حالة صدمة. لقد رأى مشهدًا مشابهًا في السّابق. وكان الهلع يتصاعد في داخله مثل بركان هائج. لقد شاهد والد الفتى وهو ينزف حتى مشارف الموت على مقعد السّيارة التي يركبانها منذ سنوات خمس! لم ينتبه إلى شيء من حوله، استمرّ بجنون يجفف الدّم القاني بكفّين

مخضّبين كأنّه يحاول إنقاذ صاحبه الذي رحل، وهو يصرخ:

-لا، لا، لا!

غابت آية في الدّاخل ثمّ عادت بمنشفة قطنيّة، أخذتها منها ياسمين ولفّت بها ساق الطفّل بإحكام ويداها لا تكفّان عن الارتجاف. كان على عبد الحميد أن يتدخّل ليفضّ حالة الارتباك العامّة. انحنى ليرفع الطّفل بين ذراعيه وهو يهتف:

-ياسمين، إلى السّيّارة بسرعة! لا وقت نضيّعه، علينا أن نأخذه إلى الطّوارئ...

تمالكت ياسمين نفسها، وهبّت على أثره، وتبعتهما زهور ووائل على الفور. كانت ميساء تحاول تهدئة طفلها الذي استسلم لنوبة بكاء استجابة للأجواء المشحونة. قالت في توتّر بعد أن اختفى الخمسة:

-عزّ الدّين يعاني من صعوبة تجلّط الدّم. لذلك تحرص ياسمين على ألا يمارس أيّ نشاط خطر.. أيّ جرح طفيف قد يؤدّي إلى نزيف حادّ.

ثمّ تمتمت في قلق:

-عسى أن يصلوا في الوقت المناسب.

التفتت إلى زوجها وأضافت:

-يجب أن نلحق بهم.. اعذرونا رجاء.

هزّت آية رأسها في تفهّم، في حين لم يبرح عمر مكانه ولم يبد عليه الانتباه لغيابهم. بعد دقائق من خلوّ المكان إلّا منهما، انحنت آية إلى جواره وقالت في رفق:

-لقد رحلوا.

رفع نظرات مشوشة إليها، ثم عاد إلى بركة الدّم عند قدميه. كان يرى ثالثهما الذي غادر إلى الأبد. لقد كان يراه بوضوح، مسجى على مقعد السّيارة المحاصرة.

جاءت آية بكوب ماء ودفعته إليه، فازدرد جرعة، ثم تنفّس. امتلأت رئتاه بالهواء النّقيّ، وانسدل جفناه لينزل ستار أسود غشي بصره. همس لنفسه: تنفّس. شهيق ثمّ زفير. لم

تعد الأرض تميد تحت قدميه، استقرّت الأشياء المهتزّة في أماكنها، واختفت الرؤيا المتسلّلة من ذاكرته، واستعاد صفاء ذهنه. فتح عينيه، ليلفي زوجًا من العيون يحدّق فيه في قلق. همس في جزع:

-هل وصلوا إلى الطّوارئ؟

تناولت آية هاتفه الموضوع على المنضدة القريبة، وبحثت عن رقم جدّ عزّ الدّين. رنّ الهاتف طويلا دون أن يأتي ردّ من الجهة الأخرى. التفتت إليه في قلّة حيلة، فتمتم في رجاء:

-اتّصلي مرّة أخرى...

-9-

انكمشت ياسمين على نفسها فوق السّرير، وهي لا تفلت كفّ الطّفل الرّاقد إلى جوارها. كانت ساقه قد ضمّدت وتلقّى محلول تجلّط الدّم منذ ساعتين الآن ثمّ سمح له بالرّجوع إلى المنزل، لكنّ دموعها لم تجفّ. توقّفت عيناها على وجهه الباهت، تحتضنه بنظراتها فضلا عن ذراعيها. لقد كان الشّحوب سمة ملازمة له منذ الأزل، لكن يهيّأ إليها أنّه قد ازداد حدّة بعد النزف.

كان أقرب مستشفى يقع على مسافة نصف ساعة من القرية. لقد حدّثتها نفسها منذ عرفت بمرض ولدها بضرورة الانتقال إلى المدينة، وشجّعتها والدتها على المجيء للإقامة معها في العاصمة. لكنّها اعتقدت أنّ اتّخاذها الاحتياط المناسب كافٍ. ولم تكن تريد حرمان والدي هيثم من الحفيد الذي يضمّد حضوره جرح الفقد النّازف. كانت حريصة، وحارسة لطفلها بعين لاتكاد تعرف النوم. لكنّها غفلت اليوم. لم تنتبه إلى وجود الدرّاجة في الشّرفة. كان عليها أن تكون أكثر يقظة. قرّعت نفسها للمرّة الألف.

دخلت زهور بخطى هادئة حتّى اقتربت منهما. قبّلت جبين الفتى، ثمّ همست لياسمين:

-لقد نام. يمكنك أخذ قسط من الرّاحة أيضًا.

قالت ياسمين في وجوم:

-لقد كان خطئي. ما كان عليه أن يركب الدّرّاجة.

قالت زهور بحزم:

-لكن كان خطأنا كلّنا، باستثنائك أنت! لقد كنّا جميعًا في الشّرفة، ولم نر الخطر الذي تمثّله الدرّاجة. كانت مزوّدة بعجلات خلفيّة، وبدت مستقرّة وآمنة. لقد كانت حادثة.. ولم يكن لك ذنب فيها.

تنهّدت ياسمين بحرقة. لقد عاشت تلك الحالة مرّة قبل ذلك، حين كان عزّ الدّين دون الثّانية من عمره. كان حديث عهد بالمشي، وما زالت خطواته مترنّحة. سقط في الحقل وخدشت ذراعه أشواك بريّة.

لقد عرفت درجة من الهلع لا يمكن تخيّلها، وقد غطّت الدّماء ذراع صغيرها بسبب خدش بسيط. حسبت حينها أنّ خطبا ما قد أصابه.. أنّ أفعى قد لدغته، أو أنّ شريانًا قد انقطع.. أيّ شيء قد يبرّر فيضان الدّماء التي أغرقت ثوبها وهي تركض به حتّى السيّارة، ثمّ الطّوارئ! في ذلك اليوم، لم تظنّ أنّه قد ينجو. في تلك المرّة أيضا، نُقل له كيس دم، ورقد في المستشفى لبعض الوقت تحت الملاحظة، وقد حيّرت الأطبّاء سيولة دمه غير الطّبيعيّة.

لقد وعدت نفسها بألّا يحدث ذلك مجدّدًا. لقد منعت عنه كلّ نشاط عاديّ لطفل صحيح في سنّه، حتّى حسبت الاكتئاب سيصيبه في سنّ صغيرة! وكيف يتحمّل طفل الحرمان من الرّكض والقفز والدّحرجة واللّهو بالحجارة وألواح الخشب وأدوات المطبخ؟ لقد نشأ هادئا منعزلا، يكتفي بها وتكتفي به.

لم يكن عليها أن تأخذه إلى المزرعة.

قالت زهور مرّة أخرى:

-لقد اتّصل عمر الرّشيدي منذ حين. كان يحاول الاتّصال

بعبد الحميد كثيرًا، لكنّنا لم ننتبه إلى الاتّصالات حتّى رجعنا من المشفى.

لم تكن ياسمين تودّ الاستماع إلى شيء من ذلك، لكنّ زهور أردفت:

-إنّه يشعر بالسّوء الشّديد. لقد كان في حالة صدمة حين رأى إصابة عزّ الدّين.

أغمضت ياسمين عينيها وقالت معلنة انتهاء الحوار:

-أظنّني سأخلد للنّوم الآن.

زفرت زهور وهي تنسحب بهدوء:

-نامي يا ابنتي.

***

فتح عمر عينيه في فزع. تطلّع إلى ساعة الحائط، ثمّ استقام جالسًا. عادت إلى ذاكرته بسرعة تفاصيل الأمسية

السّابقة: عزّ الدّين، الدرّاجة، والنّزيف. تفقّد هاتفه على المنضدة. لا اتّصالات واردة. لا رسائل. فكّر أنّ عليه الاتّصال مرّة الأخرى للاطمئنان على حال الولد. كان قد علم بعودته إلى البيت مساء الأمس. حالته مستقرّة، هذا ما قاله جدّه. حصل على مخدّر ونام. لكنّ القلق ما يزال يساوره.

دخلت آية وجلست على طرف السّرير، ثمّ قالت بحنوّ:

-هل نمت جيّدًا؟

أطلق همهمة خافتة، ولزم الصّمت لبرهة. ثمّ استدار ليطالعها بنظرة متفرّسة وقد تذكّر شيئا:

-ماذا كنت تقولين لياسمين بالأمس، حتّى جاءت منفعلة؟

عضّت آية شفتها السّفلى في عصبيّة وهي تسترجع تفاصيل حديثهما، ثمّ قالت:

-لم أكن أعلم أنّها ستغضب.. كنّا نتحدّث، و.. شكرتها.. هذا ما فعلته.

-شكرتها؟

-لأنّها سمحت لنا برعاية عزّ الدّين...

-ماذا قلتِ بالضبط؟

استقام جالسًا وقد استحوذ الحديث على كلّ انتباهه.

-حسنًا، ظننتها تعرف.

-تعرف ماذا؟

-أنّنا لا نستطيع الإنجاب!

-يا إلهي!

أغمض عمر عينيه وأخفى وجهه بين كفّيه ليسيطر على انفعاله. همست آية معتذرة:

-لم أعتقد أنّ الأمر سيؤثّر بها إلى تلك الدّرجة...

زفر بقوّة، ثمّ قال مترفّقا:

-خيرًا إن شاء الله.

لم يكن الأمر سرّا يودّ إخفاءه، فالحقيقة كانت ستكشف عاجلا أم آجلا. غير أنّ في الأمر مسّا من رجولته بشكل ما. ذلك النّقص الذي يشعر به، لم يكن يريد للآخرين أن يطّلعوا عليه.

لكنّ عقده النّفسيّة ليست أهمّ ما في الأمر الآن.

صار يدرك حساسيّة ياسمين الشّديدة إزاء كلّ ما يتعلّق بولدها. قد يهيّأ إليها أنّه حاول خداعها، أو يريد أخذ عزّ الدّين منها بطريقة ما. يصبح خيالها خصبًا تجاه الأمور التي تخشاها وتثير ذعرها. كلّ أمّ قد تهلع وتظنّ طفلها قد اختطف إن هو غاب عن ناظريها لدقائق.. وياسمين تبالغ أكثر من أيّ أمّ طبيعيّة. والآن يدرك أنّها كانت على حقّ في مخاوفها.

لقد كان يرمي إلى كسب ثقتها وثقة عائلة هيثم بتلك الزّيارة، لكنّ النتيجة تبدو معاكسة.

خمّن أنّها بعد ذلك الحديث وتلك الحادثة لن تسمح لعزّ الدّين بدخول المزرعة مرّة أخرى.

وقد كان محقّا في ظنّه.

***

ثرثرت نرجس في الصّباح التّالي، قالت بحماس فور دخولها المكتبة:

-لقد جئتك بالخبر اليقين، عن المالك الجديد لمزرعة التلّة!

كانت السيّدات اللّاتي جئن لتحضير الوليمة في عطلة نهاية الأسبوع قد أطلقن ألسنتهنّ وثرثرن في أذن كلّ من شاء أن يسمع. أردفت نرجس:

-الرّجل مغربيّ مقيم بسويسرا وزوجته من فلسطينيّي المهجر! سيّدة راقية بأتمّ معنى الكلمة! لقد رتّبا بالأمس مأدبة على شرف بعض أعيان المنطقة...

كتمت ياسمين ضحكة متهكّمة. أعيان؟! لم تشأ أن تهدم

خيالات البنت وتصدمها بحقيقة هويّة الضّيوف. خمّنت أنّ تجنبّها الإفصاح عن علاقتها بالسكّان الجدد للمزرعة أسلم. لم تكن تأمن أن تلوك الألسنة سيرتها ضمن شائعة جديدة تنتشر في القرية. لكنّ الأقاويل كانت محقّة بشأن آية. إنّها مثال للرّقة والأناقة واللّباقة.

انتبهت على صوت الجرس المعدنيّ مع انفتاح باب المكتبة. التفتت في تحفّز. لم يكن هو. ابتسمت وهي تستقبل الزّبونة وتساعدها على انتقاء بعض الأدوات من قسم القرطاسيّة، ثمّ عادت إلى مكتب الاستقبال. من موقعها كانت تلمح شبح نرجس التي انغمست في المخزن، تجرد المحتويات تحضيرًا لحسابات نهاية الشهر. وسرعان ما استسلمت لنسق الحياة الرّتيبة لأيّام العمل. إلّا أن عزّ الدّين لم يرافقها إلى المكتبة. كان يرقد في البيت حتّى يتماثل جرحه للشّفاء.

توقّعت أن يزور عمر المكتبة في وقت ما من ذلك الأسبوع، لكنّه لم يظهر منذ حادثة المزرعة يوم الأحد. اتّصل بعبد الحميد بشكل يوميّ ليطمئنّ على عزّ الدّين، اعتذر منه بحرارة مرّات كثيرة. لكنّه لم يأت. خمّنت ياسمين أنّ لحديثها مع آية دورًا في ذلك. لعلّه لم يجد بعد شرحًا مقنعًا يواجهها

به. تساءلت إن كان سيلتزم بالورشة مساء الجمعة، أم إن كان ينوي الاعتذار أيضا؟ فكّرت أنّ عليها الاتّصال للتّأكد من تواصل الورشة. لكنّها لم تكن تعرف رقمه. ثمّ قرّرت أنّها لا تحتاج الاتّصال. إن كان سيعتذر، فعليه المبادرة بإعلامها.

عليها أن تنتظر إلى الجمعة إذن.

ثمّ جاءت الجمعة، وتوافد الأطفال في حماس لحضور الورشة العلميّة. خلال وقت قصير، كانت قد غدت أكثر ورشات المكتبة نجاحًا. وكان لشخصيّة عمر المرحة والمنطلقة برفقة الأطفال دور كبير في ذلك. كانت تتناهى إليها بوضوح صيحاتهم الحماسيّة وهم يصنعون التّجارب الكيمائيّة بأيديهم، ولم تسمعه قطّ ينهر أحدهم أو يحتدّ من أجل المعدّات التي تتحطّم والمواد التي تدلق على الأرض في أحيان كثيرة. اعترفت لنفسها: كان موهوبًا في التّعامل مع الأطفال.. ما عدا عزّ الدّين.

لعلّها تبالغ في استيائها. لم ينو شرّا حين أراد إهداءه درّاجة.

لكنّه أخفى عنها حقيقة نواياه تجاه ولدها.

استمرّت طوال اليوم تقارع الحجج المؤيّدة والمضادّة، دون أن يهدأ لها بال.

ثمّ سمعت رنين الجرس يعلن دخول قادم جديد. كان هو هذه المرّة!

حيّاها بأدب ومرّ بها بهدوء دون أن ينظر إليها أو يتوقّف. مضى مباشرة إلى قاعة الورشة. تطلّعت إلى ساعتها. كانت الخامسة تمامًا. تنهّدت، وانشغلت بترتيب دفاتر العطلة التي وصلت ذلك الصّباح، فقد كانت الإجازة قريبة، ويزداد الطّلب هذه الفترة على دفاتر التّلوين ومجلّات الألعاب والقصص المصوّرة. حبست صراعاتها النّفسية في زاوية مظلمة من عقلها حتّى لا تفضحها ملامحها، وانغمست في العمل.

عند السّادسة والنّصف، أخذ الأطفال يغادرون المكتبة، يمرّون عليها ويلوّحون بعفويّة، فتردّ التحيّة بابتسامة وإيماءة. كان عمر آخر المغادرين. وقف فجأة أمام منضدتها وقال دون مقدّمات:

-العقم، إنّه من مخلّفات حريق المختبر.. لكنّني لم أعرف إلا منذ وقت قصير.

حبست أنفاسها في صدمة. لم تفكّر كثيرًا في من يكون العيب، هو أم آية. لم يكن ذلك يعنيها. لكنّ المفاجأة باغتتها. تابع يقول:

-قد يبدو من الأنانيّة أنّي لم آت لرؤية عزّ الدّين إلا بعد أن اكتشفت العلّة التي بي.. لكنّ هذا لا يعني أنّني لم أفكّر به في كلّ يوم، منذ خروجي من السّجن. بل منذ يوم الحادثة!

زفر بعمق، ثمّ تابع:

-لكنّني لم أمتلك شجاعة المواجهة إلّا بعد أن أدركت أنّني لا يمكن أن أخسر أكثر ممّا خسرت. وأنّ الإقدام على هذه الخطوة لم يعد يقبل التّأجيل.

إنّها لا تعرف أنّه يرعاهما عن بعد منذ زمن، وأنّ أوّل ما فكّر فيه بعد أن استعاد حريّته هو أن يصل إليهما. لكنّه لن يخبرها بذلك الآن. لن يمنّ عليها بفضله حتّى لو تحمّل جزاء ذلك اتّهامها بالتّخاذل. إنّ حفاظها على كرامتها وعزّة نفسها أهمّ عنده في تلك اللحظة من صورته في عينيها.

-لقد خجلت منكم، وحمّلت نفسي ذنب هيثم رحمه الله. لقد كان كلّ ما حصل بسببي.. لقد أخذته إلى تلك الطّريق...

قالت بصوت واهنٍ:

-طريق المقاومة والشّهادة ليست ممّا يُخجل بسلوكها!

-لكن طريق الفقد والفراق واليتم.. ليست ممّا يفخر المرء بقيادة أحد إليها.

تنهّدت:

-لقد كان ذلك قدره.. وقدرنا. وهو ممّا لا يمكن التنبّؤ به.

-نعم، لا يمكن التّنبؤ به.

ألقى عليها نظرة مودّع، ثمّ استدار لينصرف بهدوء.

-10-

حطّت بهما الطّائرة في مطار عمّان في يوم صيفيّ قائظ اشتدّ حرّه.

لم تكن آية قد رأت خالها لأعوام، وقد صارت الظّروف أصعب منذ رحيله عن دمشق مع كلّ الرّاحلين. ولم يكن عمر قد لقيه منذ زيارته في شتاء ٢٠١٠، رغم استمرار التّواصل البعيد بينهما قبل سجنه وبعده. كان يعرف إجمالا كيف تطوّرت الأحوال في مخيّم اليرموك، ثمّ في مختلف المناطق التي تنقّل عبرها قبل أن يستقرّ في عمّان. «لكنّ الخبر ليس كالمعاينة»! بات يدرك ذلك تماما. بدت على أبي الحسن آثار شيخوخة جليّة: ابيضّت لحيته حتّى صارت مثل حفنة قطن، وتجعّد جبينه بما يكفي ليعكس مدى المعاناة التي عاشها. غير أنّ بشاشته لم تتغيّر. استقبلهما بأحضان حارّة، ثمّ قال بلهجة ذات معنى:

-أتحرّق شوقًا لمعرفة سرّ هذه الزّيارة المفاجئة!

تبادل عمر وآية نظرات متواطئة، ولم ينطق أحدهما على

الفور.

بدأ كلّ شيء حين قال عمر منذ أيّام على نحو مفاجئ، بينما يتسامران في حديقة منزلهما السّويسريّ:

-فلنحتضن طفلا من المخيّم!

ما زال كلاهما يشير بلفظ «المخيّم» إلى أبناء الشّتات الفلسطينيّ الممتدّ من سوريا نحو أصقاع الأرض، رغم أنّ المخيّم لم يعد ما كانه لكن «مخيّم اليرموك» رمز، والرّمز لا يموت.

لم تصدّق آية أنّ تلك الكلمات فارقت شفتيه. استقامت في جلستها وحدّقت في عينيه بقوّة، كأنّها تتحدّاه أن يكرّر ما قاله. فأردف عمر وعلى ثغره ابتسامة واثقة:

-فلنفعل ذلك.

صفّقت آية بحماس، ثمّ وقفت لتدور حول نفسها في جذل.

كانا قد عادا من رحلتهما إلى تونس منذ أيّام قليلة. لقد

أحبّت المزرعة المطلّة على القرية من التلّة، وحياة القرية البسيطة والمريحة. غير أنّها شعرت بضيق غير مفسّر يخيّم على الأجواء. لم تر ياسمين منذ حادثة ابنها في المزرعة، فحدّثت عمر بضرورة الزّيارة والاطمئنان على الطّفل. إلّا أنّه منعها بلهجة قاطعة. كان يتّصل يوميّا بجدّه، لكنّه لم يذهب لزيارتهم، ولم يسمح لها بذلك أيضا. ولم تكن تفهم سرّ تصرّفه الغريب.

لم يأت على ذكر عزّ الدّين منذ ذلك الحين، ولم يحدّثها بشيء عن عائلة هيثم، بل اكتفى بمرافقتها في جولات سياحيّة حول المنطقة، ليشتّت انتباهها عن الأمر، رغم انشغال لبّه الواضح للعيان. وبعد أسبوع طلب منها أن تحزم متاعها وعاد برفقتها إلى منزلهما في الرّيف السّويسريّ.

أيقنت حينها أنّ خطّة احتضان الطّفل قد باءت بالفشل. وأنّ لها يدًا في ذلك.

لقد كان متغيّرًا في الفترة الأخيرة، كثير الصّمت والشّرود. ليس أنّه متحدّث لبق في العادة، لكنّ مزاجه كان أفضل مذ قرّر احتضان عزّ الدّين. كانت تشعر بالقلق إزاء سلوكه الجديد، وتخشى أن يعود إلى تجاهلها أو يحاول إرسالها إلى

«بون» مرّة أخرى. خمّنت أنّ من حقّه الغضب منها، رغم أنّها لم تتعمّد إفساد الأمر عليه. فلاذت بالصّمت.

لذلك فقد فاجأها قراره غير المتوقّع بمجاراتها. لقد كان ذلك طلبها منذ شهور.. وها هو يستجيب اليوم دون إلحاح منها! جلست إلى جواره على الأريكة ووضعت رأسها على كتفه، ثمّ قالت بلهجة حالمة:

-أريد أن تكون بنتًا!

-لماذا؟

-حتّى تكون صديقة مقرّبة منّي، ونفعل كلّ شيء معًا! إذا كان ولدًا فسيكون عليّ الاحتجاب عنه عند بلوغه.

هزّ رأسه في صمت. من أجل ذلك السّبب ذاته كان يفضّل ولدًا. إذا بلغت البنت فسيكون عليها أن تحتجب عنه، وإن كان قد ربّاها، فهو يبقى أجنبيّا عنها. لكنّه لم يناقشها. إنّه يفعل هذا من أجلها. لقد رضيت بالتّضحية بأمومتها من أجله، أفلا يسعه أن يرضيها بهذا على الأقل؟ قالت في لهفة:

-متّى نسافر إلى عمّان؟

ضحك عمر ثمّ قال:

-ما رأيك في الاتّصال بخالك أبي الحسن أوّلا؟ ربّما بوسعه أن يهيّئ لنا الأمر.

زوت ما بين حاجبيها على الفور وقالت في عبوس:

-لا أريد الانتظار! أشعر أنّني سأتعرّف إلى طفلتي حين أراها.

لقد ركبا الطّائرة، وحلّقا لساعات، وهي لا تكفّ عن وصف الطّفلة التي تتمنّى احتضانها. وكانت المواصفات تتغيّر في كلّ مرّة! بين الشّعر الأسود النّاعم والخصلات الكستنائيّة الملتفّة، والعيون العسليّة وتلك الخضراء الزّيتونيّة.. كانت تبدو طفلة في تلك الآونة، تتأهّب لاقتناء دمية جديدة، لكنّها لا تستقرّ على رأي.

سارا برفقة أبي الحسن إلى سيّارته، لتقطع بثلاثتهم الطّريق التي تفصلهم عن منزله في ضواحي عمّان.

كان أبو الحسن قد ترك مخيّم اليرموك حين تفجّرت الأوضاع في دمشق في ٢٠١٣. غادره مع عشرات الآلاف من الفلسطينيين والسوريّين النّازحين بعيدًا عن الدّمار، بعد أن استحالت الحياة على الأراضي السّوريّة. جاء مع جماعة من أهله واستقرّ بهم المقام أخيرًا قرب عمّان بعد رحلة شاقّة، في حين نفر آخرون إلى لبنان ومصر، أو أخذتهم قوارب الموت إلى سواحل أوروبا، ليصل بعضهم ويغرق الكثيرون.

كان منزل أبي الحسن عامرًا بالضّيوف مثل عادته. اختلف الموقع، لكنّ عادات الرّجل كما هي. أطفال وشباب من مختلف الأعمار، يأتي بعضهم في أوقات متفرّقة من النّهار إلى نادي الرّياضات القتاليّة، الذي استأنف عمله في المقرّ الجديد، وآخرون لقضاء حاجات شتّى، أو للاستئناس بمجلس الرّجل لا غير.

حين وصلوا، كان النّهار قد شارف على نهايته. انسحبت آية إلى داخل الدّار لتستقبلها أمّ الحسن بحفاوة، ثمّ مدّت مائدة العشاء على شرف الضّيفين. وفي المساء، جلس عمر إلى مضيّفه في الفناء، يتسامران رفقة أكواب الشاي، وقد انضمّ إليهما نفر من الزوّار الدّائمين: حامد تاجر الخردة، ومؤدّب الكتّاب، الشّيخ عبد الرّحمان، بالإضافة إلى رامي مساعد أبي

الحسن في قاعة التّدريب. سأل عمر في اهتمام عن معارفه القدامى:

-أين ذهب الشّيخ حازم؟ وياسين؟

كان الشّيخ حازم مؤدّب الكتّاب في مخيم اليرموك، في فترة زيارة عمر، منذ ستّ سنوات خلت، وياسين جاره في دار الضّيافة، ومساعد أبي الحسن القديم. تنهّد أبو الحسن قبل أن يقول في حنين:

-الشّيخ حازم.. «عطاك عمره»!

ترحّم الجالسون بصوت واحد على الفقيد، ثمّ أضاف أبو الحسن:

-لقد استشهد أثناء قصف الطّيران في ٢٠١٢.. قصفوا مدرسة الكرمل، في شارع المدارس التي كانت قد لجأت إليها عوائل مهجّرة من العاصمة.. وقصفوا جامع عبد القادر الحسيني في شارع عزّ الدين القسام الذي كان يؤوي الكثير من النّازحين من الأحياء المجاورة.. فسقط العديد من الشّهداء والجرحى...

في بداية الحرب السّورية، في ٢٠١١، كان المخيم نفسه ملجأً لكثير من أهالي ريف دمشق وسكّان أحياء العاصمة التي تعرّضت للقصف، وبقي المخيّم آنذاك هادئًا نسبيًّا وبعيدًا عن التّوترات. لكن في منتصف عام ٢٠١٢، كان مخيم اليرموك مسرحًا لقتال مكثف بين قوات النّظام السّوري والجبهات المعارضة. ثم استولت على المخيم فصائل مختلفة وحُرم من الإمدادات، مما أدّى إلى تفاقم الجوع والأمراض وارتفاع الوفيات. بحلول نهاية عام ٢٠١٤، انخفض عدد سكان المخيم إلى عشرين ألف شخص فقط، فقد نزح معظمهم إلى الدّاخل السّوري، وعبر آخرون الحدود.

-لم نرحل حتّى غدت الحياة مستحيلة لنا هناك. نحن لاجئون هنا وهناك.. ومن عرف التشرّد وضياع الأرض لا يفرّط بسهولة في وطنه الجديد! لقد بقينا، حتّى قالوا لا حياة لكم هنا بعد الآن! ظهرت السيّارات المفخّخة، أخذت المباني تتساقط مثل الورق! دخلت الدّبابات من الشّارع الواصل بين المخيّم وحي الحجر الأسود، وقصفت البيوت بلا رحمة.

كانت ملامح أبي الحسن تتجعّد، وهو يستذكر تفاصيل الحرب التي عاشها.

-حاصرونا لستّة أشهر أو تزيد، منعوا وصول السيّارات، وأغلقوا المشافي والمدارس.. قطعوا عنّا التيّار الكهربائيّ لشهور متواصلة.. جاعت بطوننا، وأخذ النّاس يتساقطون في الشّوارع! أي والله، يسقط النّاس من الجوع! شحّ الزّاد حتّى أفتى العلماء بأكل لحوم الكلاب والقطط الهزيلة. وحين جاءت سيّارات إسعاف وحاولت إجلاء عدد من المرضى والجرحى، أطلقوا عليهم النّار ليعودوا أدراجهم! حتّى المساعدات الغذائيّة التي قيل أنّها أرسلت إلينا، فقد نُهبت قبل أن تصل.. كانت أيّاما ضنكة، لم أر أسوأ منها، ولا حتى على يد الصّهاينة! قاتلهم الله!

أطرق عمر في صمت وقد دمعت عيناه. يذكر تلك الأيّام، وقد كانت تأتيه الأخبار داخل سجنه. لقد بلغت مأساة المخيّم درجة من البشاعة لا يمكن تخيّلها. حتّى أنّ الدّاخل الفلسطينيّ تكاتف لجمع التبرّعات لنصرة ذويهم اللاجئين المحاصرين في اليرموك! انطلقت حملة شاركت فيها ستّون محطّة إذاعيّة فلسطينيّة، اشتركت في بثّ موحّد يحمل اسم: «هنا مخيّم اليرموك».

-حين وصلنا إلى الأردن، بشقّ الأنفس، لم يكن الوضع

أفضل.. فقد رفضت الأردن رسميّا استقبالنا.. احتجزنا في مجمّع «سايبر سيتي»، وهو مكان قميء لا يصلح للسّكنى، مليء بالعقارب والأفاعي.. ولم يكن يُسمح لنا حتّى وقت قريب بمغادرة المجمّع الموبوء.. كأنّنا في «منفى». بقينا هناك، لأمد طويل، ولم يغادر منّا إلا من حصل على تصريح رسميّ للالتحاق بالمناطق الحضريّة.

تنهّد، ثمّ استطرد:

-لقد كان مخيّم اليرموك مأوانا لعقود، حتّى حسبناه يدوم.. فإن تركناه عدنا إلى أراضينا في فلسطين. حتّى بعد أن تعوّدنا حياة المخيّمات، فإنّ كلّ المخيّمات لا تتشابه!

استمرّ الصّمت لبرهة، ولم تكن تسمع إلا تنهيدات حارّة تغادر الحلق بحرقة.

ثمّ استعاد أبو الحسن بهجته وهو يستطرد:

-أمّا ياسين، فقد وصل إلى ألمانيا طالبا اللّجوء! المحظوظ، تزوّج هناك ورزق ولدين.. عرفت من أهله الذين لم يتركوا الأراضي السوريّة. اتّصل مرّتين منذ رحيله.

-ما شاء الله!

أومأ عمر في استحسان. في تلك الأيّام، كان ياسين شابّا متمرّدا يغلب على طبعه الطّيش. لكنّه الآن قد غدا رجلًا راشدًا ومسؤولًا عن عائلة.

حين خلت الجلسة إلّا منهما في نهاية السّهرة، حدج أبو الحسن ضيفه بنظرة سابرة ثمّ سأله:

-كيف أنت وآية؟

التفت إليه عمر، ولزم الصّمت لبعض الوقت. كان الرّدّ العفويّ «نحن بخير» يتلكّأ على طرف لسانه، وفي جوفه اعترافات أخرى متزاحمة ولا يعرف كيف يصوغها، ولا إن كان الإفضاء بها خيارًا سليمًا. قال أخيرًا:

-نحن نريد طفلا.

اختار تلك الصّيغة بدلا من «نحتاج طفلا»، أو «آية تريد طفلا». لكلّ منها درجة من الصحّة. لكنّه يحاول أن يكون متكتّمًا وصادقًا في آن. أبو الحسن يستحقّ منه أكثر من

إجابة فضفاضة وردّ ديبلوماسيّ. لكنّه لا يرغب في إلقاء أحماله على كتف أخرى. ليس بعد.

-الطبيب قال أنّ الحمل مستحيل. لذلك اقترحت آية أن نحتضن طفلا من المخيّم...

أومأ أبو الحسن في تفهّم. كان يدرك أكثر من غيره تلك الرّغبة. لم يكن هو الآخر قد رزق بالذّرّية، وأمّا كنيته فهي نسبة إلى أبيه -الحسن- لا إلى ولد له. غير أنّه اختار أن يكون أبًا لكلّ أطفال المخيّم وشبابهم. لم يحتضن طفلا يخصّه بالرّعاية، بل فتح باب داره لكلّ واحد منهم، سواء كان يتيمًا أم فقيرًا، أم طائشًا أعيت والديه الحيلة وأبى أن يستقيم.. فكانا يرسلانه إلى أبي الحسن ليصلح أمره على يديه! وكانت زوجته أم الحسن تعرف بـ «الخالة» في مخيّم اليرموك، فهي خالة مقرّبة من بنات الحيّ، يأتينها ليفضفضن لها ويحدّثنها بما يشغلهنّ حين يخجلن من أمّهاتهنّ.

-اطمئنّ، حاجتك عندي.

أومأ عمر شاكرًا. أبو الحسن دائمًا ما يتدبّر الأمر. ألم يتكفّل بشأن دخوله إلى غزّة منذ سنوات؟ يعرف ألّا شيء يعجزه.

تسلّلت آية إلى مجلسهما بعد أن اطمأنّت إلى انصراف باقي الضّيوف. نظرت إلى زوجها وهمست:

-هل أخبرته؟

فهزّ عمر رأسه بابتسامة خفيفة. التفتت إلى خالها وهتفت:

-أريد بنتًا.. وحبّذا ألا يتجاوز عمرها السّنتين!

أطرق أبو الحسن ثمّ قال بلهجة جادّة:

-الطلب غزير في الأردن على احتضان الأطفال الذين لا تتجاوز سنّهم السّنوات الثلاث. لذلك قد يستمرّ الانتظار لشهور، وربّما لسنة كاملة حتّى يصلكما الدّور!

تبادل عمر وآية نظرات قلقة، فأردف:

-لا بأس. فلنبدأ بالخطوة الأولى، تقدّمان طلبًا رسميًا ثمّ ننظر ماذا يحصل. قد يحالفكما الحظ.

تنهّد، كان أمر هؤلاء الصّغار يؤرقه. كلّ من يريد الاحتضان

يبحث عن طفل حديث الولادة. أمّا أولئك الذين تجاوزوا السّادسة أو السّابعة، فإنّهم غير مرغوبين. إنّه يستوعب رغبة الزّوجين، فهما يفضّلان أن ينشأ الطّفل في حضن العائلة وألا يحتفظ بذكرى حياته السّابقة في دار الرّعاية، أن يكبر تحت أعينهما ويعاصرا كلّ مراحل نموّه. لكنّ ذلك قاسٍ جدًا على الأطفال. معظمهم ينتهي به الأمر على قارعة الطّريق مبكّرًا، يترك الدّراسة وينقم على المجتمع. لذلك، يبقى بابه مفتوحًا لهم في كلّ وقت.

حين انسحبت آية إلى الدّاخل من جديد، قال أبو الحسن وهو يسرح بنظراته إلى السّماء:

-حين أراك اليوم، أتذكّر لقاءنا الأوّل في ديسمبر ٢٠٠٩، لقد كانت في ملامحك نفس الحيرة والتردّد.

حسنًا. كان ذلك يختصر عليه مسافات لم يكن يودّ أن يقطعها وحيدًا. اعترف في خجل:

-لقد جئتك في ذلك الوقت أبحث عن غايتي الكبرى.. ولقد رجعت اليوم والسّؤال نفسه ما زال يلحّ عليّ. ليس أنّي لم أعثر على الإجابة قطّ! لقد عشت سنواتٍ من الرّضا

والاكتفاء، وبين عينيّ قضيّة تشغل كلّ حواسّي.. لكنّها أخذت منّي عنوة. لقد استعدت حرّيّتي، لكنّني فقدت في سبيلها الكثير!

ابتسم أبو الحسن ثمّ قال:

-انظر إليّ يا ولدي.. ماذا ترى؟

حدّق عمر في عينيه في دهشة وتساؤل، لكنّه جاراه. قال بإخلاص:

-أرى رجلا أفنى عمره في خدمة شباب المخيّم، قلبه محيط يسع الكلّ، وروحه مظلّة تقيهم شرور العالم!

ضحك أبو الحسن حتّى ظهرت نواجذه ثمّ قال مازحًا:

-لم أعرف أنّك تقول الشّعر!

ثمّ أضاف بلهجة حانية:

-هذه حياة أرتضيها، وأهبها خالصة لوجه الله. ليست فيها

بطولات ولا معارك. لم أقف يومًا في وجه عدو ولا حملت سلاحًا، ولا خضت ما خضته أنت من مهالك! هذا ما أفعله: أترك أثرًا بسيطًا. وهذا ما يجدر بك أن تضعه تصب عينيك: ليست الغايات الكبرى منوطة بإنجازات مبهرة. غايتك الكبرى قد تكون في تعليم طفل، أو حفر بئر، أو اختراع ينفع البشريّة. أنت على الطّريق ما دمت تقدّم ما تقوى عليه، وتحقّق فرقًا في محيطك المباشر. غايتك الكبرى ليست في مواجهة الأخطار والعيش في قلق مستمرّ، كأنّ روحك على كفّك! سيكون لديك خلال وقت قصير عائلة وأطفال يحتاجون رعايتك. فكّر فيهم أيضا. اجعلهم غايتك الكبرى.

***

حملت أسابيع العطلة الأولى أخبارًا طيّبة من وراء البحر. اتّصلت رنيم لتهتف في ابتهاج:

-مبارك، لقد صدر الحكم لصالح والدك!

تنفّست ياسمين الصّعداء. أصغت إلى صديقتها وهي تحدّثها بحماس عن حكم المحكمة بتجريد أختها من كلّ الممتلكات التي سبق واختلستها من والدها، وتغريمها

بمخالفة ماليّة هامّة. لقد تأجّلت الجلسة عدّة مرّات، لكنّ سارة امتنعت عن الحضور في كلّ منها. غير أنّ ذلك لم يمنع القاضي من إصدار الحكم غيابيّا.

-سيكون من دواعي سروري أن أرافق الفرقة العدليّة لمصادرة ممتلكات سارة بعد يومين. هل تريدين تصويرًا مباشرًا للمداهمة؟

ضحكت ياسمين بمرارة. لم تكن تتوقّع أن تتصاعد الأحداث بينها وبين أختها إلى تلك الدّرجة.

-ماذا عن ريّان، ألم يظهر؟

-لا أحد منهما استجاب لاستدعاء المحكمة.

تنهّدت ياسمين. كانت تأمل أن ينجح ريّان في إقناع شقيقته بالتّعاون، حتّى لا يؤول الأمر إلى استخدام القوّة. لكنّها قد استنفدت كلّ مساعي الصّلح بلا فائدة. تلك الأواصر العائليّة الهشّة قد تهتّكت بلا رجعة.

دخلت على والدها في عزلته. أزاحت السّتارة لتنبّهه من

حالة شبه النّوم المتواصلة التي يغرق فيها غالب اليوم، فعبست ملامحه انزعاجًا من ضوء النّهار. قالت في مرح وهي تجلس على طرف سريره:

-تهانينا! لقد ربحتَ الدّعوى القضائيّة! حكمت المحكمة باسترداد كلّ ممتلكاتك!

لمحت تلك اللّمعة العابرة في عينيه، تلك التي تظهر لثانية واحدة في كلّ مرّة ينتبه فيها لحديث يهمّه، أو يزوره شخص يتعرّف إليه، ثمّ تدحرجت دمعة يتيمة على وجنته. جمعت كفّيه بين راحتيها، وقالت في حزم:

-يجب أن تتماثل للشفاء الآن.. يجب أن تنتصر على المرض!

شعرت بأصابعه تضغط على راحتها بوهن، وبهزّة خفيفة من رأسه. ابتسمت. تعرف أنّه لن يستسلم.

-11-

سبقته آية إلى داخل المبنى وقد أنبتت لها الحماسة جناحين غير مرئيين. لم يمض أسبوع واحد، حتّى أنبأهما أبو الحسن بأنّ هناك طفلة قد تكون مناسبة لهما. لم يصدّق أحدهما أنّ الأمور يمكن أن تتيسّر بتلك السّرعة. قالت آية وهي ترنو إلى عمر في انفعال:

-إنّها إشارة ربّانية!

كانت الغرف تعجّ بالأطفال من مختلف الأعمار -أيتام من أهل المخيّمات غالبًا- ساقتهم ظروف الفقد والقهر والفاقة إلى حضن دار الرّعاية. مرّر عمر كفّه على الرّؤوس، يربّت عليها بحنوّ ويوزّع الابتسامات والحلوى. توقّف بصره فجأة على فتى في السّابعة ربّما. كانت في عينيه نظرة فريدة، فيها إباء ونضج سابق لأوانه. بشكل ما، كان يذكّره بعزّ الدّين. اقترب من الولد، جثا إلى جواره وسأله:

-ما اسمك؟

قال بصوت مبحوح خافت:

-صهيب.

-هل تذهب إلى المدرسة يا صهيب؟

أومأ الولد بلا كلمات.

-وكيف هي درجاتك؟

-جيّدة.

-إذن أنت تستحقّ هديّة! ما الذي تريده؟

انطلقت أسارير الطّفل وهتف بصوت واضح:

-درّاجة!

شعر عمر بألم مفاجئ في صدره، وهو يتذكّر الدّراجة التي أهداها لعزّ الدّين منذ أسابيع.

اقتربت المشرفة على الأولاد ونهرتهم ليتفرّقوا، ثمّ قالت لعمر:

-اعذرهم، فالزوّار قليلون.. والتقرّب منهم قد يمنحهم أملًا كاذبًا. إن كنت لا تنوي العودة، فأرجو أن تحتفظ بمسافة كافية.

أومأ عمر في تفهّم. لم يكن في نيّته أن يلهو بعواطفهم وآمالهم، لكنّه انجذب إلى ذلك الولد بلا إرادة منه. أضافت الموظّفة بلهجة حزينة:

-أغلبهم فلسطينيون وسوريّون، فقدوا عائلاتهم خلال الحرب الأخيرة. ذلك الولد، صهيب.. قطع الرّحلة مع والديه إلى هنا، لكنّهما أصيبا بمرض معدٍ في مخيّم الزّرقاء، وتوفيا. لقد نجا بأعجوبة.. كان في غاية الهزال حين جيء به إلى هنا.

تنهّد عمر في أسف. ما زال النّاس في القرن الواحد والعشرين يموتون لأسباب بدائية، علاجها بسيط.. لو توافرت الظّروف الصحّية المناسبة.

-لكنّ هذه ليست كلّ القصّة! حين استعاد صحّته، رغبت في احتضانه عائلة أردنيّة.. لكنّهم أعادوه إلى الدّار بعد أشهر قليلة!

هتف عمر في صدمة:

-أعادوه؟

-هذا يحصل للأسف. لقد كان في سنّ حسّاسة حين وقع احتضانه.. الأطفال في سنّ الثالثة صعبو المراس، والعائلات التي لم يسبق لها الإنجاب قد لا تقدر على احتواء الطّفل وتقبّل سلوكه العنيد.. وقد ينتهي بهم الأمر إلى إعادة الطّفل إلينا، كما حصل مع صهيب.

نادته آية من الغرفة الخاصّة بالأطفال الرّضّع، فحثّ الخطى ليلتحق بها. كانت ترفع بين ذراعيها طفلة لا تتجاوز سنّها الشّهور الخمسة، وقد التمعت في عينيها نظرة أمومة صافية.

-انظر! أليست مدهشة؟

داعب عمر الرّضيعة ذات الخصلات الكستنائيّة القصيرة، فالتقطت بكفّها الصّغيرة النّاعمة سبّابته وأطلقت صوتًا رقيقًا تذوب له القلوب. ابتسم عمر. كانت طفلة بهيّة الطّلعة، جميلة المحيا، وفيها شيء آسر لا يدري كنهه. قالت المشرفة تشرح لهما:

-هذه هي الطّفلة التي حدّثتكما عنها. لقد هربت أمّها من سوريا، بعد أن مات والدها تحت القصف. عبرت الحدود مشيا على الأقدام. حين وصلت إلى الأردن، كانت تعاني من حالة جفاف شديد.. ماتت أثناء وضعها.

كانت آية قد وقعت في حبّها منذ النّظرة الأولى. بوسعه أن يقرأ ذلك على صفحة وجهها.

-ألم أقل لك؟ حين أراها، سأعرفها!

كان نوع من التّواصل العجيب قد نشأ بينها وبين الطّفلة على الفور. استكانت الرّضيعة بين ذراعيها، وافترّ ثغرها عن ابتسامة صافية، جعلت ملامح آية تنضح بِشرًا، كأنّها قد حازت الكون بين كفّيها.

-اسمها آلاء.. وهي اسم على مسمى، نعمة من الله!

تبادل وآية نظرة طويلة، وقد تسارعت نبضاتهما. هل تكون تلك طفلتهما المنشودة؟

قاطعت المشرفة لحظة تواصلهما المدهشة وهي تقول:

-يجب أن تكونا على بيّنة، لقد رأت ستّ عائلات قبلكما الطّفلة، لكنّ أحدها لم يرض باحتضانها.

شهقت آية في عدم تصديق:

-كيف يمكن لأحد أن يرفض هذا الملاك؟!

-لقد ولدت آلاء بثقب في القلب. حالما تعرف العائلات بملفّها الطبيّ فإنّهم ينسحبون على الفور. سيشرح لكما طبيبها الحالة بالتّفصيل إذا رغبتما في لقائه.

سيطر الصّمت على ثلاثتهم لبرهة. ثمّ قالت آية بتأثّر:

-يا للصّغيرة المسكينة. لن تشعري بالوحدة أو الرّفض بعد

الآن، أعدك يا طفلتي!

همس عمر بهدوء:

-هذا قرار هامّ جدّا، يجب أن نكون واثقين. لا أقصد بشأن مرض آلاء وحسب.. لكنّ احتضان طفل مسؤوليّة كبرى.

هزّت آية رأسها بسرعة، ثمّ أضافت:

-سنأخذ الوقت الكافي لاتّخاذ القرار. في الأثناء، يمكننا تمضية بعض الوقت معها كلّ يوم.. حتّى تألفنا، ونألفها...

قال بلهجة جادّة:

-علينا التأكّد من نسبها وإن كان هناك وصيّ من عائلتها.

-نعم، بالتّأكيد.

كانت نظرات آية قد تعلّقت بوجه الطّفلة في رجاء، كأنّها تخشى تبخّرها فجأة.

-هل يمكننا البقاء أكثر؟

-ابقي أنت.. سأعود بعد قليل.

خرج عمر من المبنى على عجل. غاب زهاء السّاعة، ثمّ عاد وهو يحمل صندوقًا من الحجم الكبير يفيض ألعابًا متنوّعة. سلّمها إلى المشرفة لتوزّعها على الأطفال، ثمّ سحب درّاجة وراءه وهمس لها جانبا:

-هذه من أجل صهيب.

***

تماثل عزّ الدّين للشّفاء خلال أسبوع، لكنّ ياسمين فضّلت بقاءه في البيت لأيّام أخرى، إمعانًا في الاحتياط. وكانت تتّصل بزهور كلّ ساعة، لتطمئنّ إلى ما يفعله. وكان الطّفل يكرّر السّؤال في كلّ مرّة.. عن عمّه عمرا متى يأتي لزيارته، وهل يمكنه أن يرافقه إلى المكتبة والمزرعة؟ فكانت تتهرّب من السّؤال، تغيّر الموضوع وتشتّت انتباهه.

لقد كان هذا ما خشيته. أن يختفي عمر فجأة مثلما ظهر.

ليس أنّه لا علاقة لها باختفائه! لكنّ الأمر صار معقّدا فجأة، بعد مجيئه بزوجته. لقد شرح وجهة نظره، ولعلّها قبلت عذره بينها وبين نفسها وتجاوزت الحادثة. لكنّه لم يطلب فرصة ثانية. لقد طلب فرصة ثانية حين تعلّق الأمر بورشة العلوم بالمكتبة! لكنّ كرامته منعته من توسّل مساحة في حياة ولدها.

لقد آلمتها عباراته. ليس من الهيّن أن يُحرم المرء الذرّيّة. وهل يسعها أن تتخيّل حياتها دون عزّ الدّين؟ إنّ حضوره في كلّ ساعة من ساعات يومها وليلها هو ما يهوّن عليها الاستمرار في الحياة بعد هيثم!

كانت قد قرّرت أنّها مستعدّة لبدء صفحة جديدة، إن هو عاد ثانية. لكنّه لم يفعل حتّى ذلك الحين.

حين رجعت من المكتبة في المساء، ناداها عبد الحميد من الصّالة، قال حين أصبحت عند الباب:

-لقد اتّصل عمر الرّشيدي اليوم.

تنبّهت حواسّها في تحفّز. لم يكن يحدّثها من قبل عن

اتّصالاته، فإذا فعل اليوم فلا شكّ أنّ الأمر يخصّها. واصل عبد الحميد:

-قال أنّه يعتذر عن تنشيط ورشة المكتبة هذا الأسبوع.. لسفر طارئ.

تنفّست. هكذا هو الأمر إذن. سيشرع في الانسحاب تدريجيّا حتّى يختفي تماما. اليوم يعتذر، والأسبوع المقبل يلغي، ثمّ يعلن نهاية الورشة، لأنّ الظروف تغيّرت. أومأت في تفهّم، ثمّ انسحبت إلى غرفتها. جلست إلى جوار عزّ الدّين الذي كان يطالع التّلفاز في ملل، وأخذت تمسّد خصلات شعره الرّماديّة في سرحان. رفع الولد عينيه إليها وقال بغتة:

-ماما، لماذا تبدين حزينة؟

هتفت في دهشة:

-أنا؟ كيف هذا؟ أنا أكون سعيدة كلّما رأيتك!

اتّسعت الابتسامة على وجهه الصّغير، ثمّ قال:

-لكنّك صامتة على غير العادة.

كانت هي من تثرثر عند عودتها من العمل، تستفزّه ليحدّثها عن يومه. لكن لا رغبة لها اليوم في الحديث عن يومها. كان عليها أن تحمل إلى الأطفال يوم غد خبر إغلاق ورشة العلوم. وإلى طفلها خبر غياب العمّ عمر إلى أجل غير مسمّى، وربّما إلى الأبد.. وكانت تحمل همّ الحزن الذي ستقرؤه على وجوههم. لذلك هي حزينة.

-12-

لقد كانت آية تخشى أنّ إحساس الأمومة لديها سيكون مرتبطًا بالحمل والولادة. لم تكن تهتمّ بالأطفال في السّابق. ليست من النّوع الذي يبالغ في الحفاوة بصغار الآخرين، ويستمتع بمداعبتهم وقضاء الوقت معهم. بعض الأشخاص يتمتّعون بتلك الميزة الفطريّة، عمر من ذلك النوع.. لكن ليس هي.

رغم تظاهرها بالحماس، كانت في أعماقها ترهب لحظة دخول دار الرّعاية. تخاف ألّا يحرّك داخلها مرأى الأطفال سوى الإحساس بالشّفقة والعطف تجاههم. وذلك كان ليعني فشلها في تقبّل فكرة الاحتضان التي تدّعي الرّغبة فيها! كان كلّ ما يدفعها إلى الأمام حتّى تلك اللّحظة حبّها لعمر، وفرَقها من فقده. وكانت مستعدّة لتفعل أيّ شيء ليبقى إلى جوارها.

غير أنّ كلّ شيء انقلب رأسًا على عقب عندما وقعت عيناها على تلك الصّغيرة!

أيقنت في تلك اللّحظة أنّ بعض اللّقاءات مقدّرة. وكان

قدرها أن تلتقي آلاء، فتسكن على الفور في سويداء فؤادها، كأنّ ذلك هو موقعها الطّبيعي! وإنّها لتعجب من كون تلك الطّفلة تنتسب إلى أشخاص آخرين، كأنّ انتماءها كان منذ الأزل لها ولعمرا كانت تقول وهي تشير إلى الغمّازتين على وجنتيها:

-انظر، لها نفس غمّازتي! وعيناها، إنّهما مثل عينيّ تماما!

لعلّها صدّقت، أنّ آلاء طفلتها الحقيقيّة. لا تدري كيف حصل ذلك، لكنّها لم تعد تقبل فكرة الافتراق عنها. كانت تأتي إلى دار الرّعاية منذ الصّباح الباكر، فتمضي اليوم برفقة الطفلة، تحمّمها وتلبسها الثياب الجديدة التي أحضرتها لها، ثمّ تطعمها وتلاعبها وتغيّر حفاضها.. وتتدرّب على كلّ مهام الأمومة الطّبيعية.

في الأثناء، كان عمر يسعى لإنهاء المعاملات الإدارية الخاصّة بالاحتضان. كان عليهما الخضوع لفحوصات طبيّة لإثبات عدم إصابة أحدهما بمرض مزمن أو معدٍ، والتّصريح بالممتلكات والمداخيل التي تبيّن كفاءتهما المادّية واستعدادهما لاستقبال الطّفلة، ولم يبق سوى التّحقّق من نسبها. لم يكن ملفّ الطفلة يشير إلى أقرباء من الدّرجة

الأولى، لكنّ البحث الموسّع أثبت أنّ لها عمّا على قيد الحياة. وكانت تلزمهما موافقة العمّ على الاحتضان، غير أنّه لا يمكن العثور عليه في أيّ مكان!

كان عمر يأتي لينضمّ إليها في آخر النّهار، وقد أصابه الإحباط. لم تكن الأبحاث تحرز أدنى تقدّم. لا أثر للعمّ في سجّلات مخيّمات اللّاجئين ولا في تصاريح الإقامة الأردنية. والقاضي لن يحكم بإسناد الحضانة إليهما بدون موافقته. يزمجر عمر في ضيق:

-ربّما ترك المخيّم خلسة؟ ربّما لا يملك تصريحًا بالإقامة؟ كيف يمكن العثور عليه إذن؟

تخفّف عنه آية وهي تربّت على كتفه:

-غدًا سيكون أفضل، أنا واثقة!

كانت على يقين بأنّ آلاء ستكون لها.

يهزّ عمر رأسه يجاريها في تفاؤلها، ويمضي بعض الوقت برفقتها، ثمّ يترك مقعده. يتّجه رأسًا إلى غرف الأطفال الأكبر

سنّا، فيبحث عن صهيب بعينيه. تتهلّل أساريره حين يقع بصره على الطّفل، يركل كرة أو يطالع مجلّة، فيشير إليه ليقترب.

-هل تعلّمت كيف تقود الدّرّاجة؟

يهزّ الولد رأسه في أسف.

-لم تسمح لي المشرفة باستخدامها.

-تعال، سأهتمّ بالأمر.

تبادل عمر مع المشرفة بعض الكلمات، ثمّ عاد ليأخذ الأولاد إلى السّاحة. واحدًا إثر الآخر، أخذوا يتداولون على ركوب الدّرّاجة، تحت مراقبة عمر وبناءً على تعليماته. ثمّ جاء دور صهيب، فوضع قدميه على الدّوّاستين بحذر أوّلا، ثمّ اندفع إلى الأمام وقد استبدّ به الحماس. حين اقترب من الجدار، انعطف فجأة وقد نسي موضع الفرامل، فترنّحت الدّراجة ومالت على جانبها. قبل أن تسقط على الأرض، كان عمر قد هبّ إليه مسرعًا. رفع الطّفل عاليا بين ذراعيه وترك الدّراجة تهوي. ابتسم وهو يضعه على الأرض سليمًا معافى:

-أمسكتك!

فضحك الولد بمرح قبل أن ينطلق ليعاود اللّعب.

تابعه عمر بنظرة راضية. إنّه يتعلّم من أخطائه. يريد أن يكون أبًا جيّدًا.

***

كانت نائمة.

غير أنّها لم تعرف النّوم العميق منذ سنوات، مذ صارت أمّا.

لذلك تنتبه لأبسط الأصوات من حولها.

كانت قد أوت إلى سريرها منذ ساعتين. أيقظها صوت هامس رقيق قادم من السّرير المجاور. انتبهت وتيقّظت حواسها بسرعة، دفعت عنها اللّحاف واقتربت برفق من مرقد طفلها لتصغي. تعالى الأنين بوضوح هذه المرّة. شعرت بحرارة جسده تغمرها قبل أن تلامس أناملها جبينه الحامي. تراجعت في جزع، ثمّ بحثت في الدّرج عن مقياس الحرارة.

عادت لتدخل طرفه في أذنه، وتترقّب لثوانٍ قبل أن تطالع الشاشة الإلكترونية بقلق: كانت تومض بلون أحمر يعلن عن ارتفاع حرارته بشكل واضح!

تطلّعت إلى السّاعة التي تشير إلى منتصف اللّيل وبضع دقائق. ما زالت ساعات كثيرة تفصلها عن الصّباح. أيقظته برقّة وسقته خافض الحرارة، ثمّ وسّدت رأسه على ركبتها، وتركته يغطّ في النّوم مجدّدا، بينما لم يغمض لها جفن حتّى ساعات الفجر الأولى. صلّت ودعت بخشوع، ثمّ عادت لتتفقّد حرارته. كانت قد انخفضت. تنفّست الصّعداء، ثمّ استلقت تطلب قسطًا من الرّاحة.

حين أفاقت كانت شمس النّهار قد أضحت في كبد السّماء. تفقّدت طفلها إلى جوارها، ففزعت لملمسه الملتهب! كانت الحرارة قد عاودته. حاولت إيقاظه، لتسقيه الدّواء من جديد، لكنّه لم يستجب. كانت شفتاه جافّتين ومتشقّقتين، وأطرافه ترتجف بلا توقّف. هرعت خارج الغرفة وعلى عينيها غشاوة من الدّمع. طرقت على غرفة زهور وعبد الحميد وهي تصرخ:

-لقد أغمي على عزّ الدّين.. يجب أن نأخذه إلى الطّوارئ!

خلال دقائق، كان ثلاثتهم داخل السيّارة. انطلق عبد الحميد على الطّريق المؤدّية إلى طبرقة، بينما كانت ياسمين تجلس على المقعد الخلفيّ وبين ذراعيها طفلها الذي لم يستعد وعيه بعد.

مضت السّاعة التّالية في الرّكض عبر أروقة المستشفى. أدخل عزّ الدّين مباشرة إلى غرفة الفحص، ثمّ أرسلت عيّنة من دمه إلى مختبر التّحاليل وخضع لصورة أشعّة، قبل أن يعود سريره المتحرّك إلى قاعة العناية المركّزة. كان الأطبّاء والممرضّون يدخلون ويخرجون على عجل، ولم يكن أحدهم يوجّه كلمة لياسمين المرابطة عند الباب. وحين تستفسر عن حال ولدها، كانت تجد الإجابات ذاتها:

-لا نعرف بعد.. لم يتّضح الأمر.. ننتظر نتيجة التّحاليل.. الصّورة لم تظهر شيئا!

ثمّ وبعد ساعات طويلة من الترقّب، جاء الطّبيب المشرف على حالته باتّجاهها:

-الحرارة مستقرّة الآن، سيبقى الطّفل تحت الملاحظة حتّى نفهم طبيعة المرض.

أسقط في يدها. لم يكن أحدهم يستوعب ما يحدث مع عزّ الدّين!

باتت ليلتها على مقاعد الانتظار تتوسّد ساعدها وتبتهل في صمت. وكانت زهور وعبد الحميد يتردّدان بين القرية والمشفى، يأتيانها بوجباتها في أوقات متفرّقة من اليوم، فلا تأكل منها إلا النّزر اليسير. كانت ساعات عصيبة على الجميع، استعاد خلالها ثلاثتهم صورًا من الذّاكرة لفترة رقود والد الطّفل في قسم الإنعاش منذ سنوات. جثم على صدورهم هاجس الفراق الممكن، وناجى كلّ منهم خالقه بحرقة أن يكتب للولد النجاة.

خلال النّهار التّالي، انطلقت صافرات الإنذار من الأجهزة المتّصلة به مرّات عدّة، وشاهدت ياسمين الطاقم الطبيّ يركض تجاه طفلها في كلّ مرّة، يقدّمون له خدمات الإنعاش، يدلّكون صدره أو يمدّونه بأنبوب التنفّس. وبين فينة وأخرى، ينعقد اجتماع محتدم عند رأسه، تتغيّر فيه الوجوه بقدوم مختّصين جدد. لكن بدا أنّ أيّا منهم لم يفكّ شيفرة علّته بعد.

في اليوم الثالث، جاءها الطّبيب المسؤول عن حالته، وقال بنبرة آسفة:

-لقد فعلنا ما بوسعنا ليتجاوز المرحلة الحرجة. علاماته الحيويّة مستقرّة الآن، لكنّها قد تسوء في أيّ لحظة.. لأنّنا لم نتوصّل إلى تشخيص المرض. نحن نشكّ في وجود مرض نادر لدى طفلك، لكنّ مواردنا لا تسمح بالتقصّي. أنصحك بنقله إلى العاصمة. لقد تواصلنا مع مستشفى الأطفال، وسيكون بوسعهم استقباله.

لم يكن من ذلك بدّ. لقد كانت تدرك في قرارة نفسها أنّ ذلك المستشفى الصغير في مدينة جبليّة لا يملك الإمكانات الكافية لعلاج صغيرها. كان عليها أن تنتقل إلى العاصمة في وقت سابق. قرّعت نفسها مرّة أخرى. والآن أصبح الأمر واقعًا لا مفرّ منه.

في صباح اليوم الرّابع، لم يكن عزّ الدّين قد استعاد وعيه بعد، لكنّ علاماته الحيويّة ثابتة. غادرت سيّارة إسعاف باتّجاه مستشفى العاصمة، وبداخلها ياسمين وطفلها الرّاقد بلا حراك.

***

-تعال، هناك احتفال اللّيلة!

قاده أبو الحسن إلى إحدى دور الحيّ. من الشّارع كان يتناهى إليهما صوت أهازيج الدّبكة الفلسطينيّة وصيحات الرّجال الذين يتقافزون على نسقها. حيّى صاحب الحفل أبا الحسن بحرارة، ثمّ صافح عمر وقال دون أن يسأل عن هويّته:

-حيّى الله الضيف! تفضّلا.

في الفناء، كان جموع من الشّباب قد تحلّقوا حول قصع المقلوبة الفلسطينيّة والمنسف الأردني التي وضعت جنبًا إلى جنبٍ فوق السجّاد، يأكلون ويضحكون. اتّخذ عمر مجلسًا على الأرض، وتابع بنظرات الغبطة علامات الفرح التي تملأ المكان من حوله. انحنى أبو الحسن ليهمس في أذنه:

-هل تعرف بماذا يحتفلون اليوم؟

هزّ عمر رأسه في انتباه، فأشار أبو الحسن إلى شابّ نحيل كان يتوسّط جموع الرّاقصين:

-تميم، نجح بامتياز في الشّهادة التّوجيهيّة.. وحصل على منحة لإكمال دراسته الجامعيّة في بريطانيا.

-ما شاء الله!

-المنحة التي رصدتَها أنت منذ سنوات لطلّاب المخيّم!

رفع عمر حاجبيه في دهشة. لقد كان يرسل الدّعم النّقديّ، لكنّه لم يتساءل يومًا عمّن يستفيد منه. كان يثق في حكم أبي الحسن وأمانته، فلم يشغل نفسه بالتّفاصيل. ربّت صاحبه على ركبته وقال مبتسمًا:

-أردت أن أدخل على السّرور على قلبك اليوم، حين ترى ملامح السّعادة التي أنت سبب فيها!

اغرورقت عينا عمر بالدّمع، ولم يعلّق. كان قد أفضى إلى صاحبه بالإحساس الممضّ باللّا جدوى، الذي يلازمه منذ مغادرته جدران الحبس. لقد خسر في تلك المحنة نقاء بياضه، وقضيّته والهدف من وجوده. ولم يكن من اليسير أن يتقبّل نسق الحياة الرّتيبة، حيث يستحوذ العمل على كلّ انتباهه، ويركد الحلم في قاع صدره، بلا أمل يحرّكه. لكنّ

جلوسه إلى هؤلاء النّاس يذكّره بأثره، وبما يزال في وسعه عمله. قد لا يكون مضطلعًا بعمل عظيم يحقّق السموّ الذي يتمنّاه، إلّا أنّ أرباح الشّركة التي يسيّرها تموّل مستقبلا وتبني أجيالا. وهذا يبدو كافيًا جدًّا في تلك اللّحظة.

أشار أبو الحسن إلى القصعة أمامهما، فأخذا يأكلان بمزاج طيّب. دنا رامي من مجلسهما، وقال مخاطبًا عمر:

-كيف وجدت عمّان؟ هل تجوّلت في المدينة؟

كان رامي فلسطينيّا من مواليد الأردن، يمتلك بطاقة هويّة وجواز سفر أردنيّين. جاء والداه بعد النّكبة، واستقرّا في عمّان، ويعتبر الأردن موطنه بدرجة ثانية. يعرّف نفسه دائمًا مثل أغلب فلسطينيي الأردن بالهويّة الثنائية: أردني-فلسطيني.

ضحك عمر في مرارة وقال:

-في الحقيقة، لم أر شيئا بعد.. باستثناء المخيّمات!

كان ينطلق كلّ يوم في رحلة البحث عن عمّ آلاء المفقود،

وبدا كمن يفتّش عن إبرة في كومة قشّ. بعد أن بحث في السّجلات الرّسمية، قرّر أن ينتقل إلى المخيّمات على عين المكان. زار خلال الأسبوع الماضي مخيّمات الأزرق، والأردني-الإماراتي، وحدائق الملك عبد الله، دون أن يعثر له على أثر.

قال رامي في اعتراض:

-لا، لا.. يجب أن نأخذك في جولة في البلد.. والبتراء! يجب أن تزور البتراء! هل زرتها يا عمّي أبا الحسن؟

ضحك أبو الحسن ثمّ قال:

-وهل مثلي تليق به السّياحة؟ السّياحة للشبّاب أمثالكم!

-ما زلتَ البركة يا عمّي أبا الحسن!

-لكن يا ابن الحلال، من ذا الذي يزور البتراء في هذا الحرّ؟

تفكّر عمر لبرهة، ثمّ ضرب على ركبتيه وقد جدّدت الأمسية نشاطه، وقال معلنًا:

وبدا كمن يفتّش عن إبرة في كومة قشّ. بعد أن بحث في السّجلات الرّسمية، قرّر أن ينتقل إلى المخيّمات على عين المكان. زار خلال الأسبوع الماضي مخيّمات الأزرق، والأردني-الإماراتي، وحدائق الملك عبد الله، دون أن يعثر له على أثر.

قال رامي في اعتراض:

-لا، لا.. يجب أن نأخذك في جولة في البلد.. والبتراء! يجب أن تزور البتراء! هل زرتها يا عمّي أبا الحسن؟

ضحك أبو الحسن ثمّ قال:

-وهل مثلي تليق به السّياحة؟ السّياحة للشبّاب أمثالكم!

-ما زلتَ البركة يا عمّي أبا الحسن!

-لكن يا ابن الحلال، من ذا الذي يزور البتراء في هذا الحرّ؟

تفكّر عمر لبرهة، ثمّ ضرب على ركبتيه وقد جدّدت الأمسية نشاطه، وقال معلنًا:

-معك حقّ، فلنؤجّل الرّحلة حتّى بداية الخريف إذن. خلال شهر من الآن، سيكون الطّقس مريحًا أكثر. نأخذ يوم عطلة، نصحب أبا الحسن والأولاد ونذهب إلى البتراء!

-الأولاد؟

تساءل رامي في حيرة، فابتسم عمر وقال ببساطة:

-أطفال دار الرّعاية. أحببت أن أصحبهم في نزهة.. وهذه تبدو فرصة جيّدة.

حدّق فيه رامي كمن يصغي إلى مجنون:

-أطفال دار الرّعاية.. كم عددهم؟

-لا أدري على وجه الدّقة، عشرون ربّما.

-عشرون؟ نحتاج حافلة إذن!

-اتّفقنا. جد لنا حافلة نستأجرها من أجل العطلة، وسأطلب الإذن من مشرفي الدّار. سترافقنا يا أبا الحسن، أليس كذلك؟

ضحك أبو الحسن مجدّدا، ثمّ قال في استسلام:

-ما دمتَ قرّرت، أنا معكم!

ضرب رامي كفّا بكفّ، وقد تحوّلت الجولة السّياحيّة إلى رحلة مدرسيّة!

***

حثّت فاطمة الخطى عبر الممرّات حتّى انتهت إلى قاعة الانتظار، حيث جلست ياسمين تفرك أناملها في توتّر. كانت وزهور وعبد الحميد يتداولون على مرافقة ياسمين في المشفى آناء الليل وأطراف النّهار. تتقاسم زهور وفاطمة المهامّ، وتحمل إحداهما وجبة الطّعام في كلّ مرّة إلى ياسمين التي لا تكاد تغادر مقعدها إلا لصلاة أو حاجة ملحّة.

-هل من جديد؟

حرّكت ياسمين رأسها ببطء علامة النّفي. لقد غاب عزّ الدّين خلف الباب الزّجاجي منذ يومين، ولم يصلها خبر

منذ ذلك الحين. أمسكت بكفّها بين راحتيها تحاول أن تبثّها بعض الطمأنينة. كانت طفلتها الوحيدة، كما عزّ الدّين طفلها الوحيد. وهي لا تتخيّل حياتها بدون أحدهما. وهي تكاد تجزم أنّ ياسمين ستفقد صوابها لو حصل مكروه لطفلها.

لقد عرفت فاطمة منذ ثلاثين عامًا كيف يكون التعلّق المرضيّ بطفل، حين انفصلت عن كمال وعادت بصغيرتها إلى تونس. لقد كرّست حياتها من أجل ياسمين، قبل أن تطلق سراحها وهي على أعتاب الخامسة والعشرين. ربع قرن من الاستحواذ والتقارب اللّصيق جعلها أكثر من ابنة في نظرها، لقد كانت عصارة تجربتها في الحياة وخلاصة وجودها. لم يكن من اليسير أن تنفصل عنها بإرسالها إلى فرنسا.

لكنّ رؤيتها على تلك الحال من الانهيار كانت أقسى من تجربة الفراق.

لقد عرفت في السّنوات الخمس الماضية أسوأ أيّامها. لم تشعر بذلك القلق عليها وهي طفلة، تسقط وتبكي، تشاجر أطفال الحيّ وترجع بكدمات وخدوش. لم تكن بذلك الحزن وهي تشكو من تنمّر زملائها في الصفّ لأنّها نشأت دون أبّ، ولا حين طاردها أمن الجامعة حتّى ينزع الحجاب عن رأسها.

لقد مرّت بكلّ ذلك وخرجت من اختبارات الحياة مطمئنّة عالية الهامة. لكنّ تلك التّجربة كسرتها. فقد الزّوج وهي في ريعان الشّباب، ومرض طفلها الوحيد المزمن كانا أكثر ممّا تتحمّل. وهي ترقب جسده الهزيل مسجّى على السّرير بدون حراك، يتأرجح بين الحياة والموت، كانت روحها تذوي وتذبل.

لقد أدركت أنّ مصاعب الحياة تزداد وعورة كلّما تقدّمت في المراحل العمريّة. ما حسبته طفلة نهاية العالم، لم يكن إلا قطرة في كأس مآسيها التي باتت مترعة!

ضمّتها بين ذراعيها، تحتويها، تشجّعها على ترك العنان لسيل الدّمع المكبوت، فتشبّثت بها ياسمين بقوّة، مثل غريق يروم قشّة لا تملك إنقاذه، لكنّه لا يجد لها بديلا في محنته.

في المساء، جاء فريق أطبّاء جديد ليعلن مثل سابقه:

-وظائف الجسم تنهار بشكل غير طبيعيّ ولا مفسّر، الكبد والطّحال والكلى.. والفحوصات لم تسفر عن سبب مقنع. وضعنا بروتوكول علاج متكاملًا وسننظر خلال الأيّام المقبلة كيف يستجيب لها المريض.

لم يأن للفرج أن يحلّ بعد. ذلك الامتحان لصبرها مستمرّ.

بعد أن غابت فاطمة لإحضار وجبة العشاء، جاءها اتّصال من رنيم. ما إن بلغها صوتها عبر الأثير حتّى انفجرت باكية. كانت تشتاق إلى وجودها جوارها، تحتاج أن تشكو بلا ضابط. ذلك ما كانته رنيم بالنّسبة إليها، منذ أيّام تشاركهما السّكن في باريس: ملاذًا يستقبلها بلا شروط في ساعات أفراحها وأتراحها. انتحبت دون مواربة أمام صاحبتها:

-عزّ الدّين، إنّه يتفلّت من بيني يديّ.. أخشى أنّي أفقده.. ماذا يحلّ بي إذا فقدته؟ ماذا أفعل بدونه؟ إنّي أموت يا رنيم!

حاولت رنيم تهدئتها بما تملكه من عبارات المواساة، لكنّها لم تكن تتقن ذلك الدّور. لطالما كانت ياسمين رصينة وثابتة. كانت هي من تبثّها السّكينة وتحدّ من جموحها. لقد عرفتها قويّة على الدّوام، وانهيارها بذلك الشّكل علامة مصيبة حقيقيّة.

-13-

-لقد استيقظ!

أعلنت الممرّضة على عجل، ثمّ اختفت. أفاقت ياسمين من غفوتها. اعتدلت واستعادت صدى كلمات طرقت أذنيها وهي بين حلم وعلم، ثمّ انتفضت وقد أدركت لها معنى، وهرولت إلى غرفة العناية المركّزة. حدّقت بعينين أغرقهما سيل الدّمع في الوجه الشّاحب الذي تزّين ثغره بسمة بريئة:

-ماما، أنا بخير!

هزّت رأسها دون كلمات تؤمّن على تصريحه، واحتضنت أصابعها كفّيه في حنوّ، كأنّما يحتضن قلبها قلبه. كانت تلك عبارته التي يطمئنها بها دائمًا، كلّما سقط أو خدش ورأى الجزع في عينيها: أنا بخير. لكنّه لم يكن بخير. تدرك أنّه ما زال يبعد سنوات ضوئيّة عن الشّفاء.

جاء الطّبيب ليقول بإيماءة مشجّعة:

-لقد أفاق من غيبوبته، وهذا مؤشّر جيّد.

-هل عرفتم ما به يا دكتور؟

تغيّرت ملامحه وغامت نظراته وهو يقول في أسف:

-لقد أرسلت ملفّه إلى زملاء لي في فرنسا وبريطانيا وألمانيا.. ربّما يمكن لأحدهم التعرّف إلى طبيعة مرض ولدك. لكنّه لا يشبه أيّ داء معروفٍ لدينا. تقضّي الأمراض النّادرة عمليّة معقّدة وطويلة، لذلك نحاول اختصار المراحل بالتّعاون مع الزّملاء.

أطرقت تخنق عبرتها وتخفي حسرتها. ثمّ التفتت إلى ولدها تمثّل الوجه المنشرح باحتراف:

-ستكون بخير يا حبيبي!

جاءتها على امتداد اليوم، اتّصالات من شتّى أنحاء المعمورة، خفّفت عنها وطأة النّهار الطّويل: اتّصلت ميساء، كما تفعل يوميّا، تعتذر بحرارة في كلّ مرّة، لأنّها مثقلة الحمل بطفلها، ويتعسّر عليها القدوم إلى العاصمة. لكنّها تعد أن تفعل

في القريب، حالما يتفرّغ رمزي.

ثمّ اتّصلت سكينة وميار من إسطنبول، تلتهما رانيا بعد دقائق قليلة. أدركت على الفور أنّ رنيم قد تولّت إعلامهنّ. كانت ممتنّة لدعمهنّ، مثلما فعلن دائمًا في مناسبات الفرح والحزن، لكنّ تلك الأحاديث التي تحاول إلهاءها لم تكن إلّا مخدّرًا موضعيًا. حالما تنهي اتّصالا وتستعيد وعيها بواقعها، ينقبض صدرها وتداهمها الهواجس.

ظلّت الآلات موصولة بعزّ الدّين لأيّام إضافيّة. كانت علاماته الحيويّة مستقرّة، لكنّه كان ضعيفًا ومجهَدًا. ولم يأتِ أيّ خبر مبشّر، حتّى حلّ مساء اليوم الرّابع.

جاء الطّبيب المسؤول عن الحالة، وبرفقته طبيب آخر لم تسبق لها رؤيته. أدركت أنّه طبيب -رغم هيئته غير الرّسميّة كأنّه قادم من سفر- من وقفته الصّارمة وراء الزّجاج وملامحه الجادّة وهو يحدّق بعزّ الدّين، بينما أخذا يتحدّثان بحماسة دون أن يصلها صوت إلى داخل الغرفة. بعد دقائق طويلة، أقبل الرّجلان. قال طبيب عزّ الدّين:

-سيّدة ياسمين، أقدّم لك الدّكتور يوسف الحدّاد. لقد

وصل اليوم من باريس لحضور مؤتمر طبيّ في العاصمة، وقد طلبت منه التّعريج علينا. تحدّثنا مطوّلا عن حالة ابنك، ويبدو أنّ لديه نظريّة هنا.

تعلّقت نظرات كليهما بالرّجل الذي تنحنح ثمّ قال:

-سيّدتي، هل تسمحين ببعض الأسئلة؟

لم ينتظر ردّها، بل أردف على الفور:

-هل كان لون شعر ابنك رصاصيّا منذ الولادة؟

سكتت ياسمين برهة، تحاول استيعاب علاقة السّؤال بحالة طفلها، ثمّ أومأت علامة الإيجاب.

-لطالما اعتقدت أنّ لون شعره مميّز.. لكن هل لهذا دلالة ما؟

قال بهدوء واتّزان:

-لا أريد أن أتسرّع بالاستنتاج. يجب أن نجري بعض التّحاليل أوّلا. هل تسمحين بقصّ شعيرات قليلة من رأسه

وأخذ عيّنة من دمه؟ يجب أن أحملها إلى المختبر في باريس.. ثمّ يمكنني أن أشرح لك أكثر.

جاءت الممرّضة بالمقصّ، وأخذت طرفًا من خصلة من شعر عزّ الدّين، حفظتها في مغلّف بلاستيكيّ، ودوّنت عليها بياناته. ثمّ غرست إبرة في ذراعه وسحبت عيّنة من دمه. قال الدّكتور يوسف يطمئنها:

-يمكننا إرسالها عبر البريد، لكن سيكون من الأسرع أن آخذها بنفسي. أعدك أن أرجع خلال أيّام قليلة بالنّتيجة!

تشبّثت ياسمين بالأمل. إذا كان شعر طفلها هو مفتاح اللّغز، فستعرف ذلك قريبًا.

كانت تتطلّع كلّ صباح إلى آخر الممرّ، علّها تلمح الدّكتور يوسف يهرول في اتّجاهها وبكفّه تقرير المختبر. امتدّت فترة الترقّب وحبس الأنفاس وتجاوزت الأيّام القليلة. مضى أسبوع، ولم يعد الدّكتور يوسف. لكنّها قد تعلّمت الصّبر وتنسيب الآجال: ما لم يمض أسبوعان، فهي «بضعة أيّام». «الغائب حجّته معه».. و«الصّبر مفتاح الفرج»، وبعد ذلك ودونه: ماذا بيدها غير الانتظار؟

جاءت ميساء قبل انقضاء الأسبوع كما وعدت. دخلت تدفع عربة طفلها، وقد ظهر عليها الارتباك والتوتّر. كانت حديثة عهد بالأمومة، وبدا الوضع خارج السّيطرة تمامًا. طوال جلستها، لم يتوقّف آدم عن البكاء، ولم تكن تجد وسيلة لتهدئته.

تقطع حديثها لترفعه متأفّفة، ثمّ تضعه ساخطة دون أن يكون قد استعاد هدوءه.

-إنّه هكذا، طوال النّهار واللّيل. لقد تعبت!

-هاتيه.

حملته ياسمين بين ذراعيها ووضعت طرف بنصرها في فمه، وأخذت تهدهده برفق حتّى استكان. حدّقت فيها ميساء غير مصدّقة:

-كيف تفعلين هذا؟

ابتسمت وهي تتخيّل عزّ الدّين رضيعًا، ثمّ قالت:

-إنّها فترة التّسنين.. يحتاج قطعة من السّيليكون يضغط لثّته عليها.

لم تنصرف ميساء إلا في المساء، حين قدم زوجها لاصطحابها. في الأثناء، تزوّدت بمختلف النّصائح التربويّة فيما يخصّ متطلّبات طفلها، كأنّ غياب ياسمين عن القرية أشعرها فجأة بأهميّة وجودها في الجوار، واشتكت مطوّلا من نرجس التي لا تصغي إليها ولا تحسب لها حسابًا.

-اطمئني على ورشة الجمعة.. أنا أهتمّ بالأمر. أحاول المرور على المكتبة كلّ يوم لتفقّد الأوضاع، لكنّ نرجس ليست متعاونة. لا تحبّ فكرة أن أكون المشرفة عليها!

-نرجس تتقن عملها جيّدا.. وهي أمينة ومخلصة. مع ذلك سأتحدّث إليها.

شهقت ميساء فجأة كمن تذكّر شيئا ثمّ قالت:

-هل كنت تعلمين، بشأن وائل ونرجس؟ لقد ضبطته أكثر من مرّة في المكتبة، يتحدّث إلى تلك الفتاة وهي تضحك بغنج. هل يجب أن أخبر أمّي؟

اكتفت ياسمين بابتسامة وهزّة من كتفيها.

ملأ تذمّر ميساء وشكواها قسمًا من خواء روحها في حضرة الانتظار المقيت. ثمّ، وفي اليوم الثامن، دخل عليها الطّبيب المعالج وقال بابتسامة واسعة:

-لديك اتّصال، هل يمكنك مرافقتي إلى المكتب لتلقّيه؟

سارت خلفه في توجّس، بينما استمرّ يشرح:

-لقد ظهرت نتائج التّحاليل منذ حين، وتقديرًا للهفتك، فقد أراد الدّكتور يوسف أن يبلّغك بها في اتّصال مرئيّ.

على شاشة جهازه، ظهر وجه الدّكتور يوسف الحدّاد. ازدردت ياسمين لعابها وهي تستمع إلى كلماته الجادّة دون مقدّمات:

-سيّدة ياسمين، استمعي إليّ جيّدًا، وتمالكي أعصابك. لقد توصّلنا إلى تشخيص مرض عزّ الدّين. لقد كانت توقّعاتنا صحيحة. هذا المرض، إنّه نادر جدّا. لذلك لا يمكن لكلّ طبيب أن يشخّصه، إن لم يكن قد تعامل مع حالة

مشابهة في الماضي. إنّه مرض جينيّ، يسمّى متلازمة «شدياك-هيجاشي» Chédiak-Higashi. العلامة الخارجيّة المرئيّة هي ما يشبه البهاق، لون بشرة أبيض شديد الشّفافيّة، وشعر أبيض.. أو رصاصيّ لامع.

حبست ياسمين أنفاسها، ثمّ تكلّمت بخفوت:

-هل هو.. مرض خطير؟

تنهّد الدّكتور يوسف، ثمّ قال:

-للأسف، إنّه كذلك.

ثمّ أضاف على الفور:

-لكنّ العلاج ممكن.

سألت في لهفة:

-ما هي نسبة الشّفاء؟

-من الصّعب الحديث عن إحصائيّات دقيقة، نظرًا لندرة المرض من جهة، وصعوبة تشخيصه من جهة أخرى. هناك حوالي خمسمائة حالة معروفة حتّى اليوم.

تأتأت ياسمين:

-تقصد.. أنّكم.. عالجتم خمسمائة حالة مشابهة؟

تردّد الدّكتور يوسف قبل أن يردف:

-أقصد أنّ هناك خمسمائة مريض شُخّص بهذا الدّاء حول العالم، منذ توصيفه لأوّل مرّة في ١٩٥٤.

فغرت ياسمين فاها في ذهول.

-إنّه مرض نادر للغاية، كما ذكرت. ابنك يمثّل أوّل حالة تشخّص في القارّة الإفريقيّة. في الحقيقة، الحالات قليلة للغاية، ذلك أنّ الأطفال الذين يولدون به.. لا يعيشون طويلا.

توقّفت ياسمين عن التنفّس تمامًا، فسارع الطّبيب يقول:

-لكنّ حالة ولدك شخّصت، لحسن حظّه.. وهذا يعني أنّ لدينا فرصة لا تقدّر بثمن.

قاومت ياسمين حاجتها للبكاء، وتشبّثت نظراتها بوجه الرّجل الذي استأنف:

-العلامات المبكّرة للمرض قد ظهرت منذ أمد: انخفاض المناعة، حصول التهابات في الرئتين والجلد، ضعف القلب.. والآن صرنا نواجه العلامات المتقدّمة: ارتفاع الحرارة، النّزيف المتكرّر، تضخّم الكبد والطّحال.. إذا لم نفعل شيئا، فستظهر العلامات الأخرى تباعًا ويتداعى الجهاز العصبيّ.. ربّما بين يوم وآخر يفقد القدرة على النّطق والحركة. وحين يحصل ذلك.. فإنّ فرص حياة المريض لا تتجاوز ثلاثين شهرًا. إذا لم نتصرّف عاجلا، فلن يعيش عزّ الدّين إلى سنّ السّابعة.

كتمت ياسمين شهقتها وهتفت على الفور:

-ما الذي عليّ فعله؟ كيف يمكننا إنقاذه؟ سأفعل أيّ شيء!

-سيّدتي، يجب أن تأتي وعزّ الدّين إلى باريس دون تأخير.

على امتداد الأسبوع، كان الدّكتور يوسف يتّصل بها بشكل يوميّ ليشاركها المستجدّات بشأن حالة عزّ الدّين ويشرح لها الخطوات المقبلة.

كان العلاج المتاح يتمثّل في زراعة الخلايا الجذعيّة، وهي عمليّة معقّدة تمرّ بمراحل ثلاث: أوّلا، كان ينبغي إيجاد متبرّع ذي نظام وراثيّ مقارب للمريض. بعد ذلك، يتعرّض المريض لجرعة قويّة من العلاج الكيميائيّ والإشعاعي، لتدمير الخلايا الجذعيّة المشوّهة. وفي مرحلة أخيرة، تزرع خلايا المتبرّع في جسد المريض.

-غالبًا ما يكون التّوافق في نطاق العائلة أفضل، وفرص النّجاح أوفر. هل لعزّ الدّين إخوة؟

هزّت ياسمين رأسها علامة النّفي.

عبس الدّكتور يوسف. من وجهة نظر إحصائيّة، فإنّ أفضل فرص الزّراعة تكون بين الإخوة، حيث نسبة التوافق تصل إلى واحد من أربعة. ما عدا ذلك، فإنّ نسبة توافق شخصين عشوائيين لا تتجاوز الواحد من مليون! لكنّه لم يشأ أن يثير جزع الأمّ بتلك الأرقام المرعبة.

-لا بأس، سنبحث عن متبرّع في إطار العائلة.. حاولي حشد أكبر عدد من المتطوّعين. سيجري كلّ منهم التّحاليل اللّازمة، علّنا نجد من بينهم متبرّعًا مناسبًا.

بدأت ياسمين بنفسها. وانتظرت في قلق نتيجة الاختبار. كانت أفضل المرشّحين من حيث العلاقة الجينيّة بالمريض. غير أنّ النّتيجة كانت سلبيّة. جاء من بعدها عبد الحميد وزهور وفاطمة، ثمّ ميساء وزوجها ووائل. ثمّ استمرّ توافد المتطوّعين من الأقارب والمعارف. غير أنّ أحدًا منهم لم يكن على درجة كافية من التّوافق. وكانت تفقد الأمل تدريجيّا. إن لم يكن لديها توافق مع طفلها، فأنّى للغرباء؟

طمأنها الدّكتور يوسف:

-الواهب يمكن أن يكون شخصًا أجنبيًّا تمامًا عن المريض. غير أنّ بنوك الخلايا الجذعيّة ليست دارجة بعد، مثل بنوك الدّم. حين يأتي إلى هنا، سنتدبّر الأمر.

بعد ذلك، كان عليه التطرّق إلى موضوع أكثر حساسيّة: الكلفة. إن كانت الخلايا مجانيّة يتبرّع بها متطّوعون،

فإنّ للعلاج كلفة عالية، بداية من تكنولوجيا فصل الخلايا الجذعيّة عن دم المتبرّع، مرورًا بالعلاج الكيميائيّ والإقامة بالمصحّة، وصولا إلى عمليّة الزّرع ذاتها.

-سأحاول الحصول على موافقة من مركز الأبحاث للتكفّل بالمصاريف.. غير أنّ الإجراءات الإداريّة تستهلك وقتًا، وهو ما لا يملكه عزّ الدّين.

عقدت ياسمين اجتماعًا عاجلًا ذاك المساء مع جدّ عزّ الدّين وجدّتيه في منزل فاطمة وسط العاصمة. قالت بلهجة حازمة:

-سأبيع المكتبة، لتأمين مصاريف العلاج. ثمّ، حين نحصل على تمويل من المركز، يمكنني استعادتها.

تبادل ثلاثتهم نظرات عدم رضا، ثمّ قالت فاطمة:

-احتفظي بمكتبتك يا صغيرتي، إنّها ضمان لمستقبلك وطفلك. سأبيع هذا المنزل، موقعه وسط العاصمة استراتيجي، سيكون ثمنه أعلى من المكتبة.. سيكون كافيًا لتسديد المصاريف، وربّما يبقى نصيب يسمح بشراء شقّة

صغيرة في الضّاحية الجنوبية.

قاطعها عبد الحميد في انزعاج:

-لن يحصل هذا. هذا المنزل إرث من الجدود ولا يجدر بك التّفريط به. لقد احتفظت بنصيب هيثم من بيع منزلنا في باريس من أجل مستقبل عزّ الدّين، ولا أظنّ أنّه سيكون أحوج لهذا المال ممّا هو عليه الآن.

أومأت زهور موافقة وأضافت:

-ثمّ إنّ عمليات بيع العقارات قد تستهلك وقتًا. بينما بين أيدينا مبلغ كافٍ. يجب أن تسافري في أقرب وقت ممكن.

اغرورقت عينا ياسمين بالدّمع. كان عليها أن تقبل كلّ مساعدة ممكنة وتسمح للمقرّبين بمشاركتها الحمل. لم تعد تقدر على المكابرة أكثر ممّا فعلت. ثمّ، ليس أيّ منهم غريبًا. كلّ منهم لحم عزّ الدّين ودمه. بعد نقاش محتدم، اتّفق الجميع في نهاية الجلسة على الحلّ الذي اقترحه عبد الحميد.

-سأزور البنك غدًا من أجل تحويل المبلغ إلى المصحّة. ابدئي بتحضيرات السّفر يا ابنتي.

حملت ياسمين في الغد خبر تدبّرها أمر تكلفة السّفر إلى الدّكتور يوسف، فهنّأها في ارتياح:

-سيكون كلّ شيء جاهزًا لاستقبال عزّ الدّين حين وصولكما. وسأعمل على إيجاد متبرّع مناسب في الأثناء.

كان عليها أن تتوقّف لتلتقط أنفاسها. لم يكن من اليسير استيعاب كلّ تلك التّغيرات الطارئة. تطوّرت الأحداث بنسق متسارع منذ تشخيص الدّكتور يوسف لمرض طفلها. لكنّها لم تفكّر حتّى ذلك الوقت بالسّفر ذاته. لم يكن عزّ الدّين قد حصل على الجنسيّة الفرنسيّة. لم تطلبها من أجله قطّ، لم ترد أن يربطه بذلك البلد أدنى رابط. لكنّها في مأزق الآن. صار عليها أن تطلب تأشيرة سفر. قالت في ارتباك:

-هناك أمر آخر يا دكتور.

قاطعها بلهجة العارف:

-تقصدين تأشيرة السّفر إلى فرنسا؟ المركز سيهتمّ بتجهيزها.

-عليك إرسال الوثائق المطلوبة وسنعلمك في الوقت المناسب للذّهاب إلى السّفارة واستلامها. وحين تصلان إلى هنا، سنعيّن محاميًا لتمديد فترة الإقامة حسب الحاجة. هذه مسألة روتينيّة نتعامل معها باستمرار في إطار عملنا. يأتي للمركز عشرات الأجانب كلّ عام، لأنّ التّكنولوجيا التي نستخدمها نادرة وعالية الجودة.

زفرت ياسمين في ارتياح. كانت تشعر بامتنان عميق لكلّ ما يفعله من أجل عزّ الدّين بدماثة وسخاء. قالت في تأثّر:

-لا أدري كيف أشكرك! لولا فضلك يا دكتور لكنّا إلى الآن نصارع الحيرة!

قال في رصانة:

-اشكريني حين يتمّ شفاؤه بإذن الله!

-14-

-لم يبق إلّا الزّعتري.

كان عمر قد تنقّل عبر المخيّمات، يبحث في السّجلّات عن أيّ أثر لعمّ الطّفلة. لم يكن يسمح له بتجاوز حدود المخيّم. يكتفي بمخاطبة الإدارة والأمن ومعاينة الدّفاتر الرّسميّة. قالت آية ذلك اليوم:

-سأرافقك إلى الزّعتري!

حدّق في عينيها المصمّمتين، ولم يحاول تثبيط عزمها. قال أبو الحسن:

-سأحاول الاتّصال بالإخوان هناك.. ربّما نحصل على تصريح لزيارة المخيّم.

كان هناك إحساس جماعيّ بأنّ الزّعتريّ هو مفتاح اللّغز. أو لعلّها أمنية خفيّة في استجابة ربّانيّة. لقد كان المخيّم الأخير. وكان يجب أن يصلوا إلى إجابة.. وإلّا فقد الأمل في

الوصول إلى عمّ آلاء.

مرّت أيّام قبل أن يأتي أبو الحسن حاملا البشارة: هناك فريق إخباريّ أجنبيّ سيأتي لتصوير واقع المخيّم. سيكون بوسعهم الحصول على تصاريح الزّيارة برفقة الصّحفيّين الأجانب. لكنّ الفريق لن يصل إلّا خلال عشرة أيّام. سيكون عليهم الانتظار حتّى ذلك الوقت.

كان صيف عمّان الحارّ سبب ضيق عمر، والترقّب المقيت يزيد إحساسه سوءًا. منذ حادثة المختبر، لم يعد جسده يتحمّل حرارة الطّقس العالية. لقد كانت شهور الصّيف محتملة في الرّيف السّويسري، وفي مرتفعات طبرقة. لكنّه لم يكن مستعدّا لصيف عمّان الخانق. سيطرت عليه رغبة عارمة بالرّحيل. لم يعد يقدر على البقاء أكثر. لكنّه يخفي تبرّمه من أجل آية. يتحمّل إحساسه بضيق التنفّس كلّما قطع مسافة هيّنة على قدميه، فيملأ رئتيه هواء ساخن يكاد يحرقهما. يعرف كم أنّ تلك الرّحلة هامّة بالنّسبة إليها.

يتأمّلها كلّ يوم وهي تهتمّ برعاية آلاء بكلّ تفانٍ، ليزداد يقينه بأنّ الأمومة تليق بها.

كان يلمح سمات الإيثار التي حسبها وثيقة الاتّصال برابطة الدّم بين الأمّ وطفلها: ردّة الفعل العفويّة تلك، حين تلفظ آلاء الفاكهة المطبوخة لتلطخ وجه آية وثوبها، فتضحك في مرح، وتبادر بتنظيف وجنتي الطّفلة وأناملها الرّقيقة قبل أن تهتمّ بثوبها هي.. ورفضها المغادرة لأيّ سبب كان، لأنّ موعد قيلولة آلاء قد حان، والطّفلة لن تنام إلّا على نغمات صوتها وهي تنشد في أذنيها.

كلّ ذلك جعله يدرك أنّ آية قد صارت أمًّا.

لقد تحوّلت خلال الأسابيع الماضية. يكاد يشمّ العاطفة التي ترشح بها كلّ مسامّ جلدها، كأنّ لها عبيرًا خاصًّا. هكذا هي أمومة آية، عطر خفيف وحلو يملأ الجوّ من حولها. وقد وجد لذلك سحرًا وجاذبيّة.

ثمّ انحسرت أحاسيسه كلّها، ولم يبق إلّا الألم، لأنّها حُرمت بسببه من أمومتها الحقيقيّة.

لا إراديّا، صار ينفر من غرفة الرّضع، حيث تمضي آية سحابة يومها.

كان من المؤلم أن يبصر مقدار افتتانها بالطّفلة.

ومن المؤلم أن يشعر بعجزه عن فعل شيء لتصبح آلاء طفلتها.

وأشدّها إيلامًا إحساسه بمسؤوليّته تجاه ما ستكون عليه حياتها بعد الآن. سواء احتضنت آلاء أم لم تفعل، سيكون الملام على الفراغ الذي يسكن وجدانها، من أجل طفل لن ينمو داخل أحشائها.

اختار إذن الفرار إلى عنبر الأولاد. كان تردّده على المكان في الأسابيع الماضية قد جعله وجهًا مألوفًا ومعروفًا لديهم. لاحظ منذ الوهلة الأولى أنّ الجناح مكتظّ إلى درجة عالية. لم يعد الأولاد يخرجون إلى الفناء مع موجة الحرّ التي هاجمت عمّان. وكان البقاء لساعات اللّيل والنّهار في الفضاء المغلق يرهق الأعصاب ويشعل فتيل الشّجار. كان الصّراخ يتعالى كلّ حين، وتلتحم الأجساد والأكفّ في عراك عنيف، حتّى يتدخّل المشرفون لفرض النّظام.

في اليوم الأوّل، جاء عمر بدفاتر رسم وتلوين ومجلّات مصوّرة وزّعها عليهم. انشغل الأولاد لساعة أو نحوها

وخفتت الأصوات. انغمس الجميع في النّشاط الفنيّ تحت مراقبة عمر وتوجيهاته، ونعم العنبر بسلام وهدوء مؤقّتين. أسرّت إليه المشرفة بعد ذلك:

-منذ بداية الإجازة الصّيفيّة يسوء الوضع كثيرًا هنا. إنّهم يحتاجون إلى التّسلية والذّهاب إلى الشّاطئ، وكلّ المرح الذي توحي به العطلة غالبًا.. لكنّ الكبت يولّد الانفجار.

غير أنّ السّكون لم يدم طويلا. سرعان ما فقد النّشاط رونقه ودبّ الملل في النّفوس، فانقلبت الأجواء وارتفع الصّراخ مع التّراشق بالأقلام وتمزيق الأوراق المفتعل، فاضطرّت المشرفة إلى التّدخّل لتفكّ النّزاع بين الأطراف المتخاصمة.

في اليوم الثّاني، وصل عمر صباحًا برفقة فريق سباكة. تطلّع الأولاد في لهفة إلى العمّال وهم يركّبون أجهزة التّكييف العصريّة في العنابر والقاعات. مع تشغيل الأجهزة وتدفّق تيّارات الهواء المنعش عبر فتحات التّبريد، ارتفعت هتافات الفرح والاحتفاء. ذلك اليوم، كان الأولاد أكثر هدوءًا بشكل ملحوظ. ابتسم عمر في رضا. لم يكن الحرّ عذابًا له وحده. كان لهيب الصّيف سببًا رئيسيًا في تعكّر مزاج الأولاد،

فيتدافعون داخل العنابر من أجل جرعة ماء بارد وتلتصق الأقمصة بأجسادهم بمفعول العرق.

كان الأولاد في انتظاره في اليوم الثّالث. بدا عليهم الانتعاش والحماس، كأنّهم يتوقّعون حصول شيء جديد مثير للاهتمام. تنقّل عمر عبر القاعات وبيده صندوق أدواته، وقد تحلّق حوله الأولاد متنافسين على تقديم يد المساعدة. كانت بعض النّوافذ في حاجة إلى إصلاح، وقد كان يومًا مثمرًا ومجهدًا للجميع. حين انتهت الأشغال، كان العزل الحراريّ للغرف أفضل بكثير، وأتى التّكييف بمفعول مضاعف.

حين رجع بعد يومين، انتبه إلى تغيير من نوع آخر: كان الأولاد قد أخذوا يهتمّون بنظافتهم الشخصيّة، ويبادرون إلى ترتيب أسرّتهم ومدّ يد العون إلى الأطفال الأصغر سنّا. كان الجوّ يعبق برائحة الارتياح.

حدّقت المشرفة في الصّندوق الكرتونيّ الذي أنزله عمّال التوصيل في عدم رضا.

-تلفاز في العنبر! هذه ليست فكرة سديدة!

-إنّهم مجرّد أطفال. لديهم طموحات إنسانيّة معقولة. إن لم يكن بوسعهم الخروج إلى العالم، فلنحضر نافذة على العالم إليهم!

عبست في امتعاض ولم تزد كلمة. لكنّ الأطفال كانوا في حالة من الهيستيريا مع دخول الشّاشة العريضة إلى العنبر! استمرّ الهرج حتّى استقرّ الجهاز مكانه وانتهى عمر من تعديل الموجة لالتقاط تردّد محطّة كرتون. عندئذ، خيّم الصّمت على العنبر. تزاحموا في حماس حول جهاز البثّ ووجد كلّ واحد منهم موقعًا مناسبًا لمراقبة الصّور الملوّنة عن كثب.

هتفت المشرفة في لهجة صارمة:

-ساعة واحدة ثمّ أفصل القابس!

ابتسم عمر وقال في هدوء:

-فلتكن ساعتين. إنّها إجازة!

تنهّدت ثمّ استدارت على عقبيها دون أن تعترض.

استقبل عمر موجة أخرى من هتافات الانتصار والامتنان، فغمز بعينه في حركة تواطؤ. راقب الجموع في رضا، ثمّ بحث بعينيه بين الرؤوس الصّغيرة المنغمسة في المشاهدة السّاحرة، حتّى وجد ضالّته. لقد وعد صهيبًا بمشاهدة الكرتون، وها هو الولد ينبطح على بطنه ويحتضن وجهه بكفّيه وفي مقلتيه نظرة انبهار آسرة.

في تلك اللّحظة، أدرك أنّه لا يريد أن يحتضن آلاء وحدها. يسعه أن يحتضن أكثر من طفل. أصبح يستوعب بصفاء شديد إحساس أبي الحسن تجاه كلّ أولئك الشّباب الذين يعجّ بهم فناؤه.

أيقن فجأة أنّه لا يريد الافتراق عن صهيب.

***

كانت آية حريصة على إمضاء فترات طويلة من النّهار برفقة آلاء، أمّا عمر فكان يبقى لساعات صحبة الأولاد الأكبر سنّا. كانت تشعر بإهماله لـ«طفلتهما». لم يعد يداعبها مطوّلا، أو يزاحمها في الاعتناء بها حين يكون في دار الرّعاية.

كان يربّت على رأسها ويضع قبلة على شعرها، ثمّ ينسحب. كانت تدرك أنّ لتعقّد خطوات الاحتضان علاقة بذلك، وكانت تخشى أن يستسلم. لقد تعلّقت بآلاء، وانتهى الأمر. لم تعد تقبل فكرة الابتعاد عنها!

كثيرًا ما يهيّأ إليها أنّ على طرف لسانه حديثًا لا يفصح عنه، لكنّها لم تكن مستعدّة للاستماع.

قالت ذات يوم بلهجة عتاب:

-أنت لم تعد تقضي الكثير من الوقت برفقة آلاء، وهذا ليس سلوكًا أبويًّا سليمًا.

تغلّف عتابها بابتسامة حانية، لكنّ ملامح عمر لا تلين. قال بلهجة جادّة:

-هناك ما أودّ إخبارك به.

همّت تقاطعه، لم تكن تريد الإصغاء. لكنّه فاجأها:

-أريد احتضان صهيب!

استمرّ صمت محرج بينهما لثوانٍ. تحتشد الكلمات على طرف لسانها، متذمّرة ومتمرّدة، لكنّها لا تلفظها. لقد اتّفقا، وعدها أن تكون بنتًا!

-أعلم أنّك تريدين آلاء، لكنّني أريد صهيبًا أيضًا. لن نتخلّى عن آلاء، أعدك. سوف نجد عمّها طال الزّمن أم قصر.. لكنّني أريد صهيبًا أيضًا.

حدّقت فيه في دهشة. كان يعبّر للمرّة الأولى -بل الثانية، بعد رغبته في احتضان عزّ الدّين- عن شيء يريده، بكلّ وضوح، وحرارة. ولم تكن لتعترض، إذا كانت تلك إرادته. لكنّها فوجئت باعترافه غير المتوقّع. تنفّست بعمق، ثمّ قالت:

-حسنًا، لكنّنا لن نتخلّى عن آلاء؟!

-لن نتخلّى عن آلاء.

زفرت، تطرد الهواء المشحون بالتوتّر عن رئتيها.

-هل.. تأكّدت من نسبه؟

أومأ بسرعة. لا يلدغ مؤمن من جحر مرّتين. لم يكن ليصارحها إلّا بعد تيقّنه من تذليل كلّ العقبات.

-هل تريدين إمضاء بعض الوقت معه؟ يمكننا الذّهاب في نزهة، نحن الأربعة...

-مثل عائلة؟!

-مثل عائلة.

ابتسم، فردّت الابتسامة بأوسع منها. كانت بصدد الحصول على عائلة ممتدّة بأسرع ممّا توقّعت.

***

وصل الوفد الأجنبيّ إلى عمّان متأخّرًا يومين عن الموعد المضروب. في الغد، ركب عمر وآية وأبو الحسن السيّارة التي استأجرها عمر من أجل رحلة بريّة مدّتها ساعة ونصف السّاعة في اتّجاه الشّمال للانضمام إلى الفريق. أمام مدخل المخيّم، اجتمعوا بمنسّق الزّيارة لاستلام التّصاريح الخاصّة بهم، ثمّ سار الوفد إلى الدّاخل.

عند الحاجز الأمنيّ، تثبّت رجل الأمن الأردنيّ من التّصاريح ثمّ قال:

-ستلبسون سترة صفراء فاقعة تميّزكم، حتّى لا تتعرّضوا للأذى.

كان الأمن الأردنيّ منتشرًا بكثافة في كلّ زوايا المخيّم بشكل ملفت للنّظر. همس عمر إلى أبي الحسن متسائلا:

-لماذا كلّ هذه الأعداد؟

-لولا الأمن الأردنيّ لقتل السّوريون بعضهم بعضًا.. فهنا سوريّون مؤيّدون للنظام السّوريّ وآخرون معارضون!

نظر أبو الحسن إلى الحقيبة الكبيرة التي حملها عمر على ظهره، ثمّ أردف مازحًا:

-هل تضايقك المراقبة الأمنيّة؟ لعلّك تحمل ممنوعات؟!

ضحك عمر يجاريه ولم يعلّق.

قبل أن تشرع السّلطات الأردنية في استقبال اللاجئين من سوريا، كان الزّعتري مجرّد مسطّح صحراويّ لا حياة فيه، يقع على بُعد اثني عشر كيلومتراً من الحدود السورية الجنوبيّة، على رقعة عرضها سبعة كيلومترات. استقبلت الأرض البور القاحلة بشرًا منهكين من قسوة الحرب، لتحمّلهم لقب اللّاجئين إلى أجل غير معلوم. بعد مرور أربع سنوات على إنشاء المخيّم، أصبح أكبر تجمّع للسّوريّين خارج تراب سوريا بتعداد سكّان يفوق الثمانين ألف نسمة. ولد تحت سماء الخيام خمسة آلاف طفل لاجئ، ليكبر بين أسوار المخيّم جيل جديد لا يعرف شيئًا عن العالم خارجه.

مشت آية خلف زوجها عبر شوارع المخيّم، بقلب منقبض وعينين جاحظتين، بينما بدا عمر أكثر ثباتًا، وقد أكسبته الزّيارات السّابقة مناعة ضدّ الألم. تملكها إحساس بالفجيعة، كأنمّا ركبت كبسولة زمن وسافرت إلى ماضٍ قريب، لتشهد بأمّ عينها نكبة أسلافها. لو أنها فتحت عينيها في مخيم قلنديا أو جنين خلال خمسينيات القرن الماضي، فلن يختلف المشهد إلا قليلا. كانت الرّؤية معتمة عبر نظارتها الشّمسية، فنزعتها لترى بشكل جيّد. لكنّ القتامة لم تتلاش. لم يكن العيب في نظارتها، بل في سواد المشهد: الخيام والشوارع والنّظرات ومعالم المستقبل، كلها حالكة، بينما تغطي سُحب

الغبار التي تثيرها الرياح أو الشاحنات العابرة كافة أرجاء الصّحراء العارية.

انتابها إحساس غريب بالرّهبة وهي تجتاز حشود النّاس المتطلّعين إلى الزّوّار الغرباء المتّشحين بالأصفر. سرت قشعريرة باردة في جسدها وهي تتخيّل في رأسها مشاهد متسارعة لحكايات تهجير ولجوء مرعبة. تتراءى بين ناظريها صور نساء حفايا وأطفال يرتدون أسمالا أرهقهم المشي الطويل، فيحملهم الآباء فوق الظهور وعلى الأعناق. تصل القافلة المثقلة بالهموم والمفرغة من الأحمال، فيتهاوى البشر العرايا اللاهثون المكدودون على الأرض.

أدركت منذ الوهلة الأولى الفرق البيّن بين مخيّم اليرموك ومخيّم الزّعتري. لم تكن قد زارت أيّا من مخيّمات الأردن الأخرى، لذلك فقد كانت نظرتها طازجة لمعاناة اللّجوء. كانت معالم الزّعتري تشي بكلّ ما هو «مؤقّت». تتراصّ المساكن الهشّة وتتتابع إلى ما لا نهاية، تتخلّلها أعمدة الكهرباء، ولا حدّ للوجع الذي استقرّ في قلبها من المشاهد الماثلة أمامها. ما زال اللاجئون -رغم تعاقب السّنين- يعيشون في خيام قماشيّة مهترئة أو غرف صفيح و«كرفانات» عائليّة تنتظر أن تشدّ الرّحال إلى وجهة جديدة. كان الصّدأ قد أخذ يعلو

بعضها، وظهرت علامات الإنهاك أمام وطأة الزّمن والظّروف المناخيّة الصّعبة شتاءً وصيفًا. تتكرّر المعاناة ذاتها كلّ عام: برد قارس مع حلول الشّتاء في محيط صحراويّ قاسٍ، تصاحبه أمطار وثلوج تغمر أبنية المخيم الرثّة وتحدث مستنقعات الوحل، أمّا في الصّيف فترتفع الحرارة لمستويات قياسيّة لم يعهدها السكّان في حياتهم، وتكثر العواصف الرمليّة.

سار المنسّق أمام الصّفوف الأماميّة وهو يرفع صوته باللّغة الإنجليزيّة:

-في جدول الزّيارة لدينا محطّات ثلاث: الشّارع الرّئيسي، وحدة صحيّة ومدرسة.. المخيّم مترامي الأطراف، لا يمكننا أن نرى كلّ شيء في سويعات قليلة. يمكنكم الحديث إلى السكّان. حافظوا على مسافة أمان إذا شعرتم بالخطر. الأمن الأردني يرافقنا من أجل سلامة الجميع.. تهجّم بعض الأفراد وارد.

مع دخولهم إلى المخيم تجمهر الأطفال والبالغون أمامهم في ترقّب وفضول. لم تكن الزّيارات كثيفة في الآونة الأخيرة. لعلّ أمر المخيّم شغل المنظّمات العالميّة في الشّهور

الأولى، لكنّ الإعانات شحّت بعد ذلك. قبل أن يتوغّل الفريق الزّائر داخل المخيّم، أشار عمر إلى المصوّر وقال بلهجة حازمة:

-لا نريد أن نظهر في الصّور!

فأومأ الرّجل في تفهّم. كان المصوّر قد تشاجر مع المنسّق قبل انطلاق الفريق: لم يسمح الأمن بدخول آلات التّصوير. كاد الوضع أن يؤول إلى تصعيد عنيف، فما جدوى برنامج مصوّر بدون آلات تصوير؟ انتهى الأمر إلى عقد اتّفاق مرضٍ: آلة تصوير واحدة، واستئذان الأمن قبل التقاط أيّ صورة أو تسجيل أيّ مقطع. كان المخيم يخضع لنوع من الرّقابة الصّارمة، كأنّ أسرارًا دوليّة تحاك خلف الأسوار.

توقّف الوفد عند الشّارع الرّئيسيّ أوّلا. كانت خيام متلاصقة قد تحوّلت إلى ما يشبه السّوق المتنقّل. كانت هناك محلّات سلع أساسيّة كالمواد الغذائيّة والملابس والأدوات المنزليّة، بالإضافة إلى صالونات الحلاقة والمطاعم والمقاهي...

توقّف فريق التّصوير لإجراء لقاءات صحفيّة مع أصحاب

الدّكاكين من الشّباب السّوري، أما آية فكانت تنظر إلى وجوه النساء، تتأملهنّ: وجوههن حزينة، كأنهنّ لم يضحكن منذ سنين. العبء الأكبر في الحروب المجنونة دائمًا ما تنوء بحمله المرأة بغضّ النّظر عن سنّها، ومركزها الاجتماعيّ ومستوى تعليمها. إنّها لا تفقد الإخوة والأبناء والأزواج الذين يضطرون إلى المشاركة في القتال العبثيّ وحسب، بل تفقد الرّغبة في الحياة نفسها، حين تصبح بين عشيّة وضحاها، الأمّ والأب والعائل الوحيد، والمسؤول عن سلامة من تبقّى من أفراد العائلة.

تحت الشمس الحارقة، لمحت سيّدة شابة ترتدي عباءة سوداء وتحمل في حضنها طفلة صغيرة، عمرها ثلاث سنوات. اقتربت آية وسألت بابتسامة:

-ما اسمها؟

-سوسن.

-اسم جميل!

ردّت السيّدة بلهجة حزينة:

-على اسم عمّتها. لو رأيتِ ماذا حصل لعمّتها! كنت على وشك الوضع، حين بدأ القصف فوق رؤوسنا. ماتت قبالتي.. كنت أحتضنها وأقول: لا تموتي قبل أن تري سوسن! لكنّ كلماتي لم تصلها.

تصمت أم سوسن، ثم تقول:

-سوف نرجع. هل رأيت حقيبتي؟ لا أريد إفراغ محتوياتها، حتّى لا أشعر بأنّنا سنمكث هنا!

ما قالته أم سوسن تكرّر على ألسنة سائر السّوريين اللاجئين في الزّعتري، كلهم يتمنّون العودة إلى ديارهم. قال المنسّق أنّ مئات منهم يتقدّمون يوميّا بطلب الرّجوع إلى الأراضي السّوريّة.

-إنّهم يفرّون من موت مظنون إلى آخر محقّق.. بسبب الجوع والمرض والمراوحة بين شدّة البرد وقسوة الحرّ!

أمام جمع من الأطفال فتح عمر الحقيبة، وإذ بها ملأى بأنواع مختلفة من الحلوى والشوكولاتة والبالونات الملوّنة،

وألعابٍ صغيرة مسلّية. ما إن ظهرت المفاجأة إلى العيان، حتّى تدافع الأطفال من حوله وقد أشرقت ملامحهم بفرح غامر. لم يكتفِ عمر بتوزيع الحلوى، بل شارك الأطفال عدة أنشطة حركيّة. قفز برفقتهم وركض ولعب الكرة كما لم يفعل منذ الأزل! ثمّ تطايرت في أرجاء المخيم البالونات التي انشغلت آية بنفخها وربطها مع جمع من الفتيات. صرخ الأطفال فرحًا كما لم يصرخوا من قبل، نسوا لبضع ساعات ألم اللجوء والفاقة والفقد. انشغلوا لبعض الوقت عن إرث الوطن الجريح الذي يثقل أفئدتهم الصّغيرة.

قالت عجوز قد اتكأت على عكازها وهي ترمق المشهد بنظرة رضا:

-لقد جئتم بالفرحة لهؤلاء الصّغار.. منذ دهر لم يضحك الأطفال في هذه الأرجاء!

رأت آية أمًّا تحتضن أطفالها الثلاثة وتجلس في زاوية بعيدة. لم تهتمّ بالفرح والهدايا ولا شارك أطفالها المرح. اقتربت وسألتها في ودّ:

-لماذا لا تتركين الأطفال يقتربون ويأخذون هدايا؟

رفعت السيّدة رأسها في أنفة وقالت:

-نحن لا نأخذ الصّدقات! أنت لا تعرفين كيف كانت حياتنا في درعا.. كانت لدينا مصانع! ومنزل كبير.. وخدم!

لم تكن نفسها العزيزة قد تقبّلت ذلّ حياة المخيّم. سبقتهم المرأة إلى داخل الخيمة وهي تشير إلى البساط النظيف الذي يتوسط المساحة، تدعوهم إلى الجلوس. بدت الخيمة مرتبة رغم المحيط العبثي الكالح. قالت بابتسامة حزينة:

-ليتني أستطيع أن أدعوكم إلى زيارة منـزلنا الجميل الذي كنا نملكه في الوطن.

كانت تبذل كل ما في وسعها من أجل أن تصبح هذه الخيمة الكئيبة بيتاً لها، مكانا لائقا يحفظ النفس والكرامة . سارت حتّى الرّكن الدّاخليّ ثمّ عادت وبين كفّيها أحذية مهترئة وممزّقة.

-هذه الأحذية والصنادل التي قطعنا بها رحلة الشقاء إلى الأردن. لقد أقسمت على الاحتفاظ بها لأرفعها في وجه كل مسؤول وكل مراسل يزور المخيّم، ولأريها لأحفادي بعد عمر

طويل وأنا أقصّ عليهم تفاصيل المأساة.

وضعت آية قطع الحلوى في كفوف الأطفال في صمت، وقد دمعت عيناها لكلمات الأمّ. كان من العسير على عزيزة النّفس الاستسلام لتلك الحقيقة المؤلمة، رغم مرور سنوات على حياة اللّجوء. كان الذلّ بعد العزّ قاسيًا وعسير التقبّل. لم تكن نار توقد في الخيام ولا يسمح للسّكان بالطّهو، خشية حدوث حرائق -ولغلاء سعر الغاز- ويقتات الجميع على الوجبات الهزيلة التي توزّعها إدارة المخيّم وقسائم المواد الغذائيّة. أمّا الحمّامات فهي جماعيّة وفي حال من القذارة نظرًا لنقص المياه. أنّى للمرء أن يحفظ عزّة نفسه في ظلّ ذلك الواقع المزري؟

ابتعدت وهي تربّت على رؤوس الأطفال الذين يتعقّبون خطواتها بعيون مبهورة. انحنت قبالة طفل كان يجلس على عتبة إحدى الخيام وقالت:

-لك عندي هديّة، هل تريد أن تراها؟

قال الطّفل بصوت باهت:

-لا أريد هديّة! أريد أمّي!

-أين أمّك؟

-لقد قتلت! وأنا هربت، جئت مع أبي وعمّتي وأولادها.

ضمّته إلى صدرّها بقوّة في تعاطف، ثمّ سألت من جديد:

-هل تذهب إلى المدرسة؟

هزّ الولد رأسه علامة النّفي. قالت إحدى الأمّهات الجالسات قريبًا:

-لقد أصابت الفيضانات الأخيرة عددًا من مساكن المخيّم فنقل المتضرّرون إلى المدرسة، وهم يسكنونها منذ ذلك الحين، في انتظار توفير مساكن بديلة. لم يعد الأطفال إلى المدارس منذ موجة الشتاء الماضي!

قال الطّفل مسترجعًا ذكريات بعيدة:

-كنّا نذهب إلى المدرسة في سوريا. يومها كنّا في المدرسة،

حين نزلت علينا قذيفة هدّت نصف البناية! نحن هربنا.. ولم نعرف أبدًا ماذا حصل للطلّاب الآخرين. أصحابي ماتوا.. ذبحوا.. وتشرّدوا.. بعضهم لم يعرف كيف يعود إلى بيته، وآخرون فقدوا ولم يصل أحد إلى مكانهم.

أضافت ريحان، طفلة لا يتجاوز سنّها العاشرة، وهي تستحضر نصيبها من المأساة:

-لن أنسى رجلاً كان يمشى وسط الشارع والرّصاص يأتي من كلّ اتّجاه، والنّاس تنادي عليه لكي يحتمي، ولكنّه وقع على الأرض ومات، واكتشف النّاس بعدها أنه أطرش! رأيت ذلك من وراء الشباك وأنا خائفة، وكلما تذكرت المنظر أشعر بالخوف الشديد.

تلفّتت آية من حولها في حسرة. كانت حال الأطفال مزرية وقد بدا عليهم الهزال وسوء التّغذية. ورغم وجود عدد من المستشفيات في الجوار، فلم يبد أنّ طبيبًا واحدًا قد زار الموقع منذ شهور. همست آية إلى عمر في قلق:

-الأطفال في حاجة إلى متابعة نفسيّة...

ضحكت أمّ ريحان وقد تناهت إليها عبارتها وقالت:

-نحن لا نجد الطّعام والكساء، فكيف بطبيب نفسيّ! هل تظنّيننا من الأجانب؟

بينما انشغلت آية مع السّيّدات والأطفال، تحدّث عمر إلى الشّباب في بناء المدرسة. كانت هناك قاعة واحدة للدّروس في ذلك الوقت، والمعلّم أحد شباب المخيّم، وأوّل خرّيج جامعة منه. كان محمّد طالبًا في السّنة الجامعيّة الثالثة في جامعة دمشق، حين غادر سوريا. ولقد تعاونت معه جامعة «آل البيت» الأردنيّة بقبول أوراق تسجيله، ليكمل سنوات تعليمه ويتخرّج معلّم صفّ.

-كنت قد حصلت على منحة.. وكانت الصّعوبة الأكبر هي السير يوميًا، صيفًا وشتاءً، من القطاع العاشر إلى البوابة الرئيسيّة للمخيّم حتّى أستطيع الذّهاب إلى جامعتي، وكانت المفوضية السّامية تتابعني وتسألني دائما عن احتياجاتي في الدّراسة إضافة إلى توفير التّصاريح اللازمة للخروج من المخيم للالتحاق بالمحاضرات.

تشرق ملامحه وهو يضيف بلهجة مستبشرة:

-الأطفال هم المستقبل، وهم الأمل! أتعاون مع منظّمات عالميّة لتكوين مدرّبين يقدّمون دورات في الرّياضيّات والحاسب الآلي لأطفال المخيّم. هذه مرحلة صعبة، وسوف نتجاوزها.. سنتحدّى الجهل، وسننتصر!

ابتسم عمر وهو يستمع في إعجاب لشروحاته عن خططه المستقبليّة لتطوير المدرسة. لم يكن التّعليم أولويّة لدى إدارة المخيّم حتّى تلك اللّحظة، فتحدّيات الحياة اليوميّة كانت مكبّلة كفاية: كانت قسائم المواد الغذائيّة التي تمثّل قوت أهل المخيّم الأساسيّة مهدّدة بالانقراض، ليواجه السّكّان شبح الجوع المقيت بأكفّ عارية. وحين يصلون إلى نهاية الزّقاق وتنفد الحلول، سيصبح الموت جوعًا أمرًا واقعًا. لذلك، فقد كانت طموحات محمّد مدهشة وسرياليّة في آن!

أمضى عمر وآية سويعات قليلة برفقة الأطفال وأهاليهم، اختلط فيها الفرح الصّبياني بالحزن والخوف من المجهول. استمعا إلى حكايات الأطفال التي تشبه كوابيس لم يستيقظوا منها أبدًا. شام، الطّفلة السّوريّة ذات السّنوات السّت، أخذت قطعة «الملبّس» وازدردتها بسرعة خياليّة، ثمّ طلبت الثّانية. ناولتها آية قطعة إضافيّة وهي ترنو إليها في إشفاق. لعلّها كانت تشتهيها منذ زمن ولا تجد إليها سبيلا. بعد

ثوانٍ طلبت الثالثة، فقالت آية برفق:

-على مهلك، ستختنقين!

قالت الفتاة وهي تلقي بالحلوى داخل فيها دون تفكير:

-أرجوك، منذ زمن لم أذق شيئا حلو الطّعم. منذ جئنا إلى مخيّم الزّعتري!

رقّ قلب آية ودمعت عيناها لرجاء الطّفلة البائس، فوضعت في كفّها حفنة من الحلوى المغلّفة وهمست:

-هذه لك وحدك. كليها في وقت لاحق.

فأومأت شام بحرارة وجرت إلى خيمتها لتخبّئ الكنز الثّمين.

قبل مغادرتها، جلست آية على الأرض بين الفتيات اليافعات، وسألتهنّ عن أحلامهنّ. قالت ريحان بنبرة واثقة:

-أريد أن أكون طبيبة أطفال، لأعالجهم وأمنع بكاءهم!

بينما قالت زاد الخير، بنت السّتة عشر عامًا:

-أريد أن أصبح مترجمة محترفة، حتّى أترجم للنّاس بكلّ لغات العالم.. كيف يشعر اللّاجئون، وكيف هي معاناتهم.

كانت أحلامًا بسيطة ومشروعة، غير أنّ الحزن اعتصر صدر آية: فكم من زاد تعرّضت للعنف في المخيمات وكم من ريحان أجبرت على الزّواج المبكر، وكم من شام حُرمت من التعليم؟

على طريق العودة، خيّم الوجوم على ثلاثتهم. قال عمر فجأة وقد تصاعدت الغصّة إلى حلقه:

-تخيّلي، طفل ذو تسع سنوات قال لي: «الموت ولا الزّعتري»! كيف لطفل أن يفضّل الموت على المخيّم؟ إلا إذا كان قد فقد أهله وأصحابه ورأى الموت شديد القرب!

تنهّد أبو الحسن ثمّ قال:

-ما أصاب اللاجئين السّوريين نكبة حقيقيّة، توازي بقساوتها نكبة الفلسطينيّين! هذا المخيّم، إنّه مثل سجن

كبير، اللّاجئون ممنوعون من الخروج للعمل إلا بكفالة أو تهريب، بينهم مصابون ومرضى وآخرون شوّهت الحرب أجسادهم وأرواحهم.. ناهيك عن الشّعور بالذلّ والمهانة، وهم الذين كانوا أعزّاء في ديارهم!

تلفّتت آية لتلقي نظرة أخيرة على الأطفال الذين ركضوا وراء السيّارة حتّى حدود المخيّم مودّعين. كانت في عيونهم براءة باقية، تتحدّى قهر الحياة. تمنّت أن تكون قادرة على منح كلّ واحد منهم فرصة في غد أفضل. همست بين أسنانها بحرقة وألم:

-ألا لعنة الله على الظالمين!

ثمّ أضافت في تصميم:

-يجب أن نعود مرّة أخرى!

نظر إليها عمر متسائلا. هل كان الأمر يتعلّق بعمّ آلاء؟ لم تكن الزّيارة قد أسفرت عن نتيجة تذكر من حيث الهدف الأساسيّ منها. لا أثر للرّجل الذي يجدّ للبحث عنه منذ أسابيع في المخيّمات. كان يجب أن يعاين احتمالات أخرى: أن

يكون قد هرب إلى المناطق الحضريّة داخل عمّان وحولها. لكنّ كلمات آية لا تتطرّق إلى المسألة التي تشغل بالها أكثر من أيّ شيء آخر.

-هناك الكثير لعمله، من أجل الأطفال والسيّدات والشّباب أيضًا. لا أظنّني أنسى المشاهد التي رأيتها اليوم، ولو بعد مائة عام. يجب أن نفعل شيئا!

مصادر الفصل:

١-مقال «نازحات ولاجئات وأشياء أخرى!» بقلم حسن أبو طالب، بتاريخ ١١ مايو ٢٠١٦ .

٢ - مقال «حكايات لا تنسى.. قصص اللجوء في مخيم الزعتري» بقلم غادة أسعد بتاريخ فبراير ٢٠١٣.

-15-

كان عليها أن تستعدّ للرّحيل مرّة أخرى. لكنّ ما يهوّن عليها، أنّها لن تكون وحيدة هذه المرّة.

اجتمعت العائلة في منزل عبد الحميد ذلك المساء. كانت قد حزمت حقائبها وأنهت تحضيرات السّفر لها ولعزّ الدّين. استلمت التّأشيرة من السّفارة الفرنسيّة ذلك الصّباح. دخلت وخرجت من المبنى المحصّن بالأسلاك في سلام، وبيدها جواز ابنها تزيّنه بطاقة العبور إلى شمال المتوسّط.

نظرت إلى ميساء وهمست:

-لا أوصيك على المكتبة.

هتفت ميساء في حرارة:

-لا تخشي شيئا، ستكون في أيد أمينة!

-نرجس تعرف كلّ تفاصيل العمل، ومعها عناوين المزوّدين.

الدّفتر يحوي كلّ الإيصالات وقائمة السّلع الموجودة في المخزن وعلى الرّفوف. احرصي على تدوين كلّ شيء!

ثمّ التفتت إلى عبد الحميد وأردفت:

-والدي، سأتركه في رعايتكم.. وآسفةٌ للإثقال عليكم...

قاطعتها زهور على الفور وهي تشدّ على كفّيها:

دعي عنك كلّ المشاغل، بوسعنا الاهتمام بكلّ شيء في غيابك. عودي بخير برفقة عزّ الدّين. هذا كلّ ما يهمّ!

أومأت بعينين نديّتين.

قبيل رحيلها، دخلت على والدها في معتزله. حدّثته بصوت خافت عن حالة عزّ الدّين، وعن اضطرارها للسّفر من أجل علاجه، واعتذرت لرحيلها. ثمّ قالت بصوت مرتجف وقد غلبتها العبرة:

-عزّ الدّين ليس بخير.. أنا لست بخير يا أبي...

وضعت رأسها بين كفّيها وأجهشت بالبكاء. شعرت فجأة بكفّه تلامس رأسها وتمسّده برفق. رفعت عينيها إليه، كانت نظراته متيقّظة وعلى شفتيه شبه ابتسامة واهنة. تحرّك لسانه بتثاقل. ميّزت الكلمات رغم ذلك، مثل زفرة متعبة:

-أنت قويّة ياسمين، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

لا تذكر متى كانت آخر مرّة أخذها بين ذراعيه. لا تستحضر مشهدًا مماثلًا في طفولتها البعيدة. ربّما كان يحتضنها للمرّة الأولى، ربّما كانا يعيشان لحظة تقارب غير مسبوقة بين أب وابنته جعلتهما ظروف الحياة غريبين معظم الوقت. شعرت بالدّفء يغمرها، وهي تضع رأسها على صدره، وراحته تتحرّك ببطء لتربّت على ظهرها.

ستكون بخير، وسيكون بخير أيضا.

***

وصلت رنيم إلى باريس منذ أسبوعين. كانت قد تلقّت إشعارًا من المشرفة على رسالتها باضطرارها إلى السّفر إلى كندا من أجل شأن عائليّ عاجل، ولم يكن بوسعها الاستمرار

في الإشراف عن بعد.

تلقّت رنيم الخبر بكثير من الأسف. كانت علاقتها بـ«كريستين» أكثر من وديّة. خلال سنتين من عملهما معًا، تعلّمت الكثير من خبراتها في مجال الحقوق، وأيضا فيما يخصّ الحياة العمليّة. كانت أحاديثهما تستمرّ بالسّاعات، عبر الاتّصالات المرئيّة، وحين تسافر إلى باريس، تكون أيّام العمل مضغوطة ومليئة بالحركيّة. ومع ذلك، فقد كانت مرنة جدّا فيما يخصّ ارتباطها العائليّ وحاجتها إلى التّواجد في مصر معظم الوقت.

كانت رنيم تدرك أنّ كريستين نادرة الوجود، وأنّها قد وقعت على جوهرة حين قبلت بها طالبة في برنامج الدكتوراه.

استقبلتها كريستين بعناق حارّ عند بوّابة الجامعة.

-عزيزتي رنيم، كيف كانت رحلتك؟ أرجو أنّك لست متعبة جدّا.. فلدينا عمل كثير.

تحرّكت كريستين بنسق سريع وهي تواصل الحديث:

-يجب أن أعرّفك أوّلا بالبروفيسور «بيير برانس». سيكون مشرفك الجديد.

طرقت على باب مكتب في قسم الحقوق، ثمّ دفعت الدّفة. قابلها رجل أشيب بشرته بيضاء مشربة بحمرة، ذو كرش ضخم وأنف أفطس. قالت كريستين وهي تشير إلى رنيم:

-بروفيسور بيير، أقدّم لك طالبتي المجتهدة: رنيم شاكر!

وقف الرّجل ليصافحها بكفّ رخوة وهو يبتسم بسماجة:

-الوجه التلفزيّ الشّهير! ومن لا يعرف من تكون الفاتنة رنيم شاكر!

شعرت رنيم بالنّفور على الفور من نبرته السّاخرة وأسلوبه السّخيف. قالت كريستين بسرعة:

-أنا أحذّرك، رنيم ليست مجرّد وجه جميل! إنّها طالبة مميّزة، ستدهشك!

-سنرى ذلك.

أمضت الأيّام التّالية في لقاءات ثلاثيّة، هي وبيير وكريستين، حرصت خلالها كريستين على نقل رؤيتها للرّسالة بتفصيل شديد، ليحيط بها بيير دون جهد. وحين أنهت مهمّتها، عانقت رنيم بحرارة وقالت:

-أرجو أن ترسلي لي نسخة من أطروحتك النهائيّة، بعد سنة واحدة من الآن!

ودّعتها رنيم في أسى، وقد أدركت بأنّها خسرت الكثير حين تركتها كريستين.

خلال أسبوع واحد، تأكّدت من صدق حدسها. كان بيير يعاملها بتكبّر وعجرفة. ورغم تظاهره بمجاراة كريستين، فما إن ولّته ظهرها حتّى قال بسخرية بيّنة:

-حسنًا أيّتها النّجمة. أنا لست كريستين، ولست راضيًا عن هذا العمل المتخبّط.

أشار إلى خارطة الطّريق التي تشرح مسار البحث ومستوى تقدّمها فيه، ورسم سطرًا عند المنتصف ثمّ قال:

-أظنّ من الحكمة إعادة النّظر في الجزء الثّاني من العمل. لم أجده مقنعًا.

فغرت رنيم فاها في دهشة. كان يطلب منها أن ترمي في القمامة مجهود سنة على الأقل، وإعادة خطّة جديدة للسّنة الأخيرة التي يفترض بها أن تمضيها في المراجعة والتحصيل وحصر النّتائج البحثيّة!

ذهبت ذلك الصّباح إلى إدارة الجامعة ورفعت خطابًا لتغيير المشرف على رسالتها، ثمّ اتّجهت مباشرة إلى المطار لاستقبال ياسمين.

عانقتها بقوّة في صالة الوصول بمطار «باريس أورلي». لقد تخالفت طرقهما في الرّحلة السّابقة، وصلت رنيم بعد رحيلها إلى تونس. لكنّها كانت في الموعد هذه المرّة. وراءها، كان عزّ الدّين يجلس على مقعده المتحرّك في استكانة. انحنت رنيم لتربّت على رأسه وتقبّل وجنته:

-كيف أنت أيّها البطل؟

هزّ رأسه بفتور. كان الوهن باديًا عليه. لم تستوعب رنيم

كنه مرضه من توصيف ياسمين على الهاتف، لكنّها أيقنت أنّه خطر يهدّد حياة الصّغير. قاطع اجتماعهما صوت رجاليّ قادم من الصّفوف الخلفيّة:

-سيّدة ياسمين، حمدًا لله على سلامتكما!

التفتت رنيم في استغراب، فقامت ياسمين بتعريف أحدهما بالآخر:

-الدّكتور يوسف الحدّاد هو من شخّص مرض عزّ الدّين وهيّأ لنا فرصة العلاج.

قاطعها على الفور في تواضع جمّ:

-لم أفعل إلا واجبي.

-هذه الأستاذة رنيم شاكر، صديقة قديمة. ويمكنها الاهتمام بالجزء القانونيّ من إقامة عزّ الدّين.

حيّى أحدهما الآخر، ثمّ قال الدّكتور يوسف:

-بوسع المركز توفير محامٍ متخصّص، لكن إن كنت تفضّلين التّعامل مع شخص مألوف، فلك ذلك.

-أنا أثق جدّا في الأستاذة رنيم. ثمّ.. إنّها من العائلة.

ابتسمت رنيم في رضا، بينما أومأ الدّكتور يوسف في استسلام ثمّ أشار في اتّجاه البوّابة:

-سيّارة الإسعاف تنتظرنا بالخارج.. تفضّلي من هنا أرجوك.

ظهرت ممرّضة من ورائه، اهتمّت بدفع كرسيّ عزّ الدّين. بينما استلم الدّكتور يوسف عربة الأمتعة ليدفعها بنفسه. مشت رنيم وياسمين متجاورتين، وقد تشبّثت إحداهما بكفّ الأخرى تضغط عليها في مؤازرة صامتة. افترقتا عند سيّارة الإسعاف لتركب ياسمين إلى جوار طفلها، فيما حثّت رنيم الخطو إلى سيّارتها في المرأب لتلحق بهم وبحوزتها الأمتعة.

أتمّت ياسمين إجراءات دخول عزّ الدّين إلى المشفى بسلاسة. وكان الدكتور يوسف ورنيم إلى جوارها طوال الوقت. حرصه على إرسالها الوثائق في وقت سابق سرّع العمليّة كلّها. حصل عزّ الدّين على سرير في قسم طبّ

الأطفال. كان القسم عبارة عن قاعة واسعة، تشمل عدّة أسرّة تفصلها ستائر داكنة، لبعض الخصوصيّة. قال الدّكتور يوسف:

-الأطفال يشعرون بالملل والوحدة في غرف منعزلة، لذلك نفضّل بقاءهم في فضاء واحد.

في ركن الغرفة كانت هناك مساحة للهو، بها شاشة كبيرة وصناديق ألعاب ومكعبات ملوّنة، حيث اجتمع بعض الأطفال يتابعون برامج الكرتون.

-سيكون عزّ الدّين مرتاحًا هنا، أنا أضمن لك. هذه المصحّة مجهّزة بأحدث التّقنيات العصريّة، والموظّفون مدرّبون على التّعامل مع الأطفال وعلى درجة عالية من الحرفيّة.

أشار إلى السّرير الثّاني في الجناح الأيمن.

-هذا السّرير المخصّص له.

لم يكن عزّ الدّين قد رجع بعد. ما إن وطئت قدماه أرض المشفى حتّى أُخذ لإجراء عدد من الفحوصات.

-اتبعاني إلى المكتب، سنتحدّث قليلا في انتظار عودته.

جلست ياسمين ورنيم متقابلتين إزاء مكتب الدّكتور يوسف. طلب لهما فنجاني قهوة، ثمّ قال بودّ:

-اسمحي لي أن أطرح بعض الأسئلة الشّخصيّة، للإحاطة بظروف عزّ الدّين بشكل أدقّ. فهمت أنّك الوصيّة على عزّ الدّين.. ماذا عن والده؟

تنحنحت ياسمين في حرج ثمّ قالت بخفوت:

-والده.. متوفى.

-آه، أنا آسف.

استطرد الدّكتور يوسف على الفور:

-خشيت أن تواجهنا بعض الإشكالات القانونية في حال اعترض الأب على الخطّة العلاجيّة في مرحلة متقدّمة.. كان ذلك ليعقّد الأمر، و.. يضعنا في موقف حرج.

أومأت ياسمين في تفهّم، بينما عاد يقول:

-في الحقيقة لقد أدهشني طلبك للتأشيرة لعزّ الدّين فقط، خشيت أنّك لن ترافقيه في هذه الرّحلة. أقصد.. حضور أفراد العائلة عامل هامّ وضروريّ. والمركز كان ليتكفّل بترتيب إجراءات التأشيرة من أجلك أيضا.

-لم أكن في حاجة إلى تأشيرة. أنا مواطنة فرنسيّة.

رفع الدّكتور حاجبيه في دهشة. لم يتوقّع تلك الإجابة. تابعت ياسمين في غموض:

-لقد حالت الظروف دون حصول عزّ الدّين على الجنسيّة الفرنسيّة.

هزّ رأسه ببطء، ولم يلحّ في السّؤال. استلمت رنيم دفّة الحديث على الفور لتغيّر الموضوع:

-دكتور، سيكون من الجيّد تمكيني من الوثائق المطلوبة في أقرب وقت، لضمان إصدار بطاقة الإقامة في الآجال.

-بالتّأكيد. سأرشدك إلى القسم القانونيّ للمركز.. سيسرّهم مساعدتك بكلّ ما يلزم.

حين غادرت رنيم المكتب بعد ترتيب موعد مع الشّؤون القانونيّة، تأبّطت ذراع ياسمين وسارتا معًا عبر الممرّات على مهل. قالت وهي ترنو إليها في قلق:

-أنت واثقة من رغبتك في البقاء؟

-سأنتظر انتهاء عزّ الدّين من فحوصاته.

-ربّما يستغرق الأمر ساعات.. وأنت تحتاجين قسطًا من النّوم. تعالي معي إلى الشّقة.

-يمكنني النّوم هنا أيضا...

قاطعتها رنيم في احتجاج:

-أقصد نومًا حقيقيًّا مريحًا، لا النّوم على أريكة قاعة الانتظار!

ضحكت ياسمين بخفوت:

-لقد تعوّدت هذا النّوع من النّوم. ليس سيّئا إلى تلك الدّرجة.

ثمّ قالت تغيّر الموضوع:

-ممتنّة لحضورك، وآسفة لأنّي جئت بك في هذا الوقت. كان بوسع الأستاذ جورج الاهتمام بالأمر، لكنّني كنت بحاجة لك إلى جواري. أخشى أنّ شهاب يحقد عليّ الآن!

ضحكت رنيم ثمّ قالت مهوّنة:

-شهاب متفهّم. هذه مسألة حياة أو موت. ولن أتركك وحيدة في هذا الظّرف. ثمّ لقد تعوّد رعاية الطّفلين في غيابي.. وأمّي تساعده في ذلك. سيكون بخير.

ثمّ قالت فجأة تناوشها:

-ما قصّة الدّكتور يوسف؟

-ما قصّته؟

حدجتها رنيم بابتسامة ماكرة:

-إنّه مهتمّ بك، ألم تلحظي ذلك؟ كلّ تلك الأسئلة الشخصية: أين هو والده؟ خشيت أنك لن تحضري؟

نهرتها ياسمين في انزعاج:

-إنّها معلومات عامّة، من أجل ملفّه، لا أكثر!

زمّت رنيم شفتيها وقالت في غير اقتناع:

-وتلك النّظرات التي لم تفارقك لحظة؟

همّت ياسمين بالاعتراض فقاطعتها على الفور:

-لا داعي للعجلة. ستثبت الأيّام صحّة كلامي!

تنهّدت ياسمين في قلّة حيلة ولم تجادلها أكثر. احتضنتها عند البّوابة، وافترقتا على أمل لقاء قريب.

حين جاءت ياسمين إلى الشقة مساءً، كانت رنيم في انتظارها. وضعت أمامها صندوقًا كرتونيًّا احتفظت به من أجلها. قالت بابتسامة رائقة:

-هذه متعلّقات والدك التي استعدناها من سارة.

تفحّصت ياسمين محتويات الصّندوق في رضا: بطاقات والدها الائتمانية ودفتر مدّخراته، وقسائم الملكيّة للمنزل، بالإضافة إلى مقتنيات أخرى لم تكن تعلم عنها شيئا، وصكّ محرّر من قبل سارّة استجابة لحكم المحكمة، كتعويض على الانتهاكات التي اقترفتها. تأمّلت المبلغ المدوّن على الصكّ ثمّ تنهّدت. إنّها واثقة بأنّ سارة لا تملك ذلك المبلغ في رصيدها، لكنّها على الأقلّ تشعر بالارتياح. لقد طوت هذه الصّفحة، وانتهت من القضيّة برمّتها.

منذ اليوم، لم يعد لديها إخوة.

-16-

-أستاذ جورج، كيف حالك؟

-دكتور عمر! كيف أنت يا رجل!

على مرّ السّنوات، أصبح جورج أكثر من مجرّد محامٍ دافع عنه في قضيّتين مستعصيتين. ذلك النّوع من الأزمات يخلق شيئا أعمق وأغزر بين الموكّل وهيئة الدّفاع، تجعلهم جزءًا من حياته إلى الأبد.

لم يعرف من قبل معنى مصطلح «محامي العائلة». لم تكن له في ماضي حياته بالمغرب سوابق لدى المحاكم، ولا دخل نزاعات وصلت إلى القضاء، ولا حتّى امتلك عقارات تحتاج عقودًا ومعاملات لدى المحامين. لكنّ جورج أصبح في وقت ما «محاميه» الذي يعود إليه حين يحتاج ذلك.

قبل ذلك، كانت «رنيم شاكر» المحامية الخاصّة به. لقد فعلت الكثير من أجله، لكنّه فضّل التّعامل مع جورج في وقت لاحق. حين لحظ ذلك الالتباس في علاقته برنيم، فضّل

أن يترك مسافة أمان.

-أعرف أنّ هذا خارج نطاقك، لكن هل تعرف شخصًا موثوقًا في «لوزان»؟

-تقصد محاميًا؟

ضحك عمر، ثمّ أردف:

-نعم.. في الحقيقة، أنوي احتضان طفل. أقصد طفلين. لكن لن يحصل تبنٍ، بمعنى أنّي لن أنسبهما إلى نفسي. سيحمل كلّ منهما اسم والديه الحقيقيّين، لكنّني سأكون الوصيّ. هل فهمتني؟

-وصاية إذن، ليس تبنيًا.

-نعم، أودّ أن أستفسر عن المعاملات القانونيّة لتيسير وصولهما إلى سويسرا.

-بالتّأكيد، سأجد شخصًا مناسبًا من أجلك.

توقّف جورج برهة، ثمّ استطرد:

-بالمناسبة، هل علمت أن أرملة هيثم الأندلسي وولده هنا في باريس؟

-عفوًا؟

-عرفت أنّ الطّفل مريض جدًّا.. هو يقيم في مصحّة الآن...

قاطعه عمر في صدمة:

-عزّ الدّين، مريض؟

-آه، نعم. رنيم قالت أنّه مصاب بمرض نادر. يبدو الوضع حرجًا. آمل أن يكون بخير...

قال عمر بسرعة:

-جورج، شكرا لك. سأنتظر منك اتّصالا. إلى اللّقاء الآن!

أنهى الاتّصال على حين غرّة، أمام دهشة جورج، ثمّ اتّصل

على الفور برنيم. ترقّب الردّ في عصبيّة. كيف حصل ذلك ومتى؟ لقد غاب لخمسة أسابيع. خمسة أسابيع انشغل خلالها بأطفال المخيّم وإجراءات الاحتضان والبحث عن عمّ آلاء. خمسة أسابيع غفل خلالها عن عزّ الدّين.

لم يغفل، لقد تعمّد الغياب.

أجبر نفسه على التّجاهل، ثأرًا لجرح وهميّ في كرامته.. لأنّه كشف عن عجزه أمام ياسمين! يا للحماقة!

ما إن وصله الردّ حتّى هتف على الفور:

-لماذا لم تعلميني بأنّ عزّ الدّين مريض؟

قالت رنيم في سخرية أمام اندفاعه:

-مرحبا، أنا بخير.. شكرًا لسؤالك!

أخذ عمر نفسًا عميقًا، ثمّ قال في توتّر:

-أنا آسف. لست في مزاج حسن. ماذا حصل مع عزّ الدّين؟

زفرت رنيم وقالت بجدّية:

-لقد ساءت حالته فجأة. ثمّ جاء طبيب من فرنسا، وشخّص المرض. قال أنّ العلاج ممكن في باريس. لقد وصلت ياسمين منذ ثلاثة أيّام. عزّ الدّين تحت المراقبة في المشفى.

قال في نفاد صبر:

-ألم أطلب منك إعلامي بكلّ جديد أو طارئ؟

-ظننتك مواكبًا للأحداث! ألست تقيم في تونس الآن، وتزورهم باستمرار؟ حسبت أنّ خدماتي لم تعد ذات أهميّة!

حسنًا، كان يفترض به ذلك. لقد فعل كلّ شيء ليكون قريبًا. لكنّه أفسد الأمور في لمح البصر، وصنع هوّة يستحيل ردمها. غير أنّ الوقت ليس مناسبًا للنّدم وجلد الذّات. تنهّد بعمق، ثمّ قال في ضيق:

-لماذا باريس؟ يمكنه العلاج في سويسرا...

-الطّبيب الذي شخّص المرض يعمل في مركز أبحاث هنا،

ولديه خطّة علاجيّة. أظنّ أنّ ياسمين لم تجد بديلا عن المجيء، رغم ما يشكلّه ذلك من عبء نفسيّ عليها.

سكت لثوانٍ، ثمّ قال منهيًا الحديث:

-حسنًا إذن. شكرًا لك.

***

لم تشعر آية بالغيرة من قبل. لكنّها حين رأت ياسمين، شعرت بشيء في صدرها.

لم تكن ياسمين صبيّة حسناء ممّن يتلقين الثّناء والغزل أينما حللن، وتحسب أنّها لم تكن تفوقها بشيء. إنّها تبدو سيّدة مخضرمة، وقورة ورزينة في مشيتها وحديثها، خبرت الحياة وعرفت آلامها، حتّى أنّك تلمح لمعة الحزن في حدقتيها. لم تكن تتكلّم إلّا بقدر، وتخفي حتّى أبسط الكلمات، تكاد تنبس بها ثم توقفها على طرف لسانها، فلا تلفظها، كأنّها تضنّ على العالم بحروفها. أو لعلّها أدركت منذ زمن بعيد أنّها لم تعد تحتاج من الآخرين تأييدًا أو اعتراضًا، فاحتفظت بآرائها لنفسها. لقد كان ذلك الانطباع الذي خلّفه لديها لقاؤهما

الوحيد في ريف طبرقة.

إلا أنّها ودّت على الفور أن تكونا صديقتين!

لعلّها ظنّت أنّ اقترابها من ياسمين سيكون محلّ استحسان عمر. كانت أرملة صاحبه الشّهيد، ووالدة الطّفل الذي يريد احتضانه.. لا شكّ لديها في أنّ تقرّبها منها سينال رضاه.

لكنّها لا تريد مصادقتها من أجل عمر أو عزّ الدّين، ولكن من أجلها هي، آية!

لم تكن لديها صديقات كثر. تنقّلها من بلد إلى آخر في السّنوات الأخيرة أبعدها عن جاراتها وزميلات دراستها وأخوات القضيّة، وكان الحفاظ على العلاقات البعيدة أمرًا مرهقًا وغير واقعيّ. لقد تزوّجن كلّهنّ، وكثرت مشاغلهنّ، وما عادت في خطّطهنّ المضغوطة مساحة لصديقة بعيدة تعاني الوحدة في غربتها.

كان ذلك قبل أن يدخل عمر الغرفة التي غادرها منذ دقائق، وقد تغيّر لونه واستنفرت حواسّه.

كانا يقضيان بعض الوقت برفقة آلاء وصهيب. كانت ذلك النّوع من اللّحظات الحميميّة الدّافئة التي تشعرها بمعنى العائلة. كانا على وشك بلوغ نقطة التحوّل التي يرتبط فيها مصيرهما بمصير كائنين صغيرين آخرين، ليبرما عقدًا جديدًا من عهود الزّواج. شعرت أنّ عاطفتها تكاد تبلغ الذّروة، وأنّ موعدها مع السّعادة الحقّة على قيد أنملة.

حتّى أجرى ذلك الاتّصال.

قال أنّه سيحدّث المحامي الفرنسيّ من أجل التّجهيز لقدوم الطّفلين. وقف ليغادر الغرفة لدقائق قليلة. حين رجع، لم تكد تتعرّف إليه! كأنّ شخصًا آخر تلبّس جسده. تلك النّظرة الجزعة في عينيه، والارتجاف الخفيف الذي يعبر أطرافه لا إراديّا، كانت تتمنّى لو كانت من أجلها.

اقترب من مجلسها، وهو ما زال يصارع انفعالاته. سألت في قلق:

-عمر، ماذا يجري؟

-عزّ الدّين في حالة حرجة.. إنّه أمر طارئ.

-يا إلهي!

-آية، اعذريني. أستأذنك في الذّهاب.

حدّقت فيه بعينين متّسعتين، بينما يواصل:

-ستكونين بخير، أليس كذلك؟ لن أغيب طويلا.

غمغمت دون حماس:

-بالتّأكيد.

وضع مفاتيح السيّارة في كفّها وهو يقول:

-سأترك لك السيّارة المستأجرة، هل يمكنك القيادة في شوارع عمّان؟ ربّما يكون من الأفضل أن أتّصل بخالك أبي الحسن؟

-لا تشغل نفسك بهذا.. سأتّصل به.. حسنًا؟

-أنا آسف. يجب أن أذهب.

كان في صوته ألم جليّ، ولم تدرك لحظتها إن كان ألمه من أجل اضطراره إلى تركها والطّفلين، أو تأثّرا بمرض عزّ الدّين. لقد كان آسفًا. وكان يتوقّع منها أن تتفهّم. لكنّها تمتعض في داخلها ويتنامى في صدرها إحساس بالتبرّم والضّيق.

راقبته وهو يطبع قبلة على كفّ الصّغيرة ويربّت على رأس صهيب، ثمّ يستدير مغادرًا.

تلاشى إحساسها العارم بالدّفء حين خلّف غيابه فراغًا مفاجئًا. هكذا، اعتذر زوجها ورحل، بينما كانا يتأهبّان لولوج مرحلة الأبوّة معًا. انتابتها الرّيبة. هل كان يتحدّث إلى المحامي؟ وكيف تحوّل اهتمامه من انتقال آلاء وصهيب إلى سويسرا، إلى عزّ الدّين؟ لقد حسبته نسي أمره، حين قرّرا السّفر إلى الأردن. لقد ظنّت ياسمين قد رفضت عنايته بولدها، فلماذا تتّصل الآن؟ -لم يكن هناك أيّ تفسير لما حصل منذ حين، إلا ورود اتّصال غير متوقّع من ياسمين- لكنّ ياسمين محاطة بأهلها في تونس. لقد أمضت خمس سنوات تعتمد على نفسها، وتسيّر شؤون طفلها بمفردها.. فما الذي جدّ حتى تقحم عمر في هذا الآن؟ وكيف يتركها زوجها في بلد غريب وشؤون الاحتضان ما زالت عالقة، ليسافر على

حين غرّة، ليحلّ مشكلات ياسمين وولدها؟

شعرت بالغيرة تأكل أحشاءها.

لوهلة، هيّئ إليها أنّ ياسمين ضرّتها، وأنّها تنافسها على اهتمام عمر.

***

حطّت الطّائرة القادمة من الأردن عبر إسطنبول في مطار «باريس أورلي». كانت رحلة مستعجلة. لم يطق صبرًا بعد اتّصاله برنيم، فاتّجه رأسًا إلى المطار دون أن يعرّج إلى أيّ مكان آخر. لقد كان بتلك اللّهفة!

لو أنّه تمهّل بعض الوقت، ربّما كان ليفكّر باتّزان أكبر في عواقب رحلته إلى باريس. إنّه يدرك أنّ وجوده غير مرغوب، وقد يتعرّض للمضايقة. لكنّ حجج العقل كلّها تلاشت من ذهنه حين سكن فؤاده الجزع. لقد تأخّر كفاية. وكلّ دقيقة انتظار إضافيّة تسحب من رصيده أكثر.

رصيد ماذا؟ ولدى من؟ لم يمحّص الأمر، لكنّ إحساسه

بالتّقصير يخنقه. حين وقف عند مكتب الخطوط التّركيّة بمطار عمّان، سأل عن الرّحلة الأقرب والأقصر. كان الأحوط أن يهبط في جينيف، ويستقلّ القطار من هناك. لن يتثبّت أحد من هويّته عند عبوره الحدود السويسريّة الفرنسيّة. لكنّ حرصه كان مغيّبًا بمفعول التوتّر. رحلة مباشرة من إسطنبول إلى باريس، كان ذلك كلّ ما يريد.

لعلّه غفل عن محدوديّة تأثيره فيما يخصّ حياة عزّ الدّين، سواء كان في خطر كبير أم صغير. لم يكن طبيبًا ولا مختصًّا في أيّ شكل من أشكال العلاج. ولم يكن حضوره أو غيابه ليغيّر شيئا. لعلّ المفعول الوحيد لتلك السّفرة هو تخفيف الألم الذي ينخر صدره هو. حين يراهما، يكون إلى جوارهما، سيصبح أفضل.

لم يستعد صفاء ذهنه إلّا بعد أن استقرّت به الجلسة على متن الطّائرة المتّجهة إلى إسطنبول. لكنّه لم يغيّر خطّ سيره حتّى بعد أن أدرك فداحة خطئه بالدّخول المباشر إلى فرنسا عبر نقطة حدود جويّة. لم يكن يملك إلّا الدّعاء.. أن يمرّ عبر الحدود بسلام، ويصل في أقرب أجل ممكن، وأن يكون عزّ الدّين بخير.

تقدّم نحو مكتب الجوازات ووضع وثائق سفره بين يدي موظّف الحدود. لم تعد إقامته الفرنسيّة صالحة. انتهت مدّتها سنة ٢٠١٤ -كانت بحوزته بطاقة إقامة لعشر سنوات- بعد شهور من مغادرته السّجن، ولم يجدّد طلبها قطّ.

يحمل الآن جواز سفره المغربيّ وبطاقة إقامته السّويسريّة. تلك الإقامة تخوّل له التجوّل الحرّ داخل الاتّحاد الأوروبيّ، وفرنسا لن تكون استثناءً. غير أنّ الموظّف يتلكّأ وهو ينقل بصره بين الوثائق حينًا ووجه عمر حينًا آخر، ثمّ يستمرّ تحديقه في الشّاشة أمامه. بعد دقائق طويلة من الانتظار، سأل عمر في نفاد صبر:

-هل هناك خطب ما؟

-لحظات من فضلك.

ثمّ انشغل الرّجل في الحديث عبر جهازه اللا سلكيّ. بعد برهة قصيرة، اقترب موظّف أعلى رتبة من المكتب، ثمّ أشار إلى عمر:

-سيدي، هلّا تبعتني من هنا رجاء.

زفر عمر في ضيق. ها قد حصل ما خشيه تمامًا. مشى برفقة الضّابط إلى غرفة داخليّة، حيث تعرّض لتفتيش دقيق من رجلي أمن عابسين لم ينطق أحدهما بكلمة. ثمّ، اقتيد إلى مكتب صغير، حيث كان الضابط في انتظاره. كانت وثائقه على المنضدة بين يدي الرّجل يتفحّصها باهتمام.

-امممم.. سويسرا إذن.

ثمّ رفع عينيه إلى عمر وقال بلهجة متهكّمة:

-عمر الرّشيدي.. ما الذي جاء بك إلى فرنسا هذه المرّة؟

حافظ عمر على هدوئه قدر الإمكان. لقد كان متعاونًا حتّى اللّحظة، ولم يحاول الاحتجاج على المعاملة الجافّة التي لقيها من أمن المطار. لكنّ همّه الآن هو المغادرة في أقرب وقت. قال ببساطة:

-جئت لزيارة بعض الأصدقاء.

-أصدقاء؟ أيّ نوع من الأصدقاء؟

بدا عليه التردّد. فكّر أنّ عبور ياسمين وعزّ الدّين دون معوّقات يعني أنّ هويّتهما لا تشكّل خطرًا. لكنّه لا يريد في الوقت ذاته أن يجلب انتباه الأمن إلى حقيقة وجودهما على التّراب الفرنسيّ. ولعلّ الرّبط بينه وبينهما لن يكون في صالحهما أبدًا. لعلّ عائلة هيثم لم تكن على القائمة السّوداء للوافدين، لكنّه سجين سابق، ومحكوم بجريمة غير هيّنة. قال مراوغًا:

-لديّ بعض المسائل القانونيّة العالقة.. لذلك جئت لمقابلة المحامي الخاصّ بي.

سكت الرّجل لبرهة، ثمّ سأله في جدّيّة:

-ما الذي كنت تفعله في عمّان؟

-كنت أزور أقارب زوجتي...

ظهرت الضحكة المتهكّمة من جديد على وجه الضّابط:

-حقّا؟ أقارب زوجتك؟

تذكّر عمر أنّه قدّم الحجّة ذاتها، حين سئل عن زيارته لفلسطين وسوريا في التّحقيقات السّابقة. أدرك أنّه يواجه تحقيقًا جديدًا. قال على الفور في ضيق:

-هل أحتاج إلى استدعاء المحامي الخاصّ بي؟

تمهّل الرّجل، قبل أن يقول ببطء:

-ذلك يعتمد على.. علاقتك بالشّبكة الإرهابيّة التي تهدّد الأمن الفرنسي!

حبس عمر أنفاسه لثوانٍ. لم يعد الطيش والارتجال ممكنين الآن. قال أخيرًا بوضوح:

-أطالب بحضور المحامي على الفور.

-17-

احتاجت ياسمين بعض الوقت لتتعوّد جوّ المشفى الجديد. كان بوسعها أن تسحب السّتارة الزّرقاء حين ترغب في بعض الخصوصيّة لها ولولدها، أو تزيحها حين تحتاج بعض الهواء ويخنقها ضيق الفضاء المحيط بالسّرير. وكانت إزاحة السّتارة تعني انفتاحها على شركاء الغرفة من حولها. كانت تلمح الأمّهات -غالبًا- والآباء، يروحون ويجيئون حول الأسرّة المجاورة، يحيّي بعضهم بعضًا بإيماءات عابرة، وأحيانًا تنشأ محادثة بين اثنين أو أكثر.

في يومها الثّاني، اقتربت سيّدة ذات ملامح آسيويّة واقترحت بفرنسيّة متعثّرة:

-هل ترغبين في شرب الشاي؟

أشارت إلى ركن المطبخ المجاور لغرفة الأطفال. كانت بعض الأمّهات قد سبقنها بالانضمام إلى الجلسة. التحقت بهنّ على استحياء، وسرعان ما تعارفن واسترسلت الأحاديث بينهنّ: كاترينا من البرتغال، ناتالي من فرنسا، سيسيليا من

إيطاليا وآخرهنّ فرح من ماليزيا، كانت هي صاحبة الدّعوة.

كانت فرح سيّدة في أواخر الثلاثينيات، ربّما تقارب ياسمين سنّا، لكنّها تبدو أصغر من ذلك بكثير بملامحها البريئة وبشرتها الصّافية الخالية من الشّوائب. كانت ذات قامة قصيرة ووجه مستدير تحيط به هالة من الشّعر الأسود الفاحم والنّاعم، وكانت دائمة الابتسام، تشعّ عيناها طيبة ولطفًا، كأنّها تحمل مسؤوليّة اسمها، فلا يظهر على محيّاها إلا الفرح. غير أنّ الفرح في أجواء المستشفى الغارق في الكآبة لم يكن شيئا اعتياديّا.

دارت عليهنّ بأكواب الشّاي الورقيّة وهي تقول في فخر:

-هذا شاي من مسقط رأسي في ماليزيا.. مرتفعات «كاميرون»، قرب العاصمة كوالا لامبور. هذا شاي عالي الجودة، تفضّلن وجرّبن.

وزّعت ناتالي بسكويت الزّبدة الذي تعرف به مقاطعة بريطانيا في الشّمال الغربي لفرنسا، وهي تقول:

-وهذا بسكويت مناسب مع الشّاي.

تبادلن ابتسامات مجاملة، بينما بدت كاترينا متوتّرة ومنزعجة. قالت بلغتها:

-لا أتكلّم الفرنسيّة!

أومأن في أسف، ثمّ استرسلن في الحديث بالفرنسيّة رغم ذلك. لم تكن إحداهنّ تفهم البرتغاليّة على كلّ حال. قالت سيسيليا بلكنة إيطاليّة مخاطبة ناتالي:

-هل ستبدأ ابنتك العلاج الكيميائيّ قريبًا؟

هزّت ناتالي رأسها في إشفاق:

-لقد وجدوا متبرّعًا. قال الدّكتور «بورجوا» أنّ علينا الاستعداد الآن.

شدّت سيسيليا على كفّيها مؤازرة وقالت:

-لقد مرّت لوسي بهذا مرّتين.. آمل أن تكون الزّراعة ناجحة منذ المحاولة الأولى. العلاج الكيميائيّ مرعب، ومرهق للأطفال.

تنهّدن بحرارة، بينما تسارعت أنفاس ياسمين. تشجّعت لتسأل سيسيليا:

-هل فشلت الزّراعة في المرّة الأولى؟

هزّت السّيدة الإيطالية رأسها ثمّ قالت:

-لوسي مصابة بسرطان الدّم، «اللوكيميا» الحادّة.. بعد العلاج الكيميائيّ الأوّل دخلت في غيبوبة وتأجّلت زراعة الخلايا الجذعيّة حتّى تعافيها. لقد كانت أيّامًا عصيبة! ظننتني أفقدها! لكنّها تماثلت للشّفاء. وبعد انقضاء سنة كاملة، ها نحن نجرّب مرّة أخرى.

حكت ناتالي قصّتها بدورها:

-جودي مصابة بسرطان الغدد الليمفاويّة.. كانت على قائمة الانتظار من أجل العلاج بزرع الخلايا الجذعيّة لسنة كاملة، وقد حصلنا على الموافقة منذ بعض الوقت. لكنّ الوصول إلى متبرّع موافق تطلّب شهورًا طويلة. لقد عرفنا بالأمس أنّ المركز وجد متطوّعًا من أجل جودي. لذلك ستبدأ العلاج

الكيميائيّ في القريب.

تساءلت ياسمين في فضول:

-كلّكنّ هنا من أجل زراعة الخلايا الجذعيّة؟

أومأن كلّهن علامة الإيجاب، بينما أضافت ناتالي:

-هذا المركز الأفضل في فرنسا، بل في أوروبا كلّها. قائمة الانتظار طويلة، لأنّ التّقنية المتوفرّة هنا باهظة. العلاج بزراعة الخلايا الجذعيّة يعتبر نقلة نوعيّة في مكافحة السّرطان، وهناك محاولات تجريبيّة لاستخدامه في علاج أنواع أخرى من الأمراض التي يتسبّب بها تشوّه خلايا الدّم.

رفعت فرح كفّها وقالت:

-أحمد ابني لديه مرض نادر، لقد ولد بشعر أبيض وعينين ورديتي القزحيّة! لقد شخّص منذ سنتين حين كان عمره ستّة أشهر.. ونحن نحاول منذ ذلك الوقت الحصول على فرصة للعلاج. قيل لنا أنّ هذه قد تكون فرصته الوحيدة. حمدًا لله أنّنا تعرّفنا إلى الدّكتور يوسف، أثناء مؤتمر

الأمراض النّادرة في سنغافورة!

جاءهنّ فجأة صوت الدّكتور يوسف وهو يلقي التّحيّة. فأردفت فرح في حماس:

-دكتور، كنّا نتحدّث عنك!

ابتسم وهو يشير إلى فرح وياسمين لتنفصلا عن المجموعة وتنضمّا إليه في حديث جانبيّ، ثم قال مخاطبًا ياسمين:

-أرى أنّك تعرّفت إلى السّيدة فرح. ولدها أحمد لديه مرض عزّ الدّين ذاته.

اتّسعت عينا ياسمين في دهشة:

-حقًّا؟

-إنّهما الحالتان الوحيدتان في المركز في هذه الفترة. لقد كنت أحضر مؤتمرًا طبّيًا يهتمّ بالتّوعية تجاه الأمراض النّادرة في سنغافورة، حين جاءت إليّ رفقة زوجها.. وقالت

أنّ ولدها يحمل الأعراض التي كنت بصدد شرحها!

ابتسمت ياسمين وقالت:

-كانت تحدّثني للتوّ بذلك.

-إنّها سيّدة شجاعة وذكيّة. حين عجز الطبّ في بلدها عن التعرّف إلى مرض طفلها، تولّت بنفسها المهمّة. كانت تحمل ملفّه الطبيّ وتحضر المؤتمرات وتبحث عن المتخصّصين. هذه درجة من الوعي والحرص قلّما صادفتها خلال تجربتي المهنيّة.. حقيقة لا مجاملة!

ابتسمت فرح وقالت:

-نحن ممتنّون لأنّنا عرفناك يا دكتور، كان هذا من حسن حظّنا.

-فرص أحمد في الشّفاء مرتفعة بإذن الله، لأنّه ما زال صغير السّنّ.

ثمّ التفت إلى ياسمين وقال:

-لا أقول هذا لأحبطك.. لكنّ السنّ تبقى عاملا هامّا حين يتعلّق الأمر بالأمراض الجينيّة. كلّما اكتشفت مبكّرا كان ذلك أفضل. وعزّ الدّين سيحصل على كلّ الرّعاية الممكنة.. هذا ما يمكنني أن أعدك به.

هزّت ياسمين رأسها في صمت. كان عليها أن تتشبّث بالأمل، وتتوكّل على الله وحده.

أضاف الدّكتور يوسف على الفور:

-كلّ شيء رهن العثور على متبرّع. فلنأمل أن يحصل ذلك في القريب.

***

-جورج! أخيرًا!

مرّت ساعتان من الوحدة، قبل أن يدخل جورج عليه غرفة التّحقيق في مبنى المطار. هرول باتّجاهه بملامح عابسة وهو يفكّ الربطة التي تضيّق الخناق على عنقه. كان قد سار على عجل من موقف السيّارات حتّى يصل إلى موّكله لاهثًا.

-عمر، ما الذي جاء بك؟ كنّا نتحدّث منذ ساعات قليلة ولم تخبرني أنك تنوي زيارة باريس!

زفر عمر وقال في ضيق:

-لقد جدّ أمر طارئ. ما الذي يريدونه على كلّ حال؟

عقد جورج ذراعيه أمام صدره وقال بجدّية:

-هناك معلومات استخباراتيّة عن عمليّة إرهابيّة محتملة، لذلك يدقّقون في هويّة كلّ الوافدين. لكن ليس هناك أيّ دليل بحوزتهم ضدّك، إنّه مجرّد اشتباه. ربّما يحتفظون بك لأربع وعشرين ساعة، ثمّ تركب أوّل طائرة إلى لوزان...

قاطعه عمر في استماتة:

-لا، أرجوك، لا يمكنني العودة! لقد وصلت، ويجب أن أدخل فرنسا.. اليوم!

حدّق فيه جورج في عدم استيعاب:

-ما الذي يجعلك حريصًا على دخول فرنسا اليوم؟ عد إلى سويسرا، انتظر أسبوعًا أو نحوه، ثمّ اركب القطار!

-لا! إنّها مسألة حياة أو موت!

لمح التّصميم العميق في عيني عمر، فلم يجادل. فكّر للحظات، ثمّ تنهّد وقال:

-سأنظر ما يمكنني عمله من أجلك.

ثمّ أضاف وهو يسير في اتّجاه المخرج:

-آمل أن يكون ما جئت من أجله يستحقّ المخاطرة.

غاب جورج لدقائق طويلة، استمرّ عمر خلالها يذرع الغرفة جيئة وذهابًا في نفاد صبر. لقد حدّثته نفسه مرّات عدّة بأن يرجع أدراجه. لقد كان القدوم إلى فرنسا تهوّرًا منه. ألم يغادرها على ألّا يطأ ترابها بعد أبدًا؟ لكنّ حاجته إلى تلك الزّيارة كانت أقوى من كلّ العوائق التي قد تواجهه. اتّخذ قراره بألّا يولّي إلّا بعد أن يطمئنّ إلى أنّ عزّ الدّين بخير.. ويفعل أيّ شيء ممكن للمساعدة. لم يكن يدرك بعد إن كان

يملك أن يقدّم شيئا يذكر. لكنّه لن يعرف إلّا بعد أن يجتاز الحدود، ويصل إلى المشفى. لذلك، لم يكن التّراجع خيارًا متاحًا.

دخل المحامي أخيرًا، وقف قبالة عمر وكفّاه يختفيان داخل جيوب بنطاله:

-إن كانت زيارتك ضروريّة، فيمكنك الدّخول إلى الأراضي الفرنسيّة لفترة محدودة. لقد تفاوضت بشأن زيارة تحت المراقبة. سيكون رجل أمن على أثرك أينما ذهبت.

فكّر عمر لثوانٍ، ثمّ قال:

-لا بأس.

-أنت تعي جيّدًا أنّهم لم يوافقوا إلا لسبب واحد؟

هزّ عمر رأسه وقال بسخرية:

-بالتّأكيد. يهمّهم أن يعرفوا إن كنت لأتواصل مع الشّبكة الإرهابيّة المزعومة!

-هذا ما أظّنه أيضا. ليس هناك ما يجبرهم على منحك العبور. لذلك.. فلتكن حذرًا. لا تنقّلات غير ضروريّة. لا لقاءات جانبيّة. تذكّر أنّ كلّ شخص تلتقيه سيكون محلّ شكّ، وقد يُستدعى للتّحقيق!

أومأ عمر في عبوس. يعرف أنّه خطر على المحيطين به. وأنّ الحفاظ على المسافات خياره الأفضل.

افترق وجورج عند بوّابة المطار. قال جورج معتذرًا:

-كنت لأقلّك بنفسي إلى حيث أنت ذاهب، لكنّني تأخّرت عن المرافعة في المحكمة!

ابتسم عمر هو يربّت على كتفه:

-لا تقلق بشأني، سأنهي ما جئت من أجله وأنصرف سريعًا. لن أسبّب المزيد من المتاعب.

ضحك جورج في مرح ثمّ قال:

-أنت رجل لا يستطيع البقاء بعيدًا عن المتاعب! هل تدرك

هذا؟ جيناتك تحمل عنصر الشغب!

شاركه عمر الضّحك دون اعتراض. لعلّه كذلك بالفعل. وهل تعتبر حياة فاترة دون مغامرة حياة حقيقيّة؟ حين ركب سيّارة الأجرة، حانت منه التفاتة، ليبصر سيّارة الأمن التي انطلقت وراءه مباشرة. غمغم في سخرية:

-كان من الأجدر بهم عرض التّوصيل. هذه طاقة مهدرة!

توقّفت السيّارة عند المشفى، فلم يغادرها على الفور. نقد السّائق أجرة إضافيّة من أجل الانتظار، ولبث يحدّق في البوّابة الرّئيسيّة بانتباه، يتفرّس في الوجوه الغادية والرّائحة. كان يراهن على حدث عشوائيّ قد لا يحصل أبدًا: ظهور شخص معيّن في توقيت مناسب! إن حالفه الحظّ، فلن يستمرّ انتظاره أكثر من دقائق معدودة. غير أنّ إيمانه بحظّه تصاغر بعد التّحقيق الصّباحيّ في مبنى المطار. مرّت نصف ساعة قبل أن يلمح ياسمين تعبر بوّابة المشفى منصرفة. زفر في ارتياح. من وجهة نظر إحصائيّة، كان حظّه في تحسّن ملحوظ. ترقّب حتّى اختفت عند مدخل محطّة قطار الأنفاق، ثمّ ترجّل من السيّارة.

مشى بهدوء عبر مسارات المشفى دون أن يسأل أحدًا عن غايته. كان يدرك أنّ رجل الأمن يجدّ في أثره مع كلّ خطوة يخطوها. تجوّل بين أقسام المشفى، وتوقّف عدّة مرّات يستفسر عن أسماء وهميّة قبل أن يصل أخيرًا إلى قسم الأطفال. في الأثناء، كان رجل الأمن الذي يتعقّبه قد أصيب بالفتور، وانشغل بهاتفه. ألقى عمر نظرة على القاعة الواسعة التي تراصّت الأسرّة على جانبيها، ثمّ توقّفت عيناه على السّرير الثّاني من الجانب الأيمن. لانت ملامحه وأشرقت ابتسامته على الفور حين لمح الطّفل ذا الشّعر الرّصاصيّ راقدًا في سلام.

اقتربت ممرّضة من موقفه وسألت:

-سيّدي، هل تبحث عن أحد؟

-هل يمكنني أن أقابل الطّبيب؟

-الطّبيب الخاصّ بأيّ حالة؟

تردّد، وهو يتطلّع خلفه إلى رجل الأمن الذي لم يفارق موقعه على بعد أمتار قليلة، ثمّ قال:

-كلّ الأطفال! كنت أودّ إحضار بعض الهدايا.. وأردت الاستفسار، إن كانت هناك ممنوعات؟

رفعت الممرّضة دفترًا أمامها وأخذت تطالع المعطيات المدوّنة بشأن كلّ حالة، ثمّ قالت:

-بعض الأطفال لديهم حساسيّة من المكسّرات، والمأكولات البحريّة.. ما عدا ذلك، كلّ شيء مسموح. هل أنت ممثّل جمعيّة ما؟

حين رفعت عينيها، كان عمر قد اختفى.

قرأ على الدّفتر اسم عزّ الدّين الأندلسي، وقبالته اسم الطّبيب المعالج: يوسف الحدّاد. لم يكن يحتاج أكثر من ذلك. توغّل داخل الممرّ الجانبيّ حيث مكاتب الأطبّاء وبحث على عجل عن مكتب الدّكتور يوسف. حين وجده، طرق بخفّة ثمّ أدار المقبض دون أن ينتظر ردًا. دخل وأغلق الباب خلفه على الفور، خشية أن يلمحه حارسه الشّخصيّ.

رفع الدّكتور يوسف رأسه في دهشة عن ملفّاته مع اقتحام رجل غريب لمكتبه دون استئذان.

-عفوًا؟ كيف يمكنني أن أخدمك؟

مدّ عمر كفّه مصافحًا، ثمّ قال:

-أعتذر على مقاطعتك يا دكتور، كنت أودّ الاستفسار عن حالة عزّ الدّين الأندلسي.

-ومن تكون؟

-أنا عمّه.

انتبه الدّكتور يوسف إلى لكنته المغربيّة، لكنّه لم يشكّك في ادّعائه. بينما أردف عمر:

-أعتذر لوصولي المتأخّر.. كيف هو وضع عزّ الدّين؟ وهل هناك أيّ شيء يمكنني فعله للمساعدة؟

-حسنًا، يمكنك البدء بإجراء اختبار التّوافق!

-التّوافق؟

-عزّ الدّين يحتاج متبرّعًا بالخلايا الجذعيّة. إذا وجدنا الشّخص المناسب، سنبدأ الخطّة العلاجيّة على الفور.

لم يستفسر عمر عن ماهية الخلايا الجذعيّة وتفاصيل الخطّة العلاجيّة. كلّ ما أهمّه هو أن يكون قادرًا على المساعدة، بأيّ طريقة كانت. شعر بالحماس وهو يقول في تحفّز:

-بالتّأكيد.

-جميل. ستأخذك الممرّضة إلى غرفة أخذ العيّنات. ولنأمل أن يحدث توافق.

-ماذا عن كلفة العلاج؟

-لقد اهتممتُ والسّيدة ياسمين بالأمر. ليس هناك ما يستدعي القلق.

كان ذلك يبدو مريحًا ومفاجئًا في آن، لكنّه لم يشأ الإلحاح. غادر المكتب برفقة الدّكتور يوسف، وسارا على مهل حتّى غرفة التّمريض. هتفت الممرّضة التي رآها عمر في وقت

سابق حين لمحته من جديد:

-سيّدي، أين اختفيت؟

قال في حرج:

-كنت أتحدّث إلى الدّكتور...

قال الدّكتور يوسف:

-لدينا متطوّع من أجل الخلايا الجذعيّة، هل يمكنك أخذ العيّنة لاختبار التّوافق؟

-من هنا رجاءً.

تبعها عمر طواعية، وهو يبتسم إلى رجل الأمن الذي ظهر لاهثًا في الممرّ، بعد أن غاب عمر عن ناظريه لدقائق.

لعلّ لعب دور التخفّي والمراوغة قد راقه. لكنّه قد تعلّم من تجاربه السّابقة أنّ الثّقة الزّائدة شرّ أكيد، وغيابها محمود. إن لم ينفعه الحذر، فلن يضرّه. ولن يضرّ ياسمين وولدها قبل

كلّ شيء. حتّى إذا أراد رجل الأمن التّحقيق بشأن زيارته للمشفى، فالطّبيب لن يكشف شيئا يخصّ مرضاه. والممرّضة لا تعرف أيّ الحالات تهمّه. ثمّ، لقد دخل مشفى، وخاطب طبيبًا وممرّضة. وأيّ من ذلك لا يدعو للشكّ. إنّها حالة إنسانيّة بحتة. لن تسبّب زيارته تلك بالأذى لأحد، ولن تثبت علاقته بأيّ أطراف مؤذية.

حين غادر المبنى، أشار إلى سيّارة أجرة متوقّفة أمام المدخل وقال وهو يزفر في ارتياح:

-إلى المطار.

***

فتحت ياسمين باب الشّقة وسارت إلى الحمّام مباشرة. اغتسلت وصلّت فرضها، ثمّ شمّرت عن ساعديها. لم تكن تحبّ طعام المشفى، وذائقة عزّ الدّين لم تتقبّل الوجبات عديمة الطعم التي يقدّمونها، فضلا عن صعوبة توفير اللحم الحلال. لذلك كان عليها أن تحضّر وجباته بنفسها. كانت تغيب لسويعات قليلة بعد الظّهر لتجهّز عددًا من الأكلات التي تقسّمها على علب حافظة، تترك بعضها في ثلاجة الشقة

من أجل رنيم، وتأخذ البعض الآخر إلى ثلاجة المشفى.

ابتسمت في امتنان وهي تطالع علب المشتريات المرصوفة بعناية على منضدة المطبخ، ثمّ التقطت القصاصة التي تركتها رنيم: «لم أجد سلطة طازجة، فاشتريت الجرجير. آمل أن يحبّ عزّ الدّين هذا التّغيير». اتّسعت ابتسامتها وهي تشرع في مهامّها. كانت مساعدة رنيم في ذلك الظّرف لا تقدّر بثمن. إنّها تكفيها مؤنة التّسوّق وتختصر عليها وقتًا كثيرًا يمكنها قضاؤه مع عزّ الدّين.

حين غادرت الشّقة بعد ساعتين، كانت محمّلة بصناديق الطّعام المتنوّعة. ستكون كافية ليومين أو ثلاثة، على حسب شهيّة عزّ الدّين. وربّما تقدّم بعضها لجيران سريره الصّغار.

حين خطت داخل قسم الأطفال، فوجئت بتحوّل القاعة إلى ساحة ألعاب! كانت زينة مبهجة تتدلّى من السّقف وتغطّي الجدران، وبالونات ملوّنة تسبح في فضاء الغرفة، ويتقافز الأطفال للإمساك بها. وكان كلّ منهم يرتدي زيّا تنكريّا لواحد من أبطال الكرتون المفضّلين لديهم. وفي وسط الغرفة، نُصبت مائدة عليها أنواع من الأطعمة الخفيفة المحبّبة لدى الأطفال. ابتسمت وهي تسأل الممرّضة التي

كانت تراقب العلامات الحيويّة لعزّ الدّين:

-ما مناسبة الاحتفال؟

-جاء اليوم ممثّل عن جمعيّة خيريّة، ثمّ أرسلوا كلّ هذا لإدخال السّرور على قلوب الأطفال! أليس هذا رائعًا؟

كانت تطالع وجه عزّ الدّين المنشرح رغم شحوبه وهي تطرح سؤالها الأخير. قالت ياسمين وهي تجلس على طرف سريره:

-أعجبك الاحتفال؟ هل أكلت شيئا؟

أومأ بابتسامة خجلة:

-أكلت البيتزا!

-حقّا؟ أعرف كم تحبّ البيتزا.

-هل يمكنني أن أتذوّق كعكة الشكولاتة؟ تبدو شهيّة.

-بالتّأكيد أيّها البطل.

خزّنت ما أحضرته من أطعمة في الثلاّجة، ثمّ عادت وبيدها طبق من الورق المقوّى، عليه قطعة من الكعكة التي اشتهاها ولدها. جلست تطعمه على مهل وهي تراقب الأطفال الآخرين الذين ترك بعضهم الأسرّة وانغمسوا في اللّعب. ثمّ عادت نظراتها إلى طفلها.. كم تودّ أن يملك فرصة للمرح مثل أقرانه. لقد عاش طفولة مكبوتة، منذ شخّصت علّة قلبه وتتالت إصابته بشتى أنواع الالتهابات. في الوقت الذي ينطلق فيه الأولاد لاكتشاف محيطهم بشغف وفضول، يتعلّم هو الحذر وضبط النّفس والتعايش مع حريّة مقيّدة. تنهّدت: يا لها من طفولة كئيبة!

بعد حين، دخلت ممرضة أخرى وبحوزتها ظرف مغلق. تقدمت نحو ياسمين وسألت:

-سيدة ياسمين عبد القادر؟ هناك رسالة من أجلك.

-رسالة؟ ممن؟

-لا أعرف. أظنّها سُلمت شخصيًا إلى مكتب الاستقبال. ليس

هناك عنوان.

استلمت ياسمين الظرف العاري من أيّ معطيات تخصّ مرسله وفضّت الختم. بالدّاخل كانت هناك قصاصة واحدة تحمل عبارة بحروف عربية: «إذا احتجت أي شيء، اتّصلي رجاء»، يليها رقم هاتف أجنبي. تأملت القصاصة في حيرة، ثم حفظتها في حقيبة يدها. لم تكن تستحضر أيّ اسم يمكن أن يهتمّ بأمرها في باريس.

قاطعت فرح أفكارها حين اقتربت منها وقالت وهي تشير إلى كاترينا المنعزلة قرب سرير طفلتها:

-لست أدري كيف تفعل إن كانت لا تتكلّم الفرنسية!

قالت الممرّضة التي كانت تنتهي من مراقبة علامات عزّ الدّين الحيويّة:

-زوجها يهتمّ بالتّعامل مع إدارة المشفى، يأتي مرّة كلّ أسبوع.. من لشبونة!

أضافت فرح وهي تسحب ياسمين خلفها:

-تعالي، فلنتحدّث إليها. لا شكّ أنّها تشعر بالوحدة!

وقفتا إزاء السيّدة البرتغاليّة التي طالعتهما في حرج. قالت فرح:

-هل تتحدّثين الإنجليزيّة؟

هزّت المرأة رأسها بقوّة علامة النّفي. لكنّ ذلك لم يفتّ من عضد فرح. قالت على الفور:

-ليست هناك مشكلة بدون حلّ. انتظري هنا!

عادت بعد لحظات وبكفّها هاتفها. قالت في ظفر:

-هناك تطبيق ترجمة أستخدمه حين أسافر إلى بلاد لا أعرف لغتها.

تكلّمت قرب لاقط الهاتف بلغتها، ثمّ ضغطت على زرّ التّرجمة، فصدر عن الجهاز صوت باللّغة البرتغاليّة. تهلّلت أسارير كاترينا وردّت بلغتها على الفور. فأشارت فرح بسبّابتها إلى الهاتف، أن تكلّمي هنا. أومأت كاترينا بسرعة، ثمّ أعادت

عبارتها، فصدر عن الجهاز صوت باللّغة الماليزيّة.

ضحكت ياسمين وقالت مداعبة:

-حسنًا، الآن يمكنكما التّواصل، لكنّني لا أفهم شيئا!

-آه، أنا آسفة!

غيّرت فرح إعدادات التّطبيق، ثمّ قالت باللّغة الفرنسيّة:

-هذه ياسمين، وأنا فرح. سعداء بمعرفتك.

ردّت كاترينا في حماس:

-أسماء جميلة! كم أنتما محظوظتان! أحبّ وقع اللغة في أذني!

-أنت محقّة، فرح أصله عربيّ، وياسمين أيضا. نحن نشترك في أصل أسمائنا، رغم أنّنا نتكلّم لغات مختلفة.

كانت كاترينا متحمّسة وهي تصغي إلى التّرجمة، ثمّ تأخذ

دورها في الردّ عبر الهاتف. كانت تلزم الصّمت منذ أمد طويل في بلد لا يفقه لغتها. أشارت فرح إلى بطن كاترينا المنتفخ وسألت:

-أنت حامل؟

-في الشّهر الثامن.

-بنت أم ولد؟

مسّدت كاترينا بطنها وقالت بنبرة فخر:

-بنت! أنا أحبّ البنات.. وستكون لريبيكا أخت أيضًا.

شعرت ياسمين بالرّضا وهي تغادر المشفى مساءً بعد أن أمضت أمسية لطيفة برفقة فرح وكاترينا. وما إن اختلت بنفسها، حتّى عادت أفكارها إلى الظّرف الغريب.

حاولت على امتداد رحلة العودة إلى الشقة (٤٠٤) أن تعتصر ذهنها بحثا عن الهويّة الممكنة لصديق قديم لها أو لهيثم، لكنها لم تفلح في الاهتداء إلى صاحب الرسالة. كان

بوسعها استحضار بعض المرشّحين المحتملين، لكنّ الكتابة العربيّة تجعل الأمر معقّدًا.

طبعا كان يمكنها الاتصال بالرّقم المدوّن، لكن رُهاب الأرقام الغريبة منعها! لم تكن تشعر بالرّاحة حين تتلقى اتّصالا من رقم غير مسجّل، ولا كانت تحبّ الاتّصال بأرقام تجهل من يقبع خلفها على الجانب الآخر!

حين وصلت إلى الشقة، كانت السّاعة قد تجاوزت العاشرة مساءً. كانت رنيم تستلقي على الأريكة العريضة تتابع شريطا كوميديا. ما إن لمحت ياسمين حتى أغلقت التلفاز واستقامت في جلستها لتستقبلها. لم تكونا على موعد، فياسمين لم تكن تأتي إلى الشقة كلّ مساء. قد تمضي أيّام دون أن تزورها، فتمرّ رنيم على المشفى للاطمئنان عليها كلما سنحت الفرصة.

راقبت رنيم صديقتها خلسة بنظرات مريبة. كانت قد تلقت اتّصالا غريبا من جورج ذلك الصّباح، وقد حمل إليها خبرًا عجيبًا عن زيارة عمر الرشيدي لباريس في مسألة «حياة أو موت»! خمّنت على الفور مجيئه لرؤية عزّ الدين. لقد كان منفعلا حين اتّصل بها بالأمس، وقدومه اليوم بشكل غير

متوقّع مرتبط بالتأكيد بما تحدّثا بشأنه.

ثرثرت ياسمين لبرهة بشأن الحفل الذي نظمته جمعية خيرية لأطفال المشفى، فأصغت رنيم دون أن تقاطعها. لكنّ الفضول كان يأكل أحشاءها. حين سكتت ياسمين أخيرًا بعد أن أفرغت ما بجرابها من حكايات، سألتها رنيم فجأة:

- هل جاء عمر الرشيدي إلى المشفى اليوم؟

حدّقت فيها ياسمين في دهشة:

- عمر الرشيدي؟ هنا في باريس؟

هزّت رنيم كتفيها ثم قالت:

-لقد جاء في زيارة قصيرة هذا الصّباح. أظنه قد رحل الآن.

سكتت لبرهة، ثم أضافت أمام نظرات ياسمين المستغربة:

-لقد تعرّض للمضايقة عند عبوره الحدود.. فاتّصل بجورج، تعلمين.. لتيسير دخوله البلاد.

أومأت ياسمين في تفهم، ذلك يفسّر معرفة رنيم بشأن قدومه. لكن ماذا عن زيارته للمشفى؟

خطرت ببالها فكرة مفاجئة، فاعتذرت متذرّعة بالإرهاق ودخلت غرفتها القديمة. حين صارت بمفردها، أخرجت الظرف الذي وصلها ذلك المساء وتأملت الرّقم في تفكير.

عمر؟ يبدو ذلك ممكنًا جدًّا.

ذلك التّرقيم الدّولي الأجنبي، يمكن أن يكون لخطّ هاتف سويسريّ. صار متاحًا لها الاتّصال الآن، وقد عرفت من وراء الرّقم. لكنّها لا تملك الشّجاعة. ليس بعد آخر حديث دار بينهما قبل اختفائه. ثمّ، هي لم تكن تحتاج شيئًا منه. أعادت الظّرف إلى حقيبتها وهي تتنهّد.

اتّصلت بفاطمة أوّلا، ثمّ بزهور كما تفعل كلّ ليلة. كانت تطمئنهما على أحوال حفيدهما، وتسأل عمّا أصبح عليه الضّيف الذي خلّفته في غرفة منعزلة. قالت زهور بابتسامة واسعة:

-إنّه يريد الحديث إليك!

تناقلت الأيدي الهاتف، حتّى وصل أمام وجه كمال الرّاقد على ظهره. قال عبد الحميد يستدعي انتباهه:

-إنّها ياسمين.. تحدّث إليها.

راقبت ياسمين الشّاشة في لهفة. لقد تكلّم قبل رحيلها، لكنّ لسانه ما يزال ثقيلا. ولعلّه ركن إلى الصّمت منذ ذلك الوقت، فلم يخاطب أحدًا من أهل الدّار. قال عبد الحميد مجدّدًا:

-لقد تكلّمنا اليوم قليلا، تكرّم السّيد كمال بتوجيه الحديث إليّ.. وسأل عنك وعن عزّ.

-نحن بخير يا أبي.. عزّ الدّين يتحسّن. وحين تتمّ الزّراعة سيتماثل للشّفاء إن شاء الله.

أردف عبد الحميد:

-هل وجدتم متبرّعًا يا ابنتي؟

-ليس بعد. لكنّ المركز يعمل على ذلك. لم يمض على

وصولنا سوى أيّام قليلة.. لا شكّ أنّهم سيتوصّلون إلى نتيجة في القريب.

انفرجت شفتا كمال ببطء، وتمتم بخفوت:

-ياسمين.. هل تحتاجين.. مالا؟

- لدينا ما يكفي، لا تشغل بالك.

-لا! خذي.. من حسابي.. كلّ ما يلزم!

ثمّ أخذ يسعل بحدّة. سحب عبد الحميد الهاتف من أمامه وساعده على الاستلقاء من جديد، ثم قال يطمئنه:

-إذا احتاجت ياسمين إلى مال إضافيّ فلن تتردّد في طلب المساعدة منك. نحن عائلة واحدة.

ابتسمت ياسمين في امتنان لكلمات حميها. تدرك أنّ الرّجلين لم يكونا على وفاق في أيّ وقت مضى. لكنّه يكرمه من أجلها وعزّ الدّين. أتاها صوت والدها مختنقًا ثائرًا:

-أمّا سارة.. وريّان.. فلن يرثا شيئا! لن يأخذا منّي.. شيئا!

عاد الهاتف إلى كفّ زهور التي قالت مداعبة:

-هل سمعته؟ لقد عاد إلى التّهديد والوعيد. كمال القديم سيحلّ بيننا قريبًا!

أنهت الاتّصال واستلقت على السّرير، ثمّ سرعان ما غرقت في نوم عميق من فرط الإرهاق. تلك اللّيلة، حلمت بشمل عائلتها وقد التأم من جديد، رأت والديها يجلسان على الأرجوحة المطلّة على الحقل، وعزّ الدّين يركض بحرّية خلف الفراشات ويطلق ضحكات عالية ومرحة.

-18-

رجع عمر بعد أربع وعشرين ساعة. بدا منهكًا ومكدودًا، كأنّه لم يحظ بلحظة نوم واحدة. هرعت آية تستقبله عند مدخل الدّار في قلق. كانت تراقب الشّارع من نافذة الغرفة الواقعة في الطّابق الأوّل من منزل خالها أبي الحسن. لم تعرف متى سيعود، لكنّها كانت تنتظر. لم تمض سوى سويعات قليلة برفقة آلاء ذلك اليوم. كانت متوتّرة بسبب غياب عمر، وتترقّب منه اتّصالًا أو خبرًا. لكنّها على لهفتها، لم تتوقّع عودته بتلك السّرعة.

تبعته في صمت حتّى الغرفة التي خصّصها مضيّفهما لمبيتهما منذ خمسة أسابيع. لم يكن في وضع يسمح بالعتاب. مسحت على كتفه بلطفٍ وسألت:

-كيف هو عزّ الدّين؟

قال بصوت كسول متراخٍ:

-لا أدري. لا يبدو بخير. يحتاج زراعة للخلايا الجذعيّة...

-وما هي الخلايا الجذعيّة؟

-إنّها مواد الجسم الخام.. الخلايا التي تتولّد منها جميع الخلايا الأخرى ذات الوظائف المتخصّصة. كان قد قام بالبحث عنها إثر لقاء الطبيب. بعد ساعات من القراءة المكثفة أثناء رحلة العودة، أصبح ملمّا بكلّ ما يتعلّق بالعلاج بزراعة الخلايا الجذعية، أو على الأقل بما يتوافر عنها على المواقع العلميّة المفتوحة.

-يا إلهي، هذا يعني.. أنّه في حال سيّئة حقّا!

لم يكن يحتاج ليقول أكثر. ارتمى على السّرير وأغمض عينيه. جلست آية إلى جواره واستمرّت أناملها تداعب خصلات شعره بحنوّ، ثمّ قالت في حذر:

-وكيف هي ياسمين؟ لا شكّ أنّ الوضع صعب جدّا عليها.

قال دون أن يفتح عينيه:

-لم أرها. لكن يمكن توقّع ذلك. إنّها أمّ، ستكون في حالة

سيّئة بالتّأكيد.

حافظت آية على وتيرة تنفّسها. حبست زفرة الارتياح داخلها. كانت تودّ أن تطرح المزيد من الأسئلة عن الأربع وعشرين ساعة الماضية. لكنّها تلحظ إعياءه الشّديد. سرعان ما انتظمت أنفاسه وأدركت أنّه قد غرق في سبات عميق. تنهّدت وهي ترفع اللّحاف حتّى صدره، ثمّ غادرت الغرفة.

لم تمض سوى دقائق معدودة حتّى رجعت لتقتحم الغرفة مثل عاصفة هوجاء. أخذت تهزّ عمر بقوّة:

-عمر، عمر، عمر.. استيقظ!

كان عقله ضبابيًا وتركيزه مشوّشًا. كان صوتها يصله مثل ترنيمة بعيدة عبر دهليز ممتدّ. لكنّ نبرتها المستعجلة وقبضة يدها المشدودة على كتفه كانت تنبئه بأنّ الأمر جلل. قاوم سلطان النّعاس الذي يسحبه إلى قعر الغيبوبة، ورفع جفنيه الثّقيلين مثل قطعتي إسمنت مسلّح، ليطالع وجهها المشرق بابتسامة واسعة:

-لقد وجدنا عمّ آلاء!

***

تأتي فرح للجلوس إليها كلّ يوم. رغم لكنتها القويّة، كان بوسع ياسمين أن تستوعب كلماتها. حين عرفت أنّ طفلها سيسافر للعلاج في فرنسا، اقتنت فرح كتيّبا لتعلّم الفرنسيّة في أسبوع. حفظت كلّ المفردات التي تقع بين دفّتي الكتاب، ثمّ استمرّت تتابع المواقع التّعليميّة والأشرطة المجانيّة.

خلال شهرين، كانت تتكلّم فرنسيّة كافية. وكانت ياسمين تشعر بالانبهار كلّما تحدّثت إلى تلك السّيدة الضئيلة في حجمها والعملاقة في روحها.

-ابنتي لولا.. أصيبت بنفس مرض أحمد.

-حقّا؟ وماذا حصل لها؟

-لقد ماتت.. قبل ثلاث سنوات.

انقبض صدر ياسمين وهي تصغي إلى فرح، تحكي عن ابنتها التي فارقتها.

-كان لديها نفس الشّعر الأبيض الذي يميل إلى الرّماديّ. بدا مثل البهاق للوهلة الأولى، وقد تعاملنا معها على هذا الأساس. لم تكن تتحمّل أشعّة الشّمس الحارّة. وقد كان الوضع معقّدًا جدًّا في بلد مناخه استوائيّ، أغلب أيّام السّنة فيه حارّة ورطبة! بدأت لولا تعاني من التسلّخات منذ شهورها الأولى.. لم يكن التهابًا جلديًّا طفيفًا كالذي يصيب الرّضّع عادةً. بل جروح تنزف معظم الوقت! وكانت تصاب بذات الرّئة كثيرًا. ولم تكن الأدوية تفيد، إلّا إذا حقنت في الوريد. لذا كان الوقت الذي تمضيه منوّمة في المستشفيات أكثر ممّا تقضيه معنا في المنزل. لقد كانت هشّة، ومناعتها ضعيفة. كنت أتنقّل بها بين العيادات، وكانت تخضع لعلاج مطوّل قوامه المضادات الحيوية والهرمونات. ثمّ تطوّرت الأعراض: قصور في الكلى، تليّف في الكبد، قصور في الرّئتين.. وأصبحت لولا لا تفارق المشفى. كانت تعيش بفضل الآلات، ولم نكن نملك أن نفعل لها شيئا. ثمّ جاء يوم، ما زلت أذكره بوضوح. حين دخل علينا الطّبيب المعالج وقال بلهجة آسفة: «لم يعد بوسعنا أن نفعل شيئا من أجل لولا. ربّما من الأفضل لها أن تنفق أيّامها الأخيرة محاطة بأفراد عائلتها». لقد تخلّى الطبّ عن لولا.. ماتت في منزلنا. في أيّامها الأخيرة كانت قد أصيبت بالشّلل، وفقدت القدرة على النّطق. لم تكن تشعر بشيء ممّا حولها. لكنّني كنت أجلس إلى جوارها،

وأضغط برفق على راحة يدها.. فتتقلّص عضلات كفّها. كانت تعرف أنّني لم أتخلّ عنها حتّى لحظاتها الأخيرة.

ذرفت ياسمين دمعًا سخيًّا برفقة فرح، وهي تذكر معاناة ابنتها.

-ماتت لولا في سنّ السّادسة. وبعد رحيلها بوقت قصير عرفت بأنّني حامل! لديّ ثلاثة أطفال آخرون يتمتّعون بصحّة جيّدة.. لكنّ الهواجس داهمتني منذ فارقتنا لولا. أمضيت فترة الحمل في قلق وتوتّر. كنت شديدة العصبيّة وكثيرة البكاء. أنهار لأبسط الأسباب، وأمضي أيّامًا لا أخرج من غرفتي ولا أحادث أحدًا. لقد كان أطفالي مثل الأيتام، رغم وجود أمّهم وأبيهم من حولهم! كنت أهملهم -ولا زلت- حتّى كبروا ونضجوا قبل الأوان. لقد صارت ابنتي هاجر أمًّا لإخوتها وهي بعد في الثانية عشرة. كانت تطبخ وتغسل وتنظّف المنزل بعد المدرسة، وتراجع دروسها ثمّ ترعى إخوتها.

كانت فرح تبتسم في إشفاق وهي تذكر تلك الأيّام:

-أمضيت فترة الحمل مغيّبة عن العالم، ثمّ حين وضعت

أحمد.. كنت في حالة من الهوس. لقد كنت أعاني آلام الوضع، لكن في لحظة خروجه من بطني، رفعت رأسي وتطلّعت إلى صغيري.. كنت أريد أن أرى لون شعره! وحين وقعت عيناي على اللّون الأبيض الحائل إلى الرّماديّ، دخلت في نوبة بكاء هستيريّ! ارتفعت حرارتي بعد ذلك فوق الأربعين درجة.. وفقدت الوعي. لم أستيقظ من الغيبوبة إلا في الغد. ولقد وددت كثيرًا أن يكون مشهد الشعر الأبيض مجرّد كابوس. لكن حين أفقت، وأحضروا طفلي إليّ، أدركت أنّني أواجه المرض ذاته للمرّة الثانية.

مسحت دمعة تدحرجت على وجنتها ثمّ تابعت:

-لقد كان زوجي يحاول إقناعي طيلة فترة الحمل بأنّ أحمد سيكون بخير: لقد كانت طفرة جينيّة لن تتكرّر، وأطفالنا الآخرون أصحّاء.. لم يكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّ أحمد سيكون مثل لولا، لكنّني شعرت بذلك في داخلي. وقرّرت منذ اللّحظة التي وقعت عيني عليه فيها أنّني لن أترك مأساة لولا تتكرّر معه.. لذلك، أمسكت بزمام الأمور منذ اللّحظة الأولى. شرعت في البحث والتقصّي، وأخذته إلى كلّ المختصّين في ماليزيا.. ثمّ سافرت به إلى سنغافورة، حيث كان الطبّ أكثر تقدّما.. حتّى وصلت إلى الدّكتور يوسف.

اضطربت أنفاس ياسمين وهي تصغي إلى قصّتها بتيقّظ. كانت تُكبر تصميم فرح وقوّة عزيمتها. لكنّها تعلم أنّها لن تحظى بفرصة ثانية مثلها، إن هي فقدت طفلها! لقد تعلّمت فرح الدّرس، بعد أن رحلت طفلتها. أمّا هي.. إن كانت قد وصلت متأخّرة، فستكون تلك النّهاية!

مسحت فرح على شعر طفلها النّائم وقالت:

-لقد وقعت في حبّه منذ اللّحظة الأولى. أعرف، من الغريب أن تقول أمّ هذا.. الأمّ تحبّ أولادها جميعهم. لكنّني كنت أحتاج بعض الوقت لأحبّ أطفالي! كنت أتعوّد عليهم تدريجيّا، ثمّ أتقبّل أشكالهم وأشعر بانتمائهم إليّ.. لكن أحمد، كنت في حالة حبّ منذ ولادته. أتأمّله طوال اليوم، كأنّه طفلي الأوّل. كان ملاكًا صغيرًا أبيض تمامًا. بياضه النّاصع كان مدهشًا، مثل قطعة ثلج في بلاد حارّة، وكان يرضع وينام بهدوء، ولم يكن يبكي مثل الأطفال. كان وجوده إلى جواري يشعرني بالصّفاء والسّكينة. وقد كنت أحتاج إلى ذلك، حتّى أقدر على مواجهة ما هو آت. كنت أمضي ساعات طويلة أنا وهو وحدنا في غرفتي، وأنسى العالم كلّه: زوجي، أطفالي، عائلتي.. لم أكن أحتاج أحدًا، أو أهتمّ لأحد. يبدو هذا أنانيّا، أليس كذلك؟ لكنّني لا أملك تفسير تلك

الحالة.. كان ذلك أقوى من إرادتي. وقد عرفت أنّني سأفعل المستحيل ليعيش، ويُشفى.

كانت ياسمين تحتاج تلك الشّجاعة. وبسالة فرح كانت معدية لا محالة. كانت ترقبها كلّ يوم وهي تتّصل في الصّباح الباكر بأطفالها في ماليزيا -في الفترة المسائيّة عندهم نظرًا لفارق التّوقيت- الذين خلّفتهم برفقة والدهم، لتطمئنّ إلى أحوالهم. كانت تمضي زهاء نصف السّاعة في إلقاء التّوصيات: بعدم تضييع دراستهم، والإنصات إلى خالتهم، ومساعدة والدهم في شؤون البيت.. وطرح الأسئلة الدّقيقة عن حياتهم اليوميّة. لكنّ ذلك لم يكن كافيا لتقريب المسافات التي تفصلها عنهم. كانت الإجابات من الطّرف الآخر تأتي مقتضبة أحيانا، وفضفاضة في الغالب: نحن بخير، كلّ شيء على ما يرام، لا تشغلي نفسك!

لم تكن ياسمين تفقه كلمة واحدة من المحادثات التي تجري تحت سمعها باللغة الماليزيّة، لكنّ فرح تفضفض وتترجم لها كلّ ما قيل حين تفرغ من لقائها العائليّ.

-أشعر أنّني أصبح غريبة عنهم يومًا بعد يوم! ثلاث سنوات.. لا، ستّ سنوات، تفصلني عن دور الأم. لم أكن

أمّا لهم منذ ستّ سنوات! ثلاث سنوات اهتممت فيها بلولا وحدها، ثمّ ثلاث سنوات بين الاكتئاب والاهتمام بأحمد وحده! أنا أمّ سيّئة! لا عجب أنّهم قد استغنوا عنّي!

تقول ذلك بوجه باسم، رغم المرارة التي تنضح من الكلمات. ولم تكن ياسمين تجد عبارات مواساة مناسبة. قالت أخيرًا تحاول التّخفيف عنها:

-قريبًا سيحصل أحمد على الزّراعة، وتعود حياتك إلى طبيعتها!

-هل تعتقدين؟ أخشى أنّ هذه الطّريق لا رجعة منها!

-ماذا تقصدين؟

-ماذا لو انتكس أحمد؟ ماذا لو ساءت حاله مجدّدا؟ لن أشعر بالرّاحة وأنا في الجهة الأخرى من الكرة الأرضيّة من الطّبيب الذي يفهم وضعيّته ويقدر على مساعدته! لا يمكنني العودة إلى الإحساس بالعجز ثانية! لقد قضت ابنتي بين ذراعيّ، وقيل لي: خذيها لتموت بين أفراد عائلتها! هذا مرض جينيّ، سيظلّ موجودًا في تركيبة جسمه، حتّى لو تحسّن

الآن. وأريد أن أكون جاهزة لهذا.. في كلّ وقت.

كانت ملامح فرح الوديعة والهادئة تكتسي شراسة مخيفة في تلك اللّحظة، كأنّ الفرح الذي يسكنها قد تلاشى. تلك شراسة تليق بأمّ مكلومة. على الفور، تسلّل الفزع إلى أعماق ياسمين حتّى حسبت أنّ نبضاتها قد تتوقّف في أيّ لحظة. أخذت نفسًا عميقًا وأشاحت ببصرها إلى البعيد. كانت حتّى ذلك الوقت تحصر تفكيرها على اللّحظة الرّاهنة، أن ينجو عزّ الدّين. لم تعتقد أنّ التحدّيات تبدأ عند تلك الخانة، وتستمرّ ما كان في العمر بقيّة.

على الجانب الآخر من القاعة، كانت سيسيليا تضع لوسي أمام عدسة الهاتف وتبثّ عرضًا مباشرًا على مواقع التّواصل. قالت فرح حين لاحظت اهتمام ياسمين:

-لوسي تحتاج تمويلا لعمليّة الزّراعة. هل تعرفين التمويل عن طريق الحشد؟ سيسيليا تحاول جمع تكلفة العمليّة من المتعاطفين مع حالة ابنتها. تحتاج أن تبقيها تحت الأضواء وتعلم النّاس بتطوّر العلاج وتقدّم عمليات التبرّع...

كلّ أمّ في تلك الغرفة كانت تقاوم على طريقتها. حبست

ياسمين عبرتها. لم تكن هناك طريقة واحدة للحبّ. وكلّ واحدة تمارس عاطفة أمومتها بما تراه مناسبًا. لكنّهنّ يشتركن في شيء يوحّدهنّ: أنّهن أمّهات قويّات ومناضلات. وهي تحتاج أن تستمدّ منهنّ العزيمة، لتستمرّ.

-19-

جلست ياسمين ترتشف قهوتها الصّباحيّة في كافيتريا المصحّة. كانت تلازم عزّ الدّين معظم الوقت، وحين يغلبه النّعاس، تسمح لنفسها بدقائق من السّكينة، بعيدًا عن جوّ جناح الأطفال الخانق والكئيب. وكانت ما تزال تسترجع كلمات فرح المشبعة بالألم، فتجد لها صدى في نفسها. إنّها تخطو بحذر داخل عالم كان مجهولا لديها منذ أسابيع قليلة. لقد سبقتها فرح بأشواط، وعاينت بالتّجربة مراحل المرض كلّها. تتبدّى لها من خلالها ملامح باهتة لما ينتظرها، فيشتدّ فرَقها ويضيق صدرها. إنّه لعالم مرعب ككابوس، مربك كحقل ألغام، وملهم كمعجزة، يحتاج المتوغّل فيه زادًا من الإيمان والصّبر والأمل.

-صباح الخير، ياسمين.. هل يمكنني الجلوس؟

انتبهت، ورفعت رأسها، لتلمح الدّكتور يوسف. كان يمسك بقدح قهوته الذي تصاعد منه بخار كثيف وحارّ. لا تدري متى أسقط لقب «مدام» باللّغة الفرنسيّة الذي كان يشير إلى المسافة بينهما -المسافة الطّبيعيّة بين طبيب ووالدة مريضه-

ليناديها باسمها المجرّد.

كان في دعوته نوع من الألفة التي تزيد على الحدّ، لكنّها لم تملك أن ترفض، لما في ذلك من فظاظة. ربّما يودّ أن يحدّثها بشيء يخصّ طفلها. لعلّها تردّدت لثانيتين ممّا أشعره بالقلق، قبل أن تشير إلى المقعد المقابل وتقول في فتور:

-طبعا، دكتور.. تفضّل.

-يمكنك مناداتي يوسف.

زوت ما بين حاجبيها في ضيق ولم تعقّب، لكنّه لم يلحظ انزعاجها وهو يأخذ رشفة من القهوة.

-كيف وجدت المصحّة؟ والموظّفين هنا؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟

-كلّهم محترفون للغاية وعلى قدر عالٍ من اللّطف.

-أرى أنّك تصادقت وفرح. إنّها أمّ مثابرة. هل أخبرتك أنّها قد فقدت طفلتها؟

أومأت ياسمين ببطء. لاحظت أنّه تحدّث عن فرح دون ألقاب. لعلّ تلك طريقته في تبسيط المعاملات مع أهالي المرضى. ربّما يجعله التعاطي اليومي معهم يرغب في إرساء علاقات وديّة، ليشعرهم بالارتياح والاسترخاء في حضوره. إنّها رحلة طويلة، وسيكون عليه مرافقتها في كلّ خطوة منها.

خفّ توتّرها بينما كان يواصل:

-أنت أيضا أمّ شجاعة، ياسمين. لا تفقدي ثقتك بنفسك في أيّ وقت. اتّفقنا؟

أومأت من جديد، قبل أن تقترب سيّدة شقراء ممشوقة القوام ترتدي معطفًا أبيض وتحيّي كليهما.

-دكتور يوسف، أنت هنا!

بدا على ملامحه شبح امتعاض سرعان ما طرده وهو يرسم ابتسامة مجاملة.

-دكتورة كوثر.. أقدّم لك السّيدة ياسمين، والدة مريض

لديّ. إنّها تونسيّة.

مدّت الدّكتورة كوثر كفّا مفتوحة لتصافح ياسمين بحرارة:

-أهلا بك، سيّدة ياسمين. من الجيّد أن يلتقي المرء أبناء الوطن. تمنياتي لطفلك بالشّفاء العاجل.

-شكرا لك.

ثمّ استدارت الشّقراء نحو الدّكتور يوسف وقالت بلهجة لا تخلو من تهكّم:

-هل ستأخذ كريم إلى المباراة في نهاية الأسبوع، أم أنّك ستكون مشغولا.. مثل العادة؟

-لا تقلقي، سأكون في الموعد.

-السّاعة السّادسة، يوم السّبت.

-بالتّأكيد.

التفتت نحو ياسمين وقالت بابتسامة واسعة:

-تشرّفت بلقائك سيّدة ياسمين، ونهارًا سعيدًا.

ثمّ استدارت على عقبيها وابتعدت بخطى ثابتة في كعبها العالي. ابتسم الدّكتور يوسف في حرج ثمّ قال شارحًا:

-طليقتي. لا شكّ أنّك حزرت ذلك.

-آه، أنا آسفة. حسبتها زوجتك.

-لا عليك.

تمهّل يوسف قبل أن يستطرد بلهجة ساخرة:

-لقد كانت فاتنة الجامعة. الأولى على الدّفعة كلّها، وفتاة أحلام كلّ شباب المدرّج!

ثمّ أضاف بضحكة مغتصبة:

-وكانت من نصيبي!

غلبها الفضول فسألت:

-ما الذي حصل؟

تنهّد قبل أن يتابع:

-السّيناريو المعتاد. حين يكون الزّوجان يتسابقان في المضمار ذاته، وبنفس الرّوح القتاليّة، فإنّ الزّواج ينهار. مهنة الطبّ متطلّبة جدّا، وتحتاج شريكًا متفهّمًا ومساندًا. حين تبنى الحياة على النديّة، تكون هذه هي النّتيجة الحتميّة. كوثر طموحة وغير مستعدّة للتّضحية. لم يمنعها حمل أو ولادة من مطاردة أحلامها: التخصّص في علم الأورام، ثمّ الحصول على لقب «البروفيسور» في سنّ مبكّرة قبل أيّ زميل من جيلنا. كلّ ذلك له ثمن! كانت صراعاتنا الدّائمة حول من يحضر المؤتمر، ومن يرعى ابننا كريم.. من ينهي بحثه، ومن يحضر اجتماعات المدرسة! ثمّ لم تعد الحياة تطاق، كنّا في جدال دائم، فافترقنا. بعد ذلك بسنة واحدة، حصلث على التّرقية. والآن نعمل في المشفى ذاته.

تنهّد من جديد، ثمّ قال على نحو غير متوقّع ليرسل الكرة إلى جهتها من الملعب:

-حدّثيني عن زوجك.. كيف كان؟

باغتها سؤاله، وتردّدت، ثمّ استجابت لطلبه. قالت رغم حرجها:

-كان رجلا استثنائيّا. ولعلّي لم أعرف عنه كلّ شيء بعد.

-رجل مفاجآت إذن!

-كلّما سمعت أحدًا يتحدّث عنه اكتشفت جوانب مدهشة، وشعرت بالفخر أكثر. كان عمُر زواجنا قصيرًا، رحل عنّا بعد أن وضعت عزّ الدّين بوقت قليل. كنت أتمنّى لو حظينا بوقت أطول معًا.. كعائلة. لكن رغم ذلك، أنا محظوظة لأنّني عرفته، ولأنّه ترك قطعة منه في حياتي.

ابتسم الدّكتور يوسف وقال بهدوء:

-لا شكّ أنّه كان محظوظًا بك أيضًا.

التهبت وجنتاها على الفور، بينما أضاف يوسف ضاحكًا:

-زوجة فخورة بزوجها، هذا شيء استثنائي في زماننا!

لم تستطع أن تمنع نفسها من إطلاق ضحكة خافتة هذه المرّة.

-أخيرًا سمعنا ضحكتك سيّدة ياسمين.. استرخي، عزّ الدّين سيكون بخير!

انتبهت فجأة إلى وضعيّة جسده التي كانت تميل باتّجاهها بحميميّة أكثر من اللّزوم. كانت الطّاولة تفصل بينهما، ومع ذلك، فقد كانت نظراته ترنو إليها بشكل خطأ، وفي صوته ألفة وحرارة مزعجة. كان جلوسها برفقته في الكافتيريا يتحدّثان العربيّة خاطئًا تمامًا. على عكس طلبه منها بأن تسترخي، وجدت نفسها تنتفض واقفة على حين غرّة. قالت في تلعثم وهي تلتقط حقيبة يدها:

-أعتذر، دكتور.. لقد تذكّرت أمرًا هامًّا.

ثمّ انطلقت لا تلوي على شيء.

تابعها يوسف بنظراته حتّى اختفت في الممرّ، وعلى شفتيه

ابتسامة مستمتعة. إنّها سيّدة ناضجة، ومع ذلك تبدو في حياء عذراء فتيّة. وتلك الصّفة فيها جعلته يهتمّ لها أكثر. إنّها مختلفة عن جلّ النّساء في محيطه، وخاصّة عن طليقته كوثر. تجربته السّابقة جعلته أكثر حذرًا في معاملاته مع الجنس الآخر. بعد ستّ سنوات من الانفصال، لم يكن قد حاول التقرّب من أنثى وإنشاء علاقة من أيّ نوع. لعلّ تجربته خلّفت طعم مرارة في حلقه لم يتخلّص منه بعدا!

لكنّه بات يشعر بالرّاحة حين تكون ياسمين في الجوار، ولا يتردّد في مجاذبتها أطراف الحديث. عفويّتها البريئة وتحفّظها الحذر، وخوفها الفطريّ على طفلها واستعدادها لفعل أيّ شيء من أجله.. كان يلحظ كلّ تلك التغيّرات في مزاجها بانتباه وفضول.

ودّ لو يجد فرصًا أكثر ليحدّثها عن نفسه، ويعرف عنها المزيد.. لكنّها مغلقة مثل محّارة تخفي لؤلؤتها بحرص. لن يستعجل هذه المرّة، فصيد اللّؤلؤ يستحقّ المشقّة والعناء.

***

تحرّكت الأحداث في اتّجاه الانفراج أخيرًا بعد أن حسب

أنّ الأبواب قد أغلقت.

كان عمر قد أقدم على خطوة ذكيّة منذ أيّام. أرسل الشّباب في الشّوارع، يوزّعون ملصقات عليها صورة الطّفلة اليتيمة، ووعد بمكافأة سخيّة لمن يجد الوصيّ عليها، وعطيّة أكبر للعمّ إذا ما اتّصل بدار الرّعاية. خلال الأسبوع المنصرم، ظهر عدد من المدّعين، حاول كلّ منهم أن يستأثر بالمكافأة لنفسه باختراع قصّة ملفّقة. لكنّ أحدًا منهم لم يثبت هويّته.

ثمّ عُثر على العمّ الحقيقيّ، بالأمس. جاء بملء إرادته إلى دار الرّعاية، واستظهر ببطاقته الشّخصيّة التي تُثبت نسبه. فورد اتّصال فوريّ إلى منزل أبي الحسن.

جلس أبو الحسن قبالة عمر، في مكتب المحامي الذي انهمك بمطالعة الوثائق التي بين كفّيه.

قال المحامي وهو يشير إلى الدّفتر أمامه:

-لقد وقّع الرّجل بتنازله عن الوصاية. إنّه في حاجة إلى المال. البنت عبء عليه. لو لم تكن كذلك لما تخلّى عنها منذ البداية. لقد ترك المخيّم بشكل غير نظاميّ، ويعيش في عمّان

على الكفاف، بدون أوراق إقامة رسميّة. لكنّه استظهر بهويّته السّورية.. وقد كان هذا كافيًا لإثبات علاقته بالطّفلة.

وضع عمر على المكتب مظروفًا مغلقًا وقال:

-وهذه المكافأة التي وعدت بها. كم سنحتاج من الوقت الآن لاستخراج جوازات السّفر والتّأشيرات للطّفلين؟

ضحك المحامي وقال:

-أعرف أنّك مستعجل، لكنّ الوثائق الرّسميّة بطيئة. فلنقل.. شهرًا أو اثنين على الأقل. إجراءات نقل الوصاية، ومن بعدها المعاملات مع الدّوائر الحكومية قد تستغرق وقتًا. بالنّسبة إلى التأشيرة، فهذا يعتمد على السّفارة السّويسريّة.

أومأ عمر متفهّما، ثمّ قال وهو يترك مقعده:

-سأنتظر اتّصالك إذن.

حين وصل إلى دار الرّعاية، فاجأه مشهد آية وهي ترقص! كانت تحتضن آلاء بين ذراعيها، وتتحرّك في أرجاء الغرفة

في حركات متمايلة، وهي تدندن بكلمات أغنية شاميّة قديمة. حين انتبهت إلى حضوره، اتّجهت إليه على الفور وسألت في لهفة:

-هل وقّع؟

-نعم، وقّع.

كان في عينيها بريق ملفت، آسر ومربك. لقد لمح تلك النّظرة في عينيها بالأمس، حين سحبته من عالم الأحلام عنوة. كما لحظها في مرّة سابقة، في لقائها الأوّل بآلاء. كان في ملامحها نوع من البهجة المعدية والمرْضية. كان يشعر بالإنجاز في تلك اللّحظة، لفرحها. إنّها تستحقّ أن تكون سعيدة. وإذ إنّه قد سرق من عمرها الكثير، فعليه أن يبذل عمره لإسعادها.

غير أنّ مشاعر الطمأنينة لديه لا تستمرّ طويلا. صار سريع الانحدار إلى هاوية الألم. يكون هانئ البال لوهلة، ثمّ يرتدّ إلى خانة الوجع. ينغّص حياته إحساس مستمرّ بالذّنب: كم ستستمرّ تلك السّعادة لديها؟ هل يأتي يوم تخبو فيه تلك البهجة إلى الأبد، بسببه؟

داري ضيقه وهو يحيط كتفيها بذراعه ويهمس مهنّئا:

-مبارك!

-مبارك علينا!

ثمّ أضافت وهي تخاطب الطّفلة:

-سلّمي على بابا يا آلاء!

رنا إلى الطّفلة في حنق. بابا؟ هل سيعيش يومًا تلك العلاقة الأبويّة فعلا؟ شعر بنبضاته تزداد وجيبًا وبتنفّسه يضطرب. سحب كفّه، ثمّ قال:

-سأخبر صهيبًا.

صار صهيب حجّته الدّائمة، كلّما أراد الاختباء عن آية وإخفاء ما يعتمل في نفسه عن نظرتها الثّاقبة. مشى بخطوات واسعة وهو يفتّش عن الطّفل بعينيه، حتّى أبصره في ركن القاعة يلوّن. لا شكّ أنّه يستوعب مشاعر آية تجاه آلاء.. فهو يشعر بالطّريقة ذاتها تجاه صهيب. لم يكن حتّى

تلك اللّحظة قد أخبره برغبته في احتضانه. كان يمضي برفقته وقتًا طويلًا في كلّ زيارة، لكنّه لم يرد أن يعذّبه بالانتظار الممضّ. يكفيه ما يعتريه من قلّة حيلة أمام آية وطفلتها.

أشار إليه ليقترب وقال:

-تعال.. أودّ الحديث إليك على انفراد.

خرجا إلى السّاحة، وجلسا على الأرجوحة. راقب الولد وهو يجرجر خفّيه على الأرض الرّمليّة في استمتاع فيثير عاصفة من الغبار حول قدميه الصّغيرتين، ثمّ قال بابتسامة:

-ما رأيك بالمجيء للعيش معي؟

رفع الطّفل رأسه في فضول وقال:

-وأين تعيش؟

-في بلاد بعيدة، اسمها سويسرا.. لديّ منزل كبير هناك، محاط بحديقة جميلة.

-هل فيها ألعاب؟ وأرجوحة؟

-ليس بعد. لكن يمكن أن يصبح بها كلّ ما تريد.

-جميل!

-وسيكون عليك أن تتعلّم الفرنسيّة.

-لا يتحدّثون العربيّة في سويسرا؟

-لا. لكنّك ستتقنها سريعا. أنا واثق.

هزّ الولد رأسه موافقًا، كان تقبّله للفكرة سريعًا ومدهشًا. أردف عمر:

-سوف يأتي المصوّر بعد حين لالتقاط صورة شخصيّة لك.. من أجل جواز السّفر.

-سيكون لديّ جواز سفر؟

-نعم.

-وهل سأركب الطائرة؟

-بالتّأكيد. سويسرا بعيدة.

وقف الطّفل فجأة وهتف بحماس:

-سأخبر الأولاد!

قفز بضع قفزات، ثمّ استدار وحدّق بعمر.

-هل سيكون عليّ أن أناديك بابا؟

-هل تودّ ذلك؟

سكت صهيب وبدا عليه التّفكير ثم قال:

-الأطفال الذين ينتقلون للعيش مع عائلة، يصبح لديهم «بابا» و«ماما».

-يمكن أن يكون لك أيضا «بابا عمر» و«ماما آية».

لم يبد الطّفل أيّ تفاعل مع الاقتراح، فأردف عمر على الفور:

-وإن شئت، نادني عمرا!

-عمر.. يبدو ذلك جيّدا!

ثمّ جرى إلى الدّاخل.

حين وصل المصوّر، ارتدى صهيب قميصًا جديدًا والتقط صورة إزاء الجدار الأبيض. كانت تزيّن وجهه بسمة فخر وفي عينيه بريق فرح. لم يكن التقاط صورة آلاء بنفس البساطة. لم تتوقّف الطّفلة عن التخبّط بين ذراعي آية، رافضة الجلوس باستقامة. بعد محاولات كثيرة، نجح المصوّر في الحصول على صورة تنفع لجواز السّفر. كان يهمّ بجمع معدّاته، حين هتفت آية في حماس:

-هل يمكننا أن نأخذ صورة عائليّة؟

سحبت عمر باتّجاه المقعد الحجري في الحديقة، وجلست وفي حضنها آلاء. جاء صهيب بوجنتين ملتهبتين خجلا،

ومشى على استحياء حتّى وصل عند عمر. أشارت آية إلى الفراغ بينهما وقالت:

-تعال اجلس هنا يا حبيبي!

لكنّه اختار أن يجلس على الجانب الآخر، إلى جوار عمر. لاحظ عمر خيبتها فقال مهوّنًا:

-سوف يتعوّد. لا تشغلي بالك.

ثمّ همس جانبًا لصهيب:

-سنكوّن حلفًا رجاليّا أنا وأنت.. ونهزم الحلف النّسائي!

أطلق الولد ضحكة جذلة، التقطتها على الفور عدسة المصوّر.

***

بعد أيّام، كانت حافلة تضمّ الأطفال ومشرفين من الدّار، بالإضافة إلى عمر ورامي وأبي الحسن، تنطلق في اتّجاه

جنوب الأردن. خلال الرّحلة التي دامت ثلاث ساعات، تعالت أصوات الأطفال بالأناشيد، وقد تملّكهم نشاط غير معهود، وملأ المرح الأجواء. كانت رحلتهم الأولى خارج عمّان. كان بعض المتطوّعين يحضرون من حين إلى آخر، يرتّبون نزهة قريبة، أو ينشّطون أمسية داخل الدّار. لكنّ أحدًا لم يأخذهم من قبل في رحلة سياحيّة!

توقّفت الحافلة على مسافة ميل من «المدينة المفقودة»، وترجّلت المجموعة. تقدّموا زهاء نصف ساعة في خطّ سير متواصل داخل ممرّ حجريّ متعرّج، يسمّى «السّيق»، كانت جدرانه عبارة عن كتل حجريّة مرتفعة ذات لونٍ ترابيّ يميل إلى الحمرة، بينما حفرت في الأرض قنوات ريّ تعود إلى عصور قديمة. ثمّ انفرج المسار نحو ساحة مفتوحة تشرف على المعالم الهندسيّة التي غدت منذ وقت قريب واحدة من عجائب الدّنيا السّبع الحديثة. كانت البنايات العالية المنحوتة في الصخر تستقبل نظرات الذهول وشهقات الانبهار من الصّغار والكبار على حدّ سواء.

بعد جولة داخل الموقع الأثريّ، استمرّت التّسلية بركوب الجمال والعربات المجرورة من الدّواب. وكان عمر ينزّ عرقًا طوال الوقت، رغم نسائم الخريف الذي تهبّ من حين إلى

آخر. استمرّ يفرغ قوارير الماء على رأسه، ومع ذلك فقد كانت الحرارة لا تطاق بالنّسبة إليه. غير أنّه لم يتذمّر حتّى لا يفسد اليوم على الجميع. انتبه حين شعر برذاذ ماء يصيب ظهره. التفت ليجد صهيبًا يرشّه من قارورته. ابتسم الصبيّ بعذوبة وهو يقول:

-يمكنك الحصول على قنّينتي.

ربّت عمر على رأسه في امتنان ولم يرفض العرض.

بعد ذلك توجّهوا إلى مطعم قريب لتناول وجبة غداء دسم تليه تحلية ومثلّجات. ثمّ جاء موعد اقتناء التّذكارات والتقاط الصّور المميّزة بالكوفيّة والعمامة التّقليديّتين. في نهاية النّهار، حين ركب جمعهم الحافلة ليقفلوا راجعين، عمّ السّكون داخل العربة. تثاقلت الجفون وانحنت الرؤوس إلى الوراء، ليغطّ الأطفال في نوم عميق فور تحرّك الحافلة.

ابتسم عمر وهو يسند رأس صهيب إلى كتفه. تأمّل في رضا الولد السّاكن بعد نهار مليء بالحيويّة والمرح. لقد أراد أن تكون ذكريات الطّفل الأخيرة عن الدّار مبهجة حتّى يرسخ في ذهنه طعمها العذب، وتمحو كلّ أثر للآلام الماضية.

في المستقبل، حين يطالع الطّفل الصّور التي جمعته بأصحابه القدامى، سيبتسم، وسيشعر بالامتنان.

-20-

-يوجد توافق!

أعلن الدّكتور يوسف بحركة مسرحيّة وهو يدلف إلى غرفة الأطفال ذلك الصّباح. كان ذلك النّوع من الأخبار مناسبة تستحقّ الاحتفاء. يعتبر لحظة إعلان العثور على متبرّع أكثر المراحل إثارة وحماسًا في دورة المرض، ربّما يكون وقعها أشدّ من إعلان الشّفاء ذاته! ذلك الانتقال المباغت من قلّة الحيلة والانتظار العقيم إلى الإيمان بالفرج وتدفّق موجات التّفاؤل كان له سحر خاصّ ومنعش. وبقدر ما كان اكتشاف الحالات الجديدة وعلاجها إنجازًا ملموسًا في مسيرته المهنيّة، فإنّ آونة إيقاد شعلة الأمل في عتمة المرض كانت أكثر اللّحظات إشراقًا في روتين المشفى الكئيب.

استدارت ياسمين وفرح باتّجاهه في حركة واحدة وقد تحفّزت ملامحهما. خبا حماس الدّكتور يوسف على الفور حين أدرك فداحة خطئه. كان يجب أن يتريّث. نظر إلى ياسمين وقال مترفّقًا:

-أنا آسف.. ياسمين. لقد وجدنا متبرّعًا لأحمد.

أخفت فرح وجهها بين كفّيها وأجهشت بالبكاء، ثمّ رفعت عينين دامعتين إلى ياسمين وهتفت في تأثّر:

-أنا آسفة! أنا آسفة!

هزّت ياسمين رأسها وقالت مهوّنة:

-لا تكوني! أنا سعيدة من أجل أحمد، ومن أجلك. لقد حاربت كثيرًا من أجل هذه اللّحظة!

تطاولت فرح على أطراف أصابعها لتعانق الطبيب في امتنان، ثم استدارت لترتمي بين أحضان ياسمين وتأخذا في البكاء معا.

-ياسمين، هل لي بكلمة على انفراد؟

مشت ياسمين وراء الدّكتور يوسف حتى صارا في الممرّ.

-الأمر يتعلق بالمتبرّع.

- حدّقت في وجهه بعدم فهم.

- في الحقيقة، إنّه عمّ عز الدين.. لكنّه لم يترك بياناته الشخصيّة عند أخذ العينة. هل يمكنك الاتّصال به، حتى نرتّب عملية التبرّع؟

توقّفت لبرهة في صدمة، ثمّ همهمت:

-بالتّأكيد.

لم يكن عليها أن تستفسر «من يكون عمّ عزّ الدّين هذا؟». هناك شخص واحد قد يعرّف بنفسه بتلك الطّريقة. الآن تفهم سبب تركه رقم هاتفه عند مكتب الاستقبال. ابتعدت باتّجاه قاعة الانتظار، حتّى وجدت ركنًا هادئًا. أخرجت القصاصة التي كانت تحتفظ بها في حقيبة يدها، تنحنحت حتى يجلو صوتها، ثم رقنت الرّقم على هاتفها.

تطلع عمر إلى الرّقم الفرنسي، الذي ظهر على شاشته فتسارعت نبضاته. ردّ في لهفة، فجاءه صوتها:

-عمر؟ أنا ياسمين.

-أعرف. هل كل شيء على ما يرام؟

-هناك.. توافق.

لوهلة اختلط عليه الأمر. كانت تزفّ إليه خبرًا سارًّا، لكنّه يشعر بالغصّة تخنق صوتها. قال مع ذلك:

-حمدًا لله، هذا خبر مفرح.

-ليس.. مع عزّ الدين. هناك طفل آخر، اسمه أحمد.. عمره سنتان، وهو مصابٌ بنفس المرض. هل يمكنك فعل هذا من أجله؟

شعر بقبضة حديدية تعتصر صدره، لكنّ الرّجاء في صوتها لم يدع مجالا للتردّد. تمالك نفسه ليقول بثبات:

-بالتأكيد.. سآتي.

-شكرا لك.

سكتت. كانت تهمّ بإنهاء الاتّصال، لكنّه سارع يقول:

-سيكون بخير. عزّ الدين سيشفى. ثقي برحمة الله.

-ونعم بالله.

أطلقت تنهيدة حارّة، ثم قطعت الخط.

لبث للحظات يتأمّل الهاتف بين كفّيه. إذا ذهب هو من أجل أحمد، فسيذهب غيره من أجل عزّ الدّين.

عاد عمر إلى الغرفة، حيث ترك آية برفقة الطّفلين. كانت قد شرعت تهتمّ بصهيب أيضا بعد أن لمحت نفوره منها. كلّما جلست تطعم آلاء، كانت تتذرّع بحاجتها إلى المساعدة وتستدعيه لإمساك علبة الطّعام أو تحريك الدّمية القماشيّة أمام وجه الطّفلة، بينما تستمرّ تحادثه. كان يتململ في البداية، ثمّ أخذ يتعوّد على طقوس الوجبة العائليّة تلك.

وقف عمر يراقب ثلاثتهم وعلى شفتيه ابتسامة راضية. تطلّعت آية إليه وسألت:

-من المتّصل؟

-ياسمين.

استدارت في انتباه، فأردف:

-هناك توافق.

-حمدًا لله، إذن سيقوم عزّ الدّين بعمليّة الزّرع؟

-التّوافق لا يخصّ عزّ الدّين، بل.. يخصّني. هناك طفل آخر يحتاج إلى زرع. وقد وجدوا توافقًا بيني وبينه.

تريّثت آية قبل أن تعلّق. إنّ سفره من عمّان إلى باريس من أجل التبرّع لطفل غريب لا يبدو في تلك اللّحظة منطقيًّا ولا حكيمًا. لكنّ حياة طفلٍ على المحكّ. وهي تدرك أنّ عمر لن يتردّد في السّفر، طالما بوسعه تقديم المساعدة لأيّ كان. قالت في تسليم:

-إذن ستسافر؟

-غدًا صباحًا. سأستغلّ الفرصة للمرور على لوزان. تعلمين لم أتفقّد الشّركة منذ أسابيع!

كان عليها أن تتقبّل فكرة تردّده على فرنسا من الآن فصاعدًا. وتونس في وقت لاحق، إذا شفي الطّفل وعاد إلى بلدته. ستشغل نفسها بالطّفلين، ولن تهتمّ لتنقّلاته.. ما دام يعود إليها في كلّ مرّة.

***

استلقى عمر على الأريكة الطبيّة المنحنية، بينما انهمكت الممرّضة في تثبيت الإبر على ذراعيه من الجهتين. ثمّ شرحت ما سيحصل خلال السّاعات المقبلة:

-سيخرج الدّم من الأنبوب المثبّت على الذراع اليمنى ليدخل إلى «آلة الحصاد» التي تتولى فصل الخلايا الجذعيّة وتخزينها، ثمّ يعود الدّم إلى جسمك عبر الأنبوب المتّصل بالذراع اليسرى. العمليّة ليست مؤلمة.. يمكنك الاسترخاء والانتظار.

-كم ستستمرّ العمليّة؟

-ثلاث ساعات تقريبا. إن احتجت إلى أيّ شيء، سأكون في الغرفة المجاورة.

أخذ عمر نفسًا عميقًا وأغمض عينيه. يمكنه أن يغفو لبعض الوقت.

كان قد جاء منذ خمسة أيّام. لم يغامر بالدّخول عبر الحدود الجويّة مباشرة هذه المرّة. توقّف في لوزان، أمضى بضع ساعات بين المصنع والقرية، ثمّ استقلّ القطار نحو باريس. في الزّيارة الأولى، تلقّى حقنة تحت الجلد لتحفيز إنتاج الخلايا الجذعيّة في دمه. ثمّ رجع إلى لوزان ليمكث هناك حتّى يوم الحصاد. كان قد اضطرّ إلى ترك الشّركة لأسابيع، وانهمك في مسألة الاحتضان المتعثّرة. ووجد من المفيد أن يباشر العمل بنفسه بعد طول انقطاع. وفي المساء، كان يحادث آية لبعض الوقت، ثمّ يشغل نفسه بالتسوّق الإلكتروني، استعدادًا لقدوم الطّفلين: يحتاج أثاثا لغرفة الأطفال، ألعابًا.. وأرجوحة! كلّ تلك التّفاصيل تمنحه الكثير من الطّاقة والحماس.

حين انتهت عمليّة الحصاد، عادت الممرّضة لتفصل ذراعيه عن الآلة. قالت قبل مغادرته:

-سنقيّم كميّة الخلايا المحصودة، وإذا احتجنا إلى عودتك، ستتلقّى اتّصالا.

أومأ متفهّمًا، ثمّ خرج في تثاقل. كان يشعر بالضّعف، وبخدر في أطرافه. توجّه رأسًا إلى الكافتيريا ليطلب وجبة خفيفة تزوّده ببعض النّشاط. جلس إلى طاولة منعزلة وانشغل بقطعة الكرواسون بالشّوكولاتة وعصير اللّيمون المنعش. بعد لحظات، جذب انتباهه حديث باللغة العربية فرفع رأسه في فضول. كان الدّكتور يوسف يقف على مسافة بضعة أمتار يتحدّث بانطلاق ومرح. لم يكن يستوعب فحوى المحادثة من موقعه، فلم تكن تصله سوى عبارات متقطّعة وضحكات متفرّقة. حين تحرّك الرّجل خطوة، ظهر مخاطبه بوضوح: كانت ياسمين! تسمّر في مكانه، لا يدري ما عليه فعله. كان يملك الاقتراب منهما وإلقاء التحيّة. لكنّه لم يكن في مزاج طيّب. كان تباسطها مع الطّبيب مثيرًا لضيق لا يفسّر. لمحها تنصرف في اتّجاه، بينما ابتعد الطّبيب في مسار مختلف.

انتظر لبعض الوقت، ريثما سيطر على انفعاله، واستعاد توازنه، ثمّ اتّجه إلى قسم الأطفال.

حين أطلّ من الباب، كانت ياسمين تجلس على طرف سرير عزّ الدّين، وتهمس شيئًا في أذنه. فجأة، هتف الطّفل وقد انتبه لحضوره:

-عمّي عمرا!

اتّسعت ابتسامة رائقة على شفتيه وهو يقترب منهما، بينما التفتت ياسمين لتطالعه في دهشة. قالت:

-هل جئت من أجل التبرّع بالخلايا الجذعيّة؟

أومأ علامة الإيجاب، فأردفت:

-شكرًا لتجشّمك عناء المجيء. لعلّك تكون سببًا في إنقاذ عائلة بأسرها.

ساد الصّمت للحظات، بينما كان عمر يمسّد خصلات الطّفل بلطف. حاول أن يقدّر في صمت كم مضى على لقائهما الأخير. شهران؟ لقد كانت فترة حافلة بالأحداث لكلّ منهما. قاطع صوتها حبل أفكاره:

-في الحقيقة.. لقد أردت أن أخبرك منذ زمن...

-ما الأمر؟

-لستُ أمانع اهتمامك بعزّ الدّين. لست مضطرًا إلى زيارته خلسة.

-ليس الأمر كذلك...

همّ يشرح لها سبب قدومه خفية في الزّيارة السّابقة، لكنّه آثر الكتمان. لم يكن يريد أن يثير قلقها بشأن المراقبة والحدود والاشتباه السّخيف. لن يضيف ذلك إلا همّا لهمومها. قال أخيرًا:

-كنت على عجل. كنت لأنتظر عودتك، لكنّ الوقت ضيّق.

هزّت رأسها في تفهّم وقالت:

-أنت رجل مشغول، ولديك ما يكفي من الأعمال الهامّة، اعذرني إن كنت كلّفتك ما لا تطيق بطلب الحضور اليوم.

قاطعها في اعتراض:

-لا تقولي هذا. أنا من عليه الاعتذار.. لقد أفسدت مسألة الورشة. لم أقدر على الالتزام بالموعد.

-ليس أمرًا مهمًّا.

-بلى، إنّه مهمّ بالتّأكيد. هناك أطفال وعائلاتهم ينتظرون الورشة كلّ أسبوع.. لكنّني لم أكن في مستوى انتظاراتهم. عليّ أن أعتذر منهم شخصيًا.. في فرصة ما.

ابتسمت. كان يذكّرها بكلماتها. قالت بترفّق:

-إن كنت مصرًا...

-اضطررت إلى السّفر بشكل عاجل.. إلى الأردن. هناك مسائل عالقة لم أفرغ منها بعد. لكن ما إن تحلّ المشكلات كلّها، سأزوركم.

هتفت في صدمة:

-الأردن؟ هل أنت قادم من الأردن؟

أومأ علامة الإيجاب، فغطّت فمها بكفّها وقالت في حرج:

-ظننتك في سويسرا! لو كنت أدري، لما طلبت منك قطع هذه المسافة...

توقّفت ثمّ قالت معتذرة:

-لعلّني كنت لأفعل رغم ذلك.. فحياة أحمد على المحكّ. ليس من اليسير العثور على متبرّع.

ضحك لاعترافها، ثمّ أردف معترفًا بدوره:

-نحن نحاول احتضان طفل. طفلين، في الواقع.

-آه، هذا رائع!

-إنّه كذلك. إنّهما طفلان فلسطينيّان، من مخيّم اليرموك.. فقدا عائلتيهما أثناء الفرار من الحرب السّوريّة.

هنّأته بحرارة، فأردف مستدركًا:

-هذا لن يؤثّر في اهتمامي بعزّ الدّين.. غير أنّي سأحضر بعض الزوّار برفقتي.

ثمّ قال مخاطبًا الطّفل:

-هل تريد أن يكون لك صديق جديد؟

اتّسعت ابتسامة الولد وهو يهزّ رأسه في حماس.

-حالما تجهز التأشيرة، سيأتي لرؤيتك.

رفع كفًّا مفتوحًا أمام صدره ليضرب عليه عزّ الدّين بخفّة علامة الاتّفاق. ثمّ سألها باهتمام:

-هل من جديد بشأن حالة عزّ الدّين؟

انشرحت أساريرها على الفور وهي تقول بابتهاج:

-الدّكتور يوسف كان يحدّثني منذ حين عن علاج ممكن..

أنت تعرف الدّكتور يوسف؟

أومأ في صمت، وهو يستعيد مشهد حديثهما منذ حين أمام الكافتيريا. إن كان هناك خبر مفرح يخصّ عزّ الدّين، فيمكنه أن يتجاوز عمّا رآه. أضافت بنفس الحماسة:

-هناك علاج تجريبيّ، الدّكتور يوسف أخذ الموافقة من مجلس الإدارة هذا الأسبوع للشّروع في تطبيقه. قال أنّ التّوافق أيسر بكثير، لكنّنا نحتاج أمًّا تتبرّع بدم الحبل السرّي بعد وضعها. في الواقع الحبل السريّ غنيّ بالخلايا الجذعيّة، وعددها كافٍ لعلاج طفل في عمر عزّ الدّين. حالما نحصل على متبرّعة، سنبدأ التّحضير للعمليّة!

كانت قسماتها تضيء وهي تشرح طبيعة العلاج الجديد: الخلايا الجذعيّة المستخرجة من الحبل السريّ تعتبر "غير ناضجة"، ممّا يجعلها أقلّ عرضة للرّفض من الجهاز المناعيّ، وبالتّالي فإنّ التّوافق الوراثيّ مع المريض يصبح غير ضروريّ. وسرعان ما سرت إليه عدوى الارتياح. يمكنه أن يشكر الدّكتور يوسف هذا، رغم امتعاضه. إنّه يقوم بدوره كما يلزم، في نهاية الأمر.

حين استأذن مغادرًا، استوقفته الممرّضة التي رآها في زيارته السّابقة. هتفت في حبور:

-سيّدي، لقد عدت ثانية! لقد أحبّ الأطفال الحفلة كثيرًا! شكرا لجهودكم.

ابتسم عمر في حرج، ثمّ انسحب على عجل.

اقتربت الممرّضة من سرير عزّ الدّين لتراقب علاماته الحيويّة وقالت مخاطبة ياسمين:

-لقد عاد ممثّل الجمعيّة.. ربّما يجهّزون حدثًا آخر للأطفال! كم هذا لطيف!

-ممثّل الجمعيّة؟

-الرّجل الذي غادر للتوّ.. هل كان يتحدّث إليكما؟ ربّما يريدون جمع الآراء بخصوص الحفلة السّابقة؟ أيّ الأشياء يفضّل الأطفال؟

ابتسمت ياسمين وهي تهزّ رأسها في صمت.

خلايا جذعيّة، هذا ما يحتاجه الأطفال. ولقد أحضر عمر بعضًا منها في زيارته. وهذا كافٍ.

-21-

دفع عمر دفّة الباب وأفسح المجال ليعبر صهيب، تليه آية وبين ذراعيها آلاء. وقفت مدبّرة المنزل في دهشة أمام الجمع الذي احتلّ غرفة الجلوس. اقتربت بخطوات سريعة وهتفت في حماس:

-أهلا بعودتك يا سيّدي! هل لدينا زوّار؟

قالت آية بلهجة فخورة:

-هؤلاء أصحاب المنزل الجدد!

لم يبد على مدبّرة المنزل الاستيعاب، لكنّ آية استمرّت تخاطب صهيبًا:

-تعال، حيّي الخالة لويزا وقل ما تدرّبنا عليه.

وقف الولد في اعتداد، ثمّ قال بجدّية بالغة بفرنسيّة مشوّهة:

-بونجور لويزا.. أنشونتي (مرحبا لويزا.. تشرّفت بمعرفتك).

-وأنا أيضا تشرّفت بمعرفتك أيّها السّيد الصّغير.

سأل عمر بابتسامة:

-لويزا، هل جاءت شحنة الأثاث؟

-نعم سيّدي، لقد أرشدت العمّال إلى الغرفة الفارغة في جناح النّوم، كما طلبت.

-ممتاز.

ثمّ أردف وهو يطالع صهيبًا ببسمة رائقة:

-تعال نكتشف غرفتك!

قفز الطّفل في مرح ووضع كفّه في كفّ عمر، ليبتعدا معًا.
نظرت آية إلى آلاء في حجرها وقالت:

-هيّا نكتشف سريرك الجديد نحن أيضا.

وقفت آية من فورها لتتبع زوجها إلى الدّاخل، في حين لبثت لويزا مكانها لبرهة. ثمّ سرعان ما سمعت صوت تواثب الطّفل على المرتبة، ثمّ تلته أصوات أشياء تسقط على الأرض. تنهّدت بصوت عالٍ:

-لقد مضى عهد الرّاحة يا لويزا.. سيصبح المنزل مرتعًا للطفلين!

كان هناك الكثير من الحركيّة في المنزل الرّيفيّ خلال الأيّام التّالية. وصلت الأرجوحة أوّلا، لتحتلّ جزءًا من الشّرفة المكشوفة، إلى جانب معدّات الشّواء، ومقاعد الاسترخاء، ثمّ جاءت شبكة الكرة الطائرة لتفصل الباحة نصفين. وأخيرًا، معدّات تنس الطّاولة وكرة القدم المصغّرة. كان ازدياد أفراد العائلة مناسبة تدعو إلى النّشاط وحبّ الحياة. كانت آية تتأمّل عمر في رضا تخلطه دهشة. كان الرّجل الجادّ الذي تزوّجته يتحوّل إلى كائن مرح ومسلٍّ. ربّما لو لم يأتِ صهيب، لما عرفت ذلك عنه أبدًا. لقد كان يشاركه الكثير من اللهو في دار الرّعاية، وكذلك كان في زيارته لمخيّم الزّعتري، لكنّ المحاولات المحتشمة قد غدت تحليقًا حرّا في عنان

البهجة. وفي كلّ مرّة التقت نظراتهما -بينما تجلس هي على الأريكة العريضة ويتحرّك هو خلف الكرة مراوغًا صهيبًا، فيقهقه كلاهما- شعرت بتلك الشّرارة في عينيه.

كان بوسعها أن تطلق عليها اسم «الحبّ».

لكنّها لم تكن تثق في أنّ ذلك الحبّ موجّه إليها. لعلّه يخصّ الطّفلين أكثر! لكنّها سرعان ما نفضت عنها تلك التساؤلات العقيمة. لقد كان حبًّا تجاه العائلة التي تجمع شتاتهما سويًّا. وهذا كافٍ.

***

فتح عمر عينيه أثناء اللّيل. حين انقلب على جانبه، لم يجد آية إلى جواره. كانت الرّدهة مضاءة. أزاح اللّحاف وخطا بهدوء متتبّعا خيوط النّور. كان يبقي مصباحًا قريبًا من سرير صهيب مضاءً طوال اللّيل، لأنّ الطّفل لم يتعوّد على المكان بعد. إلى جواره، كان سرير آلاء ذو القضبان الخشبيّة. وعلى الكرسيّ العريض عند رأس الطّفلة، كانت آية تجلس على ركبتيها، وقد انحنى ظهرها لتطلّ على وجه الملاك النّائم من علٍ. ابتسم وهو يطالعها في حنوّ.

اقترب منها بهدوء، فالتفتت على صوت حفيف خطواته. أشرقت قسماتها وهي تهمس:

-أليست رائعة وهي نائمة؟ لم أرها تنام بهذا السّلام من قبل!

كانت غرفة الرّضع في دار الرّعاية عامرة بالأطفال، لا يكاد أحدهم يغطّ في النّعاس حتّى يستيقظ آخر باكيًا. لم يكن من اليسير أن تنعم بسويعات سكينة متواصلة. نظر عمر نحو سرير صهيب. كان الطّفل قد ركل الغطاء بعيدًا وتكوّر على نفسه ينشد الدّفء. إلى جواره، كان يترك مساحة لصندوق كنزه الصّغير. في داخله قطع من طفولته وذكريات دار الرّعاية: لعبة مكسورة على شكل بطل خارق فقد رجله، ومجموعة بطاقات لاعبي كرة كان يهتمّ بجمعها، وصور لأطفال الدّار التقطت في مناسبات عدّة. كان ذلك كلّ ما احتفظ به من حياته الماضية في عمّان. ولم يكن عمر يمانع تمسّكه بتاريخه القصير وجذوره التي تفتقر إلى العمق. سيحرص على صنع ذكريات جديدة تمحو مرارة الماضي، وتنسيه مأساته القديمة.

رفع عمر الغطاء حتّى كتفيه وطبع قبلة على جبين الولد، ثمّ أشار إلى آية كي تتبعه.

جلسا متجاورين على الأريكة. وضعت آية رأسها على كتفه، وتنهّدت بعمق. قال متسائلا:

-ما الذي يشغلك؟

-لا أدري. إنّها مخاوف لا إراديّة.

-ممّ تخافين؟

-أخاف أن يكون هذا الجمال، وهذا الحبّ وهذه السّعادة.. وهمًا!

نظر إلى عينيها في قلق:

-لماذا تقولين هذا؟

-لا أدري. أشعر هذه الأيّام أنّني قد بلغت القمّة.. وما وراء القمّة سوى السّفح؟

-استعيذي بالله من الشيطان الرّجيم.. هذه وساوس تفسد

عليك كلّ شيء. نحن نرفل في نعم كثيرة، وجب أن نحمد الله عليها آناء الليل وأطراف النّهار. ونسأله أن يديمها علينا.

-آمين. ولكن...

-ليس هناك لكن. لم أعهدك هشّة هكذا.

تنهّدت من جديد، ثمّ همست:

-حين يتعلّق الأمر بلولو.. فأنا ضعيفة.

قال ضاحكًا:

-لولو؟ جميل.. لولو! ماذا نادي صهيبًا.. بوبو؟

ضحكت بدورها حتّى دمعت عيناها، ثمّ تفرّست في ملامحه وهي تقول:

-هل تعدني بأنّنا سنكون الأولويّة الأولى في حياتك، دائمًا؟

توقّف لبرهة، يقرأ نظرات الرّجاء والخوف في عينيها. لقد

قطع شوطًا بعيدًا منذ رحلته إلى تونس. أصبحت لديه عائلة مكتملة الأركان، وهو يعي بشكل كامل ما يترتّب على ذلك من مسؤوليّة. لقد رافقها إلى تلك الرّحلة التي تجبر النّقص في فؤاده وفؤادها، حتّى صارا مكتملين بآلاء وصهيب. رغم الألم والخشية اللذين لا يفارقانه، فإنّه سيكون قويًّا، ثابتًا وموجودًا، من أجل عائلته. لم يرد أن يتسرّع في الرّدّ، حتّى يمحّص اليقين الذي يورث قلبه الطّمأنينة. قال أخيرًا بلهجة واثقة:

-أعدك.

***

كان هناك جوّ من السّرور يعمّ قسم الأطفال ذلك الصّباح.

وصلت في السّاعة العاشرة شحنة مستوردة من ألمانيا في شاحنة مغلقة، ثمّ تولّى العاملون إنزال صندوق ضخم مغلّف ببلاستيك سميك للحماية من الصّدمات. كان الدّكتور يوسف يقف عند البوّابة الخلفيّة يتابع عمليّة التنزيل باهتمام ويصدر التّعليمات الصّارمة بتوخّي الحذر والدقّة. اقتربت الدّكتورة كوثر وقالت بابتسامة جانبيّة:

-تهانينا دكتور يوسف! آلتك الجديدة حديث المشفى كلّه.

ابتسم وهو ينفخ صدره في فخر واعتزاز. لقد انتظر تلك الآلة طويلا. كتب التّقارير ورفع المطالب مرّة تلو المرّة إلى مجلس إدارة المشفى للسّماح له باستيرادها. والآن، سيصنع العجائب! سيتّخذ بحثه بخصوص الأمراض النّادرة منحى جديدًا، وسيتمكّن من علاج المزيد من الحالات في وقت أسرع.

مشى عبر ممرّات المشفى، وعلى أثره العمّال يدفعون عربة ذات عجلات استقرّت عليها العلبة المعدنيّة. وكان الأطبّاء والممرّضون والموظّفون يتوقّفون لإلقاء التحيّة والتهنئة بالإنجاز المرتقب. حين وصلت العربة إلى المكان المنشود داخل المختبر، وُضعت مكانها وأزيح عنها الغلاف البلاستيكيّ، ليظهر شكلها المعدنيّ المصقول. مرّر يوسف كفّه على صفحة المعدن، كأنّه يمسّد فرو حيوان أليف، وتنهّد في ارتياح.

-دكتور حدّاد، تهانينا!

استدار ليبتسم لزميله الدّكتور بورجوا من قسم سرطان

الأطفال.

-شكرا لك دكتور بورجوا.

-بعد إذنك، كنت أتحدّث إلى المدير، و.. أخذت إذنه في استخدام آلتك الجديدة، من أجل أحد المرضى لديّ.

عقد يوسف حاجبيه في ضيق، لكنّه كتم غيظه وقال:

-أنت تعلم أنّ ثمن الآلة دُفع من ميزانية مشروعي البحثي.

-بالتّأكيد، لا تقلق.. ستكون الأولويّة لمرضاك. هل لديك عمليّات مبرمجة في الوقت الحالي؟

-حالما نجد المتبرّع، سوف...

-إذن لا بأس. لديّ متبرّع ومريض.. ولديك آلة غير مستغلّة. ألا ترى أنّ الوضع مثاليّ؟

ابتلع يوسف شتيمة تكاد تفارق شفتيه، ثمّ قال معتذرًا:

-عن إذنك. عليّ التحدّث إلى المدير.

خارج مكتب المدير، كان صراخ يوسف يصل إلى العابرين أمام الباب المغلق:

-هل تذكر كم مرّة تقدّمت بطلب لاستيراد هذه الآلة؟ هل تذكر كم مذكّرة كتبت؟ وكم تقريرًا رفعت إلى مجلس الإدارة؟ سيدي هذا ليس عدلا! لقد فعلت المستحيل للمجيء بالمرضى إلى هنا، ولأصنع للمركز اسمًا عالميًّا.. لقد شارف البحث على الانتهاء، لكنّك تعطي الأولويّة للآخرين! هذه فرصة تقدّم إليهم على طبق من ذهب. لقد سعيت وشقيت ولكنّ غيري سيقطف الثّمار! هذا ليس عدلا!

قال المدير محاولا تهدئته:

-دكتور يوسف، أنا أتفهّم موقفك. لكنّ هذا من أجل مصلحة المركز، ومصلحة المرضى.. والآلة أيضا، يجب أن تكون ذات جدوى. إنّ الاحتفاظ بها ساكنة معظم الوقت واستخدامها من أجل الأمراض النّادرة وحسب سيكون تبديدًا للموارد. كلّ الآلات التي لدينا مشتركة بين مختلف الأقسام. وهذا لمصلحة الجميع. أنا أتحدّث بصفتي المدير.. وأنا مسؤول عن

الميزانيّة، وأيضا عن رفع مستوى كفاءة كلّ الأقسام. أرجو أن تتفهّم موقفي!

زفر يوسف في استسلام. لقد استحال يومه السّعيد كابوسًا! أضاف المدير في تفهّم وهو يكرّر الوعد ذاته:

-لكن الأولويّة ستكون دائمًا لمرضاك. أنت مسؤول عن جدولة العمليّات.. وكلّ من يحتاج الآلة سيطلب إذنك أوّلا. هل يرضيك هذا؟

هزّ رأسه دون اقتناع. لم يكن يملك أن يجادل أكثر.

داخل قسم الأطفال، كانت ياسمين وفرح تجلسان إلى كاترينا التي تزفّ إليهما الخبر السعيد، عبر تطبيق التّرجمة على هاتف فرح:

-الدّكتور بورجوا قال أنّ بوسع ريبيكا إجراء العمليّة حالما ألدا!

لم يكن على ريبيكا انتظار متبرّع بعد الآن. كانت والدتها حبلى في الشّهر التّاسع، يتوقّع أن تضع بين يوم وآخر. كان

وصول الآلة في هذا التّوقيت ضربة حظّ غير مأمولة بالنّسبة إلى كاترينا وابنتها.

-يا إلهي.. ستبدأ العلاج الكيميائيّ هذا الأسبوع. لم أتوقّع أن تتسارع الأحداث بهذا الشّكل!

التفتت فرح إلى ياسمين وقالت مداعبة:

-ربّما عليك الإسراع بالزّواج وإنجاب طفل آخر!

ضحكن في مرح. كان اليوم يوم حبور وسعادة. كانت ياسمين متفائلة بشأن الآلة. حتّى إن لم يكن المتبرّع جاهزًا الآن، فإنّ الفرص ستصبح أكبر منذ هذا الحين. لن يكون عليها انتظار تسعة أشهر أخرى. سيجد الدّكتور يوسف أمًّا على وشك الولادة، فتتبرّع لعزّ الدّين بالحبل السرّي. هناك ولادات كثيرة كلّ يوم، ليس هذا حدثًا نادرًا! يكفي أن تكون الأمّ بصحّة جيّدة، وتوافق العائلة على التبرّع. وهذا أمر ميسور. أليس كذلك؟ هذا ما تأمله.

دخل زوج كاترينا في تلك اللّحظة، فتركت المجموعة ونهضت متثاقلة لاستقباله. احتضنها بقوّة وأجهشا بالبكاء

سويّا. تأمّلتهما ياسمين وفرح في غبطة. بعد أحمد يجيء دور ريبيكا. ترفرف أجنحة الأمل في الأجواء وتعد بمستقبل مشرق لأطفال الجناح المبتلين.

التفتت ياسمين إلى فرح وقالت بابتسامة:

-هل أنت مستعدّة لبدء العلاج؟

-أنا دائمًا مستعدّة! أنا أنتظر هذا اليوم منذ أكثر من سنتين.

تبادلتا نظرة تواطؤ وتآزر. أيّام عصيبة تلوح في الأفق، لكنّ النّور سيأتي يقينًا ليبدّد السّواد الحالك.

خلال أيّام، بدأ العلاج الكيميائيّ لكلّ من أحمد وجودي وريبيكا. كان هدوء مقيت يسيطر على قسم الأطفال غالب النّهار. لم تعد تسمع صوت ضحكات الصّغار المرضى وأصداء مرحهم في ركن الألعاب. كان كلّ منهم يقضي قسمًا من وقته في غرفة العلاج، ثمّ يرجع إلى سريره مكدودًا مفرغًا من الطّاقة. تتعالى أصوات الأنين والاستفراغ من حين إلى آخر مع تفاوت درجات الألم وتدرّجها.

قالت فرح حين جلست وياسمين في الاستراحة:

-أحمد بدأ يفقد شعره الأبيض.. ربّما إذا نما من جديد كان له لون جميل!

وكانت ياسمين تعجب من شجاعتها وقدرتها على تحويل كلّ موقف إلى نكتة. العلاج الكيميائيّ يهاجم أجساد الأطفال بشراسة ويدمّر مناعتها، حتّى لا يرفض الجسم الزّراعة. لكنّ الآليّة مرهقة ومستنزفة.

-تخيّلي، كيف سيكون شعر عزّ الدّين بعد العلاج الكيميائيّ؟

تسحبها فرح لتركب سحابة الخيال والحلم. كيف سيكون شعر عزّ الدّين؟ إنّ أوّل ما يخطر ببالها هو شعر هيثم: أسود قصير. لم تكن خصلاته ناعمة مثل شعر عزّ الدّين، لذلك كانت تسريحته قصيرة. هل ينمو شعر طفلها بشكل مختلف بعد العلاج، ليصبح أكثر شبهًا بأبيه؟ تداعبها تلك الأفكار فتشغلها عمّا يدور حولها. سألها عزّ الدّين ذلك اليوم:

-ما بال الأطفال؟

شعرت أنّ الجوّ الكئيب يؤثّر به، يجعله أكثر حساسيّة وضعفًا.

-سيكونون بخير. إنّهم يتعافون. لا بدّ من الألم قبل الفرج.

صارت تأخذه في جولة على الكرسيّ المتحرّك في ممرّات المشفى وحديقته ما أمكنها ذلك. تحاول إبعاده عن المحيط المشحون بالقلق والأنين.

-كاترينا لم تظهر اليوم.

أخبرتها فرح ذلك المساء. كانت ريبيكا قد أخذت حصّة العلاج بمفردها. لم تكن كاترينا تفوّت الموعد أبدًا. بل لعلّها نادرًا ما تترك ابنتها أثناء ساعات النّهار. جاء زوجها في الصّباح التّالي وتحدّث إلى الممرّضة، فثرثرت حين سألتها ياسمين عن كاترينا:

-لقد اقترب وضعها، وهي تعاني آلامًا في الظهر. الطّبيب أوصى لها بالرّاحة التّامة.

اتّفقت فرح وياسمين دون تردّد:

-سوف ترافق إحدانا ريبيكا إلى حصص العلاج، ونتبادل الأدوار في كلّ مرّة.

-ليس على كاترينا أن تقلق على ابنتها.

رنت ياسمين إلى الطّفلة التي بدت شاحبة وذابلة، ثمّ سألت الممرّضة:

-إنّها تبدو في حالٍ مزرية. هل راقبت علاماتها الحيويّة؟

قالت الممرّضة في أسف:

-بعض الأطفال يتأثّرون بشدّة من العلاج الكيميائي. إنّها ممتنعة عن الأكل منذ أيّام، تتغذّى على المحلول الوريدي. أرجو أن تنتهي معاناتها قريبًا.

حين استدارت باتّجاه المدخل، لمحت شخصين لم يكن من المتوقّع أن يظهرا هناك: سارة وريّان! حدّقت فيهما بملامح جامدة، وانتظرت حتّى تقدّما ناحيتها. بادر ريّان بالتحيّة:

-كيف حالك ياسمين؟

اقترب أوّلا، بينما ظلّت سارة متأخّرة عنه خطوة. لم تدر ياسمين ما الذي يمكنها أن تقوله بعد الصّدام الشدّيد بينها وبينهما على الهاتف. في الحقيقة، لم تكن قد رأت ريّان منذ زفافها. في حين لقيت سارة خلف البوّابة المغلقة لمنزل والدها منذ أقلّ من سنة. التزمت الصّمت في انتظار إفصاحهما عن سبب الزّيارة. سحب ريّان سارة برفق لتتقدّم، فقالت دون حماس:

-لقد اتّصلت بوالدي لأطلب الصّفح. فأخبرني أنّك هنا...

حسنًا، هذا يشرح كيفيّة معرفتهما بموقعها. واصلت سارّة بلهجة ممتعضة:

-لقد بعت كلّ شيء أمتلكه، سيّارتي، هاتفي وجهاز الحاسب الآلي.. كلّ شيء، لأدفع المبلغ الذي حكمت به المحكمة.. واستعرت أيضا من ريّان. غير أنّي لاحظت أنّ الصكّ لم يصرف بعد.. لذلك...

حرّكت كفّها أمام وجهها في صمت، فاستطرد ريّان عنها:

-أبي قال بأنّه مستعدّ للصّفح، بشرط واحد. إذا جئنا للتبرّع بالخلايا الجذعيّة لطفلك!

رفعت ياسمين حاجبيها في دهشة. كان ذلك مباغتًا ومثلجًا للصّدر. ريّان وسارّة أقارب طفلها من الدّرجة الثانية، والتّوافق محتمل. أخفت لهفتها وهي تقول بهدوء:

-إذا كانت هذه رغبة أبي، فلا بأس.

-علينا أن نجري اختبار تطابق، أليس كذلك؟

أومأت ياسمين برأسها، فأردفت سارة على عجل:

-ثمّ تمزّقين الصكّ؟

-الصكّ ليس معي الآن. عليكما إجراء الاختبار أوّلا، ثمّ حين تظهر نتيجته سأمزّق الصكّ أمامكما. هل هذا مناسب؟

تبادلا نظرة تشاور ثمّ قال ريّان:

-هذا يبدو عادلا.

قادتهما إلى غرفة الاختبار حيث أخذت لكلّ منهما عيّنة دم، ثمّ انصرفا.

راقبتهما ياسمين وهما يبتعدان بنظرة حسرة. لم يسأل أحدهما عن صحّة عزّ الدّين، نوعيّة مرضه ولا طلب رؤيته. كانا يؤدّيان واجبًا ثقيلًا.. لا، بل يدفعان ثمن خدمة، بلا أيّ اعتبار للرّوابط الأسريّة. وعلى قدر ما كانت تكره ذلك، فإنّها تأمل أن يكون أحدهما واهبًا محتملًا.

-22-

حصولها على طفلتها المثاليّة، كان حلمًا يتحقّق كلّ يوم. حين تفتح عينيها على صراخ الرّضيعة الجائعة، تبتسم. وحين تحملها بين ذراعيها وتشبعها قبلات وهي تستنشق رائحتها اللّذيذة، ينطلق لسانها بأهازيج عذبة. وحين تحتضنها في افتتان وتلقمها ثديها، تتوقّف الأرض عن الدّوران، وتختزل تلك اللّحظات كلّ العالم في عينيها النّديّتين!

كانت قد حصلت على علاج هرمونيّ لاستدرار اللّبن. كان مهمّا أن تصبح آلاء ابنتها بالرّضاعة. ولم تكن الرّحلة يسيرة. لقد رفضت الطّفلة التقام الثّدي بدايةً. كانت قد تعوّدت على زجاجة الرّضاعة ووجدت حلمة السيليكون مريحة لذائقتها. أمّا الرّضاعة الطبيعيّة فتحتاج منها أن تبذل جهدًا، وأن تستمرّ في امتصاص عقيم حتّى يتدفّق اللّبن أخيرًا. ولم تكن الطّفلة الجائعة تصبر غالبًا، فتدخل في نوبة صراخ حادّ تنتهي باستسلام آية وتمكينها من الزّجاجة!

خلال الأيّام الأولى، كانت تشفط اللّبن معظم الوقت،

وتجمعه في الزّجاجة ليكون «رضعة مشبعة». وكانت تبكي مع كلّ خيبة، وتناجي الطّفلة في استعطاف تطلب إليها أن تستجيب، وإذا ما استكانت في حضنها شجّعتها بعبارات هامسة. لم تكن رحلة الرّضاعة باليسر الذي توقّعته: أن تحصل على العلاج، وتضع الطّفلة في حضنها فترضع! كانت دون ذلك تحدّيات لا بدّ أن تخوضها. فحين بدأت آلاء تتجاوب معها، ظهرت مشكلات من صنف آخر: كانت الرّضيعة تحكم أسنانها الصّغيرة على صدرها وتعضّ بلا رحمة! وحين تصرخ ألمًا، تضحك البنت، فتلين ملامح آية وترمقها في عتاب. غير أنّ العضّات الصّغيرة المتكرّرة جعلت صدرها ينزف، لتضطرّ إلى الانقطاع عن الرّضاعة لأيّام، والاكتفاء بالشّفط.

كانت تدرك يومًا بعد آخر كم أنّه من الصعب أن تكون أمًّا! غير أنّ أفق آمالها لا حدّ له. حين يتعلّق الأمر بآلاء، فهي لا تدّخر جهدًا، وتعرف أنّ جهودها ستؤتي أكلها يومًا ما في المستقبل القريب.

إلّا أنّها لن تصبح بذلك القرب من صهيب أبدًا.

كانت أمامها سنوات معدودة قبل أن يشبّ الولد عن

الطّوق، ويخطو نحو المراهقة والبلوغ. حين يصل تلك المرحلة، سيكون شابّا أجنبيّا عنها. فكّرت بشكل استباقيّ: ربّما يكون من الأفضل أن تحافظ على مسافة بينها وبين الطّفل. لا تريد أن يكون لابتعادها المفاجئ أثر سلبيّ على نموّه واستقراره النّفسيّ. لم تكن لديه أمّ قطّ، ومن لم يجرّب لن يعرف طعم الحرمان. بوسعها أن ترعاه بلا تورّط عاطفيّ وتعلّق من جانبه، ولعلّه كان بحاجة إلى عمر أكثر ممّا هو بحاجة إليها.

لقد كانت متخوّفة من احتضان طفل في تلك السّنّ. ومعرفتها بتخلّي أسرته السّابقة عنه كانت تثير لديها تساؤلات كثيرة. ماذا لو كان طفلا صعب المراس؟ وكلّما غادر عمر المنزل وتركها وحيدة برفقة الطّفلين، طفت تلك المخاوف على السّطح، حتّى ينزّ جسدها عرقًا. لقد كانت وعمر وحيدين قبل تلك الآونة، لتصبح أمًّا لطفلين بين عشيّة وضحاها.

كانت آلاء رضيعة هادئة كثيرة النّوم، ولم يكن شأنها يثير قلقها. ولولا تحدّيات الرّضاعة لكانت حياتها بلا صعوبات. إلّا أنّ تلك الاختبارات التي تواجه الأمّهات غالبًا لا تثير ذعرها بقدر ما تعمّق إحساس أمومتها. برفقتها كانت تعيش أمومة

حقيقيّة، تواكب نموّ الطّفلة منذ البداية وتشكّل هويّتها وذاكرتها بنفسها. لم يكن عليها أن تقلق بشأن عقدها النّفسيّة وتجاربها السّابقة، على عكس صهيب.

خلال الأسابيع الأولى، بدا صهيب طفلا مثاليّا. كانت آية ترقبه بإعجاب ودهشة، وهو يرّتب سريره كلّ صباح، يجمع ألعابه في المساء، ينظّف المائدة بعد كلّ وجبة، ثمّ يقف أمامها في استقامة مبالغ فيها وهو يقول مقترحًا:

-هل يمكنني مساعدتك بشيء؟

فتبتسم في انشراح وهي تقول:

-اذهب للّعب الآن!

كانت تعيش مرحلة «شهر العسل» بمزاج يتأرجح بين الارتياح والتوجّس. لكنّ الطّفل كان يسهّل الأمر عليها. كان يعرف كيف يتحمّل مسؤوليّته الشّخصيّة. وهي كانت مرهقة ومستنزفة الطاقة بسبب صعوبات الرّضاعة، فلم تثر تلك المثاليّة حفيظتها.

لم تنتبه إلى هشاشة نفسيّته قبل تلك الحادثة.

كانا يتناولان وجبة الغداء، حين قام كعادته ليحمل الأواني إلى حوض المغسلة. وكانت آلاء قد تناولت وجبتها فتركتها تحبو على الأرضيّة المبلّطة. فجأة، تعثّر الولد وسقط الكوب الزّجاجيّ من يده ليتحطم مع ارتطامه بالأرض، وتتناثر الشّظايا في كلّ مكان. تركت آية مقعدها على الفور، وهرولت لتحمل آلاء بعيدًا عن الزّجاج. غير أنّها تأخّرت لثانية واحدة، فقد التقطت الرّضيعة شظيّة حادّة جرحت إصبعها فأخذ ينزف. هرعت آية بالبنت إلى الغرفة وجاءت بصندوق الإسعافات الأوّلية لتضمّد كفّها. كانت آلاء تبكي، فانشغلت آية بها تحاول تهدئتها. لم تنتبه إلى تعابير الولد الذي كان يطلّ على استحياء من خلف الباب الموارب، إلا حين انخرط في بكاء هستيريّ! كان ينتحب بصوت عالٍ ويكرّر بين شهقاته الملتاعة:

-أنا لم أقصد! لم أتعمّد ذلك! أنا آسف، أرجوك، أنا آسف!

لانت ملامح آية التي علاها الفزع لوهلة، واقتربت من الطّفل وقالت بهدوء:

-لا بأس يا صهيب. أعرف أنّك لم تقصد كسر الكأس. اهدأ الآن. هلّا جلست إلى آلاء حتّى أنظّف الأرضيّة؟

أومأ في استسلام وجلس على طرف السّرير يحتضن آلاء، وقد خفتت شهقاته، لكنّه لم يتوقّف عن البكاء. احتاج مزيدًا من الوقت حتّى يهدأ تمامًا ويطمئنّ إلى أنّ آية لن تعاقبه على فعلته الشّنيعة. غير أنّ نوبة الذّعر لم تكن قد انتهت حين رجع عمر من المكتب. استمع مرارًا وتكرارًا إلى اعتذارات الطّفل المخلصة والحارّة أثناء وجبة العشاء وخلال السّهرة، فهوّن عليه ورافقه كما اعتاد في أنشطته المسائيّة. وحين أنهى قراءة قصّة ما قبل النّوم، قبّل جبين الولد وغطّاه جيّدًا ثمّ همّ بالانصراف. فاجأه صهيب حين سأل بصوت هامس:

-هل ستعيدني إلى دار الرّعاية؟

اتّسعت عينا عمر في صدمة. عاد للجلوس على طرف السّرير وشدّ الطّفل إلى حضنه ثمّ قال:

-ليس عليك أن تقلق بهذا الشّأن أبدًا.. انتماؤك إلى هذه العائلة سيكون طول العمر! ليس هناك من سبب في العالم قد

يجعلنا نعيدك إلى دار الرّعاية.. أبدًا، هل فهمت؟

-لكنّني ارتكبت خطأ، جرحت إصبع لولو. لقد أعادوني من قبل، لأنّني كنت طفلا سيّء السّلوك.

اشتدّت ذراعا عمر حول جسد الولد الهزيل، وقال مداريًا ألمه:

-هذا لن يحصل! هل فهمتني؟ هذه عائلتك، إلى الأبد! العائلات لا تتخلّى عن أبنائها.

كان يحتاج أكثر من مجرّد إعلان لفظيّ ليثبت ذلك. لقد انتمى صهيب إلى عائلة من قبل، لكنّه تُرك رغم ذلك. كانت اعتقاداته عن العالم مشوّهة، والبالغون في نظره أوغاد غير جديرين بالثّقة. المشرفة في دار الرّعاية كانت تزجره وتضربه حين يسيء التّصرّف، تقبض سبابتها وإبهامها على أذنه مثل كلّابتين وتسحبه إلى ركن العقاب، والعائلة السّابقة أعادته بعد الكفالة، لأنّه كان ولدًا مشاغبًا، لا يذكر تمامًا تفاصيل إقامته عند تلك العائلة، لكنّ وصمة العار لازمته بعد ذلك لسنوات، كان طفلًا منبوذًا وغير مرغوب. وكان عليه أن يغيّر تلك النّظرة في عينيه تدريجيّا وبخطوات ثابتة.

***

تناهى إليها رنين بعيد، ملحّ ومألوف. سحبها الصّوت من عالم الأحلام بصعوبة. كانت تشعر بالإرهاق، ممّا جعل نومها ثقيلا على غير عادتها. فتحت عينيها في ضيق وحدّقت في الظلمة، ثمّ سرعان ما عاد الرّنين طويلا وحادّا. أزاحت ياسمين الغطاء وغادرت السّرير. حين خرجت إلى الرّدهة، قابلتها رنيم وهي تفتح عينيها بمشقّة. تبادلتا نظرات قلقة. ساعة الممرّ تشير إلى الثّانية صباحًا وبضع دقائق. من يمكن أن يكون الزّائر، في مثل هذا الوقت؟

لا إراديّا، استعادت ياسمين ذكرى المداهمات الأمنيّة التي كانت تحضر لأخذها في أوقات غير متوقّعة.. «زوّار الفجر». تسارعت نبضاتها وتسمّرت قدماها مكانهما. شعرت رنيم بارتباكها وأدركت على الفور ما يدور بخلدها. أشارت إليها في صمت أن عودي إلى الغرفة، ثمّ اتّجهت إلى الباب بخطوات جادّة، وقد طار النّوم عن جفنيها. التفتت لتتأكد من تحصّن ياسمين بالغرفة فألفتها تطلّ بحذر من فتحة الباب. همست مطمئنة:

-لا تخشي شيئا.. أنا محامية، هل نسيت؟

هزّت ياسمين رأسها وابتسمت. أخذت رنيم نفسًا عميقًا ثمّ أشرعت دقّة الباب و...

-مفاجأة!

نبع ذلك الهتاف المرح عن الفتاة العشرينيّة التي وقفت عند الباب، وإلى جوارها حقائب سفرها.

-رانيا؟

أطلّت ياسمين من مخبئها وردّدت باستغراب:

-رانيا؟

-مفاجأة، أليست كذلك؟

زمجرت رنيم في غضب وخبطتها على كتفها بقوّة، فصاحت رانيا في استنكار:

-ما الأمر؟ ألست مسرورة برؤيتي؟

جاءت ياسمين لتعانقها وهي تضحك:

-لقد أفزعتنا! ألا تعرفين أنّ الوقت متأخّر؟

أضافت رنيم في استياء:

-هذا طبع لن تتخلّى عنه. لا زلت أذكر قدومها المفاجئ منذ سبع سنوات!

جلسن سويّا على الأريكة وأخذن يستعدن في حنين ذكرى اجتماعهنّ لأوّل مرّة منذ سنوات خلت. ثمّ سألت رنيم بجدّية:

-ما الذي جاء بك هذه المرّة؟

اتّسعت ابتسامة رانيا وهي تقول:

-لقد تقدّمت بطلب للمشاركة في دورة اليونسكو للتّرجمة!

-هذا.. جميل! كم ستبقين؟

-ستّة أشهر!

ثمّ التفتت إلى ياسمين وقالت بحماس:

-سأبقى مع ياسمين، يمكنك الرّحيل متى شئت! شهاب والأطفال يشتاقون إليك.

عبست رنيم في ضيق. رغم تحسّن علاقتها برانيا في السّنوات الأخيرة، كانت تلك المشاغبة تعرف كيف تثير حفيظتها. قالت في امتعاض:

-كنت في حاجة إلى البقاء هنا على كلّ حال.. هناك مسألة تخصّ رسالة الدّكتوراه. أحتاج بعض الوقت لحلّ مشكلات عالقة مع إدارة الجامعة.

سألت ياسمين في اهتمام:

-هل كلّ شيء على ما يرام؟

شعرت بالذّنب لوهلة. لم تكن تولي اهتمامًا كبيرًا لما تفعله رنيم أثناء النّهار. ولم تكن رنيم تتحدّث كثيرًا هذه الأيّام.

لعلّها احترمت انشغالها بصحّة طفلها فلم ترد أن تزعجها بهمومها الشّخصيّة.

هزّت رنيم كتفيها وقالت في استهانة:

-أريد تغيير مدير البحث. إنّه رجل مزعج وكريه! لكنّ الجامعة تطلب حججًا ماديّة لتأييد الطّلب.. في الأثناء، العمل بيننا مستحيل! لذلك أشعر بأنّني عالقة...

-هذا.. سيء!

-حسنًا إنّه كذلك. في أسوأ الأحوال، قد أضطرّ إلى التخلّي عن البحث.. والبدء من جديد!

-وتخسرين سنتين من العمل؟ هذا ليس عدلًا!

تنهّدت رنيم وهي تستلقي إلى الخلف:

-أرجو أن أجد مخرجًا من هذا الوضع.

ران الصّمت على ثلاثتهن لثوانٍ، قبل أن تهتف رانيا:

-هل تلعبين لعبة؟

-عفوًا؟

-لنقرّر من تنام على الأريكة!

حدجتها رنيم بنظرة حادّة، ثمّ أشاحت بوجهها لتقول في تعالٍ:

-أنت تنسين أنّ الشقة شقّتي! إن أردت البقاء، فالأريكة لك!

ضحكت ياسمين وتحوّلت ضحكاتها إلى قهقهة. توقّفتا عن التّناقر لتحدّقا بها في استغراب. قالت بعد أن استعادت هدوءها:

-لقد أعدتماني إلى أجواء عائلة الشقة (٤٠٤) القديمة، وإلى المشاحنات والمناقرات.. حين كنّا خاليات البال، آخر همّنا من تنام على الأريكة!

سيطر على ثلاثتهنّ سكون رهيب، ثمّ تنهّدن في صوت واحد. لقد مضت تلك الأيّام إلى غير رجعة. لدى رنيم الآن

عائلة تجتمع بها في أوقات متباعدة، وبحث مزعج.. ولدى ياسمين طفل عليل يرقد في المشفى، ولدى رانيا مشوار مهنيّ محفوف بالتحدّيات.

فردت رانيا ذراعيها لتحتضن ياسمين ورنيم، فتشاركن عناقًا جماعيًّا حارًّا. همست ياسمين:

-سأنام أنا على الأريكة، اتّفقنا؟

سرعان ما ضججن بالضّحك بلا قيود.

***

كان يومًا صافيًا من أيّام الخريف. لم يكن الطّقس قد تحوّل إلى برودة الشّتاء اللاذعة، لكنّ ياسمين شعرت برجفة غريبة تسري في جسدها حين دلفت إلى قسم الأطفال. كانت قد مرّت على المختبر كما صارت تفعل كلّ يوم، تستطلع عن نتائج الاختبار. تحتفظ بالصّك في حقيبة يدها على الدّوام، تحسّبًا للظروف. وقد ورد الردّ المتوقّع ذلك الصّباح: لم يكن هناك توافق.

رغم ترقّبها الشّديد وتوقها إلى إيجاد متبرّع، فإنّها لم تشعر بالخيبة التي يفترض بها أن تزورها. ربّما كان تقبّل حسنة أيّ متبرّع أجنبيّ أهون من تلقّي مزيّة أخويها! لم يكن عليها أن تجزع، فسيجد عزّ الدّين متبرّعه في الوقت الملائم، وهي تأمل أن يكون ذلك قريبًا. مشت في وجوم وهي تكتب رسالة نصيّة إلى ريّان: يمكنك القدوم لاستلام الصّكّ.

حين خطت داخل القسم، كان المكان هادئًا. تعرف أنّ فرح ترافق أحمد إلى قسم العلاج الكيميائيّ غالبًا. وكان بعض الأطفال يجلسون في ركن الألعاب، يشاهدون الشّاشة في سكون. أجالت بصرها في المكان، ثمّ توقّفت عيناها على سرير ريبيكا. لم تكن الطّفلة تشغل مكانها. فكّرت للوهلة الأولى بأنّها قد تكون مع فرح تخضع لحصّة العلاج، لكنّها انتبهت إلى غياب حاجياتها. كان السّرير خاليًا ومرتّبًا بشكل يثير الرّيبة.

أوقفت ياسمين إحدى الممرّضات وسألتها:

-هل تعرفين، أين ذهبت ريبيكا؟

قالت الممرّضة في أسف:

-لقد ماتت الطّفلة أثناء اللّيل.

شعرت ياسمين بألم حادّ ومفاجئ يطعن صدرها. لقد وجدت ريبيكا متبرّعا: أختها التي لم تولد بعد، كانت لتهبها حبلها السرّي. كانت الزّراعة وشيكة، وكانت الطّفلة تتجهّز للعمليّة. لكنّ قدرها كان غير ذلك. كانت تحتاج أن ترى كاترينا في تلك اللّحظة، أن تأخذها بين ذراعيها وتخفّف عنها. لكنّ كاترينا لم تكن هناك. شعرت بعرق بارد ينزل على وجهها، ليمتزج مع العبرات السّاخنة التي أخذت تهطل بلا استئذان.

جلست إلى جوار عزّ الدّين الذي كان ما يزال يغطّ في النّوم، ثمّ احتضنته بقوّة. فتح الطّفل عينيه، وأخذ يسعل، فابتعدت عنه على الفور. قال عزّ الدّين بصوت ناعس:

-ماما، ما الأمر؟ كدت تخنقينني!

ابتسمت في اعتذار وهي تمسح وجنتيها بظهر كفّها:

-أنا آسفة يا حبيبي.. كنت في حاجة إلى حضنك.

-أنت حزينة؟

-نعم. أنا حزينة يا صغيري.

-إذن تعالي.

فتح الولد ذراعيه الصّغيرين، فوضعت رأسها برفق على كتفه. أخذ يربّت بلطف على ظهرها، ثمّ سأل بعد بضع ثوانٍ:

-هل تشعرين بتحسّن؟

أومأت في صمت ورفعت رأسها، فأضاف:

-يمكنك البقاء لوقت أطول إذا أردت.

-أنا بخير الآن.

كانت بحاجة إلى الاطمئنان إلى أنّه بخير. وللنّوم في حضنه سحر لا يقاوم. كان ينجح دائمًا في التّخفيف عنها ورفع معنويّاتها. التفتت حين تناهت إليها أصوات قادمة من الخلف. كانت سيسيليا وناتالي تعودان وهما تثرثران. التفتت ناتالي إلى ياسمين وقالت بأسف:

-هل سمعت؟ ماتت ريبيكا الليلة الفائتة!

أضافت سيسيليا بملامح يعتريها الحزن:

-هذا مؤسف!

ثمّ سرعان ما غيّرت الموضوع وانشغلت كلّ منهما بأمورها.

راقبت ياسمين الحركة الدّؤوبة في أنحاء القاعة. لم يتغيّر شيء. لقد ماتت ريبيكا، لكنّ الآخرين يقاتلون من أجل البقاء. الموت شيء طبيعيّ في قسم الأمراض المستعصيّة. لعلّ كلّا منهم قد عايش نصيبه من الحداد منذ شرع في التردّد على المستشفيات. كانت الممرّضات يعملن على تعقيم السّرير الشّاغر، استعدادًا لاستقبال مريض جديد على قائمة الانتظار. كان يومًا حزينًا بالنّسبة لكاترينا وزوجها، لكنّه يوم سعد لطفل آخر يترقّب فرصة الحصول على علاج.

-23-

ترجّل عمر من السّيارة، ثمّ ساعد صهيبًا على التّزول. حمل عنه حقيبته الثّقيلة وسار ممسكًا كفّه حتّى مدخل البناء الذي يرفرف فوقه العلم السويسريّ. اليوم يحقّق حلمًا آخر من أحلامه المستحيلة: أن يرافق طفله إلى المدرسة!

كان يرقب الآباء وهم يصحبون الصّغار إلى المدارس كلّ صباح. تعجّ بهم الطّرقات وتزدحم السيّارات في الشّوارع المتاخمة لمدرسة القرية. تشير لافتات السّرعة إلى ضرورة الإبطاء: مدرسة قريبة. كلّ تلك العلامات التي كانت تثير انقباضه في الماضي صار لها وقع عجيب. لقد صار كلّ هذا -بمعجزة- جزءًا من روتينه اليوميّ. يمتلئ اعتزازًا وهو يقبض على الأصابع النّحيلة ويمشي بخطى وئيدة في اتّجاه البوابة المشرعة. لقد تأخّر صهيب عن الالتحاق بالمدرسة لبضعة أسابيع، لكنّه يملك متّسعا من الوقت ليتدارك ما فاته.

شرحت ناظرة المدرسة:

-سيلتحق صهيب بفصل «استقبال» مخصّص للطلبة الجدد

الذين يجدون صعوبات تأقلم أو يحتاجون إلى متابعة خاصّة لإتقان اللغة. سيحصل على تأطير مناسب وسيكون كلّ شيء على ما يرام.

حين أراد عمر المغادرة، تمسّك صهيب بكمّه في استغاثة، فقالت الناظرة بلطف:

-يمكنك مرافقته إلى الفصل إذا شئت.

سار عمر على أثرها وأصابع الطّفل تتشبّث به في إصرار. همس حين وصلا إلى الفصل:

-ستذهب الآن إلى فصلك. ستتعرّف إلى أصدقاء جدد وتمضي وقتًا ممتعًا.. وفي المساء تحدّثني بكلّ شيء. اتّفقنا؟

همس الولد بصوت متحشرج:

-لا أحبّ هذا المكان.

-أعرف أنّك تشعر بالغرابة. هذا مكان جديد، وأنت لا تفهم ما يقال من حولك. لكن خلال وقت قصير ستتعوّد. أعدك:

إن لم تحبّ المدرسة خلال شهر واحد، سنبحث عن مدرسة أخرى. اتّفقنا؟

-شهر؟ كم يومًا يساوي الشهر؟

-أربعة أسابيع.. في كلّ منها خمسة أيّام دراسيّة.

-هذا كثير!

-حسنًا، سيكون من التسرّع الحكم على المكان في وقت أقصر. علينا أن نمنحه فرصة.

زمّ الطّفل شفتيه في استياء، ثمّ قال مستسلمًا:

-شهر إذن.

لوّح له عمر وتابعه وهو يمضي إلى مقعده في آخر القاعة. ابتسم وهو يرجع على عقبيه. سيكون مشغول البال طوال اليوم وهو في المكتب، يفكّر بما يفعله الطّفل في المدرسة بمفرده، وهو يواجه عالمًا جديدًا بما للكلمة من معنى: لغةً وحضارةً وثقافةً ومبادئ. إنّه يشفق عليه ممّا ينتظره. لقد

سافر هو إلى فرنسا في مرحلة الدّراسة الجامعيّة. كان يتقن الفرنسيّة، لكنّه لم يقدر على الاندماج. فكيف لطفل يافع بمواجهة مفاهيم مثل العنصريّة والتنمّر والهويّة والانتماء؟ يقولون أنّ الأطفال يتأقلمون بسهولة ويندمجون مع أقرانهم حتّى لو استعصت عليهم المفردات. إنّه يأمل أن يجد صهيب طريقه بيسر في محيطه السويسريّ، ويحبّ الحياة التي منحه إيّاها. خمّن أنّه يبدو مثل «أب حقيقيّ» وهو يفكّر في قلق بيوم طفله الأوّل في المدرسة، وكان ذلك وحده مبعث بهجة لا حدود لها.

غادر المكتب مبكّرا، ليصل أمام المدرسة قبل دقائق طويلة من انتهاء الدّروس. جلس وراء زجاج السيّارة يرقب أن تفتح البوّابة، ثمّ ترجّل ليتمشّى ببطء على الرّصيف. كان هناك بعض الأمّهات يتجاذبن أطراف الحديث عند رأس الشّارع وعدد قليل من السيّارات المتوقّفة على امتداد الطّريق أمام المدرسة. لم يكن الوحيد. تنهّد في ارتياح. هل كان يخشى أن تكشف لهفته حداثة عهده بالأبوّة؟

تهللت أساريره حين أبصر صهيبًا مقبلًا وعلى ظهره تتأرجح حقيبة ثقيلة مقارنة بكتلته الضّئيلة. وكان وجهه مكدودًا وشعره منكوشًا. استقبله بحضن حارّ، ثمّ أخذ عنه الحقيبة.

سأله في اهتمام بعد أن استقرّت بهما الجلسة داخل السيّارة:

-ها، كيف كان يومك الأوّل؟ هل تعرّفت إلى أصدقاء جدد؟

هزّ الطّفل كتفيه في صمت. حدجه عمر بنظرة طويلة ثمّ قال مبتسمًا:

-لا بأس إن كان اليوم الأوّل متعثّرا. ستكوّن صداقات في وقت لاحق.

تمهّل لثوانٍ ثمّ سأله من جديد:

-ألم تشارك الأطفال اللّعب في الفسحة؟

-كانوا يلعبون لعبة أجهلها.

-ماذا عن المدرّسة، هل كانت لطيفة؟

-حاولت أن أخبرها مرارًا بأنّني أريد الذهاب إلى الحمام، لكنّها كانت تبتسم ببلاهة وتقول شيئا لم أفهمه!

-آه، أنا آسف. كان يجب أن أعلّمك كيف تطلب الأشياء الأساسيّة. سوف نتدرّب على بعض العبارات في المساء، اتّفقنا؟ الذّهاب إلى الحمّام، طلب الماء.. وماذا أيضا؟

-أريد حلوى؟

ضحك عمر ملء شدقيه، وقال زاجرًا:

-هذا ليس من ضمن الحاجات الأساسيّة! ستحصل على الحلوى في المنزل. والآن، هل هناك طلب آخر؟

لم يردّ الطّفل على الفور، ثمّ قال فجأة وهو يحدّق بوجه عمر:

-هل لديك أصدقاء كثر؟ أنا لا أعرف كيف أكسب الأصدقاء.

خيّم السّكون عليهما لبرهة. خمّن عمر أنّه ليس الشخص المثالي لتقديم النّصائح بشأن الأصدقاء. لقد كان لديه صديق واحد خلال سنوات إقامته في فرنسا. يبدو لقب «صديق» بالنّسبة إليه نفيسًا إلى درجة أنّه لا يمكن أن يطلقه على كلّ المعارف الذين جمعته بهم علاقات مؤقّتة وسطحيّة.

وحده هيثم استحقّ ذلك اللّقب. حين يتعلّق الأمر بالعلاقات، فإنّ كلّ مرجعيّاته تقع في الماضي. كلّ الرّوابط القائمة في حاضره تبدو هشّة وسهلة الكسر. لذلك ما ينفكّ ينظر إلى الوراء، كأنّ وجدانه رهن الذّكريات.

انتبه إلى الولد الذي كان يحدّق في وجهه ينتظر إجابة. قال مبتسمًا:

-لديّ صديق عزيز، ابنه يصغرك بسنة وبضعة أشهر. هل تريد أن آخذك لزيارته؟

-هل يقيم في القرية؟

-لا. إنّه يعاني من مرض خطير، ويرقد في المستشفى. يمكننا أن نسافر بالقطار لرؤيته.

تردّد صهيب متفكّرا، ثمّ قال:

-طالما هو مريض، يمكننا عيادته.

-وربّما تصبحان صديقين!

-لا أدري. يبدو صغير السّن.

ضحك عمر ثمّ قال:

-اعتبره أخًا أصغر إذن!

هزّ الولد كتفيه وقال يجاريه:

-لا بأس بذلك! متى نذهب؟

فكّر عمر بأنّه لم يتّصل منذ أسابيع. لم يصله خبر بشأن عمليّة الزّرع. خمّن أنّ ياسمين لن تبادر بالاتّصال قطّ، إلّا إذا احتاجت شيئا. لعلّ عزّ الدّين يخضع للعلاج الكيميائيّ الآن في أحسن الأحوال -إذا كان قد وجد متبرّعًا- وربّما يخضع للعمليّة في القريب. لقد كانت ياسمين متفائلة في زيارته الأخيرة. كانا قد صارا أمام البيت، فترجّلا في صمت، وسارا إلى الدّاخل.

بعد العشاء، وقف عمر إزاء الجدار الذي انضاف إلى صوره إطار جديد يضمّ أربعتهم. كان قد أنهى تثبيته منذ لحظات. تطلّع صهيب إلى الصّورة بابتسامة حييّة. كانت تلك الصّورة

التي التقطها لهم المصوّر في ساحة دار الرّعاية قبل رحيله عن عمّان. وكانت أوّل إعلان لانضمامه إلى عائلة. أخيرًا أفرغ عمر بعض الوقت لتأطيرها وتعليقها! تنقّل بصره عبر الصّور التي ملأت المساحة في فضول. كان يمرّ أمام الجدار في غفلة قبل ذلك، والآن صار مثيرًا للاهتمام، ما دام يتعلّق الأمر بأفراد العائلة التي أصبح ينتمي إليها. توقّف بصره على صورة طفل يكاد يماثله سنًّا، يميّزه شعر سبط ولامع. قال:

-من هذا الولد؟

ابتسم عمر وهو يردّ:

-هذا هو ابن صاحبي الذي حدّثتك عنه!

لبث صهيب يحدّق في الصّورة، كأنّما يحفظ ملامح صاحبها.

قال عمر مقترحًا:

-ما رأيك بالسّفر لزيارته خلال الإجازة المقبلة؟ لديك عطلة لأسبوعين في منتصف الشهر القادم!

هتف صهيب في حماس:

-عطلة! بدأت أحبّ المدرسة الآن!

***

خضع أحمد لعمليّة الزّرع منذ يومين، وتمّ عزله عن بقيّة الأطفال في غرفة منفردة، حيث سيبقى أسبوعين إضافيين. بعد العلاج المكثّف، يكون مستوى مناعة الجسم في أدنى درجاته. في غياب الخلايا الدّمويّة، لا كريّات بيضاء للدّفاع ضدّ الجراثيم، ولا صفائح دمويّة لمنع النّزف. لم تر ياسمين فرح خلال اليومين الماضيين، ثمّ ظهرت في قسم الأطفال في اليوم الثالث. كانت ترتجف على غير عادتها. لم ترها بهذا القدر من العجز من قبل. ضغطت ياسمين على كفّها تشدّ من أزرها، فقالت:

-كنت دائمًا قريبة منه.. وكذلك كنت قريبة من لولا، حتّى في لحظاتها الأخيرة. لكنّني أنظر إليه الآن من وراء الزّجاج، ولا يسمح لي بالاقتراب من سريره. صغيري المسكين وحيد وضعيف. ولا أستطيع فعل شيء من أجله.

كانت تشغل يومها بالاتّصال بأطفالها الآخرين في كوالا لامبور. تتحدّث إليهم مطوّلا، أكثر ممّا فعلت في الشهور الماضية، وتجعلهم يتحدّثون إلى شقيقهم المعزول، يلوّحون له من الشاشة من وراء الزّجاج.

في غياب فرح ومن قبلها كاترينا، صارت أيّام ياسمين هادئة صامتة. لم تكن تميل إلى التّعاطي مع باقي الأمّهات. لم يحصل ارتياح بينهنّ. كانت تقرأ لعزّ الدّين قصصه المفضّلة، ثمّ تأخذه في جولة عبر الحديقة، تطعمه وجباته محاولة خلق جوّ من المرح، ثمّ تسمح له بقسط من الرّاحة، بينما تجلس إلى جواره وتقرأ بشكل متقطّع. تتلفّت مع أدنى صوت أو حركة، وتسرح نظراتها إلى البعيد لتحلّق مع أفكارها.

جاء ريّان منفردًا منذ يومين لاستلام الصكّ. وقف في حرج أمام قسم الأطفال المليء بالأوجاع وقال معتذرًا:

-آمل أن يكون طفلك بخير.. وأن يجد متبرّعًا.

هزّت رأسها في صمت لمجاملته السّطحيّة وتعاطفه الزّائف. أخذ الصّكّ الذي ينهي فصل الصّراع بين سارة ووالدها، ثمّ

انصرف مطأطأ الرأس.

-ياسمين!

التفتت إلى مصدر الصّوت، ثمّ وقفت على الفور وهبّت في اتّجاه كاترينا في لهفة. تعانقتا بحرارة، وتحدّثت كلّ منهما بلغتها، دون أن تستوعب شيئا ممّا تقوله الأخرى. لكنّ الملامح كانت تعبّر عمّا تعجز عنه الكلمات. واستها ياسمين لرحيل طفلتها، وبكت كاترينا مثل أم ثكلى ترثي فقيدتها. لم تكن فرح في الجوار ليشرح تطبيق التّرجمة على جهازها ما أغلق عليهما من عبارات.

ثمّ توقّفت كاترينا، وأشارت إلى بطنها. قالت بلغتها:

-«أمنين»..

وأشارت بسبابتها بشكل دائريّ. تساءلت ياسمين:

-غدًا؟

فوضعت كاترينا كفّها على بطنها المنتفخ وقالت:

-«تو يو»!

بدا ذلك مثل كلمات إنجليزية. كرّرت كاترينا:

-«تو عز الدين!».

استوعبت ياسمين ما كانت تقصده. اغرورقت عيناها بالدّمع، همست غير مصدّقة:

-أنت واثقة؟ تريدين التبرّع بالحبل السريّ لعزّ الدّين؟

بشكل ما، بدا أنّهما تتواصلان، رغم اختلاف اللّغة. في ملامح كاترينا مزيج من الحزن الرّقيق والعاطفة السّخيّة، وفي عيني ياسمين لهفة وحسرة وذهول للمعجزة التي تهفو إلى تصديقها. ضمّتها بقوّة حتّى تأوّهت، فتراجعت معتذرة، ثمّ قالت وهي تسحبها من كفّها:

-تعالي.. يجب أن نتحدّث إلى الدّكتور يوسف!

وقفتا أمام الطّبيب بملامح مشدودة. شرحت ياسمين بكلمات متلعثمة الوضع، ولبثت تترقّب ردّ الطبيب في تيقّظ.

شعرت بمرور عدوى التوتّر إليه. قال محاولا السّيطرة على حماسه:

-دعيني أتواصل مع الدّكتور بورجوا أوّلا. يجب أن نقيّم فرص النّجاح. دعونا لا نستبق الأحداث.

أومأت ياسمين في تفهّم. لا أحد يريد التسرّع ومداعبة أمل وهميّ.

غادر يوسف المكتب على عجل. كان يشعر بنوعٍ من الإثارة.. والتشفّي. لقد حاول الدّكتور بورجوا أن يسبقه إلى استخدام الآلة الجديدة من أجل حالة ريبيكا. المسكينة ماتت، وهو يتأسّف لأجلها، لكنّه قد استعاد الأولويّة الآن -إذا كان التّوافق جيّدا- وتخلّص من المنافسة. لم يتّجه إلى مكتب الدّكتور بورجوا مباشرة، بل عرّج على مكتب مدير مركز الأبحاث. كان واثقًا بأنّ بورجوا لن يتعاون بسهولة، لذا وجب الحصول على دعم المدير أوّلا. وقف يشرح الوضع بلهجة جادّة، حتّى إذا فرغ، انتظر تعقيبًا من المدير. تنحنح هذا الأخير ثمّ قال:

-هذا يبدو عادلًا، ما دام لم يعد لدى الدّكتور بورجوا

«حالة»، فيمكنك الحصول على ملفّ المتبرّع بالتّأكيد.

حثّ الخطو بلا انتظار نحو المختبر وطلب بلهجة آمرة:

-أحتاج نتائج التحاليل الخاصّة بالسيّدة كاترينا مالتو، والدة ريبيكا. حصلت على إذن من المدير للاطلاع على ملفّ المتبرّع. أريد دراسة التّطابق بينهما وبين المريض عزّ الدّين الأندلسي.

رقنت الفنيّة على جهازها، ثمّ قالت:

-سأوافيك بالنّتيجة خلال وقت قصير.

عاد يوسف إلى مكتبه وهو يكاد يطير بدل المشي. حين دخل، كانت ياسمين وكاترينا جالستين متجاورتين حيث تركهما. تنحنح ثمّ أعلن بلهجة مسرحيّة:

-يا سيّدات، لدينا توافق!

لم تفهم كاترينا كلمة ممّا قال، لكنّ تعابير وجهه كانت كافية لتدرك أنّه يحمل خبرًا سارًّا. ردّدت ياسمين وسط دموعها

وهي لا تكاد تصدّق:

-الحمد لله.. الحمد لله!

كل ما تلا ذلك كان ماراثونا من الاستعدادات الاستعجاليّة للشّروع في البروتوكول العلاجيّ. كانت ياسمين على وعي تامّ بما ينتظرها. لقد رأت أحمد وباقي الأطفال وهم يمرّون بتلك المراحل بتفاصيلها. لقد كانت تهرب بطفلها كي لا تواجه الألم الرّابض في كلّ جنبات جناح الأطفال، لكنّها مستعدّة لخوض التّجربة الآن. إنّها معركة حياة أو موت، مع مرض مستعصٍ وفتّاك.

خلال أسبوع واحد، بدأ عزّ الدّين حصص العلاج الكيميائيّ. في الأثناء، بلغها أنّ كاترينا قد وضعت طفلتها. تكفّل الدّكتور يوسف باستلام الدّم المتبرّع به وتجميده في انتظار استخلاص الخلايا الجذعيّة بالآلة الحديثة. طمأنها مثل عادته في زيارته الرّوتينيّة:

-نحن على المسار الصحيح. قريبًا سيصبح كلّ هذا وراءنا. تحلّي بالشّجاعة!

أخذ شعر عزّ الدّين يتساقط. كلّ يوم، تجد خصلا رماديّة لامعة على وسادته. ينقبض صدرها لمرآها، لكنّها تتذكّر نكتة فرح عن شعر طفلها الأبيض، فتبتسم. عليها أن تتعلّم منها التفاؤل. وكانت فرح تطلّ عليها من حين لآخر، لتمدّها ببعض من رباطة جأشها. كان أحمد يتماثل للشّفاء. قالت في حماس:

-قريبًا يغادر غرفة العزل. حين أقدر على ضمّه بين ذراعيّ، سأتأكد بأنّه قد أصبح بخير أخيرًا!

تتشابك أصابعهما وتشدّ إحداهما على كفّ الأخرى تستمدّ منها الطّاقة. ما مرّت به فرح بالأمس تخوض ياسمين معتركه اليوم. وغدًا يأتي دورها لتضمّ ولدها معافى. تبتهل بأن يأتي ذلك اليوم قريبًا.

كان عزّ الدّين يضعف باستمرار، بتأثير العلاج، يمرّ بالمراحل ذاتها التي راقبت ظهورها على أحمد وريبيكا. تحاول ألّا تجزع، لكنّ ألمه ينخر صدرها. هذا ألم ضروريّ، ألم يظهر من بعده ضوء في آخر النّفق المظلم.. ألم مثل ألم الولادة، يرجع بعده خاليًا من المرض. مثل تخلّق الفراشة من الشّرنقة.

-24-

شرع صهيب في التهرّب من الذّهاب إلى المدرسة.

كان من الطّبيعيّ ألا يتحمّس في الأيّام الأولى، لكنّ أسابيع مرّت، ولم يبد أنّ الولد يتأقلم كما يفترض به أن يفعل. حين أيقظه عمر ذلك الصّباح، قال الولد بلهجة باكية:

-هل يمكنني ألا أذهب إلى المدرسة اليوم؟

حدّق فيه عمر في شكّ، ثمّ سأل:

-هل كلّ شيء على ما يرام؟

-لا أريد الذّهاب اليوم. أرجوك، هل يمكنني البقاء؟ فقط اليوم!

لم يستجب له في المرّة الأولى. لكنّ تكرار الطّلب بشكل ملحّ كلّ صباح، جعله يشعر بالقلق إزاء الصّحة النّفسيّة للطّفل. حين بكى صهيب بدموع حارّة، أدرك أنّ الأمر

جلل، فسمح له بالبقاء في البيت ذلك اليوم. قال لآية التي اعترضت بعبوس:

-سنحاول فهم الصّعوبات التي يواجهها في المدرسة، لكن من الصحيّ أن يشعر أنّنا في صفّه ونحميه. يوم واحد بلا مدرسة لن يصنع فرقًا.

كان رأي آية مختلفًا. التّنازلات في المسائل الضّروريّة ستوحي بعدم وجود قواعد ثابتة. إن كان بوسعه التغيّب عن المدرسة اليوم بدون سبب وجيه، فستنهار منظومة الالتزام بروتين الدّراسة في لا وعيه. لم يقتنع عمر، وهي لم تلحّ، فحظي صهيب بيوم استراحة.

كانت لويزا تأتي بشكل يوميّ للاهتمام بشؤون المنزل. ورغم تبرّم آية من دخول امرأة غريبة واطّلاعها على عورات بيتها، فإنّها تقبّلت خدماتها بامتنان منذ مجيء الطّفلين. كانت آلاء تستهلك الكثير من وقتها، ولم يكن من الممكن أن تحافظ على منزل مرتّب ونظيف طيلة الوقت في ظلّ انشغالها المستمرّ. وحين تدخل آلاء في نوبات بكاء طويلة بسبب ألم التّسنين، كانت تترك للويزا مهمّة رعاية صهيب.

زار عمر المدرسة ذلك الصّباح ليطمئنّ إلى أحوال الولد. كانت النّاظرة متفائلة بشأنه. قالت أنّ استيعابه للدّروس جيّد، ولغته الفرنسيّة في تحسّن مستمرّ. كان من الطّبيعيّ أن يعاني بعض الصّعوبات، لكن لا شيء يدعو إلى الانشغال في هذه المرحلة. كان ينبغي الانتظار لشهور قبل أن يشرع في القلق.

لم تسفر زيارته إلى المدرسة عن نتيجة تذكر. لم يكن هناك ما يفسّر عزوف الولد عن الدّروس.

في المساء، جلس عمر يحدّثه عن ولد في مثل سنّه، يحبّ المدرسة، ويعيش في كلّ يوم مغامرات مسلّية. قال صهيب معلّقًا في حسرة:

-لا شكّ أنّ المعلّمة تحبّه، وهو يعرف كلّ الإجابات!

حدّق عمر في ملامح الطّفل الحزينة ثمّ قال:

-لا أعتقد أنّ هناك طفلًا يعرف كلّ الإجابات! ثمّ، ما الجدوى من المدرسة، إن كان يعرف كلّ شيء مسبقًا؟ أليس يذهب إلى الدّروس ليتعلّم؟

-لكنّ الجميع يحبّ الطالب المتميّز. إنّه يحصل على الحلوى كلّ يوم!

قال عمر بابتسامة:

-هل تريد الحلوى إذن؟

قال صهيب في حرج:

-هل ستغضب إذا كانت نتائجي المدرسيّة سيّئة؟

-لا!

-حقّا؟

-أعدك. لن أغضب أبدًا، مهما كانت النّتيجة!

شعر بارتياح الطّفل، وهو يرسل نفسًا طويلًا، فقال عمر:

-إذن تذهب إلى المدرسة غدًا؟

تمتم صهيب دون حماس:

-لا بأس.

قال عمر وهو يفضي إلى آية ذلك المساء باستنتاجاته:

-الولد يفتقر إلى الإحساس بالأمان. إنّه يحاول أن يثبت باستمرار جدواه، وحين يشعر بتقصيره ينكمش ويخاف. لعلّه يعتقد أنّ مكانته في العائلة مهدّدة إذا لم تكن نتائجه المدرسيّة متميّزة!

تنهّدت آية ولم تعلّق. ينتابها إحساس كئيب من حين إلى آخر بأنّها ليست أمًّا جيّدة! الطفل الأصغر سنًّا يجبرك على الاهتمام به، لأنّه يعبّر عن احتياجاته بالبكاء، لكنّ الطّفل الصّامت لا يحصل على الرّعاية التي يستحقّها، لأنّه يبدو ناضجًا ومكتفيًا. كانت تشعر باستمرار بالتّقصير تجاه صهيب، تتجاذبها رغبة في الاقتراب من عالمه، وخوف من تعلّقه بها. وفوق ذلك، فإنّ آلاء تلتهم كلّ وقتها، وبالكاد تجد مساحة للولد.

ثمّ هناك المدوّنة الإلكترونية!

في البداية، كانت تدخل مواقع التّواصل لتطّلع وتستفسر عمّا يغلق عليها من شؤون الرّضيعة. ثمّ فكّرت في تقديم الإفادة لمن يعيش تجربة مماثلة، فأنشأت مدوّنتها الخاصّة بالاحتضان. كانت تحرص على مشاركة يوميّاتها مع آلاء، وكلّ التّفاصيل الصّغيرة التي تكتشفها برفقتها، عن الرّضاعة الطّبيعية والوجبات الصحيّة الأولى ومشكلات الرّشح والطّفح الجلديّ وأنواع الإفرازات الجسديّة، بالإضافة إلى مواعيدها لدى طبيب الأطفال ومختصّ جراحة القلب.. كان يفترض بالطّفلة أن تخضع للجراحة حين تبلغ السّنتين، وتلك الزّيارات الدّوريّة كانت للاطمئنان إلى بقاء الوضع تحت السّيطرة في انتظار التدخّل الجراحيّ.

تلك المدوّنة كانت متنفّسًا من ضغط الحياة اليوميّة. كانت تستمتع بتدوين مقالاتها المرفقة بصور الصّغيرة، ثمّ مطالعة التّعليقات والتّساؤلات والردّ عليها.

من حسن الحظّ أنّ لويزا موجودة. لعلّها تمضي وقتًا برفقة صهيب أكثر ممّا تفعل. كانت تلك حقيقة. أصبحت تعتمد على العاملة أكثر من أيّ وقت مضى. وكلّما احتاجت إلى الانقطاع عن أعبائها المستجدّة والتّرويح عن نفسها، تركت الطّفلين برفقة السّيدة البرتغالية التي باتت تعتبرها واحدة من أفراد

العائلة. لم يكن بالجوار أحد تعتمد عليه غيرها، في ظلّ اغترابها وتباعد المسافة مع العائلة الموسّعة.

تجهّزت للخروج إلى التسوّق تلك الظّهيرة. لقد اتّصل والدها منذ يومين وأعلن زيارته القريبة. لم يكن قد التقى حفيديه بعد لتوعّك صحّته، ومجيئه مناسبة تستحقّ الاحتفال. أمامها استعدادات كثيرة، فهي نادرًا ما تستقبل زوّارًا، وكان يجب أن تقتني لوازم الوجبات التي يحبّها. كانت لولو قد خلدت إلى النّوم منذ قليل، بينما جلس صهيب ينسخ نصّ القراءة على مهل. قالت بابتسامة:

-هل تريد أن أحضر لك شيئًا من المتجر؟

هبّ صهيب واقفًا وقال:

-هل تخرجين؟

-أحتاج بعض الأدوات من المتجر. سوف تأتي لويزا خلال وقت قصير.. وأنا لن أتأخّر.

قال على الفور:

-هل يمكنني مرافقتك؟

حدّقت فيه في دهشة. لم يكن صهيب قد تقرّب منها من قبل، وكانت تلك بادرة مفاجئة منه. لكنّها قالت بلطف:

-أنهِ فروضك أوّلا.. وسأحضر لك معي هديّة. ماذا تريد؟

-أريد مرافقتك!

كان في عينيه رجاء غريب وإلحاح غير متوقّع. استدارت حين تناهى إليها صوت الباب يفتح لتدلف لويزا. قالت تخاطبها:

-شكرًا لمجيئك في هذا الوقت لويزا. سأغيب لساعتين.

ثمّ عادت إلى صهيب لتقول:

-انتهِ من أعمالك الدّراسيّة، ثمّ سنأكل المثلّجات معًا حين أعود. اتّفقنا؟

بدت على ملامحه الخيبة وهو يجرّ قدميه في امتعاض

ليعود إلى طاولة غرفة الطّعام، حيث كان يحلو له غالب الوقت العمل. جمع حاجياته بسرعة ثمّ انسحب إلى غرفته. تابعته آية بنظرات مندهشة. هل كان الخروج مهمّا إلى تلك الدّرجة؟ همّت تناديه وتدعوه إلى مرافقتها، لكنّها تراجعت. كانت تحتاج إلى تلك الفسحة القصيرة بعيدًا عن المنزل والأطفال، حيث تنفرد بأفكارها. لن يحصل شيء للطّفل، سيكون بخير.

***

أمسك عمر الكتاب واستلقى إلى جانب الطّفل يشاركه وسادته. قرأ بلهجة مضحكة وجعل الولد يقهقه في مرح. كان يعاين في قلق خبوّ الألق في عينيه وذبول روحه، فيحاول بشتّى الوسائل أن يحسّن مزاجه خلال الأوقات الخاصّة التي يمضيانها معًا حين يرجع من العمل.

حين أنهى عمر قصّة ما قبل النّوم واستعدّ للانصراف، سأل صهيب فجأة بصوت هامس:

-عمر، ما معنى «bâtard»؟

التفت عمر إليه في صدمة وسأله بحاجبين معقودين:

-أين سمعت هذه الكلمة؟

هزّ صهيب كتفيه وقال متهرّبًا:

-لا أذكر.. ربّما في التلفاز...

قال عمر بلهجة جادّة:

-هذه كلمة نابية، لا تكرّرها.. وأيّا كان من قالها فهو شخص سيّء، لا تتحدّث إليه ثانية! ولا تشاهد هذا النّوع من البرامج مرّة أخرى، اتّفقنا؟

أومأ صهيب في استسلام. فقبّل عمر رأسه ثمّ أطفأ النّور ليغادر الغرفة. لكنّ القلق بداخله لم يهدأ. كان إحساس رهيب بالضّيق قد تملّكه. لا يمكن أن يكون السّؤال مجرّد فضول! كان يسعه أن يتخيّل مواقف لا حصر لها قد تجعل الولد يواجه تلك الكلمة، لكنّ أيّا منها لم يكن بريئًا ولا لطيفًا.

حين انفرد عمر بآية قبيل الخلود إلى النّوم، قال في قلق:

-أعتقد أن صهيب يتعرّض إلى التنمّر في المدرسة!

التفتت آية في انتباه وسألت:

-هل شكا لك صهيب؟

-لم يقل شيئا بشكل مباشر.. لكنّه سألني عن معنى كلمة «لقيط»! أظنّ أنّ أحد الأطفال نعته بهذه الصّفة!

-يا إلهي!

تريّثت آية ثمّ قالت:

-كلّ الأطفال معرّضون للتنمّر في المدرسة. لا ينبغي أن نبالغ في حمايته، وعليه أن يتعلّم كيف يدافع عن نفسه ويردع من يحاول الاعتداء عليه...

-لكن هذا الأمر حسّاس بالنّسبة إليه. كان يجب أن أشرح له أنّ وضعه مختلف. إنّه ليس لقيطًا بأيّ حال! وسأتحدّث إلى مديرة المدرسة أيضًا.. يجب أن تتعامل بجديّة مع حالات التنمّر!

في الغد، زار عمر المدرسة مرّة أخرى وتحدّث إلى النّاظرة، فاستمعت إليه في تفهّم وحرص، ووعدت بالنّظر في احتمال تعرّض الولد للتنمّر. وحين اصطحبه في نهاية الدّوام، تحيّن لحظة هدوء ليشرح له باستفاضة:

-الكلمة التي سألتني عنها بالأمس، تعني «من لا نسب له»، أو مجهول الأصل، وهذا على كلّ حال ليس ذنبًا يخجل منه صاحبه. فمن تخلّى عنه والداه لم يرتكب إثمًا، ومن لم ينسبه والده إليه لأي سبب كان لم يقترف جرمًا.. لكنّ النّاس يحمّلون الطّفل ذنب الكبار! وبعد هذا، فعليك أن تعلم أنّك لست مجهول النّسب بأيّ حال! أنت يا بطلي صاحب نسب يدعو إلى الفخر. أبواك شهيدان، ومن قد ينعتك بهذه الكلمة لا يعرف أصلا معنى الشّهادة. وكون نسبي ونسبك مختلفين لا يعني أنّنا لسنا عائلة واحدة. لذلك فلتكن فخورًا بوالديك اللذين أنجباك.. ويمكنك الاعتماد على أبويك اللذين يرعيانك! وإن تجاسر أحد على السّخرية من هذا الشّأن فلتردّ عليه بكلّ فخر!

أنصت صهيب في صمت، ثمّ أضاءت قسماته وابتسم.

***

لاحظت آية للمرّة الثانية أنّ صهيبًا يرفض البقاء في المنزل في غيابها. حين وصلت لويزا لمراقبة الطّفلين، لمحت كيف انكمش على نفسه ثمّ اختفى داخل غرفته. تمهّلت آية لتقدّم توصياتها للعاملة مثل العادة، ثمّ نظرت في حيرة باتّجاه جناح النّوم. تنهّدت ثمّ سارت إلى غرفة الطّفلين. وقفت عند الباب تراقب الولد الذي استلقى على بطنه فوق سريره وأخذ يتصفّح قصّة مصوّرة. اقتربت حتّى جثت عند رأسه وسألته في ودّ:

-ألا تحبّ لويزا؟

هزّ رأسه بقوّة علامة النّفي، فرفعت حاجبيها دهشة:

-هل تسيء معاملتك؟

توقّف صهيب وأخذ يطالعها بنظرات ارتياب، كأنّه يقرّر إن كان سيفضي إليها بما يعتمل في صدره، ثمّ ما لبث أن هزّ كتفيه في لا مبالاة، وعاد إلى قصّته. تابعته بعينيها في شكّ. يمكنها أن تفترض أنّ الطّفل يعاني من بعض الحساسيّة تجاه

الأغراب، ويمكنها أيضًا أن تأخذ الأمر بجدّيّة أكبر.

دخلت غرفة النّوم، تناولت من الدّرج هاتفًا قديمًا كانت تحتفظ به، شغّلت مسجّل الصّوت، ثمّ سارت بهدوء إلى غرفة المعيشة. تلفّتت حولها في حرص. كانت لويزا تجالس لولو في الشّرفة. في غفلة من العيون، دسّت الهاتف خلف الكتب المتراصّة في المكتبة، ثمّ قالت بصوت عالٍ:

-سأذهب الآن!

لوّحت لها لويزا مودّعة، ولم يصلها صوت من صهيب.

حين رجعت بعد ساعتين، تسلّلت برفق إلى الصّالة الهادئة. قالت لويزا هامسة بابتسامة:

-لولو نائمة!

أومأت آية شاكرة. انتظرت حتّى جمعت العاملة حاجياتها وانصرفت، ثمّ مدّت كفّها خلف الكتب واستخرجت الهاتف الذي نفدت بطّاريّته! لم يكن مشحونًا بالقدر الكافي. وصلته بالشّاحن وترقّبت. رجت في صمت أن يكون التّسجيل كافيًا

ليمحّص شكّها إقرارًا أو تفنيدًا. حين أضاءت الشّاشة مرّة أخرى، شغّلت التّسجيل على الفور واستمعت في انتباه. كان الهدوء مسيطرًا لبعض الوقت. لم يكن هناك ما يثير الاهتمام. ثمّ تعالت بعض الأصوات. أنصتت آية لدقائق، وكانت عيناها تتّسعان عجبًا، ثمّ صدمة. حين فرغت من الاستماع، كانت دقّات صدرها تتسارع وأنفاسها مضطربة. وضعت كفّها على فمها لتمنع نفسها من الصّراخ. كان يجب أن تعرف. وكان يجب أن تخبر عمر.

حين وصل عمر، لمح على الفور علامات القلق على وجهها. همست وهي تسحبه إلى غرفة النّوم:

-يجب أن نتحدّث!

تبعها وقد انتقلت إليه عدوى القلق:

-ما الأمر؟

قالت حين انفردا بعيدًا عن الطّفلين:

-إنّها لويزا!

وضعت بين يديه الهاتف، ثمّ شغّلت التّسجيل. بعد ثوانٍ، ارتفع صراخ المرأة بشكل مفاجئ. لم يكن عمر قد سمع صوتها عاليًا بذلك الشّكل من قبل! في مدّة عملها لديه التي استمرّت زهاء السّنتين، كانت لويزا مثالا للعاملة الجادّة والهادئة. لكنّها كانت تصيح بشكل هيستيريّ تجاه صهيب. في الخلفيّة، كان يسمع بكاء آلاء، ثمّ صوت لويزا وهي تقول بعد أن أصبح صهيب أمامها:

«أسكت الطّفلة، أسكتها الآن! لقد كنت في غنى عن هذا.. في آخر عمري أصبح مربّية وحاضنة! هذا ليس من شأني، إن كان السّيّد يريد أن يربي لقيطين في بيته فما ذنبي أنا؟ أنت أيّها اللّقيط، تحرّك! أسكتها، لا أريد أن أسمع صراخها بعد الآن!».

استمرّت وصلة التذمّر الشّرس بينما لم يكن صوت صهيب يسمع على الإطلاق. تباعد صوت بكاء آلاء بعد ذلك حتّى اختفى. بدا أنّ صهيبًا قد رافقها إلى الشّرفة أو غرفة نومهما. التفت عمر إلى آية في ذهول. بدا كلّ شيء واضحًا الآن. لم يكن الولد يتعرّض للتنمّر في المدرسة، لكنّها لويزا!

قالت آية في وجوم بعد أن توقّف التّسجيل:

-ماذا نفعل الآن؟

-سوف نستغني عن خدمات لويزا، هذا مؤكّد! نحن نستخدمها لرعاية الطفلين وليس لترويعهما!

-بالتّأكيد.. لكن ماذا عن صهيب؟ ماذا سنفعل بشأنه؟

-هل تتوقّعين أنّه يحتاج إلى متابعة نفسيّة؟

-حين سألته إن كانت لويزا تسيء معاملته، لم يقل شيئا!

-لعلّه كان خائفًا منها...

-إنّه لا يشعر بالاطمئنان. ربّما يعتقد أن شكواه قد تجعلنا نتخلّى عنه! يريد أن يكون ولدًا مطيعًا وهادئًا وألّا يسبّب المشكلات.. لعلّه لم ينس أبدًا تجربته السّابقة!

غطّت آية وجهها بكفّيها وقالت في حزن:

-وأنا التي رفضت مرافقته لي إلى السّوق، وحسبته دلالا!

ربّت عمر على كتفها وقال مواسيًا:

-لكنّك اكتشفت الأمر.. وهذا هو الأهمّ!

حين جاءت لويزا صباح الغد، كان عمر في انتظارها. دعاها إلى مكتبه، فتبعته في توجّس.

قال بلهجة جادّة:

-لويزا، منذ متى بدأت الخدمة في هذا البيت؟

-منذ سنتين يا سيّدي؟

-وهل أنت راضية عن المعاملة التي تحظين بها؟

-كلّ الرّضا يا سيّدي!

-وهل ندفع لك ما يكفي؟

-أشكر لكما كرمكما يا سيّدي!

-إذن، لماذا فعلت هذا؟

تجمّدت ملامح السيّدة الخمسينيّة وتمتمت في تلعثم:

-ماذا فعلت؟ هل حصل شيء يا سيّدي؟

-لماذا تعاملين الطّفل بقسوة؟ لماذا تؤذين نفسيّته الهشّة أساسًا؟

اندفعت تدافع في حرارة:

-كلّ ما يقوله كذب! الأطفال يؤلّفون حكايات من الخيال لا أصل لها، أقسم لك أنّني لم أفعل شيئا!

تنهّد عمر وهو يشغّل التّسجيل على الهاتف، فشحبت ملامح لويزا وغارت عيناها في فرَق. بعد بضع ثوانٍ، أوقف عمر الهاتف في ضيق، ثمّ دفع باتّجاهها ظرفًا أبيض وهو يقول بلهجة جافّة:

-هذه مستحقّاتك لدينا. من المؤسف أن ينتهي التعامل بيننا بهذا الشّكل.

التقطت لويزا الظّرف دون أن ترفع عينيها إلى عمر، ثمّ انسحبت بخطواتها الرّتيبة التي لا وقع لها، وغادرت المنزل بلا رجعة.

-25-

دخلت زهور الغرفة بهدوء، وضعت صينيّة الطّعام على المنضدة ثمّ استدارت لتنصرف دون أن تنطق بكلمة واحدة. قال كمال يستوقفها:

-هل اتّصلت ياسمين؟

قالت دون أن تنظر إليه:

-سأجعلها تتحدّث إليك إذا اتّصلت.

-هل خضع عزّ الدّين لعمليّة الزّرع؟

-ليس بعد. ربّما يكون ذلك في القريب.

كانت تتحدّث بدون حماس، ووجهها يلتفت إلى الباب. قال كمال معتذرًا:

-أعلم أنّك لا تطيقين وجودي هنا. سأحرص على دفع

مستحقّاتك حين أستلم أموالي.

قالت في تذمّر:

-لا أريد منك مالا. فقط تعاف وارجع إلى حيث تنتمي.

ثمّ مشت بسرعة حتّى لا يستوقفها من جديد. خرجت بفم مقبوض وحاجبين معقودين، فقابلت زوجها عند الباب. سألها في قلق:

-هل ضايقك كمال؟ أنت لست مجبرة على خدمته. في المرّة المقبلة، دعيني أدخل له صينيّة الطعام.

زفرت وهي تشيح بوجهها، ثمّ قالت:

-لولا أنّني لا أريد لياسمين أن تحمل همّه هذه الأيّام، لكان لي معه تصرّف آخرا!

-فلنتحمّله لبعض الوقت، إكرامًا لياسمين. ما فيها يكفيها.

-لكنّني لا أنسى أبدًا ما فعله بفاطمة!

-ولا أحسب ياسمين تفعل.. لكنّ الظرف يقتضي بعض المرونة.

تأفّفت من جديد، ثمّ مضت لشأنها.

داخل الغرفة، كانت ملامح كمال تتغضّن وتعبس. لم تفلت كلمة واحدة من سمعه. إنّه يفهم ويعي كلّ ما قيل. أصبح أكثر تيقّظا في الأسابيع الأخيرة. ينصت إلى كلّ حركة في الدّار ويترصّد الأخبار. كان يهمّه أن يعرف ما يحصل مع ياسمين وطفلها، لكنّ أحاديث أخرى كثيرة تطرق مسامعه. عبارات تنزلق بعفويّة على الألسن، تصفه أو تشير إليه، تتذمّر من عبء وجوده في الجوار، وتتساءل بنفاد صبر: ألا يستطيع المشي بعد؟ متى يمكنه المغادرة؟

دفع قدميه حتّى تدليتا على جانب السّرير، ثمّ اتّكأ على عكّازه وخطا برفق. كان قد شرع في التدرّب على المشي بمفرده منذ فترة قريبة. مثل طفل يتعلّم كيف يستكشف العالم على قائمتين. بعد سفر ياسمين، افتقد رعايتها ورحابة صدرها، وانقطع عن حصص إعادة التأهيل الحركي التي كانت ترافقه إليها. لم يكن أهل الدّار يعاملونه بنفس كرم الخلق وطيب النّفس. إنّهم يتحمّلونه رغم ذلك، ولا شيء

يجبرهم. لكنّه دخيل على المكان، لا ينتمي إلى القرية ولا يمتّ إلى أيّ منهم بصلة. وكان عليه أن يرحل في أقرب فرصة. كمال عبد القادر كان عزيز نفس وصاحب كرامة، وكذلك كان سامي كلود. وحياة الهوان تلك لا تليق به. يستمرّ يتحرّك ببطء عبر مساحة الغرفة الضّيقة، فإذا ما آلمته أطرافه استراح قليلا، ثمّ قام بهمّة يستأنف المسير.

***

غادرت رانيا البناية بخطوات واثقة. كانت في كامل زينتها في يومها الأوّل من التّدريب: تسريحة شعر جذّابة، نظارات شمسيّة جديدة، وحذاء طويل يصل إلى ما تحت ركبتيها. قبل أن تمضي في طريقها إلى محطّة المترو، توقّفت لتلقي نظرة متفرّسة على جانبي الشّارع. حين لم تلمح أحدًا، داخلها إحساس بالخيبة. ليس أنّها كانت على موعد مع أحد. لكنّها تترقّب ظهور بعض الوجوه المألوفة. لعلّها تجمّلت من أجل موعدها الوهميّ. لكنّها لن تعترف بذلك حتّى بينها وبين نفسها.

ركبت المترو حتّى الدّائرة السّابعة حيث مبنى «دار اليونسكو»، ثمّ مشت باتّجاه مكتب الاستقبال. حصلت على

بطاقة التّدريب الخاصّة بها، ثمّ تعرّفت إلى فريق العمل. أمضت النّهار في مكتبة اليونسكو المدهشة، حيث انغمست بسرعة في انتقاء المراجع الخاصّة بمقالها. «بناء مجتمع المعرفة» كان موضوعًا ملهمًا وواسع الآفاق في آن. كان من اليسير أن تنكبّ لساعات على العمل دون ملل.

حين وصلت إلى شارعها، كانت السّاعة قد تجاوزت السّادسة مساءً. لم تعد تسريحتها منتعشة وبشرتها نضرة مثل الصّباح. كانت تجرّ قدميها بإهمال وهي تسير في اتّجاه البناء. لكن ما إن لمحت شبح الشابّ المتّكئ على الجدار قرب المدخل، حتّى تسارعت نبضاتها. غير أنّها لم تتسرّع بالاستنتاج. حدّقت في هيئته بانتباه. هل يكون تغيّر إلى تلك الدّرجة؟ رفع رأسه عن هاتفه حين انتبه إلى حضورها، وقال:

-مرحبًا أيّتها الجميلة!

حين بلّغت ميار باعتزامها العودة إلى باريس في القريب، توقّعت أن تنقل إليه الخبر. كانت ميار على اتّصال دائم بشقيقها، ولم تكن صلتها بها أقلّ وثاقة. غير أنّها لم ترها منذ سنتين.. منذ رحلت إلى إسطنبول. لكنّها زارت أخاها في فرنسا السّنة الماضية. وهذا يجعله ربّما أقرب إليها ممّا كانت

هي عليه.

لقد ترقّبت رؤيته ذلك الصّباح. ما الذي جعلها تعتقد حضوره فور انتقالها إلى باريس؟ لقد حسبت لوقت طويل أنّها قد طوت تلك الصّفحة. وجدير بها أن تفعل. إنّها تزداد ثقة في هذه اللّحظة بالذّات أنّها قد فعلت الصّواب حين قطعت حبل التّواصل معه. إنّ الشابّ الذي يقف أمامها -عدا كونه يعيد إليها أحاسيس مراهقة سخيفة- لا يثير اهتمامها أو إعجابها على الإطلاق. هل حسبت أنّ سنتين ستغيّرانه، فينضج؟ لعلّه قد تغيّر.. لكن إلى الأسوأ. القلادة التي تتدلّى على صدره، والبنطال الذي يسقط حزامه حتّى أعلى فخذيه، بالإضافة إلى عبارات الغزل الوقحة التي تلفّظ بها كانت توحي بذلك. ندمت بسرعة لأنّها انتظرت أو أملت حضوره. قالت في ضيق:

-كزافيي.. ما الذي جاء بك؟

قال بابتسامة جانبيّة:

-ألم يكن هذا ما أردته حين أعلمت ميار بعودتك إلى باريس؟

كرهت نفسها في تلك اللّحظة، وكرهت أن تعبّر كلماته عن حقيقة دواخلها. وكرهت أن تكون مكشوفة النّوايا، وأن ينظر إليها على أنّها «سهلة»، أو أسوأ: أن يعتقد أنّها قد عادت من أجله! لعلّها تمنّت لو أنّها لم تخبر ميار، لو أنّها لم تثق إلى ذلك اللّقاء وتتخيّله مرارًا بابتسامة بلهاء ودقّات فؤاد مرتبكة. لعلّها ندمت على مجيئها إلى باريس من الأساس!

سيطرت على غضبها وهي تمضي متجاهلة إيّاه. سارع يمسك ذراعها ليوقف اندفاعها، وقال في دهشة:

-ما الأمر الآن؟ ألا يمكن أن نتحدّث؟

نفضت كفّه عن ذراعها واستدارت لتواجهه في استياء:

-كزافيي، ما الذي تريده منّي؟

كانت تمقت الابتسامة التي ترتسم على شفتيه الآن، كأنّه قد أحاط بها. يعتقد أنّها تتمنّع وهي راغبة في صحبته! قال بسماجة:

-فلنجلس في المقهى القريب. لقد انتظرت طويلا وأشعر

بالعطش. ما رأيك؟

إنّه يجرّب الآن النّظرة الجانبيّة التي يعتقد أنّها تجعله فاتنًا، فلم تتمالك نفسها أن ابتسمت. وقبل أن يفسّر ابتسامتها على هواه، قالت بسرعة:

-يبدو أنّك لم تتغيّر. ما زلت طفلا كما تركتك.. ولا وقت لديّ لأضيّعه.

هذه المرّة، لم تسمح له باعتراض طريقها. نقرت بسرعة رمز الدّخول وتجاوزت بوّابة المبنى دون أن تلتفت. تنهّدت حين صارت بمفردها داخل المصعد. لم يكن عليها أن تعلّق آمالا عريضة على ذكريات الماضي. الآن، وبعد أن رأت بأمّ عينيها أنّه لم يتحرّك من موقعه قيد أنملة، يمكنها أن تعاين احتمالات أخرى.

***

كان ينبغي لعزّ الدّين أن يأخذ جرعة أخيرة من العلاج الكيميائيّ خلال يومين. لكنّ ملامح الدّكتور يوسف بعد زيارته الأخيرة كانت تشي بالقلق. قال مخاطبًا الممرّضة:

-فلنؤجّل الحصّة لبضعة أيّام.

سألته ياسمين في خوف:

-هل هو بخير؟

تعرف أنّه لم يكن بخير. إنّها تلحظ بوضوح ضمور جسده وخبوّ طاقته. لكنّها تعزي ذلك إلى العلاج الكيميائي. لقد حذّرها الطبيب، وأبصرت بعينيها معاناة ضيوف الجناح في وقت سابق. لكنّ حالة طفلها بدت أسوأ. غير أنّ الأمومة تجعلها تحسّ بالشّوكة التي تشوك طفلها أضعافًا مضاعفة. والآن، وهي تقف إزاء الطّبيب وتقرأ علامات الضيق في وجهه، تساورها الرّيبة. لعلّ شكوكها لم تكن مبالغًا فيها. قال الدّكتور يوسف:

-إنّ قلبه ضعيف. وأخشى أنّ معدّل نبضاته منخفض عن العادة. لذلك من الأفضل أن نبطئ النّسق، حتّى لا تصير الأمور أسوأ.

ضمّت كفّيها في توتّر. إنّها تدرك منذ القديم بأنّ طفلها ولد بعضلة قلب متعبة. لكنّها لم تعتقد أنّ ذلك الدّاء قد يؤثّر في

علاجه.

حبسها القلق عن العودة إلى الشقة ذلك المساء. هل كان حدسًا؟ شعور أمّ؟ لكنّها باتت تعرف عن تجربة أنّ حدسها لا يخطئ. تلك الإشارة بالخطر التي تعشّش في رأسها وتسيّر سلوكها غالبًا ما كانت محقّة. استسلمت للنّعاس على المقعد إلى جوار سرير عزّ الدّين، بعد أن راقبت الممرّضة علاماته الحيويّة، قبيل منتصف اللّيل.

بعد ساعتين، أفاقت على صوت جهاز الإنذار المتّصل بجسده. كان عزّ الدّين ينتفض!

صرخت، فجاءت الممرّضة بعد ثوانٍ قليلة، ثمّ أطلقت إنذارًا «أزرق». خلال وقت قصير، جاءت عربة الإنعاش. كان قلبه قد توقّف، وتوقّفت معه ياسمين عن التنفّس. دفعتها الممرّضة جانبًا لتفسح المجال للفريق الطبيّ.

-من هنا رجاءً!

سحبتها كفّ مجهولة وقادتها خارج مجال العمل، وجذبت السّتارة الدّاكنة لتفصلها عنه. لم تعد ترى ما يدور داخل

الفضاء المغلق، لكنّها تنصت إلى الأصوات المرعبة التي تتردّد في سرعة وحزم.

«اشحن (٢٠٠) جول.. أبعدوا أيديكم!».. ثم بعد دقيقتين: «اشحن مرّة أخرى.. أبعدوا أيديكم!».

مرّت الدّقائق ثقيلة عليها، خانقة وحارقة. ربّما كاد خفقانها يتوقّف لعدّة مرّات خلالها. ربّما كادت تفقد الوعي. كان الظّلام يخيّم على عقلها والضّباب يلفّ بصرها. لم تستعد إدراكها إلا على صوت يهتف في انتصار:

-لدينا نبض!

عندئذ، شهقت ودخل الهواء إلى رئتيها، لكنّ ركبتيها انهارتا، فجلست على الأرض وهي تنشج.

نجا عزّ الدّين من تلك النّوبة، ونجت ياسمين من سكتة قلبيّة وشيكة. في الصّباح، جاء طبيب القلب ليفحص الطّفل عن كثب. ثمّ طلب صورة بالموجات فوق الصّوتيّة. قال الدّكتور يوسف يطمئنها:

-هذا إجراء روتينيّ للاطمئنان إلى حالة القلب.

لكنّ كلّ أساليب الطمأنة لم تعد كافية لتريح بالها. إنّ ما شهدته اللّيلة الماضية كان كابوسًا سيلازم لياليها التّالية، وستفيق من نومها فزعة في كلّ مرّة، لتضع كفّها على صدر طفلها تتفقّد نبضه.

بعد أيّام، عاد اختصاصي القلب برفقة الدّكتور يوسف، وقفا في تجهّم وتبادلا نظرات جامدة، كأنّ كليهما يلقي الكرة في ميدان صاحبه، كيلا يكون ناقل الخبر. قال طبيب القلب أخيرًا:

-الوضع يدعو إلى القلق. يجب أن يخضع عزّ الدّين للجراحة.

-أيّ جراحة؟

-جراحة القلب المفتوح. عضلة القلب تحتاج إلى ترميم.. سريعًا. الجدار البطيني رقيق ومهدّد.

انهارت ياسمين على مقعدها. تكلّم الدّكتور يوسف تاليًا

لينهي وأد آمالها:

-لم يعد بالإمكان مواصلة العلاج الإشعاعيّ أو الكيميائيّ وهو على هذه الحالة.

-ماذا عن زراعة الخلايا الجذعيّة؟ والمتبرّع؟

-سنضطرّ إلى تأجيل هذا كلّه، جراحة القلب أولويّة!

تركت العنان لعبراتها لتنهمر بسخاء. تمتمت في استسلام وقلّة حيلة:

-يا رب، لا اعتراض على قضائك. يا ربّ، رحمتك بعبادك الضّعفاء!

***

كانت عمليّة مستعجلة، ومكلفة. لم تكن تملك تغطية صحيّة في فرنسا، ولا كانت حصلت على التّمويل من المركز الطبيّ كما وعدها الدّكتور يوسف. كانت الشّهور الماضية قد استنزفت قدرًا لا بأس به من الأموال التي أمدّها بها

عبد الحميد من أجل علاج حفيده. والآن تواجه المصاريف الإضافيّة غير المتوقّعة برهبة وجزع.

كان عليها أن تصارح الدّكتور يوسف أوّلا. طرقت باب مكتبه على استحياء فجاءها الإذن بالدّخول. ما إن رآها حتّى هبّ واقفًا ودعاها إلى الجلوس بترحاب.

-ياسمين، تفضّلي. هل تحتاجين شيئا؟

جلست في توتّر وهي لا تنفكّ تفرك أصابعها. قالت بصوت خافت:

-فيما يخصّ تكلفة العلاج.. كنت في وقت سابق وعدت بتكفّل مركز الأبحاث بعلاج عزّ الدّين، وقد تصرّفت بما أمكنني في انتظار الحصول على الموافقة.. لأنّ الوضع لم يكن يتحمّل الانتظار...

قال يوسف في حرج:

-نعم، أدرك ذلك. أعرف أنّني تأخّرت في الرّدّ عليك بهذا الشّأن.

-المشكلة الآن هي عمليّة القلب المفتوح المستعجلة.. وأخشى أنّني لا أملك بعد الآن ما يكفي...

كانت على مشارف البكاء، لكنّ كرامتها تبقيها صامدة. لو لم تكن حالة عزّ الدّين تستدعي جراحة عاجلة، لما كانت أحرجت نفسها وأحرجت الطّبيب.

-أنا أتفهّم ذلك. سأتحدّث إلى المدير على الفور! انتظريني هنا.

غادر الدّكتور يوسف مكتبه وبقيت ياسمين بمفردها لبضع دقائق تتململ. قرّرت أنّها ستلقي نظرة على عزّ الدّين ثمّ تعود. لم تكن تحتمل أن يختفي من أمام ناظريها لوقت طويل. سارت تتعثّر في ثوبها، حتّى استوقفتها أصوات عالية تتسرّب من مكتب كان بابه نصف موارب. انتبهت إلى اسم عزّ الدّين يتكرّر في معرض الحديث، فأصغت. كان صوت رجل متجهّم يقول:

-هذه ليست جمعيّة خيريّة! نحن نموّل الحالات التي تفيد الأبحاث وتعود بالنّفع على المركز. وإلا لأغلق المركز أبوابه.

ثمّ جاء صوت الدّكتور يوسف يقول مترفّقًا:

-أنا أكثر من يدرك هذا. أنا أجوب العالم للبحث عن الحالات التي تستحقّ الاهتمام. هذا مرض نادر، والعثور عن حالات ليس بالأمر الهيّن.

-لديك حالة أحمد وهذا يجعل مجموع الحالات التي درستها يصل إلى سبعة.. أظنّ أنّ بوسعك نشر بحثك الآن. حالة إضافيّة لن تغيّر شيئا.

-أنت على حقّ.. لكنّ أيّا من الحالات التي درستها لم يصل فيها عمر الطّفل إلى السّادسة. حالة عزّ الدّين تمنح فرصة دراسة نتائج الزّراعة على الأطفال الأكبر سنّا.

-هل تعتقد باحتمال نجاته؟ أنت ترى أنّه لم يتحمّل العلاج الكيميائيّ. فماذا بعد جراحة القلب المفتوح؟ هل ستكون حظوظه أوفر؟

ساد الصّمت لبرهة، ثمّ أضاف المدير:

-هل رأيت؟ أنت تتعامل بشكل عاطفيّ مع حالة هذا الطّفل.

إن كنت تريد تسجيل حالة وفاة إضافيّة في ملفّك فيمكنك المغامرة.. أمّا إن شئت رأيي كرئيس للأبحاث، فهذه حالة خاسرة.

اكتفت ياسمين من الاستماع عند ذلك الحدّ. هرولت إلى سرير طفلها وهي تكفكف دمعها المتناثر. لم تكن تتوقّع أن تطرق تلك العبارة مسامعها قطّ: «حالة خاسرة»! عصرت جفنيها في رفض واستنكار: لم ولن يكون عزّ الدّين حالة خاسرة!

لمحت فرح عند المدخل، فسارعت تدفن رأسها في حضنها دون تفكير. أخذ جسدها يهتزّ بقوّة وهي تخنق نشيجها في صدر صاحبتها. ربّتت فرح على كتفها مواسية وقالت:

-لقد عرفت بشأن عزّ الدّين. لا تقلقي.. الأطبّاء هنا ماهرون جدّا. سيكون بخيرا!

لم تقل ياسمين شيئًا. لبثت تعانقها بشدّة وهي تكتم شهقاتها. ثمّ رفعت رأسها بعد أن هدأت. كانت عيناها محتقنتين وأنفها محمرّا، لكنّها بادرت تسألها بابتسامة خفيفة:

-كيف حال أحمد اليوم؟

-سيغادر المشفى غدًا صباحًا.

عانقتها فرح مرّة أخرى وهي تهمس:

-سأشتاق إليك، ياسمين! أرجو أن تطمئني على عزّ الدّين قريبًا.

تشابكت أصابعهما في مودّة وتضامن، كما تفعلان دائمًا. تلقّت ياسمين موجات فرح الإيجابيّة في صمت، ثمّ انفرجت أساريرها. ستظلّ تؤمن بأنّ عزّ الدّين سيشفى. لن تستسلم الآن. جاءها صوت الدّكتور يوسف من خلفها:

-ياسمين، أنت هنا؟ عدت إلى المكتب فلم أجدك.

قال حين انتبه إلى حضور فرح:

-سأمرّ بك لاحقًا من أجل توصيات الخروج الخاصّة بأحمد.. أحتاج الحديث إلى ياسمين الآن.

أومأت فرح في تفهّم ثمّ انسحبت. قال يوسف في حرج:

-لقد تحدّثت إلى المدير.. لكن سيكون من العسير صرف تكاليف العلاج الآن من ميزانية البحث، في حين أنّ عزّ الدّين قد انقطع عن العلاج وأصبح ملفّه عند قسم جراحة القلب. لكنّني أعدك، حين نسترجع ملفّه، ستصرف له الميزانيّة كما اتّفقنا.

لم يبد على ياسمين الاهتمام بما يقول. لاحظ أنّها تشيح بوجهها وتتفادى النّظر إليه مباشرة. ساوره الشكّ لبرهة. هل يمكن أن تكون قد استمعت إلى حديثه مع المدير؟

قالت بجفاء:

-شكرًا لك دكتور.. لقد عذّبناك.

خطا باتّجاهها أكثر وقال بالعربيّة هذه المرّة:

-هل تحتاجين إلى المال، من أجل الجراحة؟ يمكنني تقديم طلب من أجلك، لتقسيط المبلغ.

-لا بأس. يمكنني تدبّر أمري.

كان جفاؤها لاذعًا ومؤلمًا. قال في رجاء:

-لم أرد أن يحصل هذا. إن كنت تحتاجين سلفة، بوسعي أن أساعد.. بشكل شخصيّ. نحن أبناء بلد واحد، وهذا ما يجب أن نفعله في الغربة.. نساند بعضنا بعضًا.

نظرت إليه هذه المرّة، وقالت بلهجة قاطعة:

-شكرًا لك. لقد فعلت بما فيه الكفاية. يمكنني أن أتصرّف. عن إذنك.

ابتعدت دون أن تترك له فرصة الإلحاح. مشت بسرعة حتّى صارت في الحديقة. انتحت ركنًا هادئًا وفكّرت بأنّ عليها الاتّصال بأهلها. كانت تخجل من طلب المساعدة مرّة أخرى، لكنّها مضطرّة لإعلامهم بتأجيل الزّراعة. تنحنحت، جفّفت عينيها وربّتت على وجنتيها بخفّة لتخفي آثار الدّموع، ثمّ اتّصلت بزهور. ظهرت صورتها على الشاشة فورًا وجاءها صوتها متلهفًا:

-هل سيخضع عزّ الدّين للزّراعة قريبًا؟

حاولت أن تبتسم، وهي تقول بما تملك من هدوء:

-لقد ظهرت تعقيدات غير متوقّعة.. سيضطرّ إلى إيقاف العلاج مؤقّتا.

-يا إلهي! ما الأمر؟ هل هو بخير؟

-يحتاج.. جراحة للقلب. أنت تعلمين، قلبه ضعيف. وهذه مسألة ينبغي التّعامل معها.

احتاجت كلّ رباطة جأشها لتنطق بتلك الكلمات الصّعبة، دون أن تفلت منها العبرات مرّة أخرى.

أمسكت زهور صدرها وتنهّدت بحرقة:

-الصّغير المسكين.

جاء عبد الحميد على صوتها وقد اكتسى محيّاه القلق:

-هل كلّ شيء على ما يرام يا ابنتي؟

شرحت له زهور جانبًا من التطوّرات الأخيرة، ثمّ كانت هناك لحظات من الصّمت. تردّدت ياسمين.. إن لم تتحدّث بشأن كلفة العمليّة الآن، فسيكون عليها تدبّر أمرها بطريقة أخرى. لكنّها قرّرت أنّها لن تطلب شيئًا هذه المرّة. ابتلعت غصّتها وسكتت.

جاء صوت من الخلفيّة، مثل نداء ملحّ ومتكرّر. قالت زهور:

-هذا كمال. إنّه يريد الحديث إليك.

أخذ عبد الحميد الهاتف وسار إلى غرفة كمال. سألت ياسمين بابتسامة حين ظهرت ملامح والدها على الشاشة:

-كيف أصبحت؟ قالت خالتي أنّك تتحرّك حول الغرفة الآن.

-أنا بخير. لا تشغلي نفسك بشأني. قولي ياسمين.. هل تحتاجين إلى المال؟

كان يكرّر عرضه للمرّة الثانية. قال بسرعة مستطردًا:

-أعلم أنّني لم أكن أبًا صالحًا.. لعلّني وصلت متأخّرًا. وهذا كلّ ما يمكنني أن أفيدك به الآن! إذا كان يلزمك أيّ شيء.. قولي! سيشعرني ذلك بالرّاحة.

ابتسمت، وشعرت بدمعها يتساقط رغمًا عنها. قالت بصوت مختنق:

-عزّ الدّين يحتاج جراحة في القلب.. ولا أظنّ المال الذي بحوزتي يكفي...

قاطعها في لهفة:

-هل استعادت صديقتك بطاقتي الائتمانية؟ سجّلي عندك الرّقم السريّ (...).

ثمّ أضاف على الفور:

-هذا لن يكون كافيًا. سأذهب غدًا إلى السّفارة الفرنسيّة وأوقّع توكيلا باسمك. سيكون بوسعك سحب المبالغ التي تحتاجينها من الحساب. اتّفقنا؟

أومأت في استسلام، وقد ألجم لسانها من التأثّر.

-لا تبكي ياسمين. سيكون بخير.. ثقي بذلك!

أنهت الاتّصال، ثمّ انخرطت في بكاء مرير على المقعد الخشبيّ في حديقة المشفى. أخفت وجهها بين كفّيها وأخذت تنشج بصوت عالٍ. لم يضيّع الله ولدها. الرّعاية الإلهيّة تمتدّ إليها في أشدّ الأوقات حلكة، فكيف يمكنها أن تستسلم؟

شعرت فجأة بحضور غريب إلى جوارها، كأنّ شخصًا آخر يشاركها المقعد. رفعت رأسها، لتجد الدّكتور يوسف يطالعها بملامح متألّمة. قال بنبرة حزينة:

-حين كنت أدرس الطبّ في باريس، مررت بظروف قاسية. أمضيت بضعة أشهر متشرّدًا، بلا مأوى. فكنت أبيت على مقعد في المكتبة العامّة! وفي كلّ مرّة، كنت أفتح عينيّ لأجد سترة وُضعت على كتفيّ لتدفّئني، وفي أحيان أخرى، وجبة طعام ساخنة. وكنت أشعر بالامتنان لكلّ كفّ امتدّت إليّ في وقت الحاجة. بعد ذلك، حصلت على المنحة وتحسّن الوضع كثيرًا.. لكنّني ما زلت أشعر بالعرفان لأيّام المكتبة تلك.

كانت ياسمين تنظر إليه وعلامات عدم الفهم ترتسم على ملامحها. أضاف في حرج:

-أعلم أنّ ما مررت به يبدو سخيفًا مقارنة بمعاناتك وعزّ الدّين.. لكن ما وددت قوله هو: جميعنا يمرّ بفترات يحتاج فيها إلى المساعدة. ومن الغباء أن نرفض اليد التي تمتدّ إلينا في وقت الحاجة، لاعتبارات مثل الكرامة وعزّة النّفس. حين يشفى عزّ الدّين بإذن الله، يمكنك تسديد الدّين تدريجيّا. أمّا الآن، فصحّته أهمّ من كلّ شيء!

استمرّت ياسمين تطالعه في صمت. شعرت بأنّها قد تصرّفت بتحامل لا داعي له. لقد كان يؤدّي واجبه لا أكثر، ولا ذنب له في رفض المركز للتكفّل بحالة طفلها. لتكون منصفة، لقد حاول الدّفاع عنه، لكنّ المعطيات الطبيّة ليست في صفّه. لقد كانت -وما تزال- تشعر بالألم. لكنّه ليس سبب ألمها. لم يفعل شيئا إلا المساعدة. تنهّدت، ثمّ قالت بلطف:

-شكرًا لكرمك. لكنّني تدبّرت أمري بالفعل.

-حقّا؟

حدجها بنظرة متشكّكة. كانت تبدو أقلّ جفاءً وعدائيّة الآن.
قال بمرح:

-لست تخاصمينني إذن؟

اكتست وجنتاها حمرة حرج خفيفة.

-عفوًا؟

-منذ حين، حسبتك غاضبة منّي، لسببٍ ما.

أطرقت في ارتباك وقالت:

-ليس الأمر كذلك.

-هذا يشعرني بالارتياح.

خمّنت أنّ عليها الانصراف في الحال، لكنّه سبقها إلى الوقوف وهو يقول مازحًا:

-أعرف أنّك حين تشعرين بالحرج تهربين.. لذلك سأتركك لك

المكان الآن.

خطا مبتعدًا، ثمّ استدار ليقول في لهجة جادّة:

-فلتعلمي بأنّني لم أفقد الثّقة بشأن عزّ الدّين. حين يتعافى من أثر جراحة القلب، سيكون لنا موعد آخر.

-26-

لبثت تطالع الجهاز الذي في كفّها بعينين مبهورتين. كان بحجم القلم لكنّه أعرض قليلا، وفي نهايته مساحة بيضاء تسمح بقراءة العلامات التي تشرح نتائج الاختبار. شيء ما لا يصدّق يحدث الآن أمام عينيها، والبهجة التي تسكن صدرها تفيض على ملامحها دون شعور منها. تتحرّك حول الغرفة بابتسامة واسعة تتحوّل من حين إلى آخر إلى قهقهة، ثمّ تعود لتحدّق في الجهاز، تملأ منه عينيها، تتأكّد بأنّ العلامة لم تتغيّر منذ تركته آخر مرّة.. منذ دقيقة ربّما. لكنّ الإشارة لا تتغيّر، والرّسالة التي تقرؤها على صفحة الجهاز تظلّ ثابتة، تعلن حصول معجزة!

لبثت ترقب الشّارع من نافذتها في نفاد صبر. كان يجب أن يكون عمر في المنزل الآن. يفترض به أن يصطحب صهيبًا من المدرسة في السّاعة الرّابعة. وهي لم تعد تطيق صبرًا كي تزفّ إليه البشرى.

عادت إلى الدّاخل، حين تناهى إليها بكاء آلاء التي استيقظت من قيلولتها. أخذتها بين ذراعيها، وراحت تراقصها

بخطوات واسعة عبر الصّالة. لعلّ البنت احتارت لمزاجها الرّائق، فأطلقت ضحكات جذلة تجاري حماسها. ليس أنّها تعبس في العادة، فوجود آلاء في حياتها مصدر سعادة متجدّدة. لكنّها منشرحة اليوم بشكل استثنائيّ، تمامًا مثل يوم العثور على عمّ الطّفلة.

وقفت في المطبخ تعدّ وجبة خفيفة وهي تدندن بألحان شاميّة، بينما تجلس آلاء على المقعد المرتفع الخاصّ بها، وأمامها قطع خيار وتفّاح تقضمها وتلهو بها. حين سمعت دفّة الباب تفتح، هرولت آية لاستقبال العائدين. دخل صهيب أوّلا، وضع حقيبته المدرسيّة في الزّاوية، نزع حذاءه وارتدى خفّ المنزل ثمّ قال بابتسامة:

-مرحبًا آية!

لم تكن تتذمّر لمناداته إيّاها باسمها مجرّدًا من الألقاب، ولم تجد من اللّائق أن تجبره على لفظ «ماما». لكنّها ستحرص على أن تلقّن آلاء اللّفظ ما إن يتحرّك لسانها استعدادًا للكلام. قبّلت الطّفل على خدّه وسألت بشكل روتيني:

-كيف كان يومك في المدرسة؟

-جيّدا.

تجاوزها نحو غرفته دون تقديم تفاصيل أخرى، وهي لم تكن تنتظر أيّا منها. تعلّقت نظراتها بالباب، حيث دلف عمر وبين كفّيه كيس الخبز الفرنسيّ الطّازج من الفرن. قالت بحفاوة:

-أهلا بعودتك.

حدّق عمر في ملامحها في اهتمام. كان يعرف تلك اللّمعة التي تسكن حدقتيها. يدرك أنّها لا تزورهما إلّا إذا كان في جعبتها سبب مميّز للفرح. ابتسم وهو يرنو إليها:

-هل من جديد؟

-كلّ خيرا!

لم تكن تقدر على السّيطرة على الانفعالات التي تتقافز في مقلتيها ونبرة صوتها وتكاد تتدفّق عبر لمساتها. أخذت بكفّه وسحبته وراءها إلى غرفة نومهما. أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ قالت بصوت مرتجف:

-لم أكن أهتمّ في الفترة الأخيرة للتّغييرات التي تحصل لي، لقد عزوتها للظروف المرتبكة.. والسّفر المتكرّر.. قد تحصل لخبطة في الهرمونات.. هذا وارد...

-آية ما الأمر؟ أنت بخير؟

ضحكت بخفّة ثمّ قالت:

-أنا بخير.. بخير جدّا! انظر إلى هذا...

أخرجت من وراء ظهرها الجهاز الذي اقتنته من أجلها «كاميليا» -العاملة الرّومانيّة الجديدة التي رشّحتها جارتها المسنّة- ذلك الصّباح من الصّيدليّة. صارت تأتي لمساعدتها لمدّة ساعتين كلّ يوم، بينما تعتمد عليها الجارة للتّسوّق والطّبخ وقضاء المشاوير الخارجيّة.

سأل عمر:

-ما هذا؟

-اختبار حمل!

حدّق في عينيها غير مصدّق. كانت ضحكتها وصوتها والبريق في عينيها تخبره بأن يصدّق. لكنّه لا يستوعب بعد، كيف للمعجزة أن تأتي بتلك البساطة؟ سأل مجدّدا بصوت مبحوح:

-وماذا يقول؟

-أنا حامل يا عمر!

***

استلقت آية على سرير المعاينة، وقبض عمر على كفّها في حرارة، بينما استقرّت آلاء قبالتهما في عربتها وقد استغرقها اللّهو بجواربها. كانت في عيني آية نظرة تفاؤل وأمل، في حين كان الشكّ والخشية يسكنان صدره. ذلك الحمل غير المتوقّع، بدا مثل معجزة. لكنّه يؤمن بأن زمن المعجزات قد ولّى.

لم يساير اندفاعها، ولم يحاول كبت فرحتها. يقف في حذر

كمن يمشي بخطى وئيدة على خيط رفيع معلّق بين التشاؤم والاستبشار. لم يكن بوسعه الثّقة بنتيجة اختبار الحمل المنزليّ، لذلك رافقها صباح الغد إلى عيادة طبيبة نسائيّة، حتّى يتيقّن كلاهما من سلامة حدسه أو وجاهة بهجتها.

شربت آية كمّيات من الماء وهي تجلس في قاعة الانتظار، وترقّبت حتّى أذنت لها مساعدة الطّبيبة بدخول غرفة التّصوير بالموجات فوق الصّوتيّة. دهنت الطّبيبة بطنها بهلام بارد الملمس، ثمّ وضعت رأس جهاز الرّصد على بشرتها. على الفور، ظهرت في مساحة الشّاشة السّوداء بقع متحرّكة. أخذت الطّبيبة تشرح:

-هذا هو الرّحم.. وهذا.. الجنين!

أخفت آية صيحة فرح بكفّها. وألقت إلى عمر نظرة ذات معنى: «ألم أقل لك؟».

بعد ذلك واصلت الطّبيبة عملها في صمت. بدا أنّها تأخذ مقاسات المضغة في تركيز. سألت دون أن تبعد نظرها عن الشّاشة:

-متى كانت آخر دورة لك؟

فكّرت آية ثمّ قالت:

-منذ شهرين أو أكثر.

-أنت واثقة؟

-هذا ما أظنّه.

سألها عمر في اهتمام:

-هل يمكننا الاستماع إلى دقّات قلب الجنين؟

-حجم الجنين الآن يوحي بأنّ عمره أربعة أسابيع. يشرع القلب في النّبض بداية من الأسبوع السّادس. لذلك، من الأفضل أن تعودا بعد أسبوعين.. لنتأكّد من سلامة الجنين، ونطمئنّ إلى دقّات القلب.

خرجت الطّبيبة وبقيت آية تسوّي هندامها. سبقها عمر خارج غرفة التّصوير ولحق بالطّبيبة وهو يدفع عربة آلاء.

-دكتورة، هل هناك ما يدعو إلى القلق؟

تردّدت الطّبيبة قبل أن تقول بلباقة:

-لا يمكنني الجزم في هذا الوقت. لذلك طلبت منكما الرجوع بعد أسبوعين.

-لكنّك تشكّين في شيء ما؟ قلت أنّ عمر الجنين لا يتماشى مع موعد الدّورة...

ضحكت ثمّ قالت:

-قد تكون زوجتك أخطأت الحساب! لا أريد أن تشغلا نفسيكما بهذه الهواجس. بعد أسبوعين، سنعرف كلّ شيء!

أمضت آية الأسبوعين التّاليين في مزاج رائق. أقبلت على تحضير أصناف جديدة من الطّعام، يُهيّأ إليها أنّها تشتهيها، واستمرّت تترصّد ظهور أعراض الوحم كمن يراقب هلال العيد. وكان عمر يبتسم في هدوء، ولا يشاركها مخاوفه. لم يكن يريد أن يفسد حبورها، لكن يؤرقه أن تتلاشى تلك السّعادة، إذا صدقت شكوكه. كانت تسأله في كلّ مرّة:

-هل الوقت مبكّر لإعلام أهلي وأهلك؟ أم لعلّنا ننتظر حتّى نعرف إن كان الجنين ولدًا أم بنتًا؟

ثمّ تستطرد تحادث آلاء، تخبّرها عن فرد جديد سينضمّ إلى أفراد العائلة قريبًا.

كان والدها قد جاء لزيارتها الشّهر الماضي ولبث أسبوعين برفقتهم. لقد أبدى سعادته بلقاء الحفيدين المحتضنين، لكنّها لمحت ظلال الحزن الخفيفة في عينيه. وهي تعرف ذلك الإحساس وما يعنيه. لقد هنّأها وتمنّى لها الخير، لكنّ نبرته كانت تحمل قدرًا من الحسرة. لعلّه أمل أن تحمل ابنته يومًا وتنجب طفلا ينتمي إليها برابط الدّم. لقد انتبهت إلى كلّ تلك الإشارات الخفيّة التي تأتيها مثل تلميحات عابرة، لأنّها تجد لها صدى في داخلها. وقد كان خبر الحمل تحقيقًا لأمل بعيد المنال كانت تحتفظ به في قرارة نفسها.

ثمّ جاء موعد الذّهاب إلى العيادة. مرّا بالمراحل ذاتها، قبل أن تشرع الطّبيبة في رصد نشاط الجنين على شاشة جهازها. أخذت القياسات بتأنّ، وحرّكت آلتها على بطن آية يمينا وشمالا صعودًا ونزولا بحاجبين معقودين، ثمّ قالت:

-سأكون في انتظاركما في المكتب من أجل نتائج التّقرير.

سوّت آية ثيابها، ثمّ تبعت عمر إلى الغرفة المجاورة. جلسا في صمت بينما بدا على الطّبيبة الانشغال. بدأ التوتّر يظهر على ملامح آية التي حافظت على تفاؤلها حتّى تلك اللّحظة. تمهّلت الطّبيبة وهي تطالع صور الموجات فوق الصّوتيّة، ثمّ سألت:

-هل هذا أوّل حمل لك؟

أومأت آية في صمت، فقالت الطّبيبة بابتسامة:

-للأسف، الصّور لا تظهر حجمًا طبيعيًا للجنين. يبدو أنّ نموّه قد توقّف في الأسبوع الرّابع. كان يفترض بنا أن نستمع إلى نبضاته اليوم، لكن لا أثر لها. وبالنّظر إلى تاريخ آخر دورة لك، فإنّ هذا يؤيّد فكرة توقّف الحمل.

همهمت آية في ارتباك:

-ماذا تعنين بتوقّف الحمل؟ هل يمكن أن نفعل شيئا ليستأنف النّموّ؟

-أنا آسفة يا عزيزتي، هذا يعني أنّ الجنين ميّت. وسيقع إجهاض.

أضافت مواسية:

-هذا دارج عند حديثات الزّواج. ستكون هناك فرص أخرى. سنقلق إذا تكرّر الأمر.

نزل الخبر على فؤاد آية مثل الصّاعقة. لقد حسبت أنّ معجزتها قد حصلت، وأنّها قد حازت كلّ نعم الدّنيا. ربّت عمر على كفّها مشجّعًا، فابتسمت رغم ألمها. همس عمر:

-لقد حدث حمل، وهذه معجزة في ذاتها.

واصلت الطّبيبة وهي ترقن على جهازها الوصفة الطبيّة:

-سأعطيك دواءً للتخلّص من الجنين. ثمّ تعودين خلال أسبوعين للمراقبة، إن لم يكن قد نزل تلقائيّا فسنضطرّ إلى شفطه.

غادرت آية العيادة وإحساس بالخذلان يُثقل وجدانها. لقد وُئِد الأمل في صدرها قبل أن يرى النّور. بعد أن هدهدت إحساس الأمومة وهو ينمو في داخلها مع تعشيش نطفة في رحمها، فإنّ التخلّي عن ذلك الحلم البديع صار مستحيلا.

***

-كانت جراحةً ناجحة.

ابتسم الجرّاح وهو يزفّ الخبر إلى ياسمين والدّكتور يوسف الذي أصرّ على مرافقتها أثناء فترة الانتظار. كان ينصرف حين يتمّ استدعاؤه لمعاينة حالة ما، ثمّ يعود بسرعة ليسأل كيف سارت الأمور. حين انتهت الجراحة أخيرًا، صافح الجرّاح بحرارة ثمّ قال مخاطبًا ياسمين:

-لن يستيقظ قبل ساعة من التّخدير. تعالي، يجب أن تحصلي على وجبة مشبعة.

تركها عند مقاعد الكافتيريا واختفى، ليعود بعد دقائق وبيده علبتا طعام ساخن. قال وهو يضع الأطباق أمامهما:

-أرزّ وسمك وسلطة. هل هذا مناسب؟

أومأت في امتنان، وأخذت تأكل في صمت. كانت منهكة من قلّة النّوم وطول الانتظار. كانت شهيّتها سيّئة في الأيّام الماضية، بعد تنويم عزّ الدّين في قسم جراحة القلب.

في الماضي، كانت تحضّر وجباته وتنال قسطًا منها، لكن منذ حدّد الطّبيب له حمية خاصّة، ما عادت تجد رغبة في الطّبخ ولا في الأكل. حتّى أنّها لم تذهب إلى الشقّة أبدًا. لا تذكر متى تناولت وجبة صحيّة متكاملة لآخر مرّة. حياتها في المستشفى كانت تقوم على القهوة والوجبات الخفيفة التي تقيم الأود وتبقيها متيقّظة.

راقبها يوسف في إشفاق وهي تأكل بلا حماس. وضع الملعقة في طبقه، ثمّ قال في اهتمام:

-هل تحتاجين شيئا من أجل عزّ الدّين؟ قطع ثياب، أدوات حمّام، أو أيّ شيء آخر؟ هل هناك طعام خاصّ يشتهيه؟ أعرف أنّك لا تودّين مفارقة غرفته.. لذلك يمكنني أن أحضر كلّ ما تحتاجين...

لم تكن قد نطقت بكلمة بعد، حين وصلت رنيم عندهما.

-لقد جئت!

انحنت لتعانق ياسمين وهي تضع على المقعد المجاور حقيبة صغيرة، ثمّ قالت:

-كيف حال عزّ الدّين؟ هل انتهت الجراحة؟

-لم أره بعد. ننتظر أن يستيقظ من التّخدير.

-هل أكلت؟ أحضرت لك اللّازانيا. تعرفين أنّني لا أجيد صنع غيرها!

ابتسمت ياسمين لدعابتها، ثمّ التفتت إلى الدّكتور يوسف وقالت:

-شكرا لعرضك يا دكتور، كما ترى.. الأستاذة رنيم أحضرت كلّ ما أحتاجه.

ابتسم بدوره في حرج، ثمّ قال وهو يغادر مقعده:

-إذن سأترككما الآن. سأعود للاطمئنان على عزّ الدّين في وقت لاحق.

راقبته رنيم بنظرات ثاقبة وهو يبتعد وبين كفّيه طبق طعامه الذي لم يمسسه بعد، ثمّ سألت بهمس:

-هل هو متزوّج؟

-مطلّق، ولديه طفل.

-كيف عرفت؟

-طليقته دكتورة هنا في المشفى. قدّمها لي ذات مرّة.

-ممتاز. شفافيّة ووضوح!

حدجتها ياسمين بنظرة جانبيّة وهي تحرّك الملعقة في طبقها ببطء. هتفت رنيم من جديد:

-أراه شخصًا مناسبًا لك. وهكذا، تتزوّج كلتانا طبيبًا! أليس هذا مدهشًا؟

ضحكت ياسمين بخفّة، ثمّ قالت:

-هل هذا كلّ ما يهمّك: أنّه طبيب؟

-بالتّأكيد لا. إنّه تونسيّ، مطلّق، ولديه طفل. إذن هناك نوع من التّكافؤ. لديه تجربة في الحياة وناضج. والأهمّ هو أنّه مهتمّ بك وبعزّ الدّين.. ثمّ.. شكله ليس سيّئا.

سكتت ياسمين ولم تُجارها. ألقت نظرة على الحقيبة التي كانت على المقعد بجوارها، ثمّ قالت بامتنان:

-لقد فكّرت بكلّ شيء. أحتاج حمّامًا بشدّة، وثيابًا نظيفة.

قالت رنيم في إصرار:

-عديني على الأقلّ، إذا صارحك برغبته في علاقة جادّة، فلا تصدّيه دون منحه فرصة!

-أظنّ عزّ الدّين سيستيقظ قريبًا. يجب أن أكون عند غرفته الآن.

زفرت رنيم في استسلام وسارت إلى جوارها. جلستا في صمت في البهو تراقبان الطّفل النّائم من وراء الحاجز الزّجاجي لغرفة العناية المركّزة. كان يبدو وديعًا كما كان دائمًا، ومستسلمًا إلى درجة تثير الرّجفة.

كانت عينا ياسمين ثابتتين على الشّاشات المحيطة به، تراقب نبضاته وعلاماته الحيويّة في تيقّظ. باتت تجزع لأدنى سبب، وبلا سبب. دخلت ممرّضة في تلك اللّحظة لتسجّل البيانات في دفتر المريض، ثمّ قالت مبتسمة:

-يبدو كلّ شيء على ما يرام.. وها هو قد فتح عينيه! يمكن للماما أن تطمئنّ الآن!

اندفعت ياسمين نحو الحاجز في لهفة، لتنظر إلى جفنيه نصف المسدلين. قالت الممرّضة:

-ما زال يعاني من بعض الدّوار.. لن يستعيد وعيه كاملًا إلا بعد ساعات. سيتراوح وضعه بين الاستيقاظ والنّوم بشكل متقطّع. إنّه يحتاج إلى الرّاحة. سأطلب من الطّبيب معاينته بعد حين.

خرجت الممرّضة، ولبثت ياسمين تطالع عزّ الدّين وتبادله ابتسامته الواهنة.

-ستكون بخير يا حبيبي.

جاء الطّبيب بعد دقائق قليلة. عاين موضع الجرح وتفقّد نبضات عزّ الدّين ثمّ قال يطمئنها:

-تهانينا سيّدتي. مريضنا في أفضل حال ممكنة! سيظلّ تحت المراقبة لدينا لبعض الوقت.. ثمّ سيحتاج الكثير من الرّاحة في الشهور المقبلة. ينبغي أن يلازم الفراش. الحركة ممنوعة، إلّا على كرسيّ متحرّك.

تردّدت ياسمين ثمّ سألت:

-دكتور، أنت تعرف أنّه ينتظر زراعة الخلايا الجذعيّة...

رمقها بنظرة طويلة ثمّ قال:

-للأسف، لن يكون ذلك ممكنًا الآن. قلبه لن يتحمّل العلاج الكيميائيّ ولا عمليّة الزّراعة.

-ماذا تعني؟ هذا المرض، إنّه يهدّد حياته!

-والعلاج أيضا، يهدّد حياته.

كانت ترتجف. هل تكبّدت كلّ ذلك العناء بلا فائدة؟ أردف الجرّاح معتذرًا:

-خلال ستّة أشهر، سنعيد تقييم كفاءة القلب، ويمكن حينها أن نتّخذ قرارًا باستئناف العلاج من عدمه.

ستّة أشهر! لكنّ عزّ الدّين لا يمتلك ستّة أشهر! تكرّرت في رأسها عبارة مدير المركز: «حالة خاسرة». لقد كان طفلها حالة ميؤوسًا منها في نظر الطبّ. المختصّون لا يتوقّعون أن يعيش حتّى السّابعة من عمره بدون زراعة للخلايا الجذعيّة. وجرّاح القلب يمنع عنه العلاج قبل فوات الأوان.

عدّاد الوقت يسحب دقائق من عمر صغيرها بلا رحمة. لكنّها لم تفقد الإيمان برحمة ربّ العباد.

-27-

ساعدها حتّى تنزل من السيّارة، ثمّ سار إلى جوارها برفق وهو يمسك ذراعها. لم تكن تمانع أن تستند إليه، فهي تشعر بالضّعف الشديد. لم تنجح العقاقير في تخليصها من الجنين الميّت، فاضطرّت إلى التدخّل الجراحيّ. غير أنّ الألم الجسديّ لم يكن يقارن بالوجع الذي يسكن صدرها.

زار عمر طبيبه الخاصّ الأسبوع الماضي، ليخضع لفحوصات جديدة. كان حصول الحمل غير المتوقّع بارقة أمل بتحسّن حظوظه في الإنجاب. لكنّ الطّبيب قال بعد الاطّلاع على نتائج التحاليل:

-هذا الحمل لم يكن يجدر به أن يحصل! لأنّ جسدك غير قادر على إنتاج خلايا تناسليّة سليمة. حتّى لو حصل الحمل، فسيكون مصيره الإجهاض المبكّر، لأنّ الجنين الذي ينتج عنه مشوّه.

لم يكن عليها أن تتشبّث بالأمل، ولا أن تبالغ بالحفاوة، لأنّ السّقوط الحرّ من سماء الابتهاج كان شديد الوقع عليها.

عبرت المدخل حتّى الصّالة، ولم تتمالك نفسها أن ابتسمت حين أبصرت آلاء بين ذراعي كاميليا. قالت بلا تفكير:

-هاتيها، لأشتمّ رائحتها.

جلست على الأريكة، وجاءت كاميليا لتضع الطّفلة على ركبتيها، فدفنت وجهها في عنقها وأخذت تبكي في هدوء. لم يكن يهوّن عليها مصابها إلا أن تأخذ آلاء في حضنها.

راقبها عمر في أسى. لقد داعبه الأمل ليوم أو بعض يوم، غير أنّه -على عكسها- آثر الحذر. كان يعرف طعم الخيبة التي تأتي بعد توقّعات شاهقة، وأشفق على آية من الهويان إلى ساحق إن هي رفعت سقف طموحاتها إلى العلياء. وقد بات يعرف كم هي سريعة التعلّق، وكم يشطح خيالها في عالم الأحلام، لتبني قصورًا من الوهم.

لقد تعلّقت بآلاء فور رؤيتها، وبالجنين ما إن عرفت أنّه يسكن أحشاءها. عاشت يومًا أو بعض يوم من اللّهفة حدّ الهوس، ثمّ انهارت بناءاتها دفعة واحدة، ولم تعد حتّى اليوم إلى سابق عهدها.

قالت الطّبيبة أنّ مزاجيّتها شيء عاديّ. ستتحرّك هرموناتها صعودًا ونزولًا بشكل حادّ، مثل أمّ حديثة الولادة، لكنّها بدون طفل. كان عليه أن يمنحها مساحة لتحزن على مهلها وتستنزف طاقة الكآبة بداخلها. سيكون حاضرًا ما أمكنه ذلك لرعايتها والطّفلين. من حسن حظّه أنّ كامليا موجودة، للعناية بهم جميعًا. ابتسم وهو يسألها:

-هل الغداء جاهز؟

-نعم سيّدي، لقد تناول الطّفلان وجبتهما. هل تريد أن أضع المائدة لكما الآن؟

ألقى نظرة مستفسرة على آية، فقالت بخفوت:

-لا شهيّة لي، أحتاج بعض النّوم.

أخذ عنها الطّفلة وساعدها على المشي حتّى غرفة النّوم. جعلها تستلقي على السّرير، ثمّ أطفأ الأنوار وأنزل الستائر وخرج. كان صهيب ينتظره في الممرّ. قال بنظرة رجاء:

-ألن نسافر في الإجازة، مثلما وعدتني؟

ابتسم عمر معتذرًا ثمّ قال:

-آية مريضة الآن، وتحتاج إلى وجودنا بجوارها. لا أظنّ الوقت مناسبًا للسّفر.

-لكنّ الإجازة ستنقضي قريبًا!

-أعدك بأن نستمتع أنا وأنت. سآخذك لركوب القارب في البحيرة القريبة، وأعلّمك الصّيد. ألن يكون هذا ممتعًا كفاية؟

هزّ صهيب رأسه بحماس، فربّت عمر على شعره بحنوّ.

ودّ لو يسافر، منذ تلقّيه رسالة رنيم المفاجئة. لم يصله جديد لبعض الوقت، وقد أراد أن يتخيّل نهاية سعيدة لرحلة كفاح ياسمين وولدها ضدّ المرض. ثمّ جاء خبر مناقض لكلّ آماله وتوقّعاته:

«عزّ الدّين أجرى عمليّة قلب مفتوح ناجحة. لكنّ زراعة الخلايا الجذعيّة مؤجّلة. جسده لم يتحمّل العلاج الكيميائيّ».

لقد كان الخبر مزلزلا لكيانه، غير أنّه أخفى انفعالاته عن آية بحرص. كانت تستعدّ لإجهاض الجنين الميّت في بطنها، فكيف يكون له ترف الحزن على مصاب شخص آخر؟

***

رنّ جرس الشّقة في أمسية السّبت، بينما استرخت الفتيات في غرفة الجلوس. كان عزّ الدّين في سريره منذ بعض الوقت، وهو إجمالا لا يغادره كثيرًا، اتّباعًا لتعليمات الطّبيب. سألت رانيا:

-هل تنتظر إحداكنّ زائرًا؟

هزّت ياسمين ورنيم رأسيهما علامة النّفي، فزوت رانيا ما بين حاجبيها.

كان عزّ الدّين قد ترك المشفى منذ أسبوعين، وعادت ياسمين للاستقرار في الشقّة بشكل كامل. لم يكن متاحًا لها التّفكير في السّفر إلى تونس في ذلك الوقت بالنّظر إلى وضع عزّ الدّين الصّحيّ. وكانت رنيم قد تكفّلت بوثائق إقامته لسنة كاملة. غير أنّ الإقامة برفقة الأختين كانت تخفّف عنها وقع

الأيّام الكئيبة والبطيئة.

تركت رانيا المجلّة التي بين يديها ووقفت لتفتح الباب في فضول. عادت بعد لحظات، وهي تمسك بين راحتيها باقة ورود ضخمة. وضعتها على المنضدة، ثمّ قرأت البطاقة بصوت عالٍ:

-كتابة عربيّة: تمنياتي بالشّفاء العاجل!

سألت ياسمين في حيرة:

-هل هناك توقيع؟

-لا! فقط هذه الكلمات.

صفّقت رنيم في جذل:

-أراهن أنّه الدّكتور يوسف!

التفتت إليها رانيا في استفهام:

-من يكون الدّكتور يوسف؟

أجابت ياسمين على الفور:

-طبيب عزّ الدّين.. اختصاصي العلاج بزراعة الخلايا الجذعيّة.

لكنّ رنيم غمزتها وهي تضيف:

-بل معجب ياسمين الجديد!

نظرت رانيا بعينين متفحّصتين إلى الورود البيضاء وقالت في شكّ:

-كان يجب أن تكون حمراء!

-إنّه يتوخّى الحذر، لا يودّ أن يصدمها.. تعرفين كم هي سريعة الانكماش!

وكزتها ياسمين بمرفقها ثمّ قالت بهدوء:

-لا نعرف حتّى إن كان هو من أرسل الباقة. البطاقة لا تحمل توقيعًا.

حدّقت فيها رنيم بتحدٍّ وهي تقول:

-هل تعرفين شخصًا آخر قد يرسل باقة على هذا العنوان مرفقة برسالة باللّغة العربيّة؟

سكتت ياسمين. في الواقع، إنّها تعرف. لقد سبق أن ترك عمر لها رسالة باللغة العربيّة عند استقبال المشفى، بدون توقيع. لكنّها لا تعلم إن كان عمر في باريس هذه الأيّام، وإن كان يعرف عنوان هذه الشقّة. لو أنّه يريد، فيمكنه الحصول عليه بشكل ما. لقد عرف دومًا كيف يصل إلى موقعها أينما كانت. ولو أنّها تُحضر البطاقة القديمة من حقيبتها، فربّما يكون بوسعها مقارنة خطّ اليد. غير أنّها لا تودّ أن تثير المزيد من التكهّنات والمزايدات إذا ما اعترفت لهنّ بتلقّيها تلك الرّسالة في وقت مضى. في الحقيقة، لا تعرف أيّهما سيكون أهون: أن يكون الدّكتور يوسف هو المرسل أم عمرا!

تظاهرت بعدم الاهتمام، وهي تسير في اتّجاه الغرفة لتتفقّد عزّ الدّين النّائم. غير أنّ جرس الباب قرع مرّة أخرى.

تبادلت الفتيات الثلاث نظرات مستغربة. قالت رانيا بابتسامة ذات معنى:

-هل ننتظر باقة من معجبٍ آخر يا ترى؟

مشت في اتّجاه الباب لتفتحه، بينما كان اهتمام رنيم وياسمين مركّزا على المساحة التي تخفيها الدّفة المواربة. من موقعهما في غرفة المعيشة، كانتا تبصران ظهر رانيا وحدها. ارتبكتا حين ندّت عنها تلك الصّرخة المفاجئة مع اكتشافها هويّة الطّارق. بسرعة، كانت تعانق الفتاة الواقفة عند الباب بحماس واشتياق. أطلّ رأس بعد ذلك على الفتاتين القابعتين في الصّالة وهتفت:

-مفاجأة!

-ميارا!

صاحت ياسمين، ثمّ جاءت بدورها لتعانق الفتاة الشابّة. سألت رنيم في شكّ:

-هل جئت بمفردك؟

-وصلت بالأمس، استقبلني جاسر في المطار. سأمضي أسبوع العطلة برفقته، وأردت أن ألقي التحيّة.

نظرت رنيم لا إراديّا باتّجاه رانيا حين ورد اسم جاسر، لكنّ رانيا تجاهلت الإشارة وجذبت ميار لتجلس إلى جوارها على الأريكة. قالت في ابتهاج:

-أخبريني، كيف حال سكينة؟ وكيف هي الجامعة؟

ضحكت ميار وهي تضرب ركبتها في مرح:

-أنا أخبرك بكلّ شيء في رسائلي!

-لكن للحديث وجهًا لوجه طعم آخر.. ستحكين كلّ شيء من جديد الآن!

مكثن يتحدّثن بصخب لساعة أو نحوها، ثمّ قالت ميار:

-لا أريد أن أتأخّر على جاسر، إنّه ينتظرني بالأسفل.

مرّة أخرى، نظرت رنيم إلى شقيقتها، بينما واصلت رانيا

التّظاهر باللا مبالاة. قالت في حماس:

-يجب أن أراك غدًا، إنّه يوم العطلة الوحيد لي. ما رأيك لو نذهب للتسوّق مثل الأيّام الخوالي ونتناول شطيرة الكباب في شارع «موفتار» بدائرة باريس الخامسة!

تحمّست ميار، ثمّ قالت:

-هل يمكنك مرافقتي إلى الأسفل؟

لم تستدر رانيا لتنظر في عيني رنيم وتلمح تعبيرها المتشكّك. حين صارتا في المصعد، قالت ميار في رجاء:

-هل يمكن لجاسر أن يرافقنا غدًا؟

-ماذا تعنين؟ لماذا تعتقدين بأنّه قد يرغب في مشاركتنا التسوّق؟

حدجتها ميار بنظرة جانبيّة ثمّ قالت:

-أنا لم أعد طفلة، هل تعلمين؟ وأدرك أنّ جاسر معجب بك!

فتحت رانيا فمها لتقول شيئا، ثمّ أحجمت. كان المصعد قد وصل إلى الطابق الأرضيّ وفتحت دفتّاه. من خلال الواجهة الزّجاجيّة كان يمكنها أن تبصر جاسر -بل كزافيي- وهو يتمشّى بتأنّ جيئة وذهابًا أمام المبنى، وعيناه على شاشة هاتفه. قالت في فتور:

-وددت أن نمضي بعض الوقت معًا.. أمّا إن كنت تفضّلين الخروج برفقة شقيقك، فأنا أتفهّم هذا.

-آه، رانيا! كم أنت مزعجة! انسي أنّني اقترحت قدوم جاسر. سأراك غدًا في السّاعة الحادية عشرة. اتّفقنا؟

عادت البسمة إلى وجه رانيا. ضربتا كفّا بكفّ علامة الاتّفاق، ثمّ لوّحت رانيا لميار وهي تمضي باتّجاه البوّابة. قبل أن يرفع جاسر عينيه عن جهازه، كانت قد اختفت داخل المصعد.

-28-

دفع عمر باب الشقّة وضغط زرّ الإنارة، لكنّ الظلام استمرّ حالكًا بالدّاخل. أضاء كشّاف هاتفه ودفع حقيبة سفره إلى الرّدهة. تأفّف صهيب وهو يتعثّر في الحقيبة أمامه.

-لماذا لا توجد إضاءة في شقّتك؟

ضحك عمر بخفّة وقال:

-لم آت إلى هنا خلال سنوات طويلة. لا شكّ أنّ اشتراك الكهرباء مقطوع.

-المكان بارد جدّا أيضا.

-نعم، السّخّان يعمل بالكهرباء. لكن لا تقلق، لديّ حلّ.

هتف الولد في جزع:

-كشّاف الهاتف؟ هل هذا هو الحلّ؟

ضحك عمر مجدّدا وقال:

-لا تكن عجولا. انتظر قليلا.

سبقه عمر إلى الغرفة الدّاخليّة وغاب لدقائق طويلة.

كان قد فوّت إجازة الخريف بسبب ظرف آية الطّارئ، لذلك تأجّلت الزّيارة الباريسيّة إلى إجازة الشّتاء. وما إن سنحت الفرصة للسّفر حتّى ركب القطار برفقة الولد لتنفيذ وعده القديم. عرض على آية أن ترافقهما وآلاء، غير أنّها لم تتحمّس. في الحقيقة، لم تكن راضية كثيرًا عن تردّده على باريس. لقد غادرت عائلتها البلاد فرارًا، وكذلك فعل هو منذ سنتين. ولم يكن أحدهم يشعر بالأمان داخل الحدود الفرنسيّة بعد الحادثة المروّعة. إلّا أنّها لم تحاول ثنيه عن السّفر، وقد امتنّ لتفهّمها. كانت تدرك حاجته إلى الاطمئنان على عزّ الدّين، لذلك اكتفت بالعبوس الصّامت.

تطلّع صهيب إلى بقعة الضّوء التي تتحرّك على الجدار قبالته وهمس بقلق:

-عمر؟

استمرّ الصّمت للحظات بعد، ثمّ أضاء المصباح في الرّدهة فجأة. تنهّد الولد في ارتياح وقال:

-الحمد لله!

عاد عمر بابتسامة واسعة، وقال:

-ألم أقل لك. لديّ حلّ!

كان يحتفظ بمولّد احتياطيّ في الشقّة. نموذج قديم كان قد أجرى تجارب عليه في وقت سابق، ثمّ بقي مركونًا لزمن طويل. كان من المدهش أنّه ما زال يعمل. ضغط على زرّ تشغيل السّخان، ثمّ قال وهو يفرك كفّيه:

-خلال وقت قصير، سيصبح المكان دافئًا. والآن، ماذا تريد على العشاء؟

-بيتزا؟

-بيتزا إذن.

ضحكا معًا في تواطؤ. لم تكن آية تسمح باقتناء البيتزا إلّا نادرًا، وتحرص على وجبات صحيّة ومتوازنة للجميع. طلب عمر البيتزا من المطعم القريب، ثمّ أخذ يتنقّل في أرجاء الشقّة في حنين، بينما شغّل صهيب جهاز التّلفاز واستلقى على الأريكة يتابع برنامج كرتون.

حين غادر فرنسا منذ أكثر من سنتين، لم يأخذ شيئا من متاعه. سافر خفيفًا بلا زاد ولا ذكريات. خلّف وراءه الشقة كما تركها قبل الحادثة. كان كلّ شيء تقريبًا في مكانه. غير أنّ المطبخ نظيف، ولا أثر لثياب متّسخة في سلّة الغسيل. تذكّر أنّ عائشة أمضت بعض الوقت في الشقّة حين كان في المشفى.

ابتسم وهو ينفض الغبار عن مجموعة الكتب التي تملأ الرفّ الذي يعلو السّرير. مرّ بصره على العناوين في شرود، وحين قرأ «التّعافي من الصّدمة»، شعر بألم في صدره. لعلّه لم يتعاف بعد. لعلّه يحتاج إلى بدء العلاج من جديد. تنهّد، ثمّ أعاد الكتاب إلى مكانه.

حين عاد إلى غرفة المعيشة، وجد أنّ صهيبًا قد غطّ في نوم عميق على الأريكة. كانت الرّحلة بالقطار طويلة، والبرد لاذعًا في الخارج، بما يليق بشهر ديسمبر باريسيّ. ما إنّ لفّه دفء الشقّة حتّى استسلم للنّعاس خاوي البطن.

ابتسم في إشفاق. سيوقظه حين تصل البيتزا.

***

أوقف السّيّارة المستأجرة في أوّل الشّارع، ثمّ نزل برفقة صهيب. لم تكن هناك أماكن توقّف شاغرة أقرب. لفّ الوشاح حول عنق الفتى وغطّى رأسه بقبّعة المعطف، ثمّ سار ممسكًا بكفّه. كان رذاذ مطرٍ قد شرع يتساقط منذ لحظات. انتبه إلى نظرات الطّفل المتفحّصة تجاهه. التفت إليه مستفسرًا فقال صهيب:

-أنت لا تشعر بالبرد؟

ضحك عمر ثمّ قال:

-بلى.. لكنّني أحبّ البرد!

حدجه الطّفل بنظرة استغراب ولم يعقّب. ركبا المصعد إلى الطّابق الرّابع، ثمّ توقّفا عند الشّقة المنشودة. قرع عمر الجرس ثمّ نظر إلى صهيب بابتسامة واسعة:

-أنت مستعدّ؟

أومأ الطّفل في ثقة. ثمّ فتح الباب، وظهرت رانيا عند المدخل. قالت في ترحاب:

-دكتور عمر، كيف حالك؟ هذا صهيب، أليس كذلك؟

مدّت كفّها، فصافحها الطّفل في خجل.

-تعال، عزّ الدّين في انتظارك.

قال عمر وهو يلوّح للولد:

-سأعود لاصطحابه خلال ساعتين.

-بالتّأكيد.

استدار على عقبيه دون إطالة وسار باتّجاه المصعد. كان قد أعلم ياسمين بزيارته منذ أسبوع. طلب إذنها باصطحاب صهيب لرؤية عزّ الدّين كما وعده سابقًا. تبادلا بضع رسائل مقتضبة ورسميّة. حصل على العنوان والموعد. لكنّه لم يرها اليوم، ولم ير عزّ الدّين أيضا. لم يكن من اللّائق أن يسأل عنهما ما دامت اختارت أن تُرسل رانيا لاستقباله.

جلس في السّيّارة ولم يغادر موقعه. كان بوسعه الانشغال بأيّ شيء خلال ساعتين، لكنّه آثر البقاء بالقرب، ومراقبة قطرات الماء وهي تنزل على زجاج النّافذة في سرحان.

بعد دقائق، انتبه إلى السّيّارة التي توقّفت في الشّارع المتعامد، ثمّ نزل منها شخصان. ألقى نظرة عابرة، ثمّ عاد ليحدّق في انتباه في شبح الرّجل الذي عبر الشّارع مسرعًا، وبرفقته فتى في العاشرة ربّما. إنّه يعرف من يكون ذلك الرّجل: الدّكتور يوسف!

كان وجوده في الجوار صدفة غريبة. تابع خطّ سيره باهتمام، ولم يخطئ ظنّه. لمحه وهو يتجاوز مدخل البناية ذاتها ليختفي داخلها.

فكّر في استغراب: هل تشمل الدّعوة لأمسية اللّعب بين الصّبيان ابن الدّكتور يوسف أيضا؟ لم يكن يتوقّع أن تكون العلاقات قد تطوّرت خلال الشّهور الماضية لتصبح بتلك الدّرجة من الشّخصيّة والحميميّة!

استمرّ يعاين عقارب ساعته في قلق. لقد مضى وقت طويل منذ صعد الرّجل وابنه، لكنّ أحدهما لم ينزل بعد! الارتقاء إلى الطّابق الرّابع بالمصعد لا يحتاج أكثر من دقيقتين، وكذلك النّزول. لم تكن الحركة كثيرة في تلك الأمسية الماطرة. لا يمكنه أن يفترض تأخّر المصعد أكثر من ثلاث دقائق، وهذا كرم منه. لكنّ ربع ساعة مضت، ويوسف لم يغادر البناية!

حدّثته نفسه مرارًا باللّحاق به، غير أنّ الفكرة بدت سخيفة. بمَ يبرّر عودته؟ وما الذي يفعله إذا واجهه بالدّاخل؟ وماذا لو كانت شكوكه في غير محلّها، كيف سيكون موقفه حينها؟

اكتفى بمغادرة السّيّارة، والعبور جيئة وذهابًا أمام البوّابة الزّجاجيّة، متطلّعا بشكل عفويّ إلى المدخل. فكّر أنّه ربّما يكون قد تلقّى اتّصالا استبقاه بالدّاخل ليحتمي من المطر.

لكنّه لم يكن هناك أيضا.

عاد إلى سيّارته وقد استبدّ به الضّيق. ما الذي يفعله الرّجل في شقّة تقيم فيها ثلاث سيّدات وأطفال، منذ -طالع ساعته- نصف ساعة؟ لم يكن يدرك أنّ جواب ذلك السّؤال سيشقيه إلى تلك الدّرجة، وأنّ دقائق الانتظار ستكون ممضّة وحارقة كأنّه يتقلّب على الجمر!

حين لمحه أخيرًا يغادر البناية منفردًا، تنفّس الصّعداء. غير أنّه لم يكن يجد تفسيرًا لغيابه بالدّاخل لأربعين دقيقة كاملة! لم يكن يجدر به أن يسيء الظنّ بساكنات الشقّة. لم تكن أخلاق رنيم أو شقيقتها تعنيه -رغم توسّمه الخير فيهما- لكن ياسمين؟ إنّها لن تسمح بعبوره الرّدهة ما لم يكن في الأمر حاجة طارئة! وهذا الخاطر يزيد من قلقه! ماذا لو أنّ عزّ الدّين -أو أحد سكّان الشّقّة- يحتاج تدخّلا طبيّا؟

كان التّفكير يأخذه إلى متاهات من القلق لا أصل لها ولا حدّا! ولم يكن يجد وسيلة ليطفئ نار القلق التي شبّت في جوفه.

كان الجلوس بين جدران السيّارة الضيّقة في ذلك الوقت

مقيتًا وغير محتمل. ترجّل ثانية ومشى حتّى نهاية الشّارع بخطوات سريعة، لينفّس عن اضطرابه ويبدّد طاقة التوتّر المتكدّسة داخله. عاد بعد ذلك إلى مقدّمة البناء ورفع رأسه. عدّ الشّرفات الواقعة في الطّابق الرّابع، حتّى حدّد موقع الشّقة الرّابعة. كان شعاع نور يتسلّل من وراء السّتارة المسدلة. تراجع وهو يتساءل في قلّة حيلة عن جدوى ما يفعله، واختار العودة أدراجه إلى السيّارة.

كانت قد انقضت ساعة على رحيله، حين لمحه يرجع بخطوات واسعة وهو يتحدّث في انفعال على الهاتف:

-إنّه طفل مريض، ولا أرى ضررًا من قضاء كريم بعض الوقت معه!

ابتسم عمر في تهكّم. بدا كمن يقدّم أعذارًا لزوجة متشكّكة. تذكّر عندئذٍ بأنّه لم يتّصل بآية اليوم! ولقد كانت لديه نسخته الخاصّة! تناول هاتفه، وضغط على زرّ الاتّصال على الفور. بعد لحظات قصيرة ظهرت صورتها وبرفقتها آلاء. قالت وهي ترفع كفّ الطّفلة أمام الشّاشة:

-قولي مرحبا بابا!

ابتسم في رحابة صدر وهو يلاعب البنت بأصوات طفوليّة. ثمّ سألته آية:

-أين صهيب؟

-إنّه مع عزّ الدّين. سأذهب لاصطحابه بعد حين.

-كيف هو؟ وكيف هي ياسمين؟

قال ببراءة:

-لم أرهما. أتوقّع أنّ الأوضاع بخير.

سكتت آية بعد سؤالها المفخّخ. لعلّه لم يرهما (بعد)، لكنّها لا تشعر بالاطمئنان. لم يشاورها بشأن الرّحلة. كان إعلانه للسّفر المعتزم مثل الإعلام بقرار لا يستوجب نقاشًا، وهي لم تحاول أبدًا. لقد تقبّلت اهتمامه بالطّفل المريض، لكنّه الآن يسحب صهيبًا إلى صفّه. إنّها لا تكره تقارب الطّفلين، لكنّها تخشى تعلّق صهيب بتلك الرّحلات الفرنسيّة، وبداخلها خوف غريزيّ من فرنسا وما فيها.

-كيف هي آلاء؟

-لولو؟ إنّها تتدرّب على المشي. هيا يا لولو، أري بابا كيف تمشين!

أطلقت البنت على السّجاد لتتقدّم بخطوات متعثّرة وكفّها تتمسّك بالأريكة قبل أن تسقط على وجهها.

رفعتها آية بسرعة، ثمّ عادت لتقول بنبرة رجاء:

-عجّلا بالعودة، لا تريد أن تفوّت خطوات لولو الأولى، أليس كذلك؟

-لن نتأخّر. أعدك.

تنهّد بعد أن أنهى الاتّصال، كمن أدّى واجبًا لا يجدر به نسيانه. إنّه حريص على الاطمئنان عليها بشكل يوميّ. يحاول أن يشعرها بقربه رغم تباعد المسافات. لكنّ اتّصالاتها تكون غالبًا عتابًا ورجاءً بالعودة السّريعة، ولم يمض سوى ثلاثة أيّام على رحيله! إنّه يشتاق إليها وإلى بيتهما بالتّأكيد، لكنّ إلحاحها يورثه مللًا وضيقًا، كمن يسأم طفلا يبالغ في

الطّلبات.

غادر السّيارة ووقف قرب المدخل يعدّ الدّقائق. لم يغب يوسف بالدّاخل أكثر من عشر دقائق هذه المرّة. وهي رغم ذلك فترة طويلة. فكّر في استياء بأنّ الرّجل عديم الذّوق. حين لمحه يعبر البوابّة، نظر في عينيه مباشرة وحيّاه بصوت عالٍ:

-دكتور يوسف، كيف حالك؟

توقّف الرّجل في دهشة، ثمّ حدّق بعمر متفرّسًا. سرعان ما تعرّف إليه فاتّجه نحوه بكفّ ممدودة. تصافح الرّجلان، ثمّ قال يوسف وقد انتبه إلى تفاصيل فاتته:

-صحيح، أنت عمّ عزّ الدّين! هل الطّفل الذي فوق مع عزّ الدّين هو ابنك؟

-نعم، لقد حزرت.

ضحك يوسف في مرح وقال:

-هذا مدهش، لقد أمضى الفتيان أمسية لطيفة. أليس كذلك يا كريم؟

التفت إلى ولده الذي كان يقف جانبًا يعقد ذراعيه أمام صدره وقد بدا عليه التبرّم. بادره عمر بشكل مفاجئ:

-هل تأتي إلى هنا كثيرًا؟

-عفوًا؟

-أقصد، لم أكن أعلم أنّ لديك علاقة شخصيّة بعائلة عزّ الدّين.

كانت نظرات عمر قد تخلّت عن غشاء المجاملة المصطنع وغدت أقلّ ودّية. لكنّ ذلك لم يؤثّر في يوسف. قال بلهجة جادّة:

-قلت أنّك عمّ عزّ الدّين؟ لقد لمست في لهجتك لكنة مغربيّة. هل كان والد عزّ الدّين من المغرب؟

رفع عمر حاجبيه وقال بجفاف:

-وفيمَ يعنيك الأمر؟

-لا أريد الإساءة، إنّما يهمّني أن أعرف بأيّ صفة يقع استجوابي في هذه اللّحظة: هل أنت وليّ أمر عزّ الدّين؟ أم ياسمين؟

ضيّق عمر عينيه في نظرة باردة وقد انتبه إلى مناداته إيّاها باسمها المجرّد، ثمّ قال:

-هذا يبدو عادلا. عمت مساءً دكتور يوسف!

ثمّ سار باتّجاه المدخل. رغم بروده الخارجيّ استمرّ يشعر بالاضطراب وهو يرتقي إلى الطّابق الرّابع. حين قرع الجرس، ظهرت رانيا من جديد وبرفقتها صهيب. سألها هذه المرّة:

-هل عزّ الدّين بخير؟

تبادلت رانيا وصهيب نظرة مريبة، ثمّ قالت في أسف:

-لقد تعرّض لوعكة هذا المساء.. وأنا بمفردي مع الأطفال. لحسن الحظّ أنّ الدّكتور يوسف جاء منذ حين. لقد شعرت

بالذّعر، ولم أدر ما يجب عليّ فعله!

هزّ رأسه في تفهّم وقال بفتور:

-نعم، لحسن الحظّ!

كان يهمّ بالسّؤال عن ياسمين، حين سمع وقع الخطوات القادمة من خلفه. استدار ليجد رنيم وياسمين مقبلتين ومحمّلتين بالمشتريات. أفسح لهما الطّريق وهو يقول معتذرًا:

-جئت لأخذ صهيب. كيف حالك أستاذة رنيم؟ كيف أنت ياسمين؟

ربّتت ياسمين على رأس صهيب وقالت بلهجة دافئة:

-إذن هذا هو صهيب! سعيدة بلقائك أيّها البطل. هل استمتعت برفقة عزّ الدّين؟ أرجو أنّك لم تشعر بالملل.

هزّ الولد رأسه بابتسامة لبقة وقال:

-هل يمكنني المجيء لرؤية عزّ الدّين مرّة أخرى؟

-هل ترغب في ذلك؟ بالتّأكيد يا صغيري. يسعدني أنّكما صرتما صديقين!

قال بنفس اللّهجة التي تفوق سنّه:

-لقد اتّفقنا بأن يكون أخي الأصغر.

-هذا لطيف جدّا منك يا صهيب! أنا ممتنّة لك. هلّا اعتنيت بأخيك الصّغير في غيابي؟

أومأ بحماس، فضحكت ياسمين ثمّ قالت مخاطبة عمر:

-إنّه طفل مميّز. حفظه الله لكما.

حين صارا وحيدين في السيّارة، سأل عمر صهيبًا في فضول:

-كيف كانت الأمسية؟ وكيف وجدت عزّ الدّين؟

بدت علامات الارتباك على الطّفل وهو يقول في ذعر:

-لقد ارتكبتُ حماقة! لكنّ الخالة رانيا وعدت بأنّها لن تخبرك!

رفع عمر حاجبيه ثمّ قال:

-لكنّك تريد أن تخبرني الآن؟

-لن تغضب منّي، أليس كذلك؟

-لن أفعل. أعدك.

كان رهاب ارتكاب الأخطاء قد غادر الولد تدريجيّا منذ مجيئه لمشاركة حياة العائلة في لوزان. بعد تكرار الإخفاقات الطفّوليّة ومقابلتها بهدوء وتفهّم من طرف عمر وآية، لم يعد شبح العودة إلى دار الرّعاية يلازمه. صار قادرًا على الاعترف بما اقترفه بقدر صحيّ من الإحساس بالذّنب، ودون خوف مرضيّ من العواقب.

-لقد كنت أدفع كرسيّ عزّ الدّين عبر الصّالة، نلعب لعبة القطار.. والقطار يجب أن يكون سريعًا.. لكنّ عجلات الكرسيّ

تعثّرت بطرف السجّاد، و.. سقط عزّ الدّين!

-هل كانت إصابته سيّئة؟

رفع صهيب كفّيه في حركة مسرحيّة وهو يقول في تأثّر:

-أظنّه فقد الوعي! أصيبت الخالة رانيا بالهلع، و.. وصل الطّبيب بعد ذلك بسرعة.

-حمدًا لله.

تنهّد عمر في ارتياح، ثمّ ربّت على رأس الطّفل بحنوّ وقال محذّرًا:

-الطّبيب لن يكون متوافرًا في كلّ وقت، لذلك يجب أن تكون أكثر حذرًا في المرّة القادمة.

أومأ صهيب بحرارة. لقد تعلّم درسه. ساد الصّمت لبرهة قبل أن يسأل عمر من جديد:

-هل تعرّفت إلى كريم، ابن الدّكتور يوسف؟

هزّ الولد كتفيه وقال:

-لم يكن مهتمّا باللّعب معنا. لقد جلس على المقعد بأدب، شرب العصير الذي قدّمته الخالة رانيا، ثمّ انشغل بهاتفه. لا أظنّه يريد أن يعود مرّة أخرى.

ابتسم عمر في رضا. سيكون من الأفضل ألّا يجد الدّكتور يوسف ذريعة للعودة.

-29-

اندفعت رنيم عبر بوّابة الجامعة وعلامات السّخط تملأ محيّاها. كان يجب أن تدرك سريعًا أنّها قد وصلت إلى طريق مسدود. منذ رحيل مشرفتها، وهي تواجه العراقيل واحدًا إثر الآخر. والآن لم يعد بوسعها أن تتحمّل أكثر. لقد باءت محاولاتها بتغيير المشرف على رسالتها بالفشل. وضعتها إدارة القسم أمام خيارين أحلاهما مرّ: إمّا أن تبدأ رسالة جديدة من الصّفر مع مشرف جديد، وإمّا أن تستمرّ مع المشرف السّمج ذاته.

بشكل أدقّ: إمّا أن تتخلّى عن جهود سنتين كأنّها لم تكن، وإمّا أن تضطرّ إلى العمل مع شخص يغيظها ويكدّر مزاجها! كانت ما تزال تلوك تلك الأفكار القاتمة، حين أعلن هاتفها عن اتّصال من شهاب. استرخت أساريرها على الفور وهي تهتف في حماس:

-أهلا، حبيبي.. كيف حالك؟ وكيف هما إياد وسمر؟ لا تدري كم اشتقت إليكم! لكنّني عالقة هنا...

كانت قد قرّرت الاستسلام لرغبته ومناداة ابنها بـ«إياد»، الاسم الذي انتقاه هو له. لم يكن هناك من سبب للعناد والإصرار على اسم «عمر» الذي اختارته نكاية فيه. بعد أن عادت المياه إلى مجاريها وصفت الحياة بينهما، لم تعد لها حاجة إلى الشماتة والتشفي. لكنّ أحدًا منهما لم يبادر إلى تغيير اسم الطّفل في سجّلات الأحوال المدنيّة.

-مفاجأة! سآتي مع الأطفال لقضاء احتفالات رأس السّنة في باريس!

في تلك اللّحظة، شعرت رنيم ببرودة في الجوّ تلمس بشرتها برقّة. مدّت راحتها لتستقبل ندف الثّلج الأولى لذلك الشّتاء، وابتسمت في جذل طفوليّ. هتفت بذهن غائب:

-شهاب، إنّها تثلج!

-هذا جميل! إذن هلّا خطّطت لبعض الأنشطة الممتعة لنا معًا؟

كان أوّل تساقط للثّلج في شتاء ذلك العام. شتاء باريس ليس كثير الثّلوج، لذلك تشتاق إليه وتحتفي به في كلّ مرّة

مثل مناسبة مبهجة. قالت وهي تواصل التقاط الكريّات الشفّافة في استمتاع.

-بالتّأكيد. كم تمكثون؟ سأحجز لنا في فندقنا الاعتياديّ.. ونستعيد أجواء شهر العسل!

ضحك شهاب قبل أن يقول:

-هذا.. يبدو شاعريًا للغاية! لكنّه سيكون مكلفًا، في رأس السّنة تحديدًا. أعتقد أنّه يمكننا البقاء في الشّقة!

تنحنحت في حرج ثمّ قالت:

-أنت تعلم، الشّقة ليست خالية.

-رانيا ليست غريبة. يمكنها النّوم في غرفة الأطفال.

-ليست رانيا وحدها. ياسمين ما زالت هنا.

تغيّر صوته وهو يقول في ضيق:

-ياسمين؟ تقصدين أنّها تقطن الشقّة، منذ بداية الصّيف؟

-أنت تعلم، ما زال طفلها مريضًا.. وستحتاج بعض الوقت بعد، حتّى ينتهي علاجه.

ساد صمت مزعج على الجانب الآخر. تعرف شهاب جيّدا: حين ينفعل، فإنّه يفضّل الصمت. قال أخيرًا بصوت بارد:

-أنا لا أفهم.. لا يمكنني أن أسكن شقّتي لأنّ ضيوفًا احتلّوها منذ شهور، ولا يرغبون في المغادرة، والآن عليّ أن أقيم في فندق؟! أعرف أنّ ياسمين صديقتك، وأنّها تمرّ بظروف صعبة.. لكنّ الوضع لم يعد مقبولا.

قالت رنيم مبرّرة:

-حين عرضت عليها الإقامة في الشّقّة، كانت شاغرة تمامًا، ولم أظنّ أنّنا قد نحتاجها قريبًا.. أو أنّ ظرف ياسمين سيستمرّ كلّ هذا الوقت!

-إذن، والوضع كما هو عليه الآن، ماذا ستفعلين؟

تنهّدت في استسلام وهي تقول في فتور:

-سأتصرّف.

أنهت الاتّصال وقد تكدّر خاطرها. لا يمكنها أن تلمّح ولو إيحاءً لياسمين بأنّها تحتاج الشّقة في فترة إجازة رأس السّنة. سيمسّ ذلك من كرامتها. حتّى لو أبدت تفهّمًا فإنّها هي -رنيم- لن تشعر بالرّاحة. لقد ألحّت ياسمين كثيرًا لتدفع إيجارًا، لكنّها امتنعت عن القبول، واكتفت بالسّماح لها بسداد الفواتير. لم يكن من اللّطيف أن تغيّر رأيها الآن. حتّى المستأجرون يحصلون على فترة تنبيه شهرين مسبقًا! فكيف لها أن تطلب منها الرّحيل الأسبوع المقبل؟

لكنّها تستطيع أن تفعل شيئا آخر. جلست أمام عجلة القيادة في سيّارتها وانشغلت بالبحث في صفحات وكالات الأسفار المحليّة. إن لم تكن ستقيم هي وعائلتها في الفندق، فيمكنها أن تهدي ياسمين إقامةً هناك لأسبوع! يبقى عليها أن تقنعها بالأمر دون أن تثير ريبتها.

قاطعها اتّصال وارد آخر. حدّقت في الشّاشة لبرهة بعد أن تعرّفت إلى رقم عمر. حسنًا، ما الذي يمكن أن يريده منها

الآن؟ لقد صادفته منذ يومين عند مدخل الشّقة. بدا أنّه قد عاد للإقامة في باريس خلال الإجازة.

-مرحبًا دكتور عمر، كيف يمكنني أن أخدمك؟

انتبه إلى لهجة التهكّم في صوتها، لكنّه تجاهلها ليقول:

-أنت تعرفين، بشأن الدّكتور يوسف؟

تمهّلت قبل أن تقول في شكّ:

-الدّكتور يوسف؟ ما شأنه؟

-أعني.. هل هو متزوّج؟

تابعت في سخرية:

-إن كنت تودّ السّؤال عن الأحوال الشّخصيّة للدّكتور يوسف، فقد أخطأت العنوان! إنّما اختصارًا للوقت والجهد، يمكنك أن تعرف أنّه مطلّق، ولديه طفل.

تردّد عمر قبل أن يضيف:

-لاحظت أنّه يحوم حول ياسمين.. كأنّه تجاوز حدود العلاقة المهنيّة بين الطبيب وأهل المريض!

قالت رنيم ببرود:

-وماذا لو كان الأمر كذلك؟ لماذا تهتمّ؟

شعرت بإحراجه رغم استمرار الصّمت لوهلة. لم تكن لديه صفة واضحة أو معتبرة ليستنكر أو يحاسب أو يعاتب. ثمّ قرأت الاستغراب في صوته حين تكلّم:

-هل تفكّر ياسمين بالزّواج ثانيةً؟

قالت في نوع من التحدّي:

-وماذا لو كانت كذلك؟ إنّها شابّة والحياة أمامها!

-أعني.. لم أعتقد أنّها قد تفكّر في الزّواج.. بعد هيثم رحمه الله!

هل كانت الحيرة أم النّدم ما غلب على نبرته؟ كان انفعال خفيّ يغشى صوته، لكنّها تشعر به بوضوح. بدا تائهًا ومكشوفًا كمن أُخذ على حين غرّة. لعلّه لم يستعدّ لخوض ذلك الحديث، وتورّط دون تمهيد، ولم يكن منحى الحوار يروقها أيضًا. لكنّها قالت بإخلاص:

-عمر، ما الذي تريده من ياسمين؟

جاء السّؤال مفاجئًا ومباشرًا. لم يكن قد توقّف ليطرحه على نفسه بهدوء وموضوعيّة، ليس بعد أن صرف النّظر عن احتضان عزّ الدّين وقرّر إعطاء زواجه وآية فرصة. بل حتّى في تلك الآونة التي مرّ خلالها بباله خاطر طلب يدها، فإنّه لم يتوقّع أبدًا أنّها قد ترضى! فما الذي يبقيه منتبهًا لكلّ ما يخصّها؟

ربّما كان كلاهما بحاجة إلى تلك الإجابة الغامضة والملتبسة حتّى اللّحظة.

لعلّه.. إن هو توقّع رغبتها في زواج ثانٍ، كان تصرّف بشكل مختلف. هل كان ليتّخذ قرارات غير التي اتّخذها؟ وهل يملك أن يفعل بواقع مثل واقعه؟ تاه للحظات في سراديب

افتراضات واحتمالات لم ولن ترى النّور. لكنّه لم ينطق. لم يكن بحوزته ردّ يشفي الغليل ويجمع شتات ذهنه. تابعت رنيم:

-أعرف أنّك فعلت الكثير من أجلها وعزّ الدّين.. وأعترف أنّني ساعدتك حتّى الآن، لأنّني أشفقت من إحساسك بالذّنب تجاه هيثم. وشعرت بأنّ ما تفعله صواب. لكن الآن.. ربّما حان الوقت لتفترق الطّرق. أنت متزوّج.. وهي، قد تتزوّج في وقت قريب، وتصبح مسؤوليّة رجل آخر..

ثمّ أضافت:

-أم أنّك تريدها زوجة ثانية؟

نطقت سؤالها الأخير بلهجة مستنكرة. بدا لفظ «زوجة ثانية» قذرًا ومسيئًا وغير لائق.

لم يكن يليق بصاحبتها أن تكون زوجة ثانية! في محيطها تعتبر الزّوجة الثّانية امرأة دنيئة، خطفت رجلا من زوجته وعائلته.. وقد وصله المعنى بوضوح جليّ.

انتبه إلى مقدار تورّطه. لم يكن يفكّر بشكل سويّ منذ لاحظ وجود الدّكتور يوسف حولها. هل غلبته الغيرة فأعمته؟ وبأيّ حقّ؟ كان مهزوزًا ومرتبكًا وهو يستمع إلى رنيم التي تابعت لتضع النّقاط على الحروف:

-ليس هناك ما يمكنك أن تقدّمه إليها بعد الآن. يكفي ما فعلت.

***

حين وصلت رنيم أمام المبنى، لاحظت الشابّ الواقف عند البوّابة مستندًا إلى الجدار. بدا لها مألوفًا. لكنّها لم تتوقّف. واصلت طريقها لتركن سيّارتها في المرأب تحت الأرضيّ قبل أن ترتقي إلى الشّقّة.

لبثت متوتّرة طوال الأمسية. لم تستطع أن تفاتح ياسمين بشأن زيارة شهاب، وبقي الحديث معلّقا على شفتيها. قالت أخيرًا بينما تعبث بأطراف خصلاتها:

-ياسمين، ماذا ستفعلين في عطلة رأس السّنة؟

هزّت ياسمين كتفيها في لا مبالاة وقالت:

-لا شيء. لا أفكّر بشيء خاصّ.

-ألا تودّين السّفر؟ أو على الأقلّ إمضاء بضعة أيّام في فندق؟

ضحكت ياسمين في استغراب وقالت:

-لو كنت لأسافر لسافرت إلى تونس.. لكنّ حالة عزّ الدّين لا تتحمّل السّفر الطويل. إن كنت تودّين السّفر برفقة رانيا، فلا تحملا همّي.. سأكون بخير بمفردي هنا.

-اعترفت رنيم على استحياء:

-في الحقيقة، سأمضي العطلة مع شهاب والطّفلين!

قالت رانيا وهي تستلقي على الأريكة بجوارها وتقضم البطاطس بقرمشة عالية:

-استمتعي بوقتك! سأبقى أنا برفقة ياسمين.

حدجتها رنيم بنظرة قاسية وأشارت برأسها في اتّجاه الغرفة. تطلّعت إليها رانيا بنظرات متسائلة دون أن تترك كيس البطاطس أو تتوقّف عن الأكل. لكنّ رنيم واصلت الإشارة بحركات أسرع من رأسها وحاجبيها، مع تقطيب جبينها وزمّ شفتيها، وحين يئست من استيعابها، قالت في غيظ:

-رانيا، هل يمكنك المجيء لحظة!

ثمّ سبقتها إلى الغرفة. جاءت رانيا بعد ثوانٍ قليلة، وهي تجرّ قدميها بلا حماس. جلست على السّرير وقالت في ضيق:

-إن كنت تريدين الحديث بشأن جاسر، فوفّري جهدك!

-جاسر؟ ما شأن جاسر؟

ابتسمت رانيا في حرج:

-لم يكن هذا الموضوع؟ ما الأمر إذن؟

-شهاب!

أخذت رنيم تذرع الغرفة جيئة وذهابًا وهي تنقل كلمات شهاب ذلك المساء في انفعال، وتحرّك ذراعيها في الهواء في إشارات واسعة. هتفت رانيا وقد أدركت ما يحصل:

-لذلك تحاولين إرسالها في رحلة!

-لا أريد أن أجرحها بالحديث عن الشقّة.

هزّت رانيا كتفيها وقالت:

-اسمعي، ياسمين ليست طفلة. بإمكانها تفهّم موقفك وشهاب.

-لكن أين ستذهب الآن؟

-إن أخبرتها بشأن زيارة شهاب، ستقبل بالذّهاب إلى الفندق.

-وقد تجرح كبرياؤها وترفض أن أدفع! وأنت تعلمين كم أنّ مصاريف العلاج مكلفة!

-حسنًا.. ربّما يمكنها الانتقال إلى شقّة الشّركة؟

ضربت رنيم جبهتها بباطن كفّها وهي تهتف:

-الشّركة؟ لقد نسيت أمرها!

-لقد أقامت هناك بعد الحادثة. سيكون المكان مألوفًا. ثمّ.. أليس العقد مسجّلا باسم زوجها؟

-لقد اشترى عمر الشّقّة، لكنّ الفواتير كانت باسم هيثم.. كونه مدير الشّركة.

-حسنًا. هل ما زالت الشّقة خالية؟

-أعدت المفاتيح إلى عمر منذ فترة. لا أظنّه قد تصرّف في العقار. كنت لأعرف لو أنّه طلب من جورج تأجير المكان أو بيعه...

-وعمر هنا في باريس، أليس كذلك؟

-بوسعي طلب المفاتيح منه. لا أظنّه يرفض!

-حللنا المشكلة!

همست رنيم في توجّس:

-هل ستوافق ياسمين؟

-سنجعل الأمر يبدو طبيعيا: الشقة ملك للشركة التي كان زوجها مديرًا لها، ستسألينها إن كان يضايقها أن تستقبلي شهابًا والأطفال هناك، لأنّ الفنادق مشغولة وعالية الكلفة في عطلة رأس السّنة! ستكون هي من تقترح عليك المجيء بهم إلى هنا!

اتّسعت ابتسامة رنيم في رضا ثمّ ضربت الأختان كفّا بكفّ. هتفت رنيم فجأة وقد تذكّرت شيئا:

-جاسرا! هل كان يقف عند المدخل؟

-رأيته؟

أومأت رنيم وهي تسأل:

-ما قصّته؟

تأفّفت رانيا وهي تقول:

-لا أدري. إنّه يلاحقني في كلّ وقت! رغم أنّني كنت واضحة جدّا في السّابق.. وهذه المرّة أيضا. لا أظنّني وهبته أدنى وميض أمل ليصرّ بهذا الشّكل!

-هل تريدين رفع قضيّة ملاحقة وحظر تواجده حول البناء؟

ضحكت رانيا والتمعت في عينيها نظرة استمتاع:

-لقد نسيت أنّ لي شقيقة محامية! لكن لا، ليس الأمر بهذا السّوء. ثمّ، لا أريد أن تنزعج ميار.

-حسنًا، إذا احتجتني، تعرفين أين تجدينني.. في الغرفة المجاورة!

ضحكتا معًا، ثمّ خرجت رانيا لتنضمّ إلى ياسمين في غرفة المعيشة، بينما تناولت رنيم هاتفها. ستتّصل بعمر لتطلب منه

معروفًا يخصّ ياسمين، بينما سبق وطلبت منه منذ ساعات قليلة ألا يتدخّل في حياتها بعد الآن! تنهّدت في استياء، ثمّ ضغطت على زرّ الاتّصال.

***

حين اصطحب صهيبًا لرؤية عزّ الدّين ذلك اليوم، كانت رنيم من استقبله. وهو يعرف بوضوح سبب مبادرتها. بعد أن صار صهيب داخل الشّقة، فكّ المفاتيح عن علّاقته ووضعها في كفّها دون نقاش، ثمّ قال:

-سأعود خلال ساعتين.

استوقفته فجأة وهي تهمس:

-عمر، شكرًا لتفهّمك. وآسفة من أجل حديثنا بالأمس.

هزّ كتفيه دون أن يردّ. لم يكن هناك ما يدعو إلى الأسف من جانبها، ولا كلمات لديه ليعلّق. مشى باتّجاه المصعد في شرود. حين اتّصلت بالأمس، لم يكن قد تجاوز مشاعر الكآبة التي هاجمته بعد حديثهما الأوّل. لقد كشفت بقسوة عمّا لم

يجرؤ على مصارحة نفسه به.

جاءت الحقيقة المرّة على لسان رنيم: ماذا لديه ليقدّمه لها؟ إنّه متزوّج وعقيم!

لم يرد أن يفكّر في الأسوأ: ماذا لو قدّر لها أن تفقد عزّ الدّين؟ بزواجها منه ستكون قد فقدت كلّ فرص الأمومة! وهو لا يتحمّل أن يظلم امرأة ثانية. يكفي ما يشعر به من ذنب تجاه آية، فكيف يسحبها إلى دوّامة حياته الأليمة؟ ثمّ تتداعى أفكاره لتعيده إلى آية. مجرّد تفكيره في زواج ثانٍ إساءة إليها، وهي لا تستحقّ منه التّكران بعد كلّ تضحياتها. لقد وعد بأن تكون هي والأطفال أهمّ أولويّاته، وقد آن له أن ينفّذ. إنّ حياته مكتملة الأركان الآن بالأنفاس الثلاثة التي تتردّد داخل جدران بيته. أمّا زواجه من ياسمين، فكيف يبرّره؟ تحقيق لحلم قديم؟ رعاية لأرملة صاحبه وطفله؟

أمنيات النّفس المستحيلة لم تكن تورثه إلا حسرة وألمًا. وقد كان أسلم لقلبه وقلبها أن ينأى بنفسه عن فتنة الاقتراب دون أمل الوصال. ورغم أنّه لم يحدّث آية قطّ عن عاطفته القديمة تجاه ياسمين، فقد كان يداخله إحساس مبهم بأنّها تعرف. كان بوسعها أن تحزر بحدس المرأة العجيب الذي لا

يخطئ. وهو لم يكن يريد أن يؤذيها بأيّ طريقة.

ابتلع حزنه وخيبته، وصعد إلى الطّابق العلويّ حيث شقّة الشّركة. فتح الباب وتطلّع إلى الفضاء في حنين. كان فرش الغرف قد شهد تغييرًا عمّا تركه عليه. صارت غرفة المختبر مناسبة للنّوم، وقاعة الاستراحة غرفة معيشة. وحده مكتب المدير لبث مغلقًا كما خلّفه. علم أنّ ياسمين قد أقامت في الشقّة لشهور بعد الحادثة. لكنّ المكان مهمل منذ سنوات، وقد تراكم على أثاثه الغبار. اتّصل بشركة التّنظيف التي كانت توفّر عمّالا لصيانة الشرّكة من قبل، وطلب عاملة من أجل الغد. سيكون قد اطمأنّ لنظافة المكان قبل أن يسلّم المفاتيح في المساء.

حين عاد لاصطحاب صهيب بعد ساعتين، ظهرت ياسمين عند الباب. قالت في ودّ وهي تضع بين يدي الطّفل علبة بلاستيك صغيرة:

-لقد حضّر الأطفال بعض الكعك اليوم. إنّها ساخنة، أخرجتها من الفرن منذ حين. هذا نصيبك يا صهيب!

ابتسم عمر، وهو يرنو إلى صهيب ثمّ قال:

-هل ودّعت عزّ الدين؟ سوف نسافر غدًا صباحًا.

التفت الولد في دهشة وقال:

-ظننت أنّنا لن نسافر قبل ثلاثة أيّام من الآن!

-لقد تغيّرت الظروف، نحتاج العودة. آية وآلاء بانتظارنا.

بدت الخيبة على ملامح الولد وهو يقول بفتور:

-سأعود بعد حين.

ترك علبة الكعك بين يدي عمر وركض إلى الدّاخل من جديد ليودّع صاحبه. وقف عمر في حرج قبالة ياسمين. بحث في رأسه عن شيء يقوله، لكنّ بديهته لم تسعفه. كانت ياسمين من كسر جدار الصّمت أولا حين قالت:

-وددت أن أشكرك على إحضارك صهيبًا لرؤية عزّ الدّين، لقد خفّف حضوره عنه الكثير من الوحدة والاكتئاب. لم يكن له أصدقاء قطّ، لكنّه يستمتع برفقة صهيب!

تسلّلت الرّاحة إلى قسماته، بينما استطردت ياسمين:

-وهذا جرّأني على طلب معروف منك: هل يمكن أن يستمرّ التّواصل بين الطّفلين عن بعد؟ ربّما يجد صهيب بعض الوقت للحديث مع عزّ الدّين بعد المدرسة؟

قال على الفور:

-بالتّأكيد، لا بأس في ذلك. أظنّ هذا سيسعد صهيبًا أيضًا.

جاء صهيب من الدّاخل وهو يمسك لعبة على شكل بطل خارق من ألعاب عزّ الدّين وقال لعمر:

-هل لديك شيء يمكن أن أتركه كذكرى لعزّ الدّين؟ لم أحضر شيئًا من ألعابي!

رفع عمر حاجبيه متفكّرًا، ثمّ وضع كفّه في جيبه. كانت لديه علّاقة مفاتيح اقتناها أثناء رحلة البتراء، على شكل قارورة صغيرة مليئة بالرّمل. نظر إلى الطّفل وقال متسائلا:

-هل تنفع هذه؟

أومأ صهيب بحرارة، ففكّ عمر العلاقة عن مفاتيحه. أخذها منه الولد وأعطاها لياسمين، وقال:

-خالة ياسمين.. هذه ذكرى من الأردن. يجب أن يحتفظ بها عزّ الدّين حتّى لقائنا القادم!

ابتسمت وهي تربّت على رأسه وقالت:

-سيفعل دون شكّ!

-30-

دفعت ياسمين كرسيّ عزّ الدّين المتحرّك حتّى مدخل الشقّة، ومن خلفها رانيا ورنيم تسحبان الحقائب. ثمّ تجاوزتهما رنيم لتدير القفل في الباب وسبقتهما إلى الدّاخل. قالت ياسمين وهي تعبر الرّدهة:

-أنت واثقة أنّ هذه الشّقة مسجّلة باسم هيثم؟

-نعم. أعني أنّها كانت على ملكيّة الشّركة.

-ظننتها مستأجرة! وإلا كانوا صادروها مع كلّ ممتلكات الشّركة!

-لقد صادروا الآلات والأجهزة، لا أظنّ أنّهم قد اهتمّوا بالعقارات.

-لو كان الأمر كذلك، لماذا لم يخبرني أحد عنها؟ أقصد، إنّها مهملة منذ سنوات! كان بالإمكان بيعها، أو على الأقلّ تأجيرها.

قالت رنيم محاولة الالتفاف حول السّؤال:

-بعد رحيلك، احتفظنا بالمفاتيح في المكتب.. وسلّمتها إلى عمر بعد مغادرته السّجن. بدا ذلك منطقيّا حينها. أنا آسفة، لم أفكّر بأنّ هيثم له نصيب في الشّقة.

-لا عليك. لست ألومك. لكن هذه مفاجأة حقيقيّة!

أضافت بعد حين متضاحكة:

-على كلّ حال، لا أظنّ هيثم دفع مبلغًا كبيرًا من أجل الشّراكة. لم تكن لدينا مدّخرات كثيرة في ذلك الوقت.

لم تعلّق رنيم، بينما قالت رانيا وهي تمرّر كفّها على المفروشات:

-المكان نظيف!

هتفت ياسمين بعد أن تفقّدت المطبخ:

-يا إلهي، الثّلاجة ملأى بالمشتريات!

جاءت رانيا لتلقي نظرة بدورها ثمّ أخذت تطالع تواريخ الصلاحيّة. سألتها ياسمين:

-هل هي أطعمة فاسدة؟

-لا تبدو كذلك. إنّها طازجة تمامًا!

لم تتساءل إحداهنّ عمّن اهتمّ بترتيب الشّقة وتجهيزها. كان الجواب واضحًا في ذهن كلّ منهنّ، وكان من الأسلم أن تحتفظ كلّ واحدة بأفكارها لنفسها. قالت رانيا في ظفر:

-لن نحتاج الخروج للتسوّق في هذا البرد!

ابتسمت ياسمين، بينما قالت رنيم في قلق:

-أنتما واثقتان؟ لا ترغبان في مشاركتنا في أنشطة رأس السّنة؟

قالت رانيا وهي تلقي بثقلها على الأريكة:

-سنكون بخير. استمتعي وعائلتك الصّغيرة!

-لأسبوع واحد فقط، هل سمعتما؟ لن تبقيا هنا طويلا. سآتي لأخذكما خلال أسبوع!

قالت رانيا محاولة إغاظتها:

-هذه الشقة تبدو جيّدة، رغم أنّها بعيدة عن مبنى اليونسكو، لكن لا بأس بها. لن أنام على الأريكة على الأقلّ.

تجاهلتها رنيم وقالت مخاطبة ياسمين:

-ياسمين، لن تتركيني وحيدة في الشّقة، أليس كذلك؟ لن أسمح ببقائك هنا أكثر من إجازة رأس السّنة. اتّفقنا؟

ابتسمت ياسمين وقالت تطمئنها:

-لا تقلقي. أنا ورانيا لا نستغني عنك.

عانقتها رنيم ثمّ لوّحت لرانيا من بعيد، وغادرت. عندما صارت في الممرّ المفضي إلى السّلم، تطلّعت إلى الدّرجات

المؤدّية إلى الطابق الأوّل. لقد رحل عمر منذ يومين. تعلم أنّ سفره المفاجئ يتعلّق بكلماتها الحادّة، وانتقال ياسمين إلى الشّقة التي تقع فوق شقّته تمامًا. إنّها تشعر بالذّنب، لأنّها طلبت منه عدم التّدخّل في حياة ياسمين، ثمّ عادت في اليوم ذاته لتطلب خدمة، بسبب مشكلاتها وشهاب!

زفرت وهي تطلب المصعد، ثمّ تحسّن مزاجها على الفور وهي تتذكّر مشوارها المقبل: ستذهب لاستقبال شهاب والطّفلين في المطار. وهي قد اشتاقت إليهم أكثر من أيّ شيء في العالم.

***

مرّرت ياسمين أصابعها لتتخلّل الزّغب القصير الذي أخذ ينمو على رأس طفلها. لقد تساقط شعره تمامًا إثر العلاج الكيميائيّ، لكنّه أخذ ينمو من جديد. بدا أبيض باهتًا في البداية، ثمّ ظهرت تلك اللّمعة المعدنيّة المحبّبة إلى قلبها. لقد كان شعره ميزته منذ ولادته. حتّى لو كان علامة لمرض عضال، فهو يبقى آسرًا ومذهلًا.

كنت أمسية رأس السّنة في باريس مميّزة دائمًا، تنار

الطّرقات بالمصابيح المتلألئة منذ أسابيع، ويغمر النّشاط الشّوارع حتّى ساعات الصّباح الأولى. كانت رانيا قد انضمّت إلى رنيم وعائلتها من أجل السّهرة، وفضّلت هي الخلود إلى النّوم باكرًا. اتّصلت بفاطمة وزهور كما تفعل كلّ مساء، ثمّ أوت إلى السّرير. غير أنّه لم يغمض لها جفن. كانت تتناهى إليها من الطّريق الجانبيّة التي تطلّ عليها نوافذ البناء أصوات ضحكات وعربدة ليليّة، لمحتفلين قادتهم أقدامهم المتسكّعة إلى الجوار.

وإن كانت تلك الضوّضاء قد أفسدت عليها نومها، فإنّ عزّ الدّين يغطّ في نوم عميق لا يعكّره شيء. تأمّلت وجهه الملائكيّ الهادئ تحت بصيص النّور المتسلّل من الشارع، ثمّ تنهّدت. إنّه بخيرٍ اليوم، لكنّها لا تعرف ماذا يخبّئ الغد. لقد بلغ السّادسة منذ أيّام قليلة. لم تحتفل أبدًا بيوم مولده، فتلك الذّكرى ترتبط بأخرى حزينة، تثير الشّجن وتنكش الألم في أعماق صدرها وصدور ذويها. غير أنّ يوم مولده سيكون احتفالا منذ ذلك الحين! سيصبح انتصارًا على المرض، وإنجازًا يُحتفى به.

إنّ كلّ ما تأمله في تلك اللّحظة هو أن يعيش حتّى ذكرى مولده السّابعة. ذلك الرّقم الذي يرتبط في مسيرة الصّبيان

العاديّين بالأمر بالصّلاة، سيعني في حالته صمودًا وعزيمة. الأطفال المصابون بمرضه لا يعيشون حتّى السّابعة. لكنّه سيفعلها. طفلها البطل سينجح.

تساءلت في حزن: هل سيكون بوسعه الذّهاب إلى المدرسة السّنة المقبلة؟ هذا حلم آخر، تودّ لو تحقّقه من أجله. كلّ تلك الأشياء الطبيعيّة المستحيلة، تتمنّى أن تكون من نصيبه في السّنة الجديدة.

عندما شارفت السّاعة على منتصف اللّيل، تعالت أصوات الألعاب النّارية التي تعلن نهاية سنة وبداية أخرى. وقفت عند النّافذة، علّها تلمح بعضها، لكنّها لم تكن مرئيّة من موقعها. الاحتفالات تقام عادة على الجانب الآخر من المدينة، على ضفاف نهر السّين. تحرّكت في أرجاء الشقة بلا وجهة. توقّفت عند باب مكتب المدير. قبضت كفّها على الأكرة، ولم تدرها على الفور. تريّثت، كأنّها تصارع رغبة في الفرار وأخرى في المواجهة. ثمّ، دفعت الدّفة وخطت إلى الدّاخل.

لعلّ هذا هو آخر المواقع التي تنفّس هيثم هواءها وتلمّس معالمها. لم يعد في حياتها أثر لوجوده. خلّفت وراءها فرنسا، وكلّ الأماكن التي جمعتهما، ورحلت بلا تردّد. لكن وهي تقف

الآن في مكتبه، تتملّكها رعشة غريبة. لم يسبق لها دخول الغرفة، لم تملك الشجاعة إبّان الحادثة، لكنّها تبدو مألوفة جدّا. تتمثّل جسده على المقعد خلف المكتب، وساقيه الطّويلتين تطلّان من الفراغ أمامه، فترتسم على شفتيها بسمة حنين.

انتبهت فجأة إلى الأشياء التي تعلو سطح المكتب. كان هناك تصميم واضح مطبوع على ورق قديم ومحفوظ بعناية، لطائرة.. التمعت عيناها وهي تتفرّس في الرّسم البيانيّ المألوف: كانت تلك الطّائرة عينها التي حطّت في فناء بيتها في «ليل» منذ سنوات! دقّقت النظر في اهتمام. كان من المستحيل أن تبقى تلك الأوراق المرتّبة على المكتب بعد مداهمة الشّرطة ومصادرتها لمحتويات الشقة كلّها!

فكّرت فجأة: عمر؟ لماذا ترك ذلك التّصميم على المكتب؟

كانت قد أدركت أنّ رنيم قد طلبت مفاتيح الشقة من عمر، وأنّه قد تولّى تنظيف المكان وتزويد الثلاجة بالمؤونة الكافية لإقامتهم. لذلك لن يكون هناك غيره لترك التّصميم على المكتب.

بعد ذلك، تحوّل انتباهها إلى الكتب المرصوفة على جانب المكتب. كانت هناك رزمة منها. تناولت الكتاب الأوّل في فضول، ثمّ الثاني. وحين وصلت إلى الثّالث، أدركت ما كانت بصدده. « التّعافي من الصّدمة»! تذكر ملابسات اقتنائها لذلك الكتاب بالذّات. عادت لتقلّب الكتب مرّة أخرى بيقين شديد هذه المرّة: تلك الكتب، إنّها لها! كانت قد منحتها لرنيم لتقدّمها لموكّلها السّجين آنذاك، علّها تخفّف عنه وحدة الحبس. غير أنّها لم تكن تدرك هويّته حينها.

هل كان عمر يعيد إليها كتبها؟ وإلا ماذا تفعل الكتب هنا، على مكتب هيثم؟

***

مشت رانيا على مهل حتّى رصيف المترو، ثمّ وقفت في بقعة منعزلة، وتناولت هاتفها. رفعت عينيها فجأة حين تملّكها إحساس غريب بأنّ شخصًا ما يراقبها. تلفّتت حولها بنظرات مدقّقة، لكنّها لم تر أحدًا. لعلّها أخطأت التّقدير. انشغلت بعد ذلك بمطالعة منشورات وسائل التّواصل الاجتماعيّ حتّى وصل المترو. لم تكن العربة مليئة، فوجدت مقعدًا بيسر. جلست وهي تضمّ إليها معطفها. كان الشّتاء ما يزال قارس

البرودة في مطلع العام الجديد.

كانت قد عادت وياسمين إلى الشقة (٤٠٤) بعد أن رحل شهاب والطّفلان. كانت تشتاق إلى الولدين الشقّيين، وقد استمتعت بلقائهما ليلة رأس السّنة. تناولت عشاءً عائليًّا برفقة رنيم وأسرتها الصّغيرة، فيما امتنعت ياسمين عن الحضور بسبب ظروف عزّ الدّين. لقد باتت ياسمين انطوائيّة وكثيرة العزلة، ليس أنّها كانت ذات طبع منفتح من قبل، لكنّها كانت على الأقلّ ترافقها ورنيم لأمسيات تسوّق مسلّية. منذ مرض ولدها لم تكد تفارقه إلا نادرًا.. وكانت ترفض أن تعرّضه للخروج في برد الشّتاء، إمعانًا في الحماية. إنّها تتفهّم قلقها، فكلّ وعكة صحيّة تصيبه في هذا الوقت قد تكون عواقبها وخيمة.

تركت المترو حين وصلت إلى محطّتها ومشت بتأنٍّ وهي تخفي كفّيها في جيوب معطفها السّميك التماسًا للدّفء. للمرّة الثّانية، استدارت لتحدّق في الشّارع الخالي وراءها وقد تملّكها ذات الإحساس الغريب بأنّ شخصًا ما يقتفي أثرها. لكنّها لم تر أحدًا. كان ذلك مزعجًا ومثيرًا للتّوتّر. حثّت الخطى بعد أن انتبهت إلى خلوّ الطّريق الفرعيّ إلا منها بعد أن هبط الظلام سريعًا.

-مرحبا أيّتها الجميلة!

شهقت في فزع حين ظهر أمامها كأنّما نبت من العدم. تراجعت في ذعر، بينما اقترب خطوة إضافيّة. كانت في عينيه نظرة عابثة وعلى شفتيه ابتسامة لزجة لا تروقها.

-ما الأمر؟ أنتِ بخير؟

-كزافيي، ما الذي تفعله هنا؟ لقد أفزعتني!

-لا يجدر بك المشي وحدك في اللّيل. إذا شئت رافقتك كلّ مساء.

ابتعدت خطوة، وقد أصبح حضوره مهيمنًا ووقفته حميميّة أكثر من اللّازم.

-شكرًا لاقتراحك. لكن لا! أرجوك، لا تهتمّ لأمري بعد الآن!

زمّ شفتيه ثمّ قال بنبرة غريبة:

-أنت تعلمين، يحدث كثير من الحوادث في اللّيل. تلك

المرّة، وجدوا فتاة مقتولة في زقاق كهذا...

سرت الرّجفة في أوصالها، وتيبّست كفّها القابضة على حقيبة يدها. حاولت أن تبدو متماسكة وهي تقول بضحكة مفتعلة:

-سأهتمّ بنفسي، لا تشغل بالك.

تحرّكت بسرعة لتتجاوزه وتشرع في الهرولة ووجيب صدرها يكاد يصمّ أذنيها. لم تكن تسمع وقع خطواته خلفها. لم تكن على يقين إذا كان ما زال يتبعها، غير أنّها حين انعطفت نحو الشّارع المتعامد أخذت تركض بقوّة وقد استبدّ بها هلع غير مفسّر. توقّفت حين وصلت عند مدخل البناية. تلفّتت حولها تطمئنّ إلى غياب أيّ وجوه مريبة، ثمّ رقنت الرمز السريّ ودفعت الدّفة الزّجاجية على عجل. بعد أن أغلقت البوّابة خلفها، تسمّرت مكانها للحظات، تحدّق في الشّارع المظلم الذي عاد طبيعيّا. لم يكن هناك ما يثير القلق. تنفّست بعمق، ثمّ ثابت إلى رشدها. ما الذي دهاها؟ إنّه كزافيي -جاسر- شقيق ميارا كيف يمكنه أن يضرّها؟ لقد بالغت في ردّة فعلها. حين ذكر الفتاة المقتولة، استنفرت حواسّها، وأصبحت ترى الخطر في كلّ مكان. ضحكت من

نفسها وهي تسير باتّجاه المصعد. ما إن دخلت إلى الشقة حتّى ارتمت على الأريكة وهي تقول:

-لقد عشت حالة فزع رهيبة!

جاءت رنيم لتجلس إلى جوارها وسألتها في اهتمام:

-ما الذي حصل؟

ضحكت رانيا في توتّر ثمّ قالت في نفس واحد:

-لقد شعرت طوال الطّريق بأنّني مراقبة.. ثمّ فجأة ظهر جاسر أمامي. قال شيئا عن الجرائم التي تحصل في الظلام للفتيات اللاتي يخرجن ليلا بمفردهنّ، فطار عقلي!

أشارت رنيم بكفّها لكي تهدأ ثمّ سألت في انتباه:

-متى شعرت بأنّك مراقبة؟

-عندما كنت في محطّة المترو، بعد أن غادرت مبنى اليونسكو...

-ومتى أيضا؟

-ثمّ بعد أن غادرت المترو في طريقي إلى هنا.

-ثمّ ظهر جاسر؟

-نعم، بعدها رأيت جاسر. يبدو أنّني كنت أتوهّم الأمر.

هزّت رنيم رأسها وقالت بلهجة جادّة:

-إن كنت قد شعرت بأنّك مراقبة، فغالب الظنّ أنّك كنت مراقبة بالفعل. حدس الأنثى لا يخطئ في شيء كهذا.

اعتدلت رانيا في جلستها وقد عادت إليها الرّجفة:

-هل تقولين بأنّني على حقّ؟

-ماذا قال جاسر؟

-اقترح أن يرافقني لأنّ الطريق خطر...

-الطّريق خطر، لأنّ جاسر يترصّدك!

-يترصّدني؟

قالت رنيم في تركيز:

-هل شعرت بالتّهديد في حديثه؟

-ليس تمامًا.. بدا كأنّه يحذّرني من الحوادث الممكنة!

-كيف كانت لهجته؟

-لا أدري، لقد شعرت بالخوف حينها. ثمّ وجدت الأمر سخيفًا.

سكتت رنيم لبرهة، ثمّ قالت معلنة:

-رانيا، أعتقد أنّ سلوك جاسر ينمّ عن مترصّد. هذه ليست المرّة الأولى التي ينتظرك فيها دون موعد. كما أنّك سبق وصددته، ومع ذلك يستمرّ في مطاردتك.

أومأت رانيا في صمت. أضافت رنيم:

-في اعتقادي، جاسر خطر عليك. لا أشعر بالاطمئنان بعد الآن من خروجك بمفردك.

ضحكت رانيا في تشنّج:

-ماذا أفعل إذن؟ أقبع في المنزل؟

-سوف آتي لاصطحابك بعد نهاية الدّوام، اتّفقنا؟ ولننظر كيف يتصرّف في الأيّام المقبلة. لكنّني أخشى أنّ الخطوات القادمة واضحة.

-ماذا تقصدين؟

تمهّلت رنيم قبل أن تقول:

-إذا كان جاسر ذا شخصيّة نرجسيّة، فهو لن يتقبّل الرّفض. سيظلّ يلاحقك، وقد يهدّدك، ويشكّل خطرًا حقيقيًّا. إذا لاحظت استمراره في الملاحقة، فسنضطرّ إلى تسجيل محضر بعدم التعرّض.

أومأت رانيا ببطء. يبدو ذلك مفزعًا، وغير واقعيّ. لكنّها ترتجف رغم ذلك.

-31-

تجاوز صهيب الرّدهة بخطوات سريعة، رمى حقيبته عند الزّاوية وحيّى آية قبل أن يركض إلى غرفته. جلس إلى مكتبه وأخرج الحاسب اللّوحيّ الذي اشتراه من أجله عمر بعد عودتهما من باريس. شغّل الجهاز وضغط على زرّ الاتّصال ببرنامج المحادثة. بعد لحظات، ظهر وجه عزّ الدّين على الشّاشة. لوّح له بحماس وقال:

-كنت في انتظارك!

-جئت بأسرع ما يمكن.

-ماذا تريد أن نفعل اليوم؟

-اشتريت كتابًا مصوّرًا فيه رسوم جميلة، تريد أن تشاهدها؟

-هذا يبدو مسليّا.

رفع صهيب الكتاب أمام العدسة وأخذا يتفرّجان على الصّور ويضحكان. بعد حين، سأل عزّ الدّين:

-أخبرني، كيف هي المدرسة؟

تفكّر صهيب في حيرة ثمّ قال ببساطة:

-المدرسة؟ إنّها مثل كلّ المدارس.

-وكيف هي المدارس؟

هتف صهيب في استغراب:

-ألم تذهب إلى مدرسة أبدًا؟

هزّ عزّ الدّين رأسه في أسف. لقد بلغ السّادسة، لكنّه لم يطأ مبنى حضانة أو روضة أو مدرسة أبدًا. ولم يبد أنّ ذلك قد يحصل في القريب. قال صهيب شارحًا:

-حسنًا.. هناك فصول، ومقاعد، ومكتب. ثمّ تأتي المعلّمة وتكتب أشياء على السبّورة، ثمّ ننقلها على كرّاساتنا.

-تبدو مملّة!

-أحيانًا.. لكنّنا نجلس أيضا في مجموعات، ونحلّ مشكلات حسابيّة، ونقرأ القصص.

-هذا مسلٍّ. أفعل هذا مع ماما أيضا.

-هل الخالة ياسمين معلّمة؟

-لا، إنّها معلّمتي أنا فقط.

-أنت محظوظ. أودّ لو تكون المعلّمة خاصّة لي فقط. أحيانًا لا أفهم ما تقول، والأطفال الآخرون يعرفون الإجابة بسرعة.. فلا أجرؤ على المقاطعة.

-حين تدرّسني ماما يمكنني أن أقاطعها متى شئت. ونلوّن الرّسومات أيضا.

-رائع. هل تعلّمت الحروف كلّها؟

قال عزّ الدّين في فخر:

-يمكنني أن أقرأ الكلمات والجمل.

-سيكون جيّدا لو تمكّنت من الدّراسة في المنزل بدوري.

حين جلس صهيب إلى مائدة العشاء، بدا شاردًا لبعض الوقت، ثمّ قال مخاطبًا عمر:

-هل يمكنني أن أدرس في المنزل، مثل عزّ الدّين؟

توقّف عمر عن الأكل في دهشة، ثمّ قال مترفّقًا:

-عزّ الدّين حالته الصحيّة لا تسمح بالذّهاب إلى المدرسة. حين يصبح في صحّة جيّدة، سيكون سعيدًا بالالتحاق بأقرانه واكتساب أصدقاء والتمتّع بالهواء الطّلق. أنت في نعمة الآن، لأنّ بوسعك التحرّك والخروج وحضور الدّروس واللّعب مع الأطفال في الفسحة.. عزّ الدّين محروم من كلّ هذا.

هزّ صهيب رأسه ببطء وقد غزت ملامحه مسحة حزن.

-مسكين عزّ الدّين!

-لا تنسَ أن تدعو له في صلاتك.

أومأ صهيب في حرارة، فأضاف عمر:

-ولا تتحدّث إليه بشفقة أبدًا، حتّى لو كنت تشعر بالحزن من أجله، احترامًا لمشاعره.

-بالتّأكيد.

أنهى صهيب طبقه ثمّ غادر المائدة ليضعه في المغسلة. عندئذٍ التفتت آية التي تابعت الحديث في صمت إلى عمر وقالت في قلق:

-ألا تظنّ أنّ علاقة صهيب بعزّ الدّين تجعله يزهد في الاندماج مع الأطفال في مدرسته؟ المرشدة تقول بأنّه انطوائيّ ومنعزل، وليس له أصحاب في الصفّ!

ابتسم عمر وقال:

-لعلّ علاقته بعزّ الدّين هي ما يهوّن عليه خلوّ يومه من الأصدقاء! اطمئنّي، لو كان صهيب وجد رفاقًا يستحقّون صحبته لكان أنعم عليهم بها. دعي الطّفل ينتقي أصدقاءه، فهذا حقّه.

لم يبد على آية الاقتناع، لكنّها لم تجادله. تعرف أنّه يتّخذ موقف الدّفاع حين يتعلّق الأمر بياسمين وابنها. وتعرف أنّها ستبدو مبالغة إن هي أصرّت. غيّر عمر الموضوع وهو يقول في مرح:

-ما رأيك في رحلة إلى منطقة البحيرات خلال الإجازة؟ أم ننتظر إلى أن ترتفع الحرارة أكثر؟

إنّها تعي مقدار الجهد الذي يبذله حتّى لا يكون مقصّرًا تجاهها وتجاه آلاء، لكنّها في الوقت ذاته تدرك أنّ كلّ رحلة يرتّبها برفقتها والأولاد، تكون تمهيدًا لغيابه أسبوعًا بعد ذلك لزيارة ياسمين وطفلها!

لقد سافروا معًا إلى محطّة الرّياضة الشّتويّة في إجازة رأس السّنة، وركبوا القطار الجليديّ السّريع. كانت سفرة مميّزة، أحبّها الأطفال: اللّعب بالثّلج، وركوب الغرف الزّجاجيّة

إلى قمم الألب السويسريّة، ومشهد القرى البعيدة من الارتفاعات الشّاهقة.. كانت تودّ لو أمكنها الاستمتاع بكلّ ذلك من كلّ قلبها. لكنّ جزعها من فراقه القريب يفسد عليها كلّ شيء. وها هي الآن، بمجرّد ذكره لرحلة البحيرة، يبدأ إحساس مقيت بالضّيق ينمو بين أضلعها، استعدادًا لإعلانه القريب لسفرة إلى باريس. لعلّه قد تحدّث إلى صهيب عن الرّحلة، ولعلّ الولد يتحمّس مثله، لكنّها لا تستطيع تقبّل تلك المزاحمة على اهتمام زوجها.

إنّها تدعو بصدق لعزّ الدّين كي يُشفى سريعًا، ليرتاح قلب أمّه، ويستقرّ زوجها إلى جوارها.

لقد اختلفت علاقتها بعمر كثيرًا منذ جاء الصّغيران. تولّدت بينهما تلك اللّحمة التي تخصّ العائلات الحقيقيّة. أصبحت بينهما مواضيع كثيرة يتحدّثان بها، معظمها يدور في فلك العناية بالأطفال: أسس التّربية الحديثة، التّربية الإيجابيّة والتّربية بالحبّ. يناقشان تحدّيات الاحتضان ويشاهدان معًا محاضرات توعويّة عن مراحل الاحتضان وأسباب نجاحه، ويقيّمان مدى تأقلم صهيب وآلاء في محيطهما الجديد، وما ينبغي عمله لتوفير بيئة تلائمهما. نعم، كانا يتحدّثان غالبًا عن الأطفال، لكن أليس هذا ما يفعله الآباء الحقيقيّون؟

***

طرق صهيب باب مكتبه ذلك المساء. قال بقلق وهو يلهو بأزرار بيجامته:

-عزّ الدّين لم يتّصل اليوم.

ابتسم عمر وقال مواسيًا:

-لعلّه نائم. أو لديه زوّار.. لا داعي للقلق.

زمّ الطّفل شفتيه ولم يبد عليه الاقتناع. كان عزّ الدّين يتّصل بشكل يومي ليتحدّثا لساعة أو نحوها، بينما يرسمان ويلوّنان. وقد حافظ على الموعد منذ أسابيع. حتّى إذا طرأ أمر يستدعي الغياب، فإنّه يجد رسالة من الخالة ياسمين في صندوق البريد الوارد. لذلك يبدو غيابه اليوم مثيرًا للقلق.

-هل يمكنك أن تتّصل بالخالة ياسمين وتسألها إن كان سيأتي اليوم؟

ربّت عمر على رأسه وقال مطمئنًا:

-حسنًا، إذا شئت. سأرسل إليها رسالة. إذا رأتها ستعلمنا بشأن عزّ الدّين.

راقبه الطّفل وهو ينقر رسالة مقتضبة بشكل سريع: «ياسمين، كيف حالك؟ صهيب يسأل عن عزّ الدّين لأنّه لم يتّصل اليوم. أرجو أن يكون كلّ شيء على ما يرام». ثمّ قال:

-سأخبرك حين تردّ.

أومأ صهيب في استسلام وعاد إلى غرفته، بينما وضع عمر الهاتف على سطح المكتب والتفت إلى عمله. حدّق في الشّاشة لبضع دقائق دون تركيز كبير. كان تفكيره يعود بسرعة إلى الرّسالة التي بقيت دون ردّ. خمّن أنّها قد تكون مشغولة بشيء ما.. بالطّبخ أو القراءة، أو حتّى محاطة بالنّاس فلم تنتبه لهاتفها. لكنّ شيئا ما كان يدعوه للارتياب.

بالتّأكيد، صحّة عزّ الدّين لم تكن في أفضل أحوالها. لقد مضت أربعة أشهر منذ خضوعه لجراحة القلب. ورغم نجاح العمليّة فإنّ جسد الطّفل ما زال هشّا، والمرض الشّرس يتهدّده. انقبض صدره لتلك الفكرة.

أطلّ رأس صهيب عبر الباب الموارب وهمس:

-هل ردّت على الرّسالة؟

ابتسم يطمئنه رغم تمكّن عدوى القلق منه، وقال:

-سأتّصل بالخالة رنيم. لعلّ لديها خبرًا.

***

فتحت ياسمين باب الغرفة برفق، ثمّ مشت حتّى سرير عزّ الدّين. كان موعد اتّصاله بصهيب قد حان، وتعلم أنّه لا يرغب في تفويت الموعد مهما حصل. كان يراقب عقارب السّاعة في انتباه، ويناديها قبل الوقت المحدّد بزمن كافٍ، لتجهّز الحاسوب اللّوحيّ على وضع الاتّصال، فيترقّب وهو يعدّ الدّقائق دخول صهيب على برنامج المحادثة. غير أنّ صوته لم يأتها إلى المطبخ ذلك اليوم.

كانت الغرفة هادئة على غير العادة. خمّنت بأنّ النّعاس قد يكون غلبه. اقتربت من السّرير حيث كان ممدّدًا، وسرعان ما تملّكها الفزع.

-عزّ الدّين، ما الأمر؟ ممّ تشكو يا حبيبي؟

كان مشهد الطّفل غريبًا. كان يحدّق بها بعينين أغرقهما الدّمع، وشفاه منفرجة كأنّما يريد أن يصرخ ولا يستطيع. أمسكت بكفّه وضغطت على أصابعه، غير أنّ يده ظلّت مرتخية بين راحتيها ولم تستجب لضغطتها. تنفّست بعمق، محاولة طرد الهواجس التي أخذت تسيطر على عقلها. لا يمكن أن يكون الأمر ما تظنّه!

-حبيبي، حرّك أصابعك، هل تستطيع؟ ارفع يدك أرجوك، هلّا فعلت؟

لكنّ الطّفل لا يردّ إلّا بتهاطل غزير ومستمرّ للعبرات. رفعت كفّيها إلى رأسها في رعب، ثمّ أمسكت صدرها حتّى لا ينفجر. تشعر بالعالم ينهار من حولها، لكنّها لا تريد أن تصدّق أنّ هذا يحدث بالفعل. كانت بمفردها في الشّقة، لم تصل رنيم ورانيا بعد. بكفّ مرتعشة، تناولت هاتفها. قالت من بين شهقاتها:

-دكتور يوسف.. ماذا أفعل؟ عزّ الدّين.. إنّه لا يتحرّك ولا يتكلّم!

لقد حدّثها من قبل عن مراحل المرض وتطوّره. ولقد شهدت المراحل كلّها وهي تمرّ وتترك أثرها على جسد طفلها. ولم تبق إلّا المرحلة الأخيرة: انهيار الجهاز العصبيّ. إنّ هذا ما تقف إزاءه الآن! وكلاهما يعي ما يعنيه ذلك.

قال يوسف يهدّئها:

-سأرسل سيّارة إسعاف لأخذه في الحال.

كانت ترتجف. لعلّها مشفقة من الآتي. تعرف أنّ المرض قد سدّد ضربته الأقوى، ولعلّها الأخيرة.

اتّصلت برنيم بعد ذلك، تخبرها بكلمات متداخلة بمغادرتها إلى المشفى، ثمّ جثت على ركبتيها إلى جوار السّرير، تنتظر قدوم سيّارة الإسعاف.

هذه المرّة، كان شيء ما يخبرها بأنّها النّهاية. لكنّها تقاومه بما تملك من قوّة. لا يمكن أن يكون هذا حدسها الصّادق، بل هو هاجس أمّ تخشى فقدان طفلها. تقطر العبرات على ظاهر كفّيها المتشبّثتين بثوبها، ثمّ ترفع رأسها لترسل بصرها نحو المشهد الذي يفطر فؤادها.

-هذه ليست ساعة الصّفر يا صغيري. سنقاوم، سنقاوم أنا وأنت!

استقبلها الدّكتور يوسف عند مدخل الطّوارئ. نقلت المحفّة الطّفل إلى الدّاخل على عجل، بينما نظرت ياسمين إلى الطّبيب في استجداء، لكنّ ملامحه لم تبثّها السّكينة. سبقها نحو غرفة المعاينة، وأجرى تقييمًا سريعًا لحالة عزّ الدّين، ثمّ التفت إلى ياسمين وقال:

-تعالي إلى مكتبي رجاءً.

هل كانت مهيّأة لما سيأتي؟ لعلّها توقّعت الكلمات التي ستجري على لسانه. ألم تخبرها فرح من قبل؟ حين بلغت لولا تلك الحالة عينها، ألم يرفع الطبّ راية الاستسلام؟

قال يوسف ببطء:

-ياسمين، أنت امرأة مؤمنة.. نحن نقف أمام طريق مسدود. ولم يعد بيدنا شيء نفعله لعزّ الدّين. أقول فقط.. كوني مستعدّة. ابقي بقربه، فربّما تكون هذه أيّامه الأخيرة.

تلك الضّربة القاصمة التي سدّدت إلى صدرها، كانت تتوقّعها وتنتظرها، لكنّها فتّاكة رغم ذلك. استمرّ جسدها يهتزّ كأنّه ينزف وجعًا، وهمست بضعف:

-هل.. يتألّم؟

-سوف نحقنه بالمورفين لتخفيف الألم، ونبقيه تحت المراقبة.

قالت باستماتة، رغم وعيها بحقيقة الوضع:

-أليس هناك بصيص أمل؟

-أنت تعلمين، هذا المرض حين يصل إلى المراحل الأخيرة، فإنّه يضرب بسرعة. أيّ شيء قد نفعله.. لن يؤتي أكله في الوقت المناسب. سيكون جهدًا مهدرًا.

عندئذٍ جثت ياسمين على ركبتيها. انهارت على الأرض وهتفت بحرقة:

-أرجوك، افعل أيّ شيء! كلّ ما يمكن فعله، أرجوك افعله!

مهما كانت الكلفة.. وإذا اختاره الله إلى جواره رغم ذلك، فلا تتركه يتعذّب.

كان مشهد ضعفها يفطر فؤاده، لكنّه طبيب قبل كلّ شيء. وقد مرّت به حالات مماثلة في الماضي، وقد تعلّم أن يقف إلى جوار أهالي المرضى، ويقودهم بتعاطف وحرفيّة إلى الاستسلام للقدر.

جثا يوسف قبالتها وقال يهدّئها:

-لا تفعلي هذا بنفسك، أرجوك. أعدك أنّني سأفعل ما بوسعي.

كفكفت دمعها، واستقامت وعدّلت هندامها، ثمّ رجعت إلى قسم الطّوارئ، لتجلس إلى جوار طفلها. رغم وجعها، انبرت تربّت على كفّه بهدوء، وتهمس بصوت رخيم:

-سينتهي كلّ هذا قريبًا يا بطلي، أنت قويّ، وستنتصر على نبوءات الطبّ وتعود إليّ سليمًا معافى. أعدك يا حبيبي. إنّهم يكذبون، يقولون بأنّها النّهاية لأنّهم لا يعرفون.. أنت بطل ابن بطل!

استمرّت تناجيه بحرارة، حتّى أخذ المورفين يؤدّي دوره، فارتخى جفناه واستسلم للنّعاس. غير أنّ الأخاديد التي تركت أثرًا على وجنتيه كانت شاهدًا على المعاناة التي يعيشها.

-32-

وصل عمر إلى باريس في قطار العاشرة مساءً.

حين اتّصل برنيم وعرف بحالة عزّ الدّين، تملّكته الرّعشة. دخل على آية الغرفة وقال بصوت مهتزّ:

-ربّما هي ساعات عزّ الدّين الأخيرة.

سارعت آية تحتضنه بقوّة. كانت كلماتها عاجزة عن مواساته، أو التّعبير عمّا تشعر به. إنّها أمّ الآن، وتقدّر ما يمثّله فقدان طفل في وجدان ذويه. إنّها النهاية إذن. قالت دون انفعال:

-هل ستسافر؟

-هناك قطار إلى باريس خلال ساعة واحدة. ربّما يمكنني اللّحاق به.

فتح الخزانة، وتناول حقيبته الجلديّة السّوداء. ساعدته

آية في حزم بعض الحاجيات لسفرة سريعة. كانت ترتجف بدورها. إنّها مشفقة ممّا ينتظره هناك. ومشفقة على الطّفل وأمّه. لم تلتق كلّ منهما سوى مرّة واحدة، لكنّ حياتها قد ارتبطت بهما بشكل غريب.

طرق صهيب الباب برفق ثم أطلّ على استحياء. أشار إليه عمر أن يقترب.

-تعال يا حبيبي.

-هل عزّ الدّين بخير؟ هل ردّت الخالة ياسمين؟

جثا عمر على ركبتيه ليكون بمستوى الطّفل وقال بلطف:

-عزّ الدّين مريض جدّا. ادع الله أن يخفّف عنه.

-هل ستذهب لرؤيته؟ هل يمكنني المجيء؟

تدخّلت آية لتقول بلهجة حانية:

-لا أظنّها فكرة سديدة!

التفت عمر نحوها ثمّ قال:

-أعتقد أنّ من حقّه أن يودّع صاحبه.

همست آية معترضة:

-ما زال صغيرًا على اختبار الألم والفراق.

عاد عمر ببصره نحو الولد وقال بمرارة:

-ليس هناك سنّ مناسبة لتجربة كهذه. لكنّ العلاقات الجميلة تستحقّ خاتمة تليق بها.

دخل عمر قسم الأطفال برفقة صهيب بعد رحلة قطار دامت زهاء السّاعات الأربع. كان الهدوء يلفّ المشفى في تلك السّاعة بعد خلوّه من الزوّار. جاءت رنيم ورانيا لمساندة ياسمين في لحظاتها العصيبة، ثمّ تركتاها على وعد بالعودة صباحًا.

كانت ياسمين تجلس في سكون إزاء طفلها المسجّى بلا حراك تحت تأثير المخدّر، ترتّل القرآن من مصحفها. حين

انتبهت إلى حضورهما، اندفعت العبرات إلى مقلتيها على الفور. عانقت الطّفل بحرارة وقالت بامتنان:

-شكرًا لمجيئك. سيسرّ عزّ الدّين كثيرًا لرؤيتك!

سألها عمر بصوت منكسر:

-كيف هو عزّ الدّين؟

قالت بنبرة أمل فاجأته:

-ادعُ له! ادعُ أن ينفخ الله في صورته ويمدّ في عمره!

رغم ألمها، كانت تبدو ثابتة، ومطمئنّة. بعد لحظات الجزع الأولى، استعادت يقينها برحمة الله وإيمانها بلطفه وحكمته. كانت مستعدّة لمواجهة ما سيأتي، أيّا كان.

استأذنها ليرافق صهيبًا إلى الكافتيريا. طلب للطّفل عصيرًا ووجبة خفيفة ولكليهما كوب قهوة تعين على اللّيلة الطّويلة، ثمّ عاد ليقف قبالتها عند سرير عزّ الدّين. قبلت القهوة في امتنان، ثمّ استمرّ الصمت، بينما راح صهيب يلتهم عشاءه في

ركن المطبخ الملحق بالجناح. سأل عمر أخيرًا:

-ماذا قال الطّبيب؟

-سينعقد مجلس استشاريّ صباح الغد لتقرير البروتوكول المناسب.

هزّ رأسه في تفهّم، ولم يطرح السّؤال الذي يلحّ عليه: ما المغزى من هذا البروتوكول؟ هل هو لتخفيف الأعراض، وضمان نهاية حياة بلا ألم؟ أم أنّ هناك فائدة حقيقيّة ترجى؟ احتفظ بسؤاله إلى حين لقائه في الصّباح بالدّكتور يوسف.

حين فرغ صهيب من الأكل، جاء ليجلس إلى جوار صاحبه وناداه برفق. حين لم يستجب، التفت إلى ياسمين يسألها:

-هل يسمعني؟

-إنّه يسمعك يا حبيبي. لكنّه لا يستطيع الردّ. أخبره بكلّ ما تريد، فهو سيصغي إليك.

تردّد صهيب ثمّ قال:

-عزّ الدّين، أرجو أن تصبح بخير، وأن نذهب سويّا إلى المدرسة. لا تخف، إذا حاول أطفال أشقياء أخذ وجبتك.. سوف أدافع عنك. وإذا وجدت الدّرس صعبًا سأشرحه لك أيضا.. صرت أعرف الكثير من الأشياء. يمكنني أن أفهم الفرنسيّة الآن.

دمعت عينا ياسمين وهي تقول بحنوّ:

-أنا واثقة بأنّك ستشرح بشكل جيّد.

ربّت عمر على رأسه وقال:

-لا شكّ أنّك متعب، يجب أن تنام الآن.. سنعود لرؤية عزّ الدّين في الصّباح.

شيّعتهما ياسمين بنظراتها حتّى اختفيا في الممرّ، ثمّ عادت إلى طفلها. ستسهر إلى جواره بقيّة الليلة. وعسى أن تكون هناك صباحات بعد يستقبلانها معًا.

***

حين غادر الدّكتور يوسف مكتب المدير، وجد عمر ينتظره في مكتبه. صافحه دون حرارة، ثمّ جلسا متقابلين. سأله عمر دون مقدّمات:

-ما الذي تنوي فعله بشأن عزّ الدّين؟

-المجلس الاستشاريّ يرى أنّ نكتفي بتخفيف الألم ومنحه نهاية حياة بلا عذاب...

-وما الذي تراه أنت؟ هل هناك من شيء يمكن عمله؟

تنهّد يوسف ثمّ قال في أسف:

-حتّى لو كنت أرى غير ذلك، فلا يمكنني أن أبدأ بروتوكولًا مكلفًا بحظوظ نجاح شبه منعدمة!

-الكلفة لا تهمّ! إن كان هناك أيّ شيء ممكن، فلا تتردّد!

سكت يوسف كأنّه يزن كلماته، ثمّ أضاف:

-إنّه أسلوب مختلف وغير مطروق...

-إن كان هذا خيارنا الأخير، فليكن!

-في هذه الحالة، يلزمنا إعفاء من المسؤوليّة ممضيّ من طرف وليّ أمر المريض.

-اعتبر ذلك قد حصل.

تبادلا نظرة طويلة، ثمّ قال يوسف:

-حسنًا إذن. حين نحصل على الإمضاء، يمكننا الشّروع في البروتوكول.

لم تحتج ياسمين أدنى جهد لإقناعها بتوقيع الإعفاء. كان يجب أن تستنفد كلّ الحلول الممكنة، مهما كلّفتها.

وفي الغد، بدأ عزّ الدّين جولة جديدة من العلاج الكيميائيّ هي أكثر شراسة وفتكًا من السّابقة. كان يجب أن يسلّط العلاج على الجهاز العصبيّ بشكل مباشر، عن طريق حقنة في العمود الفقريّ. شعرت ياسمين كأنّ الإبرة التي شاكت ظهر عزّ الدّين تغوص في صدرها. لكنّها تصبّرت وتجلّدت. كانت تعلم يقينًا بأنّه يشعر بها كما تشعر به، يتنفّس بها كما

تتنفّس به. لذلك، كان يجب أن تبقى قويّة لتمدّه بالقوّة.

كانت تخرج من غرفة العلاج منهكة، لتجد عمر وصهيب ورنيم في انتظارها. تحتضنها رنيم ويجلس جمعهم في وجوم. كلّ الكلمات بلا معنى، أمام جبروت المرض العنيد. لكنّها تتلهّى عن القلق والألم، تلتفت إلى عمر وتسأل:

-ألا يذهب صهيب إلى المدرسة؟

-بلى.. لكنّني أعفيته من الدّروس هذا الأسبوع، ليكون إلى جوار صاحبه.

-سيكون عزّ الدّين سعيدًا إذا عرف بحضوره.

وكان صهيب يملّ من الجلوس في غرفة الانتظار بلا حراك، فيشرع في الرّكض عبر الممرّات. يخترع أنواعًا من اللّهو البريء ويرسم البسمة على وجهها. قالت ذات مرّة وهي ترقبه يركل علبة مقبّلات فارغة:

-كلّما رأيته، تخيّلت عزّ الدّين. هذه الحياة التي طالما تمنّاها، لكنّه لم يحظ بها!

قال عمر بابتسامة:

-حين رأيته أوّل مرّة، ذكّرني بعزّ الدّين. لقد ملأ الفراغ الذي حلّ بفؤادي بعد رحيلي عن تونس.

لم يرحل عمر عن باريس بعد أسبوع كما توقّع. كان يحضر بصحبة صهيب للبقاء إلى جوار الطّفل المريض لساعات طويلة، ويتّصل بآية كلّ مساء ليعلمها بالجديد. كان ظهور الأمل إزاء الحالة الميؤوس من أمرها أمرًا مفاجئًا. لكنّها لا تملك أن تتذمّر. إنّ شفاء الولد المعجز لا يمكنه إلّا أن يجلب السّعادة إلى كلّ من يحمل في داخله ذرّة إنسانيّة. غير أنّ غياب زوجها لا يسرّها. قالت في عتاب:

-لقد طال غياب صهيب عن المدرسة، ونحن لا نعرف يقينًا متى سيستيقظ عزّ الدّين.

قال عمر في تفهّم:

-سننتظر يومين بعد. إذا لم يتغيّر الوضع، سنعود.

كان يودّ البقاء لوقت أطول. لكنّ جلسة قاعة الانتظار

الطّويلة لا تفيد أحدًا.

في اليوم التّالي، حصلت معجزة: أخذ عزّ الدّين يحرّك أصابعه، ثمّ معصميه!

لاحظ الدّكتور يوسف التطوّرات في رضا واستبشار. قال بابتسامة عريضة:

-إذا واصلنا على هذا البروتوكول، فيمكنه أن يستعيد حركته خلال أسابيع قليلة!

أعادت تلك البشرى البهجة إلى محيا ياسمين وتدفّقت الدّماء في وجهها الشّاحب، كأنّ رمق الحياة قد غادرها لبضعة أيّام ثمّ حلّ من جديد بين ضلوعها. لكنّ يوسف أسرّ إلى عمر جانبًا:

-إنّ ما فعلناه حتّى الآن لن يمدّ في عمر عزّ الدّين. لكنّه على الأقلّ لن يمضي أيّامه الأخيرة مشلولا. هل تفهمني؟ هذا ليس علاجًا لمرضه، بل مجرّد تعامل مع الأعراض!

كان يبدو مثقلا بذلك الهمّ، وهو لا يملك أن يصارح ياسمين

بالحقيقة، رغم يقينه بوعيها بها.

-إنّها ترفض مواجهة الحقيقة المؤلمة: دون زراعة الخلايا الجذعيّة، لا أمل لعزّ الدّين ببلوغ سنّ السّابعة.

-ماذا لو توفّر متبرّع الآن؟

-لقد ذهبت خلايا ريبيكا إلى طفل آخر. لم يكن عزّ الدّين على القائمة خلال الشّهور الأربعة الماضية!

-أعده إلى القائمة إذن!

-ماذا؟

-أعده إلى القائمة فورًا.. يجب أن يحصل على العلاج في أقرب وقت!

-لكنّ جرّاح القلب قال أنّ قلبه لن يتحمّل! لا يمكنه الحصول على الزّراعة!

صرخ عمر في انفعال:

-إذن يعود إلى البيت وينتظر النّهاية؟

-للأسف، هذا ما نوصي به في هذه الحالات.. أن يقضي الطّفل أيّامه الأخيرة محاطًا بعائلته...

-إذا كان سيموت في كلتا الحالتين، فلماذا لا نجرّب الزّراعة؟

تنهّد الدّكتور يوسف ثمّ قال:

-الطبّ يختار في هذه الحالة أن يعفي المريض من تدخّل طبيّ خطير، لأنّ الكفّة ترجح بسهولة...

-لكنّ القرار النّهائيّ للعائلة، أليس كذلك؟

-بالتّأكيد.. لكن، نحن ننصح بـ....

قال عمر فجأة:

-إن كنت تهتمّ لأمر ياسمين، فلتعلم أنّ حياتها ستصبح بلا معنى إذا فقدت طفلها.

حدّق يوسف في عينيه بقوّة:

-أنا أهتمّ لأمرها. لكنّني طبيب أيضًا.

-إذن أيّها الطّبيب امنح طفلها كلّ الفرص الممكنة!

-33-

عاد عمر إلى لوزان بعد عشرة أيّام من الغياب.

خلافًا لتوقّعها، لم يودّع الطّفل المريض، بل غدا متفائلا بشفائه بشكل مفاجئ. كانت تخشى نوبة الكآبة التي تتهدّد عائلتها إذا ما توفّي عزّ الدّين. لكنّ استجابته للعلاج كانت لعنة من نوع آخر: كان عمر يترقّب رسالة يوميّة من ياسمين، ردّا على استفساره الصّباحيّ عن حاله اليوم! تبصر ترقّبه الشغوف لتلك الرّسالة وهما على مائدة الإفطار، والرّاحة التي تتسلّل إلى أساريره بعد أن يلتهم الرّسالة بعينيه، وتغيّر مزاجه بين الفترة التي تسبق وصول الإرساليّة وما يليها: من القلق إلى الانشراح!

كانت تتأمّله في غفلة منه، وتسأل نفسها: هل إذا مرضت آلاء، هل كان ليوليها اهتمامًا مماثلًا؟

يلازمها إحساس غريب بمكانة عزّ الدّين الخاصّة في وجدانه، رغم ما يكنّه لصهيب من عاطفة ومن بعده آلاء. لقد تقاسما الأدوار تلقائيّا، فحصلت هي على طفلتها وحصل هو

على الولد الذي أراده. لكن يبقى عزّ الدّين فوقهم جميعًا. وما زال يؤلمها الاعتقاد بأنّ مكانة عزّ الدّين من مكانة والديه في فؤاده: لقد رحل هيثم، وبقيت ياسمين! نعم، إنّها لا تستطيع تفسير ذلك الإحساس بأنّ لياسمين مكانة خاصّة لدى عمر، لكنّه يطفو على السّطح في كلّ مرة تجيء سيرة باريس وأهلها. مهما حاولت أن تتعايش مع وجود ذلك الطّفل الأجنبيّ في حياة زوجها، فإنّها لم تفلح في طرد الهواجس المعشّشة في رأسها.

-لقد استطاع تحريك قدميه اليوم!

أعلن عمر بلمعة انتصار في عينيه، فصفّق صهيب في جذل. ابتسمت تجاريهما رغم ما يجيش في صدرها من انفعالات. لا يمكنها إلّا أن تفرح لتلك الأخبار السّارة. فمهما بلغت غيرتها، فهي لا تتمنّى السّوء قطّ للطّفل وأمّه.

-هل يمكننا السّفر لرؤيته في الإجازة؟

-إذا كنت طفلا عاقلا، فربّما نفعل.

-أرجوك عمر، أرجوك! فلنذهب!

أطلق عمر ضحكة صافية، ثمّ انتبه إلى عبوس ملامحها. تلك الرّحلة إلى البحيرة، لم يكن قد اهتمّ بشأنها بعد. قال كأنّه يحاول مراضاتها:

-سنمضي بضعة أيّام في منطقة البحيرات.. لقد وعدت آية بالذّهاب.

-ثمّ نسافر إلى باريس؟

عاد الطّفل ليسأل في إلحاح، فقال يجاريه:

-ثمّ نسافر إلى باريس!

انطلقت من فيه صيحات المرح، في حين حاول عمر رصد انفعالات آية التي لم تعلّق بكلمة. كان قد حصل على الوقت الكافي للتّفكير بعقلانيّة في حياته وتقييم خياراته. بينه وبين نفسه، كان قد اتّخذ قرارًا عسيرًا وضروريًّا: إذا كتب لعزّ الدّين الشّفاء، فربّما تكون تلك رحلته الأخيرة إلى باريس.

***

محاولة أخرى مع إدارة الجامعة وفشل آخر. لم تتمكّن رنيم من إقناع اللّجنة بوجاهة حاجتها إلى تغيير مشرف بحثها. حتّى أنّها طلبت دعمًا من كريستين. غير أنّ الرّسالة ظلّت دون ردّ لأسابيع طويلة. حين وصلها بريد بالأمس، فتحته في لهفة، لتجد تلك العبارات الجوفاء الخالية من الرّوح:

«كيف حالك عزيزتي رنيم. أتفهّم قلقك حيال الرّسالة، لكنّني واثقة بأنك ستبلين بلاء حسنًا. البروفيسور برانس من أكفأ الأساتذة في قسم الحقوق. لا شكّ أنّ رؤيته ستقدّم إضافة لبحثك. تحلّي بالمرونة. بالتّوفيق».

زفرت في عدم تصديق وهي تعيد تلاوة الكلمات مرّة أخرى. لقد رفعت كريستين كفّيها عن الرّسالة بشكل تامّ ولن تحصل على دعم منها. كان عليها أن تخلص إلى تلك النّتيجة القاسية.

حين زارت مكتب البروفيسور بيير، تذكّرت كلمات كريستين «تحلّي بالمرونة». قرّرت أنّها ستحاول. لكن ما إن خطت داخل مكتبه وأبصرت تلك البسمة السّاخرة على شفتيه الممطوطتين، كأنّه يقول: «عرفت أنّك ستعودين إليّ صاغرة»، حتّى شعرت بالدّماء الحارّة تتصاعد إلى

رأسها. نسيت كلّ عبارات المداهنة التي نوت أن تتلفّظ بها، واستولى عليها التمرّد.

-أستاذة رنيم شاكر، أخيرًا شرّفتنا بالحضور! عرفت من الإدارة أنّك تحاولين تغيير المشرف. هل توصّلت إلى شيء ما؟

قالت دون تفكير:

-لقد قرّرت سحب التّسجيل في الدكتوراه!

طالعت ملامحه التي علتها الصّدمة بتحدّ، ثمّ استدارت مغادرة قبل أن تسمع ردّه. سارت بخطوات سريعة مندفعة، وقد استولى عليها الغضب.

حين أصبحت بمفردها في السّاحة، شعرت بضعف يجتاح ركبتيها. لقد فعلتها! أعلنت تخلّيها عن جهودها لسنتين! شعرت بدموع الغيظ تحرق مقلتيها، لكنّها سيطرت عليها. تنفّست بعمق، ثمّ عرّجت على إدارة الجامعة. لم يكن هناك من مفرّ غير سحب التّسجيل بالفعل.

غادرت المبنى وهي تشعر بمزيج من الحسرة والارتياح. لقد تخلّصت من الضغط الذي يسحق أعصابها. يمكنها أن تجرّب الاسترخاء لبعض الوقت، قبل أن تقرّر ما تفعله لاحقًا. لكنّ نظرة البروفيسور الزّائغة حين بلّغته بقرارها كانت ترضية كافية في تلك المرحلة!

توقّفت السيّارة الحمراء في مواقف مبنى اليونسكو، لتترقّب خروج رانيا. كانت قد وصلت في وقت مبكّر عن العادة، فأسندت رأسها إلى الخلف وغفت لدقائق على مقعدها.

حين فتحت عينيها، كانت الشّمس قد توارت في الأفق. تطلّعت إلى ساعتها ثمّ زوت ما بين حاجبيها. كان يجدر برانيا أن تكون قد وافتها إلى المواقف في ذلك الوقت. ترجّلت، ومشت حتّى مدخل المبنى. راقبت جموع الموظّفين الذين يغادرون المكاتب بأعداد قليلة، ثمّ تناولت هاتفها واتّصلت بشقيقتها.

رنّ الجرس مرّة واحدة، ثمّ انقطع الاتّصال فجأة!

ساورها الشكّ، فاتّصلت من جديد. كان الهاتف مغلقًا هذه

المرّة. تحرّكت على الفور وقد استولى عليها الجزع. كان هناك ممرّ ضيّق يتفرّع عن الشّارع الرئيسيّ، يكون مظلمًا في ذلك الوقت من النّهار. وقد أملى عليها حدسها بأنّ رانيا قد تكون هناك.

سارت بخطوات سريعة حتّى أشرفت على الطّريق الخالي. هناك في نهاية الممرّ، أبصرت شبحين قاتمين بدا أنّهما يتعاركان. دسّت كفّها في حقيبة يدها دون تردّد وركضت في اتّجاههما. بكلّ ما أوتيت من قوّة، هوت على رأس الرّجل بالحقيبة، ثمّ لفّت لتواجهه وبخّت في عينيه الرذاذ الحارق الذي يرافقها باستمرار من أجل هذه المواقف بالذّات. تأوّه الشّاب في ألم وغطّى وجهه بكفّيه، فسحبت الفتاة من ذراعها بشدّة وهرولت في اتّجاه الشّارع الرئيسي.

توقّفت أخيرًا وهي تلهث، ثمّ احتضنت شقيقتها التي شحب لونها وهتفت في قلق:

-هل آذاك؟

أجهشت رانيا بالبكاء بين ذراعيها، ثمّ هزّت رأسها بقوّة.

-كنتُ خائفة!

-سنذهب إلى أقرب مركز أمن، ونسجّل محضرًا بعدم التعرّض.

أومأت رانيا موافقة بحرارة.

أمام ضابط الأمن، أدلت رانيا بشهادة مفصّلة، بكلّ المناسبات التي اعترض بها كزافيي طريقها عنوة، ومحاولاته استدراجها إلى طرق مقفرة ومظلمة. حكت بدقّة عمّا حصل ذلك المساء. جاء كزافيي للقائها عند مدخل مبنى اليونسكو. لم تكن قد أخبرته في أيّ وقت سابق بموقع عملها. لقد تتبّع خطواتها كما يفعل في الآونة الأخيرة. أصرّ على محادثتها في مكان هادئ، ولمّا رفضت أن ترافقه إلى المقهى القريب، شعرت بنصل حادّ يلامس خاصرتها! كانت النّظرة التي أطلّت من عينيه شرسة ومتوحشّة، فلم تملك إلّا أن تنصاع إلى أوامره. مشت مرغمة حتّى الشّارع الجانبي، وهناك، اغتنمت لحظة غفلة منه وحاولت افتكاك سلاحه الأبيض. اشتبكا بعراك بالأيدي بعد أن أفلت النّصل من قبضته.. وفي تلك اللحظة وصلت رنيم.

قدّمت بعد ذلك كلّ التّفاصيل التي تعرفها عن مترصّدها: اسمه وكنيته، عنوانه، رقم هاتفه، ومواصفاته الجسديّة المميّزة. حين فرغت من شهادتها، رافقتها رنيم خارج المركز، وهي تشدّ على ذراعها بحرص، كأنّها تخشى أن تضيع منها مجدّدا. مشتا في صمت حتّى السيّارة الرّابضة عند مدخل البناية، ثمّ ساعدت رنيم شقيقتها على الجلوس في المقعد الأماميّ قبل أن تستقرّ خلف مقعد القيادة. لم تكن رانيا قد توقّفت عن الارتجاف. قالت رنيم بصوت حانٍ:

-ستطلبين إجازة لبضعة أيّام، حتّى تصل الشّرطة إلى كزافيي.. اتّفقنا؟ حين يصدر أمر عدم التعرّض بشكل رسميّ، ستعودين إلى حياتك الطّبيعيّة.

أومأت رانيا دون كلمات وقد عادت العبرات لتتساقط على وجنتيها ببطء. أضافت رنيم بحزم:

-لا يمكنه إيذاؤك، أنا أعدك. إن حاول الاقتراب من جديد، فسيكون مكانه خلف القضبان!

همست رانيا في حزن:

-ماذا أقول لميار وسكينة؟

اعتلى ملامح رنيم الوجوم لبرهة، ثمّ قالت:

-سيكون ذلك صعبًا. يمكنني أن أخبرهما بالتّفاصيل إذا شئت. ليس هذا ذنبك.. أنت الضحيّة هنا، هل تفهمين؟

تنهّدت رانيا ولم تنبس ببنت شفة. كان تأثّر علاقتها بميار يشقّ عليها أكثر ممّا تخشى على سلامتها. تعلم كم تحبّ ميار شقيقها، وكيف تنحاز إلى صفّه دون تفكير. يمكنه إقناعها بنسخته من الحادثة: ستكون متوهّمة ومبالغة ومؤوّلة لعاطفته النقيّة بخبث سريرة وضغينة مبطّنة! إنّها تدرك أنّ ذلك الشقيّ سيفسد أجمل صداقة في حياتها، لأنّها رفضته!

***

كانت رنيم ورانيا تأتيان كلّ صباح لتجلسا إلى جوارها، ليتأمّلن سويّا ملامح الطّفل علّه يتحرّك أو يلتفت باتّجاههنّ. كانت قدراته الحركيّة في تطوّر مستمرّ، ومزاجها في تحسّن مطّرد. كان يقينها باستجابة دعائها يبقي جذوة الأمل متّقدة داخلها. لقد ابتهلت إلى الله أن يعيد إليها طفلها، وهي ترى

الحياة تدبّ في أطرافه! فكيف لها أن تيأس من شفائه؟

بعد استفاقتها من غيبوبة القلق، انتبهت إلى صاحباتها. كانت رانيا شاحبة وصامتة على غير العادة، تتلفّت باستمرار وتراقب وجوه زوّار المشفى في انتباه وتحفّز. قالت رنيم أنّها تعرّضت إلى صدمة! تهجّم عليها كزافيي في زقاق مظلم، وهي منذ ذلك الحين في حالة من الارتياع. لم تكن رنيم تفارقها قطّ، تجيئان معًا وتنصرفان معًا.

بالإضافة إلى رانيا ورنيم، يأتيها اتّصال من والديها وحميها بشكل يوميّ. كانت قد أخفت عنهم ابتداءً أزمة عزّ الدّين المفاجئة، ثمّ أفضت إليهم بالحقيقة حين استعاد قدرته الحركيّة من جديد. لم تشأ أن تثير هلعهم وتشغلهم أكثر ممّا فعلت. قلب واحد فزع يكفي. وقد كلّفها ذلك سيلا من العتاب والاستياء. كان من حقّ كلّ منهم أن يعرف كيف هي أحوال الحفيد العزيز، حتّى لو سكنت القلوب الرجفة.

ثمّ كانت هناك تلك الرّسائل اليوميّة التي تأتيها من عمر. وهي لم تكن تمانع مشاركة الأخبار الطّيبة مع كلّ من يهتمّ لأمر طفلها.

غير أنّها لا تعرف ما الذي ينتظرها بعد الآن. لم تكن متوهّمة، فالوضع لن ينفرج إلا بمعجزة ربّانيّة. إنّ طفلها ما يزال على شفير الموت، وشبحه يحوم حوله في كلّ لحظة. بدون زراعة خلايا جذعيّة، لا أمل له في النّجاة. وهي لم تكن تملك إلّا الدّعاء. أوَليس الدّعاء يدفع القضاء؟

ومع استرجاع عزّ الدّين قدرته على النّطق، كان لسان والدها ينطلق بدوره وتسترسل كلماته ببيان ووضوح. أسرّ إليها على الهاتف بعد أن خلت الغرفة له:

-سوف أرحل نهاية الشّهر. لقد أثقلت على الأصهار بما فيه الكفاية!

وحين أبدت تخوّفا قال ضاحكًا:

-أنا الآن أفضل من أيّ وقت مضى! والحياة في انتظاري!

تحدّث عن الشّقة التي يزمع استئجارها في العاصمة. يعرف أيّ الأحياء تناسب طبعه ونظام عيشه، ويخطّط بدقّة لروتين حياته الجديدة. استمعت إليه ياسمين بابتسامة حالمة، ثمّ اتّفقا على تفاصيل تحويل أمواله من فرنسا إلى

حسابه الجديد في تونس.

في المقابل، تحدّثها ميساء عن المكتبة كلّما سنحت الفرصة. كانت أحاديثها تمتدّ عن الورشات والكتب الجديدة التي تعبق برائحة الحبر الطازج، وسؤال الأطفال المتكرّر عنها، ثمّ مغامرات نرجس ووائل، وكان كلّ ذلك يسلّيها. ما زالت ميساء تفرّ من حماتها وشقيقة زوجها، وتنتظر أن ينفّذ رمزي وعده بتمكينها من منزل خاصّ. وبين هذا الحديث وذاك، توصيها ميساء بحرارة بأن تأكل جيّدًا وتهتمّ لصحّتها.

ثمّ، جلس عزّ الدّين ذات يوم على طرف سريره، ومدّ ذراعه ليلوّح لها ويقول بطلاقة:

-ماما، أنا أحبّك!

فابتسمت الدّنيا وأشرقت في وجهها.

***

«لدينا توافق!».

لم يصدّق عمر عينيه، حين قرأ الرّسالة التي وصلته من الدّكتور يوسف في الصّباح الباكر. لم تتّصل ياسمين هذه المرّة. لم يكن لديها علم بعد بتفاصيل التبرّع، ولا كيف تمّ. ولم يكن عمر يستوعب حقيقةً كيف يمكن لذلك القدر أن يجمع شخصين ولدا على مسافات شاسعة: أحدهما في عاصمة الأنوار، والآخر في أتون الحرب!

أيقظ آية وقال بلهجة معتذرة:

-سنؤجّل رحلة البحيرات.

انتبهت واستقامت في جلستها وحاولت أن تطرد النّعاس عن جفنيها لتفهم ما يقول.

-خيرًا؟

-كلّ خير يا آية، كلّ خير. لقد وجد عزّ الدّين متبرّعًا.

كانت عيناه نديّتين وبسمة رائقة تزيّن ثغره.

-يجب أن أسافر في الحال.. سآخذ صهيبًا معي.

-صهيب؟ هل أنت واثق؟

-كلّ الثّقة. بدونه، لن تكون هناك زراعة!

استعاد في ذهول تفاصيل زيارتهما السّابقة. لقد ترجّى الدّكتور يوسف حتّى يعيد عزّ الدّين إلى قائمة المرضى الذين ينتظرون الزّراعة، وحين غادر المكتب، لم يجد صهيبًا الذي تركه عند الباب. مشى بخطوات سريعة وهو يبحث عن الطّفل بعينيه. التفت حين سمع اسمه بصوت الطّفل يأتي من الخلف، ليجد ممرّضة تمسك بكفّه وترافقه بحثًا عن وليّ أمره. قالت بابتسامة:

-هل هذا الولد يخصّك؟

أومأ علامة الإيجاب فقالت وهي تضحك:

-لقد جاء إلى المختبر وطلب أن نأخذ عيّنة من دمه!

ربّت عمر على رأسه وقال مازحًا:

-ألا تخاف الإبرة؟

لكنّ الطّفل قال بلهجة جادّة:

-إذا أخذوا من دمي، هل يمكن لذلك مساعدة عزّ الدّين؟

تمهّل عمر، ثمّ نزل على ركبته ليقول:

-إذا كان هناك تشابه إلى حدّ بعيد بين جيناتك وجيناته، فربّما يمكن لذلك أن يفيده.

-إذن أريد إجراء الاختبار!

كان يشفق على الطّفل من تلك التّجربة، لكنّ الأمل بشفاء عزّ الدّين جعله يجاريه. كلّ الفرص جديرة بالاقتناص، وكلّ اختبار إضافيّ يعني حظوظًا أوفر. قال للممرّضة:

-نرغب في إجراء اختبار توافق من أجل التبرّع بالخلايا الجذعيّة!

كان ذلك منذ أسبوعين. والآن، جاءته هذه الرّسالة المفاجئة، لتعلن أنّ القدر كان إلى جانبه، حين تلقّى تلك

الإشارة الربّانية باحتضان ذلك الطّفل بالذّات، في دار رعاية في عمّان منذ شهورا لقد سطر القدر شبكة من الأحداث المتضافرة، ليحظى عزّ الدّين بالمتبرّع الذي يحتاجه. لا يمكن أن يكون كلّ هذا عبثًا. تسارعت نبضاته بينما تتداعى تلك الأفكار في رأسه.

ركبا القطار في الصّباح الباكر، ليصلا ظهرًا إلى المشفى. فوجئت ياسمين بعودتهما بتلك السّرعة. كان عزّ الدّين يتماثل للشّفاء وقد بدا على قدر من اليقظة والنشاط، ليحتفي بزيارة صديقه الذي مُنع عنه لأسابيع. جلس صهيب إلى جواره، يحدّثه عن مغامراته الأخيرة في المدرسة، في حين وقف عمر يحدّث ياسمين جانبًا. قال دون مقدّمات:

-لقد أجرى صهيب اختبارًا في زيارتنا الأخيرة.. وقد وجدوا توافقًا بينه وبين عزّ الدّين!

نظرت إليه في دهشة بالغة. إنّ فكرة إجراء صهيب للاختبار كانت غير واردة، ووجود توافق بينه وبين طفلها معجزة حقيقيّة! تأتأت في تلعثم:

-يا إلهي! هل.. يعلم الدّكتور يوسف.. بهذا؟

ابتسم عمر وقال بحماس:

-هذه فرصة ثمينة لعزّ الدّين. إنّه جاهز. لقد تلقّى العلاج الكيميائيّ في الأسابيع الماضية، وبوسعه إجراء الزّراعة الآن!

بدت ياسمين ضائعة ومتردّدة:

-لكن.. لكن.. طبيب القلب...

-ياسمين، هذه فرصته.. وربّما تكون الوحيدة! إذا هاجم المرض مرّة أخرى.. ربّما لن ينجو!

قالت في اضطراب:

-ماذا لو لم يتحمّل قلبه؟

تنهّد عمر، إنّه يتفهّم قلقها. وليس يملك أن يضغط عليها حتّى تقبل. إنّها أمّه، وهي التي تقدّر الخيار الأفضل بالنّسبة إليه. لو كان طفله، لما تردّد لحظة واحدة في منحه تلك الفرصة. حتى لو.. فقده في الأثناء! سيكون فقده وهو يحاول، ولم يستسلم حتّى اللّحظة الأخيرة! عزّ الدّين

يستحقّ أمًّا قويّة، تفعل المستحيل من أجله، لأنّه طفل قويّ، وصامد في وجه المرض.. رغم نبوءات الطّب المتشائمة! وياسمين قويّة، لكنّها مشتّتة الآن. ربّما تحتاج المزيد من الوقت لاتّخاذ قرارها الصّعب.

تنفّست ياسمين بجهد. كانت تشعر بقشعريرة تهزّ جسدها دون توقّف. أليست تلك استجابة لدعائها؟ أليس هذا ما كانت تنتظره من إعجاز مبهر؟ لقد كان حصول طفلها على فرصة العلاج أغلى أمانيها.. غير أنّها وهي تواجه القرار الحاسم، تجد في نفسها رهبة شديدة. إنّها تخشى فقدان صغيرها، وتخشى أيضا أن تأخذ من عمره شهورًا قد يمكنه أن يعيشها، في سبيل مخاطرة يتوقّع لها الطبّ الفشل. لكنّ عمر محقّ، إنّها لن تستسلم الآن. إن فعلت، فستلوم نفسها باقي عمرها، لأنّها لم تتحلّ بشجاعة المغامرة. وإذا ما نجحت الزّراعة، فربّما يكتب لطفلها عمر جديد.. وكلّ هذا منوط بما يخبئه لهما قدر الله!

عادت إلى سريره، ورمقته بنظرة متفحّصة طويلة. ذلك الملاك، إنّها لا تريد أن يغادرها أبدًا.

ولو كان بيدها أن تهبه نصيبًا من عمرها لفعلت دون تردّد.

ما إن انتبه لنظراتها حتّى قال بعفويّة:

-ماما، هل أصبحت بخير الآن؟ يمكنني أن ألعب مع صهيب؟

تدحرجت دمعة على وجنتها. لقد عاش حياته محرومًا من كلّ شيء يتّسم به الأطفال. حتّى الذّبابة حين تقترب منه تكون خطرًا محقّقًا. لقد نشأ في جوّ موسوم بالحذر، حتّى صار البيت في نظره سجنًا، وهي سجّانته وسجينة معه في آن! هل هذه حياة؟ لو سألته الآن الاختيار، بين شهور ممتدّة يلازم خلالها الفراش، ويوم واحد يركض فيه ويقفز ويعيش المخاطر دون أن يخشى أن يخدش فينزف حتّى الموت.. إنّها تعرف جيّدا ماذا سيختار!

تنهّدت ثمّ قالت في إشفاق:

-ليس بعد يا صغيري.. لكن قريبًا إن شاء الله.

استدارت لتواجه عمر وقالت بثقة استمدّتها من طفلها:

-سأطلب من الدّكتور يوسف التّحضير للزّراعة!

-34-

استلقى صهيب على الأريكة الطبيّة المنحنية برباطة جأش. أغمض عينيه بقوّة حين غرست الممرّضة الإبرة في ذراعه، ثمّ سرعان ما استسلم لذلك الإحساس بالخدر مع انسحاب الدّم من جسده في اتّجاه آلة الحصاد. كان قد حصل منذ أيّام قليلة على المحلول المحفّز لإنتاج الخلايا الجذعيّة. حدّثه عمر بتفصيل عن مراحل التبرّع التي اختبرها بنفسه في وقت سابق وحرص على تهيئته نفسيّا وطمأنته.

همس يشجّعه:

-سأكون إلى جوارك طوال الوقت.

هتف الولد في شجاعة:

-أنا لست خائفًا! هل سيكون عزّ الدّين بخير بعد أن أتبرّع له؟

-بإذن الله يا بطل.

ارتسمت على محيا الولد بسمة فخر، ثمّ قال:

-سنصبح أخوين حقّا بعد الآن، أليس كذلك؟ بعد أن يحصل على دمي؟

-هذا لا شكّ فيه.

ابتسم عمر وهو يتّخذ مجلسًا على الأريكة المجاورة. ثلاث ساعات من الانتظار، ثمّ.. يحصل عزّ الدّين على الخلايا الجذعيّة التي تعيد إلى جسده الحياة!

حين غادرا الغرفة وجدا ياسمين في الانتظار. عانقت صهيبًا بقوّة وقالت:

-هل تعرف أنّني أحبّك كثيرًا يا صهيب؟

التهبت وجنتا الفتى وهمس في خجل:

-وأنا أيضا أحبّك خالة ياسمين، وأحبّ عزّ الدّين.

-تعال، سأشتري لك شيئا تأكله.

ثمّ رفعت رأسها تستأذن عمر بنظراتها، فأومأ بابتسامة. تعلّقت عيناه بهما وهما يبتعدان في اتّجاه الكافتيريا. كان مشهدًا جميلًا، يبعث الألم في صدره. حين ينتهي كلّ هذا، لن يكون هناك مبرّر لرؤيتها من جديد. سيكون قد أدّى واجبه، وانتهى دوره في حياتها.

سيطوي الصّفحة، ويمضي في طريقه.

***

رغم تضارب آراء المجلس الاستشاريّ، قرّر الدّكتور يوسف أن يجري عمليّة الزّرع. لم يعد الأمر يتعلّق ببحثه على الإطلاق، مع أنّ نجاح زراعة عزّ الدّين سيكون له تأثير ملموس على دراسته.

لأوّل مرّة منذ سنوات، توقّف عن التّفكير بشكل علميّ دقيق، وفي موازنة المخاطر والغنائم. لقد غلب الجانب الإنسانيّ فيه الجانب البراغماتي، وهو ليس خجلا بذلك.. رغم نظرة التهكّم التي يكاد يراها بعيني خياله على وجه

طليقته كوثرا

إنّه يفعل هذا من أجل ياسمين، المرأة التي تشغل باله منذ شهور الآن، ومن أجل طفلها الذي تدور في فلكه حياتها. لا، لم يكن يحاول أن يكسب ودّها عن طريق زراعة طفلها، لكنّه قد أحبّ الطّفل من أجلها.

وقف أمام غرفة العمليّات يعقّم ذراعيه، وألقى نظرة عبر الزّجاج على جسد الولد المخدّر على طاولة الجراحة. في العادة، لم تكن عمليّة الزّراعة تستدعي تخديرًا كاملًا، وهي تعتبر تدخّلًا طبيًّا بسيطًا لا يعرّض حياة المريض إلى الخطر. لكنّ الوضع يختلف بالنّسبة إلى عزّ الدّين. كان جرّاح القلب في الجوار مستعدًا لأيّ طارئ قد يستدعي تدخّلا فوريّا. قلب الطّفل ضعيف، وهو ما يجعل أبسط حادثة تعرّض حياته للخطر.

بعد حين سيصنع مجدًا، أو يشهد بؤسًا. لم تكن الإمكانات الإحصائيّة في صفّه، لكنّ القدر وحده يرجح كفّة دون أخرى. وهو وسيلة لتنفيذ ذلك القدر.

خلف الباب المغلق أمّ تبتهل. ولعلّ دعاءها الحارّ يردّ القدر،

ويصنع المعجزة.

جلست ياسمين على مقعدها في قاعة الانتظار في اضطراب. لقد دخل عزّ الدّين غرفة العمليّات منذ ساعات، وهي تترقّب في الخارج. كانت رنيم تتحرّك في عصبيّة عبر القاعة، وتجري اتّصالات تشغل بها وقتها، في حين كان صهيب قد استسلم للنّعاس ورأسه في حجر عمر.

أخيرًا، ظهر الدّكتور يوسف عند البوّابة، فهبّت ياسمين في اتّجاهه. كانت ملامحه مجهدة وهو يقول بصوت مكدود:

-لقد حصل نزيف أثناء الجراحة، واضطررنا إلى تزويده بالصّفائح.. وقد تعب قلبه لأنّ العمليّة دامت أطول من اللّازم...

كادت أنفاسها تتوقّف وهي تتشرّب الكلمات التي تلفظها شفتاه في لهفة.

-أخبرني.. هل هو بخير؟

-لقد كانت عمليّة عسيرة ومتعثّرة...

شعرت ياسمين بضعف في ركبتيها. إنّها لا تريد الاستماع إلى ما سيأتي. لقد اتّخذت القرار بنفسها، وعرّضت طفلها إلى مخاطرة مجهولة العواقب. لا، بل هي محاولة تكاد تكون ميؤوسًا منها. كانت تعرف أنّ حياة طفلها ستكون مهدّدة، لكنّها رضيت رغم ذلك بخوض التّجربة القاتلة!

أتاها صوت الدّكتور يوسف وهو يقول:

-لن نعرف شيئا، قبل أن يستيقظ المريض. فلنأمل فقط.. أن يستيقظ!

بعد ذلك، لم تسمع ياسمين شيئا. تهاوى جسدها على الأرض، وفقدت الوعي. صرخت رنيم وهرولت في اتّجاهها، وسارع يوسف يستدعي محفّة على عجل لنقلها إلى جناح الطّوارئ، لتتلقّى محلولا وريديّا. قالت رنيم في أسى:

-لم تذق شيئا منذ الأمس. معدتها متشنّجة وأعصابها متعبة!

فتح صهيب عينيه على وقع الصّخب الذي ملأ قاعة الانتظار، وسأل في براءة:

-هل نجحت العمليّة؟

طالع عمر ملامحه الصّغيرة في ألم وقال محاولا الابتسام:

-بإذن الله.. ستنجح.

لم يعدم الأمل بعد. إن حصل مكروه للطّفل، فلن يسامح نفسه. لقد دفعها إلى الموافقة. لقد حسب أنّ الزّراعة هي الخيار الأفضل لكليهما. لكنّه الآن يشعر بثقل الذّنب على صدره. هل ستلومه ياسمين؟

ارتفع رنين هاتفه في تلك اللّحظة، فاستقبل الاتّصال على الفور. جاءه صوت آية مرتجفًا:

-عمر.. آلاء ليست بخير!

-اهدئي وأخبريني.. ما الذي حصل؟

-حرارتها مرتفعة منذ الأمس، وتبكي دون توقّف. لكنّها متعبة اليوم وهادئة.. كأنّ قواها قد خارت على حين غرّة!

-اتّصلي بالطّوارئ، وسأكون عندك في أقرب وقت.

أنهى الاتّصال وقد تكدّر خاطره. طالعه صهيب في قلق وهمس:

-هل لولو بخير؟

-أرجو أن تكون كذلك.

نقل بصره في حيرة بين الباب الذي اختفت عبره ياسمين منذ حين وبين الطّفل الذي يرنو إليه في تساؤل. ثمّ استدار ليلمح رنيم وشقيقتها. وكأنّما شعرت رنيم بنظراته فالتفتت. قال بلهجة اعتذار:

-لقد جدّ طارئ في لوزان.. وستكون عليّ المغادرة في الحال.

أومأت بوجه عابس وقالت:

-ياسمين ستتفهّم.

وقف في تردّد. لعلّ ياسمين ستتفهّم، لكنّه لم يودّعها وعزّ الدّين كما يليق. إنّه لم يطمئنّ إلى سلامة الطّفل بعد، لكنّ وجوده لن يغيّر شيئا. لعلّ آية بحاجته إلى جوارها أكثر من أيّ شخص آخر. غير أنّه قد اتّخذ قراره: بعد الزّراعة، لن يسافر إلى باريس مرّة أخرى. لقد بذل كلّ ما بيده، وما عاد هناك ما يملك عمله من أجلهما. إذا رحل الآن، فقد لا يراهما بعد ذلك أبدًا. قد يفعل، بعد سنوات، إذا تعافى الطّفل كما يأمل. بعد أن تفتر عاطفته ويستقرّ قلبه على النّسيان. لكنّه لا يريد أن يحضر زفافها -ثانية- ولا يتحمّل أن يقدّم التّهاني بتلك المناسبة -لا يريد التّفكير في الجنائز. يرفض أن يستسلم لاحتمال رحيل الولد- ربّما لاحقًا، حين يتقبّل الأمر، ويعوّد نفسه على الحقيقة، ويمنح آية كلّ ذرّة من فؤاده. حينها فقط، قد يذهب لرؤية عزّ الدّين. ولن يضطرب صدره لأنّها هناك. تنهّد، ثمّ مدّ كفّه ليلتقطها صهيب.

-هيّا بنا.. لا نريد أن نتأخّر على آية ولولو.

مشى في اتّجاه المخرج وقبضة الألم تعتصر صدره. سيكونان بخير. يجب أن يكونا.

***

لم تكن وعكة آلاء عابرة.

حين وصلت إلى المشفى، تقرّر تنويمها على الفور. التحق عمر بآية فور وصوله إلى لوزان، وقد كانت في حال يرثى لها من الجزع. حاول أن يطمئنها دون فائدة. كان حدسها يقول بأنّ الأمر جلل. تركها على مضض واصطحب صهيبًا إلى المنزل. حين وصل، كانت كاميليا تذرع غرفة المعيشة بلا توقّف وقد تملّكها التوتّر. هتفت حالما رأته:

-هل لولو بخير يا سيّدي؟

همهم في قلق:

-لا ندري بعد يا كاميليا. انتبهي إلى صهيب، سأتركه في عهدتك.

لم يكن يحبّ فكرة ترك الولد مع العاملة، بعد الأزمة النّفسيّة التي تعرّض إليها بسبب لويزا. غير أنّه قد اهتمّ بتثبيت كاميرات مراقبة في أرجاء المنزل منذ ذلك الحين، ولم يصدر عن كاميليا أدنى تصرّف يثير الرّيبة، ولم تظهر على الولد أيّ علامات عداء تجاهها. بدا تركه في المنزل

وجيها في تلك اللّحظة، فقد كان الطّفل منهكًا من السّفر، ومن عمليّة التبرّع والترقّب في غرفة الانتظار.

دخل عمر غرفة الأطفال وبحث في حاجيات البنت عمّا طلبته آية من أغراض، ثمّ قفل راجعًا إلى المشفى بعد أن وضع صهيبًا في سريره. كانت الرّضيعة المسكينة في غاية الضّعف. بدت وهي ملقاة على سرير العناية المركّزة مثل دمية شاحبة كاد يغادرها رمق الحياة. ولم تكن آية أفضل حالا. جلس إلى جوارها، وقال يحاول مواساتها:

-الأطبّاء يفعلون ما بوسعهم. سيأتي أحدهم ليطمئننا قريبًا.

غيّر أنّ أحدًا لم يأت. ولم تتحسّن صحّة آلاء خلال الأيّام التي تلت.

وفي اليوم الرّابع توقّف قلبها.

لم تُجدِ محاولات الإنعاش المتكرّرة. شاهد عمر وآية في فرَق من وراء الحاجز الزّجاجي جسد الطّفلة الهزيل والهشّ وهو يهتزّ وينتفض مع صعقات الكهرباء التي تروم إحياءه، لكنّ المعجزة لم تحصل. كان عمر قد استنفد رصيده من

المعجزات، ولم يحمل إلى طفلة آية شيئا من السّحر العجيب الذي بات معروفا به في المشفى الباريسيّ، بعد أن جلب الخلايا الجذعيّة لطفلين! لم يرتدّ التّفس إلى صدر الطّفلة والنبض إلى قلبها.

قال الطّبيب في أسى:

-لقد انهار قلبها فجأة، توسّع الثقب البطيني بشكل غير متوقّع. لم يكن بالإمكان فعل أيّ شيء في الآجال. ما حصل لم يكن بوسعنا تداركه.

انهارت آية بين ذراعي عمر وفقدت الوعي. استيقظت بعد ساعتين، بعد أن حصلت على حقنة وريدية. تلفّتت حولها في جزع وهتفت:

-أين لولو؟ عمر، هل رأيت لولو؟

ثمّ عادت إليها تدريجيّا ذكريات اللّيلة الفائتة، فانهارت من جديد. لقد ذهبت لولو إلى غير رجعة. لولو التي كانت بهجة حياتها وما يعطي لوجودها قيمة ومعنى، قد رحلت. ولم يكن هناك من سبيل لتخفيف الألم الذي ينخر صدرها لفراقها.

خلال يومين، كانت تبكي بحرقة حتّى تفقد الوعي، ثمّ تستيقظ وقد نسيت -أو تكاد- ما حصل لطفلتها. وفي كلّ مرّة، كانت تستعيد الإحساس الممضّ بالفجيعة التي فطرت فؤادها، ويتمكّن الوجع من جسدها. لقد حرصت على اتّباع توصيات طبيب القلب، وأخضعت الطّفلة إلى الفحوصات الدّوريّة ولم تغفل عن موعد دواء أو تخطيط أبدًا. لقد فعلت ما أمكنها حتّى تبقيها في صحّة جيّدة حتّى موعد الجراحة المزمعة مع بلوغها عمر السّنتين. لكنّ أيّا من ذلك لم يكن كافيًا لدفع الأذى عن لولو، أو استباق تلك الأزمة المفاجئة!

تولّى عمر استلام جثمان الطّفلة ومراسيم دفنها، ثمّ عاد بآية إلى المنزل وقد غدت شبحًا بلا روح. لقد كانت آلاء مهجة روحها. لم تحملها في بطنها تسعًا، لكنّها أرضعتها من صدرها، وصدّقت أنّها فلذة كبدها. لقد أحبّتها بكلّ كيانها، وعاشت الأمومة بفضلها. والآن، لم تعد هناك لولو، ولم تعد هناك آية.

لازمت الفراش بعد ذلك لأسبوع كامل. كان صهيب يأتي لزيارتها في أوقات متفرّقة من النّهار، يحدّثها عن المدرسة والمعلّمة والدّروس.. يثرثر لبرهة، لكنّها لا تستجيب. لعلّها لم تكن تصغي. تبدو عيناها غائمتين على الدّوام. وكان عمر

يرعاها بصبر وحنان: يطعمها بيديه، ويساعدها على قضاء حاجاتها، ويأخذها للجلوس في الشّرفة كلّ مساء، رغم غياب عقلها وهيمان روحها.

قال الطّبيب أنّها تعاني من اكتئاب حادّ. وصف لها عقاقير ومسكّنات لتنام، وتبع عمر تعليماته بحذافيرها. طمأنه الطّبيب قائلا:

-ستتحسّن خلال بضعة أسابيع. إنّها في حالة صدمة، تحتاج وقتًا ورعاية حتى تعود إلى طبيعتها.

رغم انشغاله بأمر آية، فإنّه لم يكن يقدر على كتمان الجزع الذي يسكن صدره منذ رحيله عن باريس: لم يكن عزّ الدّين قد استيقظ بعد. إنّه يحاول أن يتفاءل، وأن يولي آية كلّ اهتمامه، لكنّه يعيش في اضطراب مستمرّ، ينتظر أن يحمل إليه كلّ يوم جديد خبرًا ما.. غير أنّ هاتفه لا يرنّ، وقلقه لا يخبو.

لقد رافقت ياسمين طفلها خلال مرضه لستّ سنوات، ولم تحتضن آية طفلتها إلا منذ ستة أشهر، لكن هذا لا يجعلها أمًّا بدرجة أقل ولا يجعل ألمها أقل أهمّية ووطأة. لكنّه يعتقد

أنّ الله كان رحيمًا بآية، إذ لم تدم مراقبتها لآلاء وهي تذبل وتذوي بفعل المرض إلّا أيّامًا قليلة، بينما تستمرّ معاناة ياسمين منذ سنوات! تمنّى من كلّ قلبه أن يكون مصير ياسمين مختلفًا، لأنّ المصيبة ستكون شديدة الوقع على فؤادها. لقد فقدت آية آلاء، ولعلّ عزاءه في قدرته على البقاء إلى جوارها والتّخفيف عنها. لكن إذا ما فقدت ياسمين عزّ الدّين، فلن يكون بيده عمل شيء من أجلها.

بدأت آية تفيق من شرودها بعد أسبوعين. أنهت فترة الحداد التي كانت بحاجة إليها، ثمّ استيقظت ذات يوم في مزاج طيّب. دخلت المطبخ وحضّرت وجبة إفطار دسمة، ثمّ أيقظت عمر بلمسة حانية.

-الإفطار جاهز!

أعلنت بلهجة مرحة لم يصدّق أنّها تصدر عنها. عانقها في سرور حقيقيّ، ولم ينتبه إلى ظلال الحزن التي باتت تسكن حدقتيها.

استمرّت آية تتحرّك في أرجاء المنزل بطاقة قصور ذاتيّ. تزور المواقع نفسها في روتين يوميّ متكرّر، تحاول استعادة

توازنها، لكنّ روحها هائمة لا تعرف الاستقرار. لقد فقدت جزءًا من وجدانها برحيل آلاء، وهي لا تجد ما يعوّضها عن ذاك الفقد.

لقد كان صهيب منذ البداية «طفل عمر». لم تشعر قطّ بانتمائه إليها، ليس مثل آلاء! وهي قد عادت إلى خانة الصّفر الآن. لا، بل أسوأ. عندما كانت في خانة الصّفر، لم تكن قد جرّبت إحساس الأمومة بعد. وهي منذ ذلك الحين أمّ ثكلى.

-35-

كان اختفاء عمر بعد جراحة عزّ الدّين مباشرة محيّرًا. لكنّ أحدًا منهم لم يثر الأمر قطّ.

حين أفاقت ياسمين من إغمائها، كان عمر قد رحل. قالت رنيم شيئا عن حدث طارئ في لوزان. لقد ترقّبت طيلة الأسبوع الذي تلى اتّصالا، أو رسالة كما كان يفعل من قبل. إذا تعذّرت الزّيارة، فلم يكن أيّ من وسائل التّواصل مستحيلا. لكنّه كان غائبًا بشكل مربك. لقد كان هناك، في أحلك اللّحظات وأروعها. لقد عايش معها أوقات الانحدار والانتعاش، وجلب إليها الفرح متمثّلا في طفل كان المتبرّع لعزّ الدّين.

كان تبخّره بعد ذلك غريبًا ومريبًا، مثل انسحاب استراتيجيّ غير متوقّع.

وهي لا تجد لذلك تفسيرًا.

إلّا أنّ مصابها كان يشغلها عن التّفكير في أسباب غياب

عمر. لم يفق عزّ الدّين من غيبوبته بعد مرور أسبوعين. كان يخضع للعزل المفروض على مرضى الزّراعة، ونبضات قلبه تحت مراقبة مستمرّة، لكنّه لا يستيقظ.

كانت هناك شروط ثلاثة عليها أن تجتمع: أن تنجح الزّراعة، وأن تنتظم نبضات قلبه، وأن يستعيد وعيه. إذا غاب شرط واحد منها، فلن يعيش طفلها! حالة واحدة ضمن ثماني حالات ممكنة منطقيا، تتفاوت احتمالاتها إحصائيًا، لكنّ الأطبّاء لا يملكون الجزم أيّها ترجح كفّته.

استمرّت تحضر لزيارته كلّ صباح، لتراقبه من وراء الزّجاج في ابتهال صامت. إنّها لا تملك إلا الاستمرار في الدّعاء. وكان الدّكتور يوسف يأتي لمحادثتها لبعض الوقت. لم يكن هناك من تطوّر يذكر، لكنّه يحاول أن يرفع معنويّاتها بأشكال شتّى. يستمرّ يرسل النّكات الرّديئة التي تفشل في إضحاكها، لكنّها تبتسم تجاريه، تقديرًا لجهوده التي تتجاوز واجبه كطبيب معالج لطفلها.

ثمّ جاءت فرح لزيارتها. تعانقتا بعنفوان وبكت إحداهما في حضن الأخرى، بمشاعر فيّاضة.

كان أحمد يتعافى بشكل جيّد. جاء برفقتها وهو يمشي على قدميه، يضحك ويقفز مثل طفل طبيعيّ في سنّه. وكانت ياسمين ترمقه بنظرات دهشة وشوق. إنّها تتوق إلى اليوم الذي يتسنّى فيه لعزّ الدّين ممارسة ذلك النّوع من الحريّة الآسرة والعصيّة حتّى تلك اللّحظة.

إلّا أنّ الخوف هو كلّ ما تشعر به اليوم.

لقد عاشت تلك التّجربة بكلّ جوارحها، منذ فقد طفلها الوعي في البيت الرّيفيّ، وحتّى غيابه داخل غرفة العمليّات. لقد بلي قلبها من فرط ما تعرّض له من أزمات وصدمات، وإنّها لم تعد قادرة على تحمّل صدمة أخرى. إنّها متعبة وخائرة القوى. في كلّ مرّة فتح فيها عزّ الدّين عينيه ليقول: «أنا بخير»، كانت تحمد الله بحرقة أن منحها معجزة أخرى. لكن ما مدى ما تستحقّه أو يخبئه لها القدر من معجزات؟ ألا تكون قد استوفت رصيدها، وعليها أن تستسلم إلى الواقع الأليم؟

كانت تلك الأفكار تنخرها من الدّاخل نخرًا، وتحفر أخاديد في روحها حدّ الخوار.

لكنّها حين يجنّ اللّيل، ويسكن الكون من حولها، تتّجه إلى الخالق بقلب واجف وتسأله أن يمنحها تلك المعجزة بعد.

ألم تكن تلك المحنة إلا اختبارًا لإيمانها؟

لقد تجاوزت الاختبار الأوّل عند وفاة زوجها. تماسكت ما استطاعت، من أجل وليدها. لكن أيّ الأسباب تبقيها صامدة اليوم إن هي فقدت مصدر ثباتها؟

***

منذ أيّام، تزوره الكوابيس.

يرى بوضوح مشهد المزرعة، الطّفل ذا الجرح النّازف وبركة الدّماء التي تتّسع باطّراد. يظهر بعدها مشهد السيّارة، الرّجل الجالس إلى جواره وحفيف الرّصاصات التي تأخذ مسارها بدقّة لتستقرّ في جسده بتكّات مكتومة.

يفتح عينيه لاهثًا مفزوعًا. لم يزره الكابوس من قبل، لا بعد حادثة الاغتيال ولا إثر حادثة المزرعة. لذلك لا يجد تفسيرًا لحالة الارتباك التي تشوّش لياليه وتبعثرها بين الأرق

والكوابيس.

صار يتعمّد الانهماك في العمل حدّ الإنهاك. يأوي إلى سريره في ساعة متأخّرة، وقد ثقلت جفونه واستبدّ به النّعاس. لكنّه ما يزال يهبّ وسط اللّيل في اندفاع مروّع، يستقيم جالسًا وصدره يهبط ويصعد في نسق مضطرب، وعيناه شاخصتان إلى ظلمة الغرفة.

تلك الكوابيس كانت تحذيرًا بأنّ صحّته النّفسيّة تحتاج إلى الرّعاية.

دخل عمر إلى مبنى العيادة، وجلس ينتظر دوره في هدوء. لم يكن يشعر بالحماس أو التوتّر. كان يعرف أنّ تلك الزّيارة ضروريّة. شرّ لا بدّ منه.

كان يعلم أنّه لم يكن بخير. منذ سنوات، يلازمه إحساس بالخلل. لم يتخلّص أبدًا من آثار الحوادث التي تكدّست ركامًا في أعماق روحه حتّى عنق الزّجاجة. والآن، صار على شفير الانكسار. كان عليه أن يتوقّف، وأن يرمي عنه الحمل الذي أثقل كاهله.

ما زال يستحضر تفاصيل الحصص التي تابعها في باريس، بعد إطلاق سراحه الأوّل. مرّ عقد أو يزيد على تلك المرحلة، والآن هذه أزمة جديدة، تحتاج علاجًا من نوع آخر. لقد انتهى إلى الاستسلام إلى تلك الفكرة، بعد أن عجز -رغم محاولاته- على تقبّل حياته كما هي عليه. كان يعيش نوعًا من القلق المزمن الذي لا راحة منه. وقد أُنهك. استنفد كلّ طاقته في رعاية آية في الأسابيع الأخيرة.. وحين تماثلت للشّفاء، كان قد بلغ الحافّة وتمكّن منه الإرهاق.

حين جاء دوره، تمدّد على سرير الاعتراف، وقال:

-أشعر بألم رهيب يسحق صدري، لا أستطيع التنفّس!

سكت الطّبيب لبرهة، ثمّ رفع نظّاراته عن عينيه وقال بلهجة جادّة:

-أخبرني بكلّ شيء، ما الذي حصل؟

سرحت نظرات عمر إلى البعيد. أين كانت البداية؟ قال بتأنّ:

-لقد ماتت لولو.. لا، بدأت الحكاية قبل ذلك، يوم فقدت صاحبي برصاصة غادرة.. لا، بل يوم انفجر المختبر.

تنهّد ثمّ قال في ألم:

-ربّما قبل ذلك، يوم جئت إلى فرنسا للدّراسة...

استمرّ يتحدّث دون توقّف ليمرّ على محطّات حياته كلّها، منذ هبوطه على الأراضي الفرنسيّة منذ خمسة عشر عامًا، بإجمال.. ومع إغفال التّفاصيل الحسّاسة. حسب أنّه قد تطرّق إلى المهمّ، وأنّ ما أخفاه لن يعيق التّشخيص. حين فرغ من قصّته، سأله الطّبيب باهتمام:

-هل تراودك كوابيس بشأن الحادثة؟

-نعم. ليس في السّنوات الماضية، ولكن منذ أسابيع.

-هل لديك صعوبات في الخلود إلى النّوم؟

-أصاب بالأرق معظم اللّيالي، فإذا نمت رأيت الكوابيس.

-هل تنتابك هلاوس سمعيّة أو بصريّة؟

-لا.

-هل تشعر بالتوتّر عند رؤية الدّم؟ أو عند رؤية حادثة خطرة؟

-حدث ذلك مرّة واحدة، حين كان ابن صاحبي هو المصاب.

-هل تفكّر بالانتحار؟

-لا.

-هل تشعر بالذنب؟

اعترف على الفور:

-نعم.

-هل تشغلك فكرة الموت؟

سكت عمر في شيء من التشتّت، فأوضح الطّبيب:

-هل ينتابك إحساس بأنّك كنت تستحق الموت مكان صاحبك؟

زفر في ألم:

-نعم.

ثمّ أكمل في نفسه: لكنّه خير مني، استحق الشهادة وحرمتها.

سكت الطبيب لبرهة ثمّ قال:

-هل تحدّثت إلى أهل الفقيد؟

-نعم.

-هل يلومونك على وفاته؟

-لا، كانوا متفهّمين.

-أرأيت؟ هذه أوهام في رأسك. الحوادث تحصل، لأنها مقدّرة، والحسرة لا تغيّر الماضي.

ثمّ أعلن بحركة مسرحيّة:

-من الواضح أنّك تعاني من أعراض الاكتئاب!

اكتئاب؟ لم يستغرب التّشخيص. إنّ كلّ ما يحيط به يثير الاكتئاب: حالة عزّ الدّين، نفسيّة آية، وأحماله القديمة التي لم يضعها عن كتفيه أبدًا.

سار الطّبيب إلى مكتبه وأخذ يخطّ على ورقة بيضاء:

-سوف يركّز العلاج على ثلاث نقاط: العنصر النّفسي، وهو الأهمّ، وهو يتمثّل في حصصنا معًا.. العنصر الفيزيولوجي، بمعنى الدّواء، مضادات الاكتئاب والتوتّر.. ثمّ العنصر الفيزيائيّ: ممارسة الرّياضة، قضاء وقت في الهواء الطّلق، وتخفيف وتيرة العمل.

أنهى تدوين وصفة الدّواء والتّوصيات، ثمّ رفع رأسه وقال:

-من أجل لقائنا المقبل، أريدك أن تفكّر: ما هي الأشياء التي تجعلك سعيدًا؟ فكّر في ثلاثة أشياء على الأقل.

لم يقتنع عمر. بدت كلمات الطّبيب بعيدة عمّا توقّعه. لقد جاء يشكو كوابيسه وأرقه. لقد حسب أنّه يعاني من اضطرابات ما بعد الصّدمة، وإن كانت بأثر رجعيّ، وبعد مرور وقت طويل. كان يبحث عن تفسير منطقيّ لما أصابه، لكنّ توجّه العلاج إلى البحث عن أسباب سعادته يشعره بالتشوّش. لم يكن يبحث عن السّعادة، بقدر ما يهمّه الاستقرار، والنّوم المريح!

شغلت الأسئلة ذهن عمر طيلة الأسبوع. حاول أن يتذكّر: متى كان سعيدًا آخر مرّة؟

لقد اتّسمت الشّهور الماضية بالإجهاد والكآبة. مرّ وقت طويل قبل أن يشعر بالرّاحة، حتّى استعادت آية حضورها وصفاء ذهنها. هل كانت تلك سعادة حقيقيّة، أم خلاصًا من عبء أثقله؟ غير أنّه كان سعيدًا سعادة صرفة، وهو يرافق صهيبًا إلى الصّيد، وهو يشاركه لعب الكرة في الفناء الخلفيّ. يكون سعيدًا في كلّ أوقاته مع الولد.

ماذا أيضا؟ يغمره الارتياح حين يتلقّى اتّصالا من عائشة. يحبّ الحديث إليها، والاستماع إلى فضفضتها.. رغم أنّه لا يريد أن يشغلها بمشكلاته. ثمّ، كان يشعر بالاطمئنان أثناء وجوده في باريس. لقد كانت أخبار تحسّن صحّة عزّ الدّين واستجابته للعلاج تبعث فيه بهجة لا حدود لها، لكن قلقه عليه يكدّر صفو أيّامه ويرهق لياليه. توقّف عند ذلك الحدّ، وحاول أن يحصر أسباب السّعادة لديه، فخلص إلى مصادر ثلاثة: صهيب، عائشة، عزّ الدّين.

حين حمل إجاباته إلى الطّبيب، استمع إليه في انتباه ثمّ سأله:

-ماذا عن زوجتك؟ ما مقدار رضاك عن علاقتك بها؟

أجاب عمر دون تفكير:

-أنا مدين لها.. ولو أمضيت عمري أعوّضها، فلن يكون كافيًا. لقد انتظرتني أثناء سنوات حبسي، وضحّت بأمومتها من أجلي.. أفلا تستحقّ منّي العرفان؟

-إذن، يمكن تلخيص علاقتكما بمدين ودائن؟

-ليس الأمر بذلك الجفاف.

-لكنّها ليست من أسباب سعادتك؟ ما هو شعورك إزاء تضحيتها؟

-أنا ممتنّ لها بالتّأكيد!

-لكنّك كنت لتشعر بشكل أفضل، لو أنّها لم تضحّ من أجلك؟ أنت لا تحبّ أن تكون مدينًا لأحد، أليس كذلك؟ في علاقتك بالسّعادة، تكون أنت المانح.. لكن زوجتك، تثقلك بعطاياها. أنت تشعر بشكل أفضل، حين تكون قادرًا على ردّ مزاياها.

أصغى إليه عمر في صمت. بينما واصل الطّبيب:

-أريدك أن تفكّر من أجل لقائنا المقبل، ما هي الصّفات التي تودّ أن تغيّرها في شريكة حياتك.

راقب عمر آية خلال الأسبوع التّالي باهتمام. كانت تقوم بمهامّها في المنزل بتفانٍ وحرص. كانت تسبقه في الاستيقاظ وتحضّر إفطاره، ثمّ تجالسه في بشاشة والبسمة لا تفارقها.. وحين يرجع وصهيب بعد الظهر، كان تستقبله

بترحاب، ويكون الغداء جاهزًا لكليهما. وفي المساء، تتذرّع بالتّعب وتأوي إلى الفراش مبكّرة، فيجلس وحيدًا في غرفة المكتب أو في الشّرفة، يطالع كتابًا أو يسرح مع أفكاره.

كانت آية زوجة مثاليّة بكلّ المقاييس، مهتمّة براحته ومتفانية. غير أنّ روحها متعبة. لقد تعافت من حالة الاكتئاب، لكنّها ما تزال بعيدة. لا يمكنه أن يعرف فيما تفكّر خلف قناع البشاشة الذي تلبسه أوقات حضوره في البيت. لم يكن بينهما ذلك النّوع من التّواصل العميق بين الأزواج. لطالما احتفظ كلّ منهما بأفكاره لنفسه. وذلك يجعل شراكتهما سطحيّة وهشّة. لقد كان خطأه لزمن طويل. لم يكن من اليسير أن يكشف دواخل نفسه أمامها دون حرج، لكنّه مستعدّ لأن يفعل الآن.. حتّى يشعر كلاهما بشكل أفضل.

حين جلس أمام الطّبيب مرّة أخرى، قال بمرارة:

-إنّها زوجة مثاليّة.. لكنّني لا أستحقّها.

-هل تتمنّى أحيانًا أنّك لم تتزوّجها؟

صمت كثيرًا، ولم يقاطع الطّبيب شروده.

لقد كانت آية آخذة بزمام الأمور منذ اللّحظة الأولى في علاقتهما. لقد جعلته يخطبها، وجعلت من قضيّتها قضيّته الأولى. وهو ليس نادمًا على ذلك. ثمّ أسرته بجميلها ولم تترك له مجالا للتّراجع، رغم زهده في الزّواج آنذاك. كان عليه أن يتزوّجها. وكيف له ألا يفعل، وهي تنتظره منذ أربع سنوات وأكثر؟ لقد أثقل ذلك الاضطرار علاقتهما، فلم يقدر على وهبها فؤاده كلّية. ثمّ أجهزت عليه حين أصرّت على البقاء بينما أشرع أمامها باب الخروج. لقد شعر بالضّعف في تلك العلاقة. لم تكن له اليد العليا إزاء آية.

توقّف عند تلك الحقيقة طويلا. لقد كان مدينًا لآية بكلّ شيء، ولقد أسرته بجمائلها. ودّ لو أنّه اختار تلك العلاقة بملء إرادته.. لو أنّه ملك حرّيته، لينظر حينها هل يستمرّ أم يرحل. قال أخيرًا:

-إنّها مثاليّة.. لكنّني لم أخترها.

-لو أنّك تعرّفت إليها من جديد.. هل كنت لتُعجب بها؟

كانت آية حسناء، لا جدال في ذلك. لكنّه لم يكن يريد زوجة بالغة الحسن. لم يكن ذلك من شروطه. وهي ذكيّة،

لمّاحة، ذات شخصيّة قويّة وطموحة، تعرف ما تريد وتسعى للحصول عليه بلا كلل، وهي فوق ذلك ربّة بيت ممتازة. إنّ حضورها ملفت ومواقفها مثيرة للإعجاب. إنّها قادرة على جعل الأعناق تلتفّ لتحدّق بها إذا وقفت أو جلست أو مرّت من الشّارع.. على عكسه تمامًا، فهو غالبًا ما يمشي في الظلّ ويتجنّب الأضواء. وفوق ذلك، فإنّ نظراتها تشعره بالتوتّر، وصمتها يثير حيرته، يخاف باستمرار أن يجرحها دون أن يدري، أو يؤلمها من حيث لا يشعر، أو يخيّب ظنّها وهي التي منحته الكثير. لم يكن بوسعه أن يفهمها ويحيط بشخصيّتها. منذ اليوم الأوّل في زواجهما، كانت هناك مساحة وجدانيّة تفصل بينهما، وهو لا يدري كيف يسدّها، وهي لم ترشده إلى الطّريق. قال مرّة أخرى:

-إنّها مثاليّة.. لكنّني لا أفهمها.

توقّف عند تلك النّقطة. كان يشعر بالتّعب والفتور. لقد تورّط في هذا الزّواج، وعليه أن يجد وسيلة للاستمرار. لم يكن الانسحاب خيارًا متاحًا. التفت إلى الطّبيب وقال:

-ما الذي عليّ فعله حتّى ينجح هذا الزّواج؟

ابتسم الطّبيب وقال:

-أنا أطرح الأسئلة هنا، ولا أقدّم إجابات جاهزة. من أجل لقائنا المقبل، فكّر في ثلاثة أشياء يمكنها أن تفيد في إصلاح علاقتك بزوجتك.

حين دلف إلى المنزل ذلك المساء، لم يتسنّ له أن يفكّر في الأشياء التي طلبها الطّبيب، فقد فاجأه صراخ حادّ يأتي من الدّاخل. ركض بما أوتي من لياقة وسرعة واقتحم الحمّام، ليجد آية تنزف، وقد تجمّعت عند قدميها بقعة دم داكن ما زالت تتّسع!

-36-

«ماما، أنا بخير!».

بعد غيبوبة دامت شهرًا، فتح عزّ الدّين عينيه. تلفّت حوله حتّى أبصر وجه ياسمين، ثمّ نطق الكلمات السّحريّة التي نزلت بردًا وسلامًا على فؤادها.

استقبل المشفى ذلك النّبأ الخارق باحتفاء ليس له مثيل. جاء المختصّون للتحلّق حول سرير الطّفل المعجزة، وأجروا اختبارات شتّى للإحاطة بخصوصيّات حالته الفريدة. خلال أيّام، تداولت وكالات الأنباء الخبر وتناقلت مواقع التّواصل تفاصيل الشّفاء العجيب بعد استحكام حلقات اليأس.

وكانت ياسمين في حالة من البهجة. انهالت عليها الاتّصالات المهنّئة، من الأقارب والمعارف القاصي منهم والدّاني، بعد أن انتشرت القصّة وعرفت. وكان لسانها يلهج بالحمد بلا توقّف، وعبراتها تسيل مثل نهر جارٍ لا ينقطع تدفّقه.

كان عزّ الدّين قد أنهى فترة العزل وعاد إلى جناح الأطفال من أجل فترة ملاحظة إضافيّة. وهي كانت لا تفارقه، تتأمّل ملامحه التي أخذت تستعيد رونقها وعينيه المتألّقتين ببريق الحياة، فيفيض البشر على محيّاها.

خلال الشّهر التّالي، كانت تلمس بوضوح تطوّر حالته الصّحيّة السّريع. صار أكثر نشاطًا ورغبة في مغادرة السّرير. وكانت ترافقه بشكل يوميّ في جولات عبر حديقة المشفى، مشيًا على الأقدام.. وكان ذلك إنجازًا في حدّ ذاته! لم يكن قد غادر السّرير والكرسيّ المتحرّك منذ شهور!

هنّأها الدّكتور يوسف في مناسبات عدّة: الجراحة ناجحة، القلب يعمل بكفاءة، وعزّ الدّين يُشفى بشكل سريع. كان يعلم أنّها بحاجة إلى التّأكيد حتّى تتيقّن بأنّ ما تبصره حقيقة لا وهما، وأنّ الخطر الذي كان يترصّد طفلها قد رحل.

كانت ترقب ولدها بعينين مأسورتين وهو يتلمّس طريقه نحو الحريّة والانطلاق، ليغدو طفلًا طبيعيًا. وكانت عيناها تدمعان تلقائيًا كلّما هتف تجاهها بعد أن ينجز أمرًا بديهيًا ممّا يفعله الأطفال دون عناء:

-ماما، انظري.. يمكنني فعل هذا بمفردي!

تلك الحركات البسيطة للأولاد في مثل سنّه، مثل الوقوف على رجل واحدة، والانحناء ليلمس الأرض، والتّطاول لالتقاط شيء على الرفّ.. كانت اكتشافات مميّزة لابن الستّ سنوات ونصف!

-سيكون بوسع عزّ الدّين ترك المشفى خلال أسبوع واحد!

أعلن الدّكتور يوسف ذلك اليوم. قالت في قلق:

-هل يسعه الذّهاب إلى المدرسة؟

-يمكنه أن يمارس حياة طبيعيّة تمامًا!

ثمّ أضاف بشيء من الحذر:

-مع ذلك.. تنبغي المراقبة اليقظة لأيّ أعراض قد تظهر في الفترة المقبلة...

-أيّ أعراض؟

-حتّى مع نسبة شفاء عالية، يظلّ المصابون بهذه المتلازمة الجينيّة عرضة للأمراض العصبيّة أكثر من غيرهم. إذا لحظت أيّ تغيّر في طريقة مشيه أو ثبات أصابع يده، أو صعوبة في النطق.. أيّ شيء قد يبدو لك غريبًا، اتّصلي بي رجاء.

كانت لديه مواعيد مراقبة روتينيّة خلال الشّهور المقبلة. بعد ذلك، سيكون متاحًا لهما الرّحيل إلى تونس وبرفقتهما ملفّه الطبيّ الذي سيحوّل إلى مستشفى الأطفال بالعاصمة، حيث شخّص مرضه.

جاءت رنيم ورانيا كما تفعلان دائمًا. تحدّثتا بصخب وحماس وهما تجلسان في الكافتيريا، وجارتهما ياسمين في كثير من الأحيان. كان الجوّ يعبق حبورًا وبهجة، وكانت تحتاج إلى الانطلاق والتّنفيس عن الضّغط الشديد الذي كان يسحق صدرها.

اقترب الدّكتور يوسف من مجلسهنّ وبكفّه كوب قهوته، وألقى التحيّة. كان يستحقّ أن يكون جزءًا من الاحتفال. وكان إنجازه مضاعفًا، بتحقيق نجاح مهنيّ وآخر على الصّعيد الشخصيّ. لقد أزاح شفاء الطّفل الحاجز النّفسيّ الذي

يجبره على الانتظار، وهذا يشعره بأنّ الوقت قد حان. لقد ذُلّلت المصاعب التي تقف في طريقه بعد أن انتصر عزّ الدّين على المرض. تنحنح وهو يقول مبتسمًا:

-سيّدة ياسمين، بعد أن يعود عزّ الدّين إلى البيت سالمًا إن شاء الله، هل يمكنني أن أزوركما؟

ساد الصّمت لبرهة، وبدا أنّ ياسمين تحاول أن تؤوّل كلماته على الوجه الصّحيح وتفشل في ذلك. لمّا طال صمتها، تولّت رنيم الأمر.

-بالتّأكيد يا دكتور، مرحبًا بك في كلّ وقت!

ظلّت نظراته على ياسمين وهو يقول:

-السّبت في السّاعة السّادسة؟

هذه المرّة، أومأت ياسمين دون كلمات. لكنّ ذلك كان كافيًا.

حين ابتعدت خطواته، عادت الشقيقتان لمناكفتها في مرح. لكنّها لم تعد بنفس الحماس الذي كانت عليه قبل دقائق. لم

تكن مستعدّة بعد لتلك النّقلة في حياتها. لقد كرّست سنوات شبابها من أجل رعاية عزّ الدّين، ولم يكن في خطّتها إقحام رجل غريب حتّى تلك اللّحظة.

إنّ الدّكتور يوسف رجل محترم ويستحقّ التّقدير، وهو فوق ذلك قد أنقذ طفلها.. وهذا يجعلها تمنحه فرصة على الأقلّ.

***

جاء الدّكتور يوسف إلى الشقة (٤٠٤) في الموعد، وهو يحمل باقة كبيرة من الورود البيضاء. تلقّتها رانيا عنه وقد لمعت في عينيها نظرة ظافرة. لقد كانت شديدة الشّبه بالباقة مجهولة المصدر التي وصلت ياسمين منذ شهور. وضعتها على المنضدة شاكرة، وقدّمت الشّاي والحلوى، ثمّ قالت:

-ستأتي ياسمين في الحال.

داخل الغرفة، كانت رنيم تحاول إقناع ياسمين بوضع بعض الزّينة على وجهها، لكنّها تأبى.

-ارتدي الفستان الأبيض على الأقل!

-ما به الأزرق؟

-إنّه جميل، لكنّ الأبيض أكثر أنوثة ورقّة.

وكزتها رانيا وقالت:

-سوف ترتدي الأبيض في الوقت المناسب، لا تلحّي عليها الآن.

ثمّ أردفت وهي تأخذ بكفّ عزّ الدّين:

-سنكون في الحديقة، بالأسفل.

أومأت ياسمين شاكرة، ثمّ تابعتهما بعينيها وهما يتّجهان إلى الصّالة. سمعت صوت يوسف وهو يمازح طفلها، ثمّ فتح باب الشقة وأغلق مع خروج رانيا وعزّ الدّين.

تنهّدت رنيم في استسلام، ثمّ دفعت ياسمين برفق في اتّجاه الباب:

-كوني مرنة، ابتسمي قليلا، اتّفقنا؟

ضحكت ياسمين وقالت:

-لا أنوي التهامه، إن كان هذا ما يخيفك!

استدارت لتشير إليها في رجاء:

-تعالي معي!

تبعتها إلى الصّالة، وجلستا أمام الرّجل المحرج. ابتسم وقال:

-لا أريد أن أكون فظّا، لكنّك تعرفين ما جئت من أجله.. أودّ أن أحدّثك عن نفسي...

تعالى في تلك اللّحظة رنين هاتف رنيم. كان اتّصالا من شهاب. اعتذرت وغادرت مجلسها لتدلف إلى الغرفة. أجابت على الاتّصال، بينما تتابع عيناها باهتمام ما يدور في الصّالة:

-شهاب، هل يمكنك الاتّصال في وقت لاحق؟

-أنت مشغولة؟

-لدينا خاطب، يخصّ ياسمين!

-آه، حقّا؟ لن أأخّرك إذن...

استمرّ يتحدّث عن الولدين وما يحتاجانه من أجل المدارس، وأصغت رنيم في تململ. كانت تريد أن تعرف ما يدور في الخارج. تكلّم يوسف أوّلا، ربّما لعشر دقائق أو أكثر، وكان صوت ياسمين خافتًا لا يصل إليها. ثمّ انقطع الصّوت تمامًا لدقائق عدّة. فكّرت أنّ ياسمين تتكلّم بالتّأكيد. بعد دقيقتين إضافيّتين، سمعت الباب الخارجيّ يغلق. قاطعت شهاب دون تفكير:

-سأتّصل بك بعد حين، أعتذر الآن!

أطلّت على الصّالة لتلمح ياسمين وهي تجمع كؤوس الشّاي وتأخذها إلى المطبخ. هتفت في دهشة:

-هل رحل؟ بهذه السّرعة؟!

عبست وهي تمضي باتّجاهها وتردف:

-ماذا قلت له؟ ماذا حصل؟

قالت ياسمين ببساطة:

-لقد أخبرته بكلّ شيء.

-كلّ شيء؟

-عنّي وعن عزّ الدّين.

-وماذا قال؟

-قال أنّه يحتاج فترة للتّفكير.

-التّفكير في ماذا؟

-فيما أخبرته به!

-ماذا قلتِ بالتّحديد؟

-أخبرته عن والد عزّ الدّين.. عن ظروف وفاته، والتّهمة التي وجّهت إليه، وعن الأسباب التي تجعل الحياة في فرنسا مستحيلة بالنّسبة إلينا.

عمّ الصّمت لثوانٍ ثقيلة قبل أن تستطرد ياسمين:

-من حقّه أن يعرف منذ البداية ويختار إن كان يرغب في تحمّل هذا العبء أم لا.

احتضنتها رنيم في صمت، في حين تمتمت ياسمين بهدوء:

-سنعرف قريبًا، حين ينتهي من التّفكير!

***

كل شيء يمكن إصلاحه، إلا قلب المرأة، فإنه إذا انفطر لا يندمل انشطاره أبدًا.

وقلب آية انفطر يوم مرضت صغيرتها فلم تجد عمر تجاهها. في الوقت الذي كانت تفقد فيه آلاء، كان هو إلى

جوار ياسمين وطفلها. لم يشفع له أنّ صحة آلاء انهارت بشكل مفاجئ ولا أنّه عاد على جناح السّرعة ما إن عرف، ولا أنّه لم يدّخر جهدًا لمواساتها والتّخفيف عنها، ولا أنّه لم يترك جنبها منذ تلك اللحظة.

كانت تلك الضّربة القاصمة.

كانت تتساءل في أحايين كثيرة: هل يراسل ياسمين؟ هل يحادثها سرّا إذا ما غرقت هي في النوم؟ هل يفكر بها كل ليلة قبل أن يغلبه النّعاس؟ هل يتساءل أثناء نهاره ماذا تفعل وإلى من تتحدّث؟ غير أنها لا تملك أن تعدّ عليه حركاته وسكناته، ولا أن تصادر أفكاره والنّبضات في صدره.

كلّ ذلك التفكير العميق أفضى إلى استنتاج واحد: إنها بحاجة إلى طفل! طفل يشغل وقتها وعقلها ويعيد إليها زوجها! وكأنّها فقدته في مرحلة ما، أو فقدت اتّزانها. صارت تلك الحاجة إلى طفل هاجسًا يلازمها. لقد حملت مرّة، فما يمنعها من الحمل ثانية؟

كانت تعدّ الأيام وتراقب تغيّرات جسدها في يقظة، حتى لاحظت تأخر عادتها الشهريّة. تحفّزت وتحمّست، وترقبت

ظهور علامات الوحم. أخفت الأمر عن عمر حتى تفاجئه.. ثمّ داهمها ذات يوم نزف غزير بين فخذيها!

تملكها الهلع وهي ترقب الدّفق الأحمر الذي ينساب من جسدها، فصرخت في الحمّام. كان من حسن حظّها أنّ عمر رجع مبكّرًا ذلك اليوم. لم تشعر بدخوله، لكنّها فوجئت باقتحامه الحمّام في هلع ليطير بها إلى الطوارئ.

إجهاض تلقائي! كان ذلك التّشخيص البديهيّ.

لم تكن قد تجاوزت اكتئاب فقدان طفلتها إلا منذ زمن يسير، وها هي تفقد جنينًا آخر. كان ذلك كثيرًا عليها. إنّ للجسد والرّوح طاقة تحمّل، وهي قد تجاوزت الحدود الطّبيعيّة للصّبر والجلد. خلال أيّام، فقدت شهيّة الأكل والاهتمام بالعالم والنّاس. عادت تلك البلادة لتسيطر على مشاعرها، فلا تردّ الفعل على حركة المحيطين بها. احتاجت فترة حداد إضافيّة، قبل أن تبصر عمر من جديد: لم يكن حضوره إلا شبحًا غير مرئيّ في وقت سابق.

حين أخذت تتعافى تدريجيّا من الصّدمة والوعكة، قال عمر في عتاب:

-آية، فلنتوقف عن المحاولة، أرجوك!

نظرت إليه في يأس، ثمّ أشاحت بوجهها. قال مجدّدا:

-هذا قدر الله الذي اتّفقنا على تقبّله.. ألا تذكرين؟

غير أنّ الأمل الذي زارها مرّتين غذّى داخلها طموحًا إلى أمومة حقّة، ومحاولاته تنيها عن خوض التّجربة مرّة أخرى خذلان ينمّي خيبتها. كان يجدر به أن يكون أكثر حماسًا.. لو أنّه يريد طفلا منها!

كان عمر قد أدرك في ذلك الوقت، أنّ آية لن تتمكّن من تجاوز صدمة جديدة بلا ندوب عميقة في صميم روحها. لقد تركتها الأزمات المتتالية مثل خرقة بالية. لعلّها كانت تحتاج إلى مصدر طاقة روحيّة تشدّ من أزرها. قال رغم جمودها:

-ما رأيك لو نذهب إلى العمرة؟

-فلنذهب!

ظهر الحماس في مقلتيها، وقد استأنس لرؤيتها تبدي رغبة

في شيء ما.

بعد أيّام، ركب ثلاثتهم الطّائرة إلى جدّة لأداء مناسك العمرة.

اتّشحت آية بالسّواد طوال الرّحلة، تشبّثت بأستار الكعبة كلّما سنحت لها الفرصة، وغسلت الدّموع الغزيرة وجهها وهي ترنو بصدق وخشوع إلى السّماء. دعت بإلحاح، وكلّما التفت إليها عمر، كان يلحظ حركة شفتيها التي لا تفتر. كانت في خلدها حاجات تتمنّى على الله قضاءها، وتلك كانت فرصة مواتية لتطلبها وتجدّ في الطّلب.

أمّا هو، فقد رجا الله أن يرزقه السّكينة، ويهدي قلبه إلى الخير. دعا لآية كثيرًا، حتّى تجد الطّمأنينة والرّضا بما قسمه الله لهما من نصيب. وكان مشهد صهيب الذي يتعثّر في إحرامه الأبيض، ويرفع كفّيه مقلّدًا الكبار ليدعو يبعث في روحه السّلام.

لم تمض أيّام على عودتهم إلى لوزان بعد انقضاء أسابيع العمرة، حتّى قالت آية:

-أريد الذّهاب إلى عمّان!

كان عمر يفكّر باستمرار في الأشياء الثلاثة التي بوسعها إنجاح زواجه. وتوصّل آنذاك إلى العمل الأول: أن يصغي إلى رغباتها. إن كانت رحلة إلى عمّان تشعرها بالتّحسّن، فليسافروا جميعًا. كانت الرّحلات المتكرّرة تعني انقطاع صهيب عن المدرسة لفترات، لكنّ ذلك لم يكن ليردعه. سيعوّض الولد ما فاته خلال الإجازات، أمّا الآن، فالأولويّة لاحتياجات آية.

كان أبو الحسن أقلّ تفاجؤًا بالزّيارة، بعد أن وصله خبر وفاة الطّفلة. بدا كأنّه توقّع رؤية ابنة أخته في وقت قريب. قالت آية بلهجة واثقة:

-أودّ احتضان طفل آخر.

لم تلحّ هذه المرّة بشأن الجنس والعمر. كانت في ذهنها فكرة محدّدة عمّا تريده.

عادوا إذن لزيارة دار الرّعاية. تحلّق الأولاد حول صهيب في ترحاب وفضول. مضت سنة على رحيله، وانضمامه إلى

عائلة. الأولاد لا يرجعون في العادة، إلا إذا تخلّت عنهم العائلة المضيّفة. من يغادر منهم لا يلتفت إلى الوراء. وما حاجته إلى جبّ الحرمان بعد أن امتدّ إليه حبل النّجاة؟ وأيّ حنين قد يتحرّك في وجدانه تجاه الحفرة التي من دخلها مفقود ومن خرج منها مولود؟ لكنّ صهيبًا كان يحمل الهدايا لرفاق طفولته، وفي جعبته حكايات كثيرة عن حياته المشوّقة والمبهرة بين لوزان وباريس.

اتجهت آية إلى غرفة الأطفال الرّضع مباشرة. هل تراها كانت تفتش عن ملامح لولو في القسمات البريئة المنمنمة؟ تفرّست في الوجوه الصّغيرة وربّتت على الرؤوس برقّة، ثم سألت المشرفة:

-أيّ الأطفال على قائمة الانتظار منذ وقت طويل؟

كان سؤالا غريبا وغير معتاد: من يبحث عن الأطفال غير المرغوبين؟

قالت المشرفة:

-مازن، عمره سنتان.. لديه تجمّع سوائل في الدّماغ.

رنت آية إلى مازن بنظرة حانية. تلك البراءة الرّقيقة كانت تجذبها كالمغناطيس. حملته بين ذراعيها ثم التفتت إلى عمر:

-ما رأيك في مازن؟ أرأيت كم هو جميل؟

داعب عمر الطفل ثمّ نظر إلى آية في قلق، بينما قالت الممرّضة:

-إصابته ناتجة عن خلل جيني نادر، هؤلاء الأطفال لا يعيشون طويلا في الغالب!

قالت آية دون أن تلتفت إليها:

-أعرف، لذلك لا يجدون من يحنو عليهم، ولا يعرفون معنى العائلة أبدًا.. لذلك أريد أن أمنح مازن عائلة ولو لبعض الوقت.

حدّق فيها عمر في إشفاق. إنّه يعجز في تلك اللحظة عن الإحاطة بما تشعر به: هل أدمنت الألم بشكل مرضيّ، فصارت في حاجة إلى استرجاع حالة الحداد التي عاشتها بعد رحيل آلاء وفقدانها لجنينها؟ أم أن حالة تعاطف خارقة أصابتها لأن آلاء لم تمت وحيدة في حضانة دار الرّعاية، وعرفت

في آخر أيامها قسطا من السّعادة وهي تعامل كطفلة مدلّلة لعائلة محبّة؟ كانت هناك شعرة رقيقة تفصل بين قطبين متناقضين، وهو لم يكن على يقين أين يقع وعي آية!

رآها وهي تولي مازن رعاية بالغة في الأيام التّالية. تشرق ملامحها بتلك البسمة السّاحرة وتتملكها حالة الوجد التي عرفتها سابقًا مع آلاء. تقول:

-انظر، كم أن ضحكته آسرة!

كان سعيدًا لرجوع الحياة إلى جسدها، غير أنه لا يشاطرها حماسها هذه المرّة. أسرّ إلى أبي الحسن بمخاوفه، فقال مترفّقا:

-البنت سرّ خالها، وما الضّرر إذا فتحت ذراعيها لتهب كل هؤلاء الأطفال حبًا وحضنًا؟ امنحها ثقتك ولا تخذلها.

فكّر أنّ الشيء الثاني الذي يودّ أن يعطيها إيّاه هو: تقدير احتياجاتها النّفسيّة والثّقة في اختياراتها. إن كانت رعايتها لطفل مريض بحاجة إلى عائلة سيشعرها بالاكتمال والرّاحة، فسيستجيب لذلك.

-37-

طوال السنوات الستّ الماضية لم تفكر ياسمين في الزواج أبدًا. ليس لقلة الخاطبين، وليس لزهدها في الرّجال. لكنها لم تتوسّم في أحدهم المقدرة على مشاركتها حِملها وإرثها!

وكيف لرجلٍ لا يرى فيها إلا ظاهرها أن يتوقّع ما تخفيه ذاكرتها ووجدانها؟ إنها تريد رجلًا قادرًا على فهم بصمات هيثم في روحها، وحاجة طفلها إلى حفظ تاريخ أبيه، وأثر سيرته المأساوية على حياتهما. لذلك آثرت الوحدة، لا رغبة فيها، بل عن رضا وقناعة بقدرها.

لقد كانت ذكرى هيثم كافية بالنّسبة إليها. وكانت قادرة على الاستمرّار على تلك الشّاكلة. لقد عرفت زواجًا سعيدًا، وإن كان عمره قصيرًا. والكلّ يتوقّع منها أن تتفرّغ لطفلها وألا تحتاج إلى رجل. لقد اعتادت على تلك الفكرة، ورضيت. كانت المعوّقات الاجتماعيّة القائمة أكبر وأعمق من أن تحاول هدمها.

وكانت تأتيها أوقات تشتاق فيها إلى وجود رفيق في

حياتها، يؤنسها ويفهمها ويشاركها أفكارها وهمومها ويصرف عنها وحشة الليالي الهادئة. لكنّها سرعان ما تعود إلى واقعها، وتستسلم لقدرها. لقد كان لديها طفل، وذلك سبب سعادة كافية.

فما الذي تغيّر الآن؟

لعلّها توسّمت في الدّكتور يوسف خيرًا، كونه يعرف بدقّة حالة طفلها الصّحيّة، ولحضوره المكثّف في حياتهما خلال الشّهور المنصرمة. لولا ذلك التّقارب الذي حصل جرّاء مباشرته لعلاج عزّ الدّين، لما وجدت رغبة أو طاقة لقبول محاولاته للتقرّب منها.

قرّرت أنّها ستمنحه تلك الفرصة، حين وافقت على زيارته، وحدّثته دون تجميل أو مداراة عن ماضيها.

مرّت أيّام ثقيلة منذ المقابلة. كانت رانيا تلازم الشقّة في تلك الآونة -بحجّة إجازة مرضيّة مدّعاة تبقيها بعيدةً عن تهديد كزافيي- وكانت رنيم تطلّ في فضول فور عودتها من مشاويريها لتستطلع:

-هل اتّصل؟

ليصلها الردّ ذاته: لا جديد بعد.

وكانت ياسمين تصطحب عزّ الدّين إلى الحديقة كلّ صباح، ترقبه في انتباه وهو يتلمّس طريقه نحو طفولة طبيعيّة. يحاول أن يقترب من الأطفال ويبادلهم حديثًا قصيرًا وبريئًا، ثمّ يشاركهم لعبهم بحذر. وكلّما أوشك اللهو على التحوّل نحو العنف أو الحركات الخطرة، تدخّلت على الفور لتسحبه من بينهم.

لم يكن بعد مستعدّا لذلك النّوع من التّشابك. ولعلّها تشعر بخيبته لمراقبتها اللّصيقة. إنّه يودّ الاندماج في محيطه، وأن ينسى فترة المرض ومخلّفاته، لكنّها ما زالت تعامله كطفل عليل.

لم ترد أن تشغل نفسها بتأخّر ردّ الدّكتور يوسف. لم تكن ترغب في الزّواج بشكل ملحّ على كلّ حال. هي لم تكن لتفكّر بالأمر لولا إصرار رنيم، وتمسّك يوسف. وحتّى ذلك الردّ الذي تنتظره فلم يكن يعني أكثر من استعداد كليهما للتّعارف أكثر، ودراسة مشروع الارتباط.

لكنّه بشكل ما، يعني الكثير. إنّ وجود رجل يتقبّل تاريخ عائلتها شيء نادر. وهي كانت تشعر بالفضول: هل يمكن أن يكون يوسف قد قُدّ من ذلك المعدن النادر؟

كنّ يجلسن خلال السّهرة، بينما استغرق عزّ الدّين في النّوم منذ وقت قصير بعد أن استنزف اللّعب طاقته. رنّ هاتفها فجأة ليظهر رقم مألوف. رفعت عينيها لتبادل رانيا ورنيم نظرات متوتّرة: لقد جاء الاتّصال الذي طال انتظاره، فانسحبت إلى الغرفة لتتلقّاه.

أخذت الشّقيقتان توشوشان في توجّس وهما تترّقبان عودة ياسمين. حين لمحتاها عند الباب بعد دقائق، رنت الأعين إليها وساد صمت رهيب على غرفة الجلوس. ابتسمت ياسمين وهي تقول بهدوء:

-لقد اعتذر.

وقفت رنيم وهرولت إليها تحتضنها وهمست مواسية:

-انسي أمره، إنّه لا يستحقّك!

أضافت ياسمين بلا مبالاة ظاهرة:

-قال أنّه لا يستطيع الابتعاد عن باريس.. عمله هنا، ومستقبله المهنيّ الذي جاهد لبنائه لسنوات. بينما البقاء في باريس ليس مطروحًا بالنّسبة لي ولعزّ الدّين. وهذا يجعل علاقتنا مستحيلة.

تبادلت ثلاثتهن نظرات عارفة. لقد كان ذلك السّبب المعلن، لكنّ كلا منهنّ تدرك في قرارة نفسها أنّ الدّكتور يوسف احتاج وقتًا للتّفكير في أشياء أخرى. لو أنّه أراد نجاح تلك العلاقة لوجد حلًّا وسطًا، ولتلمّس السّبل المتاحة. لكنّ المعضلة كانت في جزئيّة أخرى: هل كان يستطيع تقبّل إرث هيثم وتحمّل نتائجه؟ ومن الواضح أنّه قد توصّل إلى إجابة صريحة: لم يكن بوسعه ذلك.

حين وضعت ياسمين رأسها على الوسادة تلك اللّيلة، هاجمتها تلك الأفكار التي تلحّ عليها وتستمرّ ترفضها. إنّ الرّجل الذي قد يرغب في تحمّل إرث هيثم ويقدر على ذلك نادر الوجود بالفعل. لم يكن يوسف. وليس في محيطها سوى رجل واحدٍ تنطبق عليه المواصفات.. لا أحد غيره يفهم ما عاشته وما تمرّ به اليوم.

لكنّه متزوّج!

إن هذا يبدو مزريًا الآن.

كان التّفكير في رجل متزوّج جريمة عند أهلها في تونس. لم يكن التّعدّد جائزًا في القانون التونسي، فإن اتّخذ الرّجل صاحبة غير زوجته فإنها ستكون خليلة لا حليلة. لا تعرف أحدًا في محيطها تونسيّا كان أم فرنسيّا قد تزوّج اثنتين. ما عدا جارهم أبي عبد الرحمان!

كان والده قد منعه من الارتباط بحبيبته وفرض عليه الزّواج بابنة عمه. فما إن توفّي والده حتّى طلّق زوجته ثمّ عقد عليها عرفيّا، وتزوّج حبيبته التي كانت في انتظاره! لقد لاكت ألسن أهل الحيّ سيرته في ذلك الزمن البعيد، وأشير إلى زوجتيه بالبنان وتهامس عليهما الناس.

لكن التّعدّد مباح في المغرب! إن أراد عمر الزواج ثانية، فلن يلومه أحد.

إنّها لا تريد التّفكير في ذلك، وتشعر بالخزي إذا فعلت.

لكن كيف لها ألا تفعل، وقد غمرها بحضوره الكثيف طوال السّنة المنصرمة؟ منذ ظهوره في المكتبة في الرّبيع الماضي، شغلها بأفعاله التي تتقلب بشكل كبير. لقد عرفت بسببه شتّى أنواع الأحاسيس: لقد أعجبت بعقله واحترمت أفكاره وتعاطفت مع قضيّته وتحمّست لمشروعه، ثمّ باغتتها عودته، فغضبت من تطفّله على حياة ابنها، ثمّ حزنت لمصابه، ولعلّ ما يبثّه فيها حضوره مؤخّرا هو الفرح والأمل.

وفي كل زيارة هناك في تونس وهنا في باريس، كانت في جعبته مفاجآت لا تنتهي! كيف يمكنها أن تبقى لا مبالية؟ وهل يمكن أن تكون بذلك البرود، حين حلق من عمّان ليتبرّع لأحمد؟ ثم جاء بصهيب ليكون رفيقا لعزّ الدين ومن بعد ذلك واهبًا لخلاياه؟ كيف تنسى وقوفه إلى جوارها في قاعة الانتظار ترقّبا لأهمّ الأحداث في حياتها؟

لقد شعرت بانفعالات متباينة في كلّ مرّة، وقد خلّف غيابه فراغًا في كلّ كرّة. لكنّه جليّ اليوم، بعد أن اطمأنت إلى شفاء عزّ الدين، ولم يعد الخوف والفرَق يغمرانها، وبعد أن واجهت الرّفض من خاطبها، تجد طيفه يزور خيالها دون وعي منها.

لقد اختار الانسحاب في ذلك التّوقيت الدّقيق، بعد أن

أهدى الشّفاء إلى طفلها. لقد كانت تعي بوضوح أنّه لم يكن هناك من أجلها قطّ، بل من أجل عزّ الدّين! لقد كان صريحًا منذ البداية، ولم يكن في سلوكه أيّ تجاوز بتصريح أو تلميح. لقد حافظ على مسافة بينهما طول الوقت، ولم تجد منه إلا الاحترام.. لكنّ وحدتها وخيبتها تطلقان للخيال العنان!

«ياسمين.. أنت لا تفكّرين بشكلٍ سويّ!»، همست لنفسها في يأس.

حين زارت شقّة الشّركة، عرفت أنّه قد أعاد إليها كتبها. لم تحاول تأويل تصرّفه آنذاك، كان ذلك يعني أنّه قد عرف هويّتها، وأنّ تلك الكتب تعود إليها. لكن بعد اختفائه، أصبحت لتلك الحركة الرّمزيّة معانٍ أخرى: لعلّه يرسي حدودًا ويضع خطّ نهاية واضحًا لحوادث الماضي التي جمعتهما. إنّ لديه زوجة رائعة، وقد كفلا طفلين معًا. ما تزال تذكر الانطباع الشّديد الذي تركته آية في نفسها خلال لقائهما الوحيد: إنّها حسناء، وسيّدة راقية بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى!

كانت تلك الأفكار تعيد إليها تفاصيل إعجابها السّاذج البريء بفتى المترو!

حين عرفت هويّته، كانت قد قبلت بخطبة هيثم، وانتهى الأمر. ولم يكن فتى المترو قد صارحها بشيء قطّ، وهي ليست مراهقة تعلق الأماني على ما تكتمه الأفواه المغلقة! لقد اختارت هيثم بوعي منها، ولقد أحبّته لاحقا، ولم تندم أبدًا على زواجها منه.

لكنّها في وقت ما، ملأت عاطفة رقيقة صدرها. لم تكن سوى سحابة خفيفة ظلّلت مسيرها، ثم انقشعت.

لقد حرصت على ألا تراه بعد زواجها. ولا أتت على ذكره أو سألت عن أحواله ما لم يبدأ هيثم الحديث عنه أولا. لقد أبقت السّتارة مسدلة على تلك القصّة القصيرة المبتورة.. ولم تحسب أنها ستسترجع تلك الأيام تفاصيلها في حنين وحسرة.

غير أنّها حين تفكّر الآن في عمر، فإنّها لا ترنو قطّ إلى فتى المترو، فذاك لم يعد له وجود. وفتاة المترو أيضا أصبحت طيفًا من الماضي. لقد غيّرتهما السّنون وأفنت البراءة والسّذاجة التي غلّفت لقاءاتهما.

لم تكن تلك القصّة اللّطيفة أكثر من خيالات تستعيدها

فتبتسم. لكنّها ترى اليوم الرّجل الذي يعرف عنها كلّ شيء، ويدرك عمق مأساتها أكثر من غيره -لأنّه كان جزءًا منها- فلا تحتاج شرحًا أو تبريرًا.. ترى الرّجل الذي يقف إلى جوارها بنبل وشهامة عزّ نظيرهما. ترى رجلًا ناضجًا قد خبر الدّنيا وعاش أهوالها، فصار سندًا يُعتمَد عليه. وفوق ذلك، ترى صديقًا وفيًّا لذكرى صاحبه وراعيًا لأهله من بعده.

«ياسمين، أنت لست مراهقة!» قرّعت نفسها في استنكار. وعمر الرّشيدي لم يتحرّك في اتّجاهها أبدًا.. لا سابقًا، ولا اليوم! فلماذا تعيش من جديد تلك العاطفة السّخيفة وتتعلّق بطيف رجل لم يطلب ودّها قطّ؟

بكت على وسادتها تلك اللّيلة بهدوء. وقرّرت أن تطرد تلك الأفكار العقيمة عن ذهنها.

حين تستيقظ، ستكون قد نسيت كلّ شيء.

***

وقفت عند الباب وإلى جانبها حقائبها الجاهزة. زرّرت قميص طفلها ورنت إليه بابتسامة مشرقة. كانا مستعدّين

للانطلاق نحو الوطن. جاءت رانيا لتعانقهما بقوّة، فاحتضنتها ياسمين بحرارة.

كانت لحظة الوداع قد حانت. فتحت رنيم الباب وقالت وهي تلقي نظرة على ساعتها:

-سنتأخر على الرّحلة. يجب أن ننطلق الآن!

ثمّ التفتت إلى رانيا وقالت:

-لا تفتحي الباب لأحد، سأكون هنا قريبًا.

أومأت رانيا في استسلام. كانت قد شرعت في تحضير حقائبها بدورها. انتهت إلى ذلك القرار بعد تشاور مع رنيم. لم يعد بقاؤها في باريس ينفع، ما دام كزافيي حرًّا طليقًا. مع رحيل ياسمين إلى تونس، قرّرت الشقيقتان العودة إلى القاهرة. كانت مسيرة رنيم الأكاديميّة معلّقة في الوقت الحالي، مع سحبها التّسجيل في الدّكتوراه، ولم تعد إقامتها في باريس ضروريّة أو مبرّرة. ستأخذ استراحة طويلة لتستجمع شجاعتها، ثمّ تبحث عن مشرف جديد ورسالة جديدة!

لوّحت لثلاثتهم وهم يعبرون الممرّ باتّجاه المصعد، ثمّ أغلقت الباب بإحكام. لم تكن تشعر بالرّاحة لبقائها وحيدة في الشقّة، لكنّها تعرف على الأقلّ أنّ كزافيي لن يجازف بالمجيء، بعد البلاغ الذي قدّمته. مع ذلك، لم تكن رنيم وياسمين تتركانها بمفردها أبدًا.

شغّلت التلفاز بصوت منخفض تستأنس به، ثمّ جلست وبيدها هاتفها. مرّ ببالها خاطر فجأة، فرقنت في خانة البحث: اضطراب الشخصيّة النرجسيّة. لقد تحدّثت رنيم كثيرًا عن نرجسيّة كزافيي، وهي لم تكن تعرف أكثر من اشتقاق الصّفة من أسطورة نرسيس الإغريقيّة، الذي مات وهو يتأمّل صورته في البحيرة، إعجابًا بها!

قرأت الأعراض باهتمام: شعور مبالغ به بأهميّة الذات، يتوقّع الاعتراف بأهميّته دون تحقيق إنجازات تستحقّ ذلك، يعجز أو يرفض فهم احتياجات الآخرين ومشاعرهم، التصرّف بأسلوب متعجرف ومتغطرس، الإصرار على الحصول على أفضل الأشياء دومًا، يجد صعوبة في ضبط مشاعره وسلوكيّاته...

كانت تقرأ وتهزّ رأسها مؤيّدة. إنّها تتعرّف إلى كزافيي

في تلك المواصفات. توقّفت حين وصلت إلى الأسباب: إلى جانب الأسباب الوراثية، الحماية المفرطة أو الإهمال الشّديد في الطفولة!

إنّها تعرف أنّ طفولة جاسر لم تكن نموذجيّة. لقد خسر عائلته الحقيقيّة، وعاش فترة من عدم الاستقرار قبل أن تحتضنه عائلته الجديدة. لعلّ ظروف نشأته كانت غير اعتياديّة بشكل أثّر على سلامته النّفسيّة. زمّت شفتيها وعبست. إنّها تشفق عليه الآن. ربّما لم يكن له ذنب فيما آل إليه أمره، وهو في حاجة إلى رعاية وعلاج.

تعالى طرق على باب الشقة في تلك اللّحظة. نهضت في توجّس ومشت في اتّجاه المدخل. هل تكون ياسمين نسيت شيئا في الغرفة وعادت من أجله؟ لكنّ المفاتيح بحوزتها ورنيم. تطلّعت عبر العدسة المثبّتة في الباب، فلم تر أحدًا. تراجعت في شكّ. لعلّ الطّرق كان على الباب المجاور. كانت قد عادت إلى مجلسها حين ارتفع رنين هاتفها. جاءها صوت ميار في مرح:

-هل وصلتك الهديّة؟

-هديّة؟

-قال مندوب التّوصيل أنّها عند الباب. هل استلمتها؟

-آه، حقّا؟

ضحكت رانيا في ارتياح وهي تقول:

-لقد سمعت طرقات، حسنا.. سآخذها الآن. ما هي المناسبة؟

عادت إلى المدخل وهي تستمرّ في المحادثة. قالت ميار:

-ستعرفين حين تفتحينها...

جذبت رانيا الدّفة فلمحت العلبة الكرتونيّة على الأرض. انحنت لتلتقطها وهي تقول:

-وجدتها!

قبل أن ترفع رأسها، شعرت بشخص يدفعها إلى الدّاخل

ليقتحم الشقة. صرخت في هلع وسقط الهاتف من يدها، بينما كان مهاجمها يغلق الباب عليهما.

***

أدارت رنيم المفتاح في القفل ودفعت الدفّة. قالت وهي تضع علب الطّعام الجاهز على منضدة المطبخ:

-رانيا، لقد أحضرت شيئا نتناوله على العشاء. أنت جائعة؟

لم يصلها سوى صمت عميق سيطر على الشقة. كان التلفاز مشغّلا بصوت ضعيف، ولم تنمّ عن رانيا أيّ حركة توحي بوجودها في الجوار. سارت إلى الغرفة على عجل وقد أخذت الشكوك تساورها. أطلّت من باب الغرفة الأولى وأحاطتها بنظرة شاملة. كانت حقائبهما مشرعة. عليها أن تنهي جمع بقيّة متاعها من أجل رحلة الغد. لكنّ رانيا لم تكن هناك.

استدارت وفتحت باب غرفة ياسمين التي أخلتها منذ سويعات. على السرير، كانت رانيا مكوّرة على نفسها في وضعيّة الجنين. تقدّمت رنيم بهدوء ووضعت كفّها على

كتفها برفق. همست:

-رانيا، أنت نائمة؟

شعرت باهتزاز جسدها برعشة مفاجئة حين لامسته أصابعها. قالت في شكّ:

-ما الأمر؟ أنت بخير؟

أزاحت الملاءة التي كانت تخفي ملامحها، لتظهر عيناها المتورّمتان ووجهها المحتقن. شهقت رنيم في فزع وهي تسحبها إلى حضنها.

-ما الأمر؟ لماذا تبكين؟

أشارت رانيا إلى ذراعها. رفعت رنيم كمّ القميص، وحدّقت في صدمة في الوشم الطازج الذي لم يجفّ دمه. كانت علامة قاطع ومقطوع، أو حرف X تظهر بوضوح على ساعد شقيقتها. صرخت في فزع:

-ما هذا؟

تمتمت رانيا في ضعف:

-كزافيي.. لقد كان هنا!

صرخت رنيم في صدمة:

-هنا؟ فتحت له؟

-ميار، قالت أنّها أرسلت هديّة.. ففتحت الباب!

استغرقت رانيا في بكاء كالأنين، فضمّتها رنيم بحرارة ومسحت على شعرها حتّى هدأت.

-احكي.. ماذا حدث؟

استرجعت رانيا تفاصيل الحادثة وهي تقصّ على رنيم اقتحام كزافيي للشقّة. لقد أصيبت بذعر شلّ حركتها، حين وجدت نفسها على الأرض، وهو يقبع فوقها وقد تطاير الشّرر من عينيه. كانت تريد أن تقاوم، لكنّ نصل سكّين كان مسلّطا على عنقها هذه المرّة. همس بصوت كالفحيح:

-ابقي هادئة، ولن يصيبك مكروه!

لذلك، لم تحرّك ساكنًا رغم الألم، حين غرس السكّين في ساعدها وأخذ يحفر الحرف الأوّل من اسمه.

كان يقيّد معصميها وراء ظهرها، ويبقيهما ثابتين على الأرض بضغط من ركبته، في حين قبضت يسراه على ساعدها لتفرغ يمناه إلى مهمّتها.

كانت مذعورة، وقد خشيت على حياتها بشكل جادّ. كان أقوى منها جسديّا، وكان قادرًا على إيذائها. لكنّها تجاسرت على النّظر في عينيه وقالت في رجاء:

-كزافيي.. أنت مريض! تحتاج علاجًا.. وبشكل عاجل!

توقّف عن عمله وحدّق في عينيها بنظرة غريبة، ثمّ قال في جفاف:

-كفّي عن الهراء والزمي الصّمت!

لكنّها واصلت في إصرار:

-لقد عشت طفولة غير متّزنة، هذا ليس ذنبك. أنت في حاجة إلى المساعدة...

لطمتها كفّه اليمنى في عنف على حين غرّة، وزمجر غاضبًا:

-قلت اصمتي!

ابتلعت الدّماء الحارّة التي نزفت داخل فمها، وانهمرت عبراتها في سكون. لم تنبس ببنت شفة بعد ذلك. لمّا فرغ، طالعها بنظرة رضا وهو يقول:

-ستذكرينني.. في كلّ مرّة تنظرين فيها إلى الوشم!

أغمضت عينيها بشدّة، وكاد يغمى عليها من الرّعب حين أفلت قبضتيها المخدّرتين. حبست أنفاسها في انتظار الآتي، وقد أدركت أنّ المقاومة لن تجدي، وأنّ صراخها لن يصل إلى أحد قبل فوات الأوان. لكنّ صوت الباب وهو يغلق جعلها تفتح عينيها في صدمة. كان قد ذهب.

قالت رنيم بلهجة حازمة:

-لقد تجاوز كلّ الحدود. قبل أن نسافر، سنمرّ على مركز الأمن ونسجّل بلاغًا جديدًا بالحادثة. لن أتركه، أعدك! سوف يكون حكمًا قاسيًا، وسيدفع الثّمن!

-38-

بعد شهر واحد، كان مازن يعود برفقتهم إلى لوزان. طفل بهي الطلعة ذو عينين لوزيتين وشعر أشقر، ومحكوم بالموت.

خلال الشّهور التي تلت، سافرت آية إلى الأردن ثلاث مرات، وعادت برفقة مي ولميس وصفوان.. وبكت حدادًا على مازن الذي مكث برفقتها لأسابيع وحسب.

لميس مصابة بالشّلل وترقد في سريرها موصلة بالأجهزة التي تنظم تنفّسها طوال الوقت، وصفوان الذي بلغ الرّابعة لم يتكلّم بعد، لديه تأخر ذهني وعيب خلقي في القلب -مثل آلاء- أما مي، فهي حرفيًا على سرير الموت بسبب الخلل الدّماغي الذي ولدت به. قالت آية:

-أريدها أن تموت سعيدة ومحبوبة!

لم تكن حالات الإصابة بأمراض جينيّة ووراثيّة معقّدة أمرًا نادرًا في المخيّمات. في تلك البيئة التي تعاني من سوء

المرافق الصحيّة وضنك العيش، كان الشّباب يجد صعوبة في إيجاد نصفه الآخر خارج دائرة الأقارب وأبناء العمومة. وكلّما زادت درجة القرابة بين الزّوجين، تزايدت الطّفرات الجينيّة المشتركة بينهما، وارتفعت معدّلات ظهور الصّفات المتنحّية المتّصلة بها. قال الطّبيب وهو يرافق آية خلال جولة فحصه لأطفال دار الرّعاية:

-إنّنا نملأ «تقارير حالات» أكثر من أيّ مكان في العالم!

ثمّ شرح لها طبيعة تلك التّقارير: التشوّهات الخلقيّة النّادرة وغير المسبوقة، والأمراض الوراثيّة الجديدة التي لم يتمّ تسجيلها بالإضافة إلى الأعراض المتنافرة أو المستجدّة لمرض معروف.. كلّ تلك الحالات تستدعي ملء مذكّرة «تقرير حالة».

-إنّنا نشعر بالعجز أمام هذا العدد من الأطفال الذين يتخلّى عنهم ذووهم بسبب التّكاليف العالية لأمراضهم المستعصية! لقد شهدت حالات تضطرّ فيها الأمّ إلى تسليم طفلها إلى دار رعاية بعد أن يرحل عنهما الأب ولا تجد ما تسدّ به الرّمق، فضلا عن العلاج.. ورغم المجهود التّوعويّ الذي نقوم به بشكل دوري، فإنّ زواج الأقارب المتكرّر بين أجيال العائلة

الواحدة يبقى آفة لا ننجح في القضاء عليها أو الحدّ منها!

وكانت رعاية هؤلاء الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة مضنية ومستهلكة للوقت والأعصاب بالنّسبة إلى آية، فلم يكن الجزء الماديّ عبئًا حقيقيًا. كان عمر قد خلص إلى العمل الثالث الذي سيوفّره لآية: أن يدعمها مادّيا بلا حدّ، ودون طلب منها.

حين زار الطّبيب النفسيّ بعد طول انقطاع، بلّغه بالقرارات الثلاثة التي اتّخذها من أجل إنجاح زواجه، فاستمع الطّبيب في اهتمام، ثمّ سأله:

-ما الذي تشعر به الآن؟

-أشعر بالرّضا.

-أنت راضٍ.. لأنّك لم تعد مدينًا لها؟

-بل لأنّها سعيدة!

رغم الإرهاق البالغ الذي يسبّبه هؤلاء الأطفال الذين تمتلئ

بهم الدّار، ورغم لحظات الحزن التي تلوح في الأفق مع تفاقم حالة أيّ منهم، فإنّ آية قد عادت إلى الإشراق كما يحبّ لها أن تكون. بشكل ما، تلك المشاعر التي تغدقها على الأيتام المكروبين كانت تجعلها أقوى. وكان اهتمامها بهم يجعلها مشغولة بشدّة، فلا تجد وقتًا للاكتئاب. وكلّما رحل أحدهم، وجدت ضالّتها في آخر. لقد تقبّلت فكرة الأمومة العابرة والمؤقّتة وقرّرت أنّ ذلك ما يلزمها.

سأله الطّبيب مرّة أخرى:

-والآن، هل تشعر بالرّضا عن حياتك الزّوجيّة؟

تفكّر عمر في صمت. لقد كان راضيًا في ذلك الوقت، لأنّ آية تركت بوتقة الألم التي تصهر روحها. إنّه راضٍ لأنّها تجاوزت الحداد والخوف من الفراق، ووجدت رسالتها في الحياة: أن تبذل وقتها وجهدها لمنح أولئك الأطفال عائلةً وموتًا رحيمًا، وربّما فرصة للعلاج. لكنّه نسي في خضم كلّ ذلك ماهية الحياة الزّوجيّة الطّبيعيّة. تنهّد وهو يقول:

-لقد انتظرتني لأكثر من سنة حين كان قلبي مقفلا تجاهها -ولسنوات قبل ذلك حين كنت في الحبس- ومن حقّها عليّ

أن أصبر بالقدر نفسه قبل أن أشرع في التذمّر!

كان بوسعه الانتظار ومنحها فرصة تجاوز محنتها بالشّكل الذي تراه مناسبًا. الظروف غير الطبيعيّة تحتاج تدابير غير تقليديّة. وذلك التّرتيب المرحليّ قد يعيد إلى حياة آية توازنها، حتّى ترجع إلى سالف عهدها.

في الأثناء كانت لديه بالتّوازي أسباب سعادة تخصّه. كان يزداد قربًا من صهيب، حتّى كاد يحسبه صديقًا يعتمد عليه، وينسى أنّه مجرّد طفل. كانا يمضيان كثيرًا من الوقت معًا، مع انشغال آية عنهما بصغارها المتطلّبين. كان يغدو طفلا حين يلاعب الفتى كأنّه نزع عن كتفيه رداء الهموم الذي يثقلهما، وفي المساء حين يتسامران، يفضي إليه بما يجول بخاطره فيتحاوران مثل راشدين.

قالت آية ذات يوم بعد أن أوشكت أن تنهار من الإرهاق وقلة النوم:

-أحتاج مساعدة! من كان يظن أن رعاية الصّغار متعبة إلى هذا الحدّ؟!

كما وعدها، لم يتذمّر عمر قطّ. قرّر أنّه سيدعمها طالما تجد راحتها في ذلك، ولو ملأت البيت صغارًا! كان يكفيه أن يراها مبتسمة وراضية. غير أنها لم تكن ترضى بسهولة. يتحوّل مزاجها يوميًا بين الجزع والحزن والقلق، لكنها قليلا ما ترضى. تستمرّ تعدّد كلّ مساء ما يحتاجه الأطفال لتكون حياتهم أفضل: آلة تدليك، آلة صناعة المثلّجات، بركة سباحة! كانت بارعة في خلق احتياجات جديدة، وفي تحويل تركيزها نحو ما يمكنها فعله دون ما لا يمكنها عمل شيء إزاءه.

جاء عمر بممرّضة شابّة لرعاية الأطفال في أوقات النّهار، وأنشأ حسابًا مصرفيًا باسم آية، ورصد لها ميزانيّة شهريّة خاصّة بها وبالأطفال حتّى لا تعود إليه بالنّظر كلّما رغبت في شراء بعض المرفقات. كان يريد أن تشعر بحريّة أكبر، وتستقلّ بذمّة ماليّة تورثها اطمئنانًا وثقة.

ولم يتعلّق أبدًا بأيّ من الأطفال الذين أصبحت فوضاهم تعمّ بيته في كل وقت من أوقات الليل والنّهار. كان ينسحب بصحبة صهيب إلى الشرفة -حين لا يشغلها الأطفال- حيث ينعمان ببعض الهدوء، ويتركان المنزل لآية وقبيلتها. تعوّد على نسق حياة عجيب، لا يمتّ لمعنى «الأسرة» التّقليديّ

بصلة. غير أنّه كان قانعًا بما آلت إليه الأمور. كانت آية تمارس حدادها بشكل غير اعتياديّ، لكنّه يأمل أن تمرّ تلك الأزمة بأخفّ الأضرار.

بشكل ما، كان الوضع الحاليّ امتدادًا لنشأة علاقتهما التي نبعت من مبدأ «الالتزام بقضايا إنسانيّة» و«الرّساليّة». كان تعلّق آية بأطفال المخيّمات -المنكوبين منهم بشكل خاصّ- ملائمًا لشخصيّتها. رغم المأساة الذّاتيّة التي مرّت بها، فقد حوّلت عثراتها إلى أهداف عمليّة، وأيّ شخص غير آية كان ليقدر على ذلك؟

كان يدرك أنّها لم تكن ضعيفة، لقد أثبتت صلابتها في مناسبات شتّى. لكنّ تعاطيها مع فكرة الأمومة بذلك الأسلوب الخلّاق فاق كلّ توقّعاته. وقد كانت تحبّ كلّ أولئك الأطفال بنفس الشدّة والتّوق اللذين عرفتهما تجاه آلاء. كانت بداخلها عين عطاء لا تنضب، وهي تغدقها بسخاء على هؤلاء الصّغار.

***

عادت إلى تونس، بعد سنة ونصف من الغياب.

تغيّر الشيء الكثير خلال تلك الفترة. سافرت بطفلها على كرسيّ متحرّك، لتعود بولد يشعّ نشاطًا وحبّا للحياة! خلّفت والدها مشلولًا صامتًا لا يكاد يُبين، فألفته صحيحًا معافى طليق اللّسان! كانت الحياة تبتسم في وجهها من جديد.

كان كمال عبد القادر قد ترك منزل عبد الحميد الأندلسي واستأجر شقّة في العاصمة. تغيّرت حياته بشكل سريع. بعد أن استعاد عافيته، لم يفكّر في العودة إلى ليون، حيث عمله ومختبره وجامعته. كان قد امتلك الوقت الكافي أثناء رقاده على سرير المرض ليمحّص وضعه ويتّخذ قرارات حاسمة.

كان يودّ أن يستثمر أمواله في إنشاء جامعة خاصّة في موطنه. خلال الشّهور الماضية، كان يراقب سوق العقارات ويتصيّد الفرصة المناسبة. في خياله، كانت تفاصيل المشروع واضحة المعالم بدقّة متناهية.

استقبلها جدود طفلها الأربعة في المطار، ليجتمع الشّمل أخيرًا. أصرّ كمال على دعوة الجميع على مأدبة عشاء في فندق فاخر وسط العاصمة. راقبته فاطمة في شكّ. لم يكن الرّجل يشبه طليقها الذي لقيته آخر مرّة في زفاف ياسمين: كان مختلفًا شكلًا وجوهرًا. يقينًا، تلك التّجربة القاسية قد

تركت بصمة في روحه لا تمحى.

حول المائدة العامرة، كان عزّ الدّين محلّ احتفاء جمعهم. فلولا ذلك الحفيد، لما استمرّت العلاقات بتلك القوّة. قال كمال بينما يتناولون التّحلية:

-ياسمين، ماذا تنوين الآن؟

اتّجهت الأبصار إليها في اهتمام. تنحنحت في حرج ثمّ قالت:

-إنّ حالة عزّ الدّين مستقرّة الآن، لكنّ المرض قد يعاوده في أيّ وقت، بأشكال أخرى. لذلك.. يفضّل أن يكون قريبًا من مشفى الأطفال بالعاصمة.. هناك، لديهم ملفّه ويفهمون علّته. وإذا حصل شيء –لا قدّر الله- فإنّهم يعرفون كيف يتصرّفون.

هتف كمال على الفور:

-هذا عين العقل! يجب أن تبقي في العاصمة. وحين أفتتح الجامعة، ستكون لديك وظيفة جاهزة!

ربّتت فاطمة على كفّها وقالت مؤيّدة:

-سأكون سعيدة بوجودك بالقرب منّي.

كان والداها يتّفقان لأوّل مرّة منذ زمن بعيد. في الأثناء، تبادل عبد الحميد وزهور نظرات مرتابة. لقد أقامت ياسمين وطفلها بينهما حتّى ذلك الوقت. افتتحت مشروع المكتبة واستقرّت في ريف طبرقة عن رضا وقناعة. لقد أصبحت عائلة هيثم عائلتها الجديدة وهي كانت الابنة التي تعوّضهما عن خسارة الغالي الذي رحل. لم يكن قرار الانتقال سارّا لكليهما. لكنّ محاولة ثنيها عن عزمها ستكون أنانية بشكل كبير. قالت زهور بنبرة أسف:

-مصلحة عزّ فوق كلّ اعتبار. إذا كانت حياته في العاصمة خيرًا له، فلا اعتراض.

ثمّ أضافت وقد تهدّج صوتها:

-لكن تعالي لزيارتنا كثيرًا.. اتّفقنا؟

دمعت عينا ياسمين وأصابعها تعانق كفّ حماتها. هتف

كمال محتجّا:

-المناسبة تدعو للاحتفال، لا نريد دموعًا اليوم!

نامت تلك اللّيلة في منزل والدتها، ثمّ سافرت بعد يومين إلى طبرقة، لتجمع حاجياتها وعزّ الدّين. كان يشقّ عليها أن تفارق الحيّ وأهله بعد سنوات من الألفة والتعوّد. زارت المكتبة زيارة مودّع. تمشّت بهدوء بين القاعات وخلف الرّفوف، ومرّرت أطراف أناملها على عناوين الكتب التي تقطنها، ثمّ توقّفت أمام مكتب الاستقبال الذي تشغله ميساء منذ أكثر من سنة. قالت بابتسامة:

-المكتبة في عهدتك، بشكل دائم هذه المرّة!

عانقتها ميساء بحرارة، ثمّ جاءت نرجس لترتمي في حضنها وتأخذ في النّشيج. استمرّت وصلة البكاء لدقائق، قبل أن ترفع إليها عينين محتقنتين. أخذت ياسمين يديها بين كفّيها وقالت بجدّية:

-أعتمد عليك يا نرجس.. المكتبة أمانة!

أومأت نرجس بقوّة.

حين تركتهما الفتاة، همست ميساء بعيدًا عن أسماعها:

-إنّها تختلق مناسبات البكاء! إنّي ألمحها تذرف الدّمع خلسة في المخزن منذ زمن.. كانت فرصة لتترك لدموعها العنان في العلن!

حدّقت فيها ياسمين بنظرات مستفسرة، فأردفت ميساء بنفس الصّوت الهامس:

-إنّه وائل! لم يظهر في المكتبة منذ شهور.. لا شكّ أنّ رحيله غير المفسّر قد فطر قلبها!

تشنّجت أصابع ياسمين على سطح المكتب، وشعرت بوخزة ألم في صدرها. لقد عرفت منذ زمن أنّ تلك العلاقة مصيرها الفشل. لقد نجحت في توقّع مستقبل قصّة نرجس العاطفيّة، لكنّها فشلت في التكهّن بما يعنيها!

تناهى جرس الباب معلنًا عن قادم جديد، فاستدارت بحركة حادّة وقد تعالى وجيب صدرها. حدّقت في الزّبونة الشّابة

التي ترافق طفلتها اليافعة، ثمّ ابتسمت في اعتذار وهي تترك لميساء الاهتمام بطلباتها.

ماذا توقّعت؟ أن تراه يدلف إلى المكتبة مثل الأيّام الخوالي، ليشتري كتابًا وقع من كفّها؟ أو يعتذر عن ورشة تأخّر في حضورها؟ لقد وعد بالمجيء، وتقديم اعتذار للأطفال وأهاليهم، لتخلّيه عن ورشة العلوم. من السّهل إرسال وعود كتلك. ومهما كان صادقًا في رغبته بالاعتذار، فلا شيء يبرّر تركه لمشاغله على الجانب الآخر من البحر المتوسّط لمجرّد مراعاة مشاعر سكّان قرية جبليّة!

في طريقها نحو المنزل، رمت بصرها نحو الأفق، ودقّقت النّظر في المزرعة الواقعة فوق التّلة. كانت نرجس قد ثرثرت مثل عادتها، بعد أن جفّت دموعها: صاحب المزرعة قد تركها مهملة منذ سنة أو تزيد! النّبوءات تصدق مرّة أخرى وتنجح الأشباح في حماية أرضها. يقشعرّ جسد الفتاة الشابة وهي تقول:

-المسكين، لم يتمتّع بالمكان سوى لشهور قليلة، قبل أن يدرك الفخّ الذي وقع فيه! ستمضي شهور أخرى قبل أن تجد المزرعة مغفّلًا جديدًا يرضى باقتنائها. ألم أقل لك؟ إنّها

مسكونة!

مرّة أخرى، لم تجرؤ على معارضة رواية الفتاة السّاذجة. ألم تصدق التّبوءة في نهاية المطاف؟ وما جدوى كلّ الحكم التي قد تصبّها على أسماعها والتّتيجة واحدة؟

أمضت ياسمين يومين تحزم حاجياتها وتودّع كلّ ركن في المنزل. حين دفعت حقائبها عبر الفناء استعدادًا لتحميلها في سيّارتها، استوقفها عبد الحميد. قال بنبرة جادّة:

-هناك ما أودّ مصارحتك به يا ابنتي.

جلسا متقابلين في غرفة الجلوس، تفصلهما طاولة منخفضة. حدّقت في الظّرف المفتوح من الحجم الكبير الذي وضعه بين يديها في تساؤل، بينما أنشأ يقول:

-حين أراد عمر الرّشيدي الاستقرار في المنطقة، اتّصل بي.. كان يرغب في شراء المزرعة، لكنّ القانون لا يسمح للأجانب باقتناء الأراضي الفلاحيّة. لذلك، كان يحتاج مساعدتي. قال أنّه يريد أن تكون المزرعة مسجّلة باسم عزّ الدّين، وكان يحتاج وثائق هويّته من أجل العقد. لأصدقك القول، كنت

أحسبه عقدًا صوريًا.. فالمزرعة ستكون لصاحبها الذي دفع ثمنها وسكنها. وكنت أقدّر ثقة الرّجل فينا حتّى أنّه يأتمننا على أملاكه. تعلمين، في هذا العصر، أيّ شخص يقع بين يديه عقد ملكيّة يحمل اسمه، قد تسوّل له نفسه الاستيلاء على العقار.. خاصّة أنّ صاحبه غائب معظم الوقت!

حبست ياسمين أنفاسها وهي تنتظر بقيّة الحكاية، فمن الواضح أنّ الأمر لم ينته عند ذلك الحدّ، وإلا ما كان حموها ليكشف ذلك السرّ أمامها. أردف عبد الحميد قائلا:

-منذ شهور، وصلني ظرف بالبريد السّريع، يحوي هذه الوثائق.. ومرفقًا برسالة.

دفع نحوها محتويات الظّرف: عقد البيع، شهادة الملكيّة، والرّسالة.

-لقد ترقّبت عودتك لأسلّمك إيّاها.

تناولت الرّسالة على الفور، رغم الارتجاف الذي اعتراها، وشرعت تقرأ كلماتها المقتضبة:

«عمّي عبد الحميد،

أرسل إليك بالوثائق التي تثبت ملكيّة عزّ الدّين لمزرعة التلّة. لقد كنت أفكّر في الوقت المناسب لإرسالها، ولم أجد أفضل من توقيت شفائه. هذه هديّتي له، مرفقة بالتّهاني والأماني. أرجو أن تقبلها منّي. فإن لم نلتق في القريب، عسى أن تكون ذكرى ترافقه، من عمّه عمر».

تركت الرّسالة بعد أن تلتها عدّة مرّات بأعين زائغة مفتوحة عن آخرها. حين وضعتها، كان حلقها جافًا وعيناها نديّتين. قال عبد الحميد وهو يلحظ تأثّرها:

-لقد صدمت مثلك تمامًا. هذا كرم بالغ منه! والآن، ماذا تنوين بشأنها يا ابنتي؟

ابتلعت ياسمين لعابها، وسيطرت على انفعالها، قبل أن تقول بهدوء:

-لا يمكننا قبولها!

-لكن ماذا نفعل وهي مسجّلة باسم عزّ الدّين؟

-نبيعها ونردّ إليه أمواله!

-إنّ إدخال العملة الصّعبة إلى البلاد يسير، لكنّ إخراجها أمر آخر!

تملّكها إحساس بالعجز، فزفرت في حيرة. إنّها لا تريد الاحتفاظ بالمزرعة ولا يمكنها أن تردّ الهديّة. وكان ذلك يضغط على أعصابها. قالت في فتور:

-احتفظ بالوثائق يا عمّي، ولتكن المزرعة في عهدتك. لن أكون في الجوار للاهتمام بشأنها على كلّ حال.

-ما رأيك، هل نؤجّرها؟ إنّها صالحة للاستثمار الآن، بعد ترميمها. لن نجد صعوبة في العثور على مستأجر.

-افعل ما تراه مناسبًا.

حين تركت الغرفة تملّكتها مشاعر مختلطة من الحزن والغيظ والارتياح.

تنهّدت وهي تسير باتّجاه سيّارتها. لقد تخلّص من آخر

خيط يربطه بهم ولم يعد هناك مبرّر لعودته إلى المنطقة، بعد تفريطه بالمزرعة.

وهذا أفضل للجميع.

***

ألقت رنيم التحيّة وهي تتجاوز مكتب السّكرتيرة التي كانت في يوم ما مساعدتها الخاصّة. دلفت إلى مكتب جورج الذي غادر مقعده ليرحّب بها بحفاوة.

-دكتورة رنيم، ما الذي ندين له بشرف زيارتك؟

ضحكت رغم خيبتها. لم يكن لقب «دكتورة» في قبضة يدها بعد، ولن يكون في القريب أيضًا.

غادرت ذلك الصّباح مكتب البروفيسور «مارتان» وهي تتجرّع مرارة مألوفة. لقد زارت مكاتب كثيرة لتعرض عملها على أساتذة جدد علّ أحدهم يقبل بتبنّي رسالتها البحثيّة، لكنّ محاولاتها كلّها منّيت بفشل ذريع.

كان يفترض بها أن تكون بصدد مراجعة التّقرير النّهائيّ لبحثها الآن، لكنّها اختارت أن تمضي إجازة مفتوحة مع عائلتها طيلة الشهور الأربعة الماضية. عادت ذلك الأسبوع إلى باريس، وأمضت الأيّام الأخيرة في الطواف بين الجامعات والمكاتب تفتيشًا عن مشرف يمنح اسمه رسالتها مشروعيّة وأهليّة. لقد كان معظمهم يبدي إعجابًا واهتمامًا بعملها بادئ الأمر، لكنّ حماسهم يفتر حتّى يتلاشى تمامًا، ما أن يظهر اسم البروفيسور «برانس» على وثائقها. لم يكن أحدهم يجرؤ على مواجهة الأستاذ العتيد ذي الصّيت الذائع والمزاج المعروف!

كتبت رسالة أخرى إلى كريستين في غمرة استسلامها إلى اليأس، تحدّثها بوصولها إلى طريق مسدود، بعد أن تصادمت مع المشرف الذي يهوى الانتقاص منها والاستهزاء بجهودها. لكنّها باتت تدرك أنّها ستبقى بلا ردّ مثل سابقاتها. إنّ كتابتها إلى كريستين صارت مجرّد تفريغ لمشاعر الاستياء لديها، بلا طائل يرجى.

كانت قد سحبت تسجيلها من الجامعة في السّنة الماضية، وطلبت التمتّع بـ«سنة بيضاء»، بحجّة الظّروف الشخصيّة. لكنّها لن تتمكّن من تكرار الأمر مرّة أخرى. ستكون قد أفنت

ثلاث سنوات من وقتها بلا فائدة!

قالت متناسية ما يؤرقها:

-أنت تعرف، قضيّة رانيا.. الجلسة هذا الأسبوع.

لم تشعر بالطّمأنينة إلا حين بلغها إلقاء القبض على كزافيي. كان في حالة فرار منذ شهور، بعد اعتدائه الأخير على رانيا. كانت تخشى أن يطاردها إلى القاهرة. لكنّ محاولة عبوره الحدود كانت ستؤدي إلى توقيفه لا محالة. غير أنّ سلوكه المريب انتهى إلى جلب الأنظار إليه، فقبض عليه مع جماعة السّوء التي يستهلك الحبوب المخدّرة برفقتها.

وقد كانت رانيا في حال سيّئة. كان عليها أن تقطع اتّصالها بميار، وذلك أكثر ما يحزنها. كان من الغباء أن تثق بها بعد أن أخذت صفّ شقيقها وشاركته خدعته!

حدجها جورج بنظرة جانبيّة:

-بالتأكيد. جئت للمرافعة أو المشاهدة؟

-لا أستطيع المرافعة، انس الأمر! لو وقعت عيناي على كزافيي لأكلته بأسناني!

ضحك جورج، ثمّ قال متفهّما:

-لا تخشي شيئا، سينال ما يستحقّ.

-أعرف، أنا أثق بك تمامًا.

زفرت، ثمّ قالت في رجاء:

-في الأثناء، لو كانت بين يديك مناورة خفيفة أشغل بها نفسي...

ابتسم جورج وقال بلهجة غامضة:

-يا لحظّك! هل تعرفين من اتّصل بي منذ يومين؟ موكّلك القديم: عمر الرّشيدي!

زوت ما بين حاجبيها وهي تقول في شكّ:

-ماذا فعل هذه المرّة؟

قهقه جورج ثمّ قال مطمئنًا:

-لا شيء يدعو إلى القلق. أظنّه يريد الانتهاء من كلّ المشاغل التي تربطه بفرنسا والرّحيل بشكل نهائيّ هذه المرّة. إنّه يريد أن نهتمّ ببيع الشقق التي يملكها في الضّاحية الجنوبيّة. هل يمكنك إعداد العقود؟

-آه، هكذا إذن. فليكن، لا مانع من بعض الأعمال الرّوتينيّة!

جلست في مكتبها القديم وجهّزت الوثائق المطلوبة، ثمّ اهتمّت بالتّواصل مع الوكيل العقاريّ من أجل عرض الشقق للبيع. لقد صارت الحادثة الأليمة التي شهدها الشّارع منذ زهاء السّنوات السّبع طيّ النّسيان. لن يؤثّر ذلك في عمليّة البيع.

زارت البناء بعد أيّام وجردت محتويات الشّقتين ثمّ كتبت إلى عمر إرساليّة قصيرة تستفسر إن كان يرغب بالاحتفاظ بأيّ منها. فجاءها ردّ سريع: تخلّصي من كلّ شيء!

كان ذلك محزنًا ومتوقّعًا في آن. كان من الحكمة أن ينتهي من كلّ ما يصله بالماضي البغيض الذي عاشه على الأراضي الفرنسيّة. لقد تأخّر في إعلان القطيعة التّامة مع العلاقة المشؤومة التي جمعته بتلك البلاد. والتخلّص من الشّقق التي تذكّره بما كان هو آخر خطوات القطع.

إنّه وداع حقيقيّ هذه المرّة.

-39-

خلال الأسابيع الماضية، أخذ يلحظ تفاقم المسافة بينه وبين آية. كانت تنهض مبكّرة، تشرف على توزيع الأعمال بين كاميليا والممرّضة، ثمّ تنهمك في مهامّها التي لا تنتهي. رغم توافر المساعدة، فإنّ أوقاتها تبقى مشغولة على امتداد ساعات النّهار.

تدريجيّا، أخذ عمر يستشعر تجاهلها لحضوره. كان قد وهب نفسه إجازة ممتدّة ليكون إلى جوارها واكتفى بمتابعة الأعمال في الشّركة والمصنع عن بعد. لكنّ كلّ تصرّفاتها كانت تنطق بشيء واحد: أنا لست بحاجة إليك!

لعلّ مراقبته الكثيفة أرهقتها، وهي لم تتعوّد أن يشغل المكان من حولها طوال ساعات النّهار. قرّر أن يمنحها مساحة كافية، فرأى العودة إلى روتين حياته الاعتياديّة.

كان يصحب صهيبًا إلى المدرسة صباحًا، يمضي يومه في المكتب ثمّ يرجع برفقته في الرّابعة مساءً. فكانت آية تستقبلهما بابتسامتها المعهودة، تجالسهما على المائدة، ثمّ

تختفي في غرفة التّمريض، حيث تمضي سحابة يومها.

قال عمر بينما يجلس ثلاثتهم إلى مائدة العشاء:

-ما رأيك لو نأخذ صهيبًا إلى مدينة الألعاب في عطلة نهاية الأسبوع. الطقس دافئ هذه الأيام.. وقد مضى زمن بعيد مذ حظينا بأمسية عائلية خارج البيت!

صاح صهيب في حماس، لكن آية وضعت شوكتها على المائدة وقالت:

-صفوان ومي ليسا في حال جيّدة. لا يمكنني أن أتركهما.

كان يعرف منذ زمن أنّ صهيبًا لم يكن «طفلها». لقد كان ولدًا ناضجًا بشكل يفوق سنّه، ولا يستجيب لمتطلّبات الأمومة لديها. ربّما تعتبره قد شبّ عن الطّوق، وغدا شخصًا مستقلّ الإرادة، بينما تفضّل هي الكائنات اللّطيفة التي لا حول ولها ولا قوّة، والتي تكون بحاجة إليها باستمرار.

نعم، كانت الأمومة في قاموسها احتياجًا. وصهيب لم يعبّر يومًا عن حاجته إليها. وعمر لم يلحظ الخلل في وقت

سابق. كان الولد يطلب كلّ ما يرغب فيه منه، رغم أنّ العلاقة بينهما لا تخضع لقواعد الأبوّة التّقليديّة. لكن مع تطلّع آية إلى إحضار المزيد من الأطفال، أيقن أنّ الولد لم يكن له اعتبار في نظرها. ولقد آلمه ذلك نيابة عن صهيب، وحرص على شرح الظروف للطّفل حتّى لا يشعر بالضّغينة تجاهها.

كان بوسعه التّعامل مع أمر صهيب. إلّا أنّ ما يشغله الآن هو وضع آية!

كان يلحظ تلك الحالة من الانعكاف التي صارت عليها، وقد ودّ لو يبعدها عن الأجواء المشحونة بالخوف والقلق ولو لأمسية واحدة. كان الأطفال عزاءها ولعنتها، وهي كانت في حاجة للتّرويح عن نفسها من حين إلى آخر. غير أنّها تأبى مجاراته.

- لكنّ الممرّضة موجودة، وكاميليا كذلك.

- إنّهما تساعدان كثيرًا.. لكنّني لا أستطيع الابتعاد. أنا آسفة. اذهبا أنتما.

-حسنًا إذن، سنؤجّل مدينة الألعاب إلى وقت آخر.

طأطأ صهيب رأسه في خيبة، فربّت عليه عمر بحنوّ. لم يكن أمر صهيب يقلقه، فبوسعه إدخال السّعادة إلى قلبه بأنشطة كثيرة أخرى تخصّهما. لكنّ آية تستحق بعض الرّاحة، وهو لا يدري كيف يمكنه المساعدة.

قبيل الثّامنة، كانت آية قد حمّمت الأطفال ووضعتهم في أسرّتهم استعدادًا لروتين المساء. حين انتهى عمر من حكاية ما قبل النّوم الخاصّة بصهيب، عرّج على الغرفة الثانية التي جهزتها آية خصيصًا لاستقبال أطفالها ذوي الاحتياجات الخاصّة. كانت قد غاصت في نوم عميق على الأريكة الثنائية في وضعيّة غير مريحة. لمس عمر كتفها بخفّة وهمس:

-آية، أنت متعبة.. تعالي للنّوم.

قالت دون أن تفتح عينيها:

-سأنام هنا. أخاف أن يستيقظ صفوان خلال الليل فلا يجدني.. إنه يفزع بشدّة مؤخرًا.

تنهّد في استسلام ورفع الغطاء ليلفّ كتفيها وتركها.

في الغد، عاد إلى المنزل مساءً وبحوزته صندوق مغلق وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة.

-ما هذا؟

تساءلت آية وهي تعاين الصّندوق في فضول، فقال:

-هذا الجهاز سيسمح لك بالنّوم المريح في سريرك، بينما تستمعين إلى حركات الطفلين كأنّك إلى جوارهما.

وضع جهاز الإرسال على منضدة غرفة الأطفال، وجهاز البثّ في غرفة النوم. كانت الشّاشة تُظهر مشهد الغرفة بوضوح، بينما بوسعها سماع الأصوات التي تصدر عنهما. قلّبت آية الجهاز دون اقتناع، ثمّ أوت إلى سريرها وآلة البثّ عند رأسها.

حين استيقظ عمر فجرًا، كانت المساحة على السّرير إلى جواره خالية وباردة. سار بهدوء حتّى غرفة الأطفال، ليلفي آية متكوّرة على نفسها فوق الأريكة مثل العادة. زفر في قلّة حيلة وهو يحكم الغطاء حولها، ثم مشى إلى المطبخ ليسكب كوب ماء. توقّف في الرّدهة حين أبصر صندوق الجهاز على

المنضدة. كانت كلّ المكوّنات قد أعيدت إلى مكانها، استعدادًا لاسترجاع الجهاز.

منذ تلك الليلة، هجرت آية غرفة الزّوجيّة. كانت لديها أسبابها الموضوعيّة المقنعة: الجهاز يحدث أزيزًا مزعجًا، لا يمكنها النّوم بعمق إذا كان الطّفلان بعيدًا عن أنظارها، تخاف أن تقلق عمر بحركتها في كلّ مرّة تترك السّرير... إلخ.

لكنّه يدرك أنّ آية قد تغيّرت ناحيته. لا يدري في أيّ لحظة فقدها بالتّحديد. ربما منذ رحلت آلاء، أو منذ أجهضت جنينها للمرّة الثانية، أو لعلّها كانت يوم طلب منها ألّا يحاولا الإنجاب مرّة أخرى.. لكنّ إعلان القطيعة كان يوم قرّرت ألا تجاوره في السّرير بعد.

كان يودّ أن يمنحها مساحة من الحريّة والخصوصيّة، وقد احترم ما كانت تعيشه -سواء كان نفورًا أم فتورًا أم برودًا- قدّر أن من حقّها عليه أن يحترم نفسيّتها المضطربة، خاصّة بعد الأحداث التي مرّت بها. أم لعلّه حدادها الطويل الذي لم ينقض بعد. لم يكن يستوعب ما يحصل معها من تقلّبات، لكنّه لم يكن ليجبرها على شيء. وحين طال الأمر، اقترح عليها متلطّفًا:

-ما رأيك لو نعود لزيارة الطبيب النّفسيّ؟

ردّت بسرعة وثبات:

-أنا بخير!

والحقيقة أنّها كانت بخير معظم الوقت. لم تظهر عليها علامات الاكتئاب القديمة. كانت توقظه صباحًا ببسمة مشرقة وتجهّز الوجبات التي يتناولها ثلاثتهم على مائدة واحدة، ويتناهى إليه ضحكها ومرحها حين تلهو مع الطّفلين، وكانت تتفاعل أيضًا مع حكايات صهيب عن مدرسته وأصدقائه.

غير أنّه لا يراها كثيرًا.

كانت أوقات اجتماعهما لا تتعدّى مواعيد الجلوس إلى المائدة إفطارًا وغداءً وعشاءً. ثمّ ينصرف كلّ منهم إلى شأنه. وقد كان لديها على الدّوام أسباب انشغال مشروعة.

لكنّه لم يكن من ضمنها!

كان يعرف عن نشاطها من خلال صفحتها على موقع التّواصل الاجتماعيّ أكثر ممّا تبوح به أمامه. كانت مدوّنتها الخاصّة بتجربتها مع الاحتضان لوقت طويل تخصّ أخبار آلاء وحدها. وهي ما زالت تعيد نشر المقاطع القديمة وتستقبل التّعازي كأنّ الطّفلة رحلت بالأمس. لكنّها تنشر بشكل مستمرّ متابعة لحالتي صفوان ولميس. كان جزءٌ من يومها يُعنى بتصويرهما ونشر بثّ مباشر لما يفعلانه، بالإضافة إلى الردّ على رسائل المتعاطفين.

«أنت سيّدة عظيمة!».

«آية، ما تقومين به رائع ومؤثّر. أتمنّى لو كنت أمتلك نصف قوّتك وصبرك!».

«جهودك مع الأطفال ملهمة. أرجو أن تكوني قدوة للكثيرين».

«آية، أرجو أن يتمّ اختيارك ضمن شخصيّات العام الأكثر تأثيرًا، أنت تستحقّين التّكريم».

كان يقرأ تلك العبارات في التّعليقات تحت كلّ منشور

لها، بالإضافة إلى طلبات الاستشارة بشأن العناية بالأطفال المرضى وخطوات الاحتضان. وقد كانت آية تهتمّ بالردّ على كلّ سائل برحابة صدر لا مثيل لها، وتحصد كلّ مداخلة لها آلاف تعابير الإعجاب!

يتنهّد في قلّة حيلة. إنّ أيّ رأي قد يبديه لا يمكن أن يصمد أمام طوفان التّقدير الذي تحظى به من جمهورها الافتراضيّ. لقد باتت تعيش داخل قوقعة مغلقة، وكأنّ الحياة خارجها بلا أهمّية.

***

أعدّ طبقًا من المقبّلات وأكواب القهوة لتلك الأمسية، ثمّ دعاها بابتسامة رائقة:

-مضى زمن مذ جلسنا سويّا وتحدّثنا.. ألا تشتاقين إلى تلك الأيّام التي كنّا فيها وحدنا، أنا وأنت؟

حدّقت آية في الطّبق بين يديه، ثمّ تبعته إلى جلسة الشّرفة التي جمعتهما كثيرًا في أوقات ماضية. إنّه يحاول، عليها أن تعترف. لكنّ الإشكال لديها. إنّ المسافة التي

تفصلهما ما تنفكّ تتزايد، وإن كان يحلو لها الادّعاء بأنّ كلّ شيء على ما يرام.

جلسا متباعدين على الأرجوحة، وقد أمسك كلّ منهما بقدحه.

-آية، أودّ أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه!

رشفت من فنجانها وهي تقول متجاهلة نبرة الحسرة في صوته:

-ما الذي تعنيه؟

-لم نكن زوجين مثاليين، لكنّنا كنّا نجد الوقت لنتحدّث، من حين إلى آخر. أمّا الآن...

ليس في البداية، لكنّ رغبة الحوار تخلّقت لديه في وقت لاحق. لقد أخذ يفتح قلبه أمامها، وقد وجدت ذلك لذيذًا ومنعشًا. لكنّهما ما عادا يتشاركان شيئًا مؤخّرا.

لم يرد أن يشير إلى حضورها الكثيف على المدوّنة. قد

تخطئ الفهم وتحسبه يقلّل من أهميّة عملها التّوعويّ. لكنّ التّوازن مطلوب.

غير أنّها قالت ببساطة:

-هذه هي التّبعات الطبيعيّة للأمومة! كلّ النّساء ينشغلن عن أزواجهنّ حين يدخل البيت طفل أو اثنان، فما بالك بأطفال مرضى وبحاجة إلى عناية يقظة؟ الأمومة مهمّة بدوام كامل!

لم يقتنع. لقد كانت أمًّا لآلاء وصهيب من قبل، ولم يعيشا تلك الفجوة. كما أنّها تملك الوقت الكافي لتنصح روّاد مدوّنتها وتنشر تسجيلات دوريّة! لكنّه خارج أولويّاتها.

-ألا يمكنك طلب إجازة من هذا الدّوام؟ ساعة استراحة؟ حتّى في هذا النّوع من المهامّ يمكننا التّفويض إذا أردنا.. لو وجدنا أنّ باقي الأدوار مهدّدة وتحتاج إلى وقفة جادّة!

وضعت فنجانها على الطّبق وقالت بلهجة جامدة:

-ما الذي تلمّح إليه؟

-أنا أصرّح يا آية! أصرّح بأنّ زواجنا ليس بخير! أنّنا نحتاج العمل على إصلاح علاقتنا واستعادة التّواصل بيننا.

لم تقل شيئا. لبثت تحدّق في أصابعها في صمت. أردف عمر في رجاء:

-أنا لا أعرف ما الذي يمكنني فعله لترميم الصّدع بيننا. لقد أعياني التّفكير ولم أجد أين يكمن الخلل. فأخبريني أنت، ما الذي تريدينه؟

التفتت ناحيته فجأة وقالت بصوت مرتجف:

-عمر، هل يمكنني أن أطلب إجازة من مهمّة الزّوجة؟

حدّق فيها بعينين زائغتين، بينما أضافت:

-لا أستطيع أن أكون زوجة الآن، هل تفهمني؟

قال في رجاء:

-إن كان لا بدّ من ذلك، يمكننا أن نخضع معًا لعلاج خاصّ

بالأزواج...

قاطعته على الفور:

-لا، لا أحتاج هذا الآن. أريد فقط بعض الخصوصيّة. امنحني مساحة، حسنًا؟

هزّ رأسه في استسلام. أليس هذا ما يفعله منذ شهور؟ وهل يبقى بعد ذلك شيء ليبذله من أجلها؟ رغم كلّ محاولاته، كانت الهوّة بينهما تزداد عمقًا واتّساعًا.

حين استلقت ذلك المساء على الأريكة، استمرّت آية تحدّق في السّقف بعينين مفتوحتين. هل كانت تتخيّل أنّها قد تشعر يومًا بالنّفور من عمر؟ كلّما اقترب منها انكمشت غريزيّا. اهتمامه الزّائد وحرصه المبالغ فيه يؤتيان نتيجة عكسيّة. كلّما حاول أكثر، رغبت في الفرار أبعد.

شيئان تلمحهما في عينيه يثيران جنونها: الشّفقة، والإحساس بالذّنب!

تعرف أنّه لا يشاركها رغبتها في الإنجاب، لذلك يشفق من

تعلّقها بالأمل البعيد، ويشعر بالذّنب لأنّ عقمه سبب ما تعانيه. ما عدا ذلك، فإنّها تدرك أنّ عاطفته تجاهها باهتة، وهي تكره أن يكون ما يبقيه إلى جوارها مجرّد إحسان.

يبدو لها ذلك مألوفًا. إنّها تفهم تلك النّظرة العطوف، لأنّها كانت تعامله بالطّريقة ذاتها في بداية زواجهما! إنّها تمقت سلوكه المتسامح والصّبور، لأنّها قد مارست ذلك «العمل الخيريّ» في السّابق.

هل كان عمر يشعر بما تشعر به الآن؟

رغم ما كانت تبذله لدخول عالمه، لم تكن تفلح أبدًا.. لأنّ زواجها من عمر كان مشروع جهاد، ولعلّها كانت تحتسب حنوّها ورأفتها على سبيل العمل الصّالح. ارتجفت؛ لا شكّ أنّه قد عرف. لقد كانت تلك فكرتها الخاصّة عن «الجهاد» و«المقاومة». قرّرت أنّها ستعيد ترميم روحه وتشيّد قلعتها الخاصّة في ربوع قلبه! غير أنّها ضلّت الطّريق ولم تصل أبدًا إلى فؤاده.

واليوم.. إنّه يعيد إليها صدقتها!

في الصّباح، كانت قد استعدّت للرّحيل إلى عمّان مرّة أخرى. كان قرارًا مفاجئًا، بالنّظر إلى وجود طفلين في رعايتها في ذلك الوقت. قالت معتذرة:

-سأثقل عليك، لقد اتّصلت بكاميليا حتّى تحضر في إجازة نهاية الأسبوع.. ستحرص على وضع الطّفلين في السّرير قبل مغادرتها. لكنّهما في عهدتك مساءً.

كان مصدومًا وغير مصدّق. لم يكن الحديث الذي دار بينهما مساء الأمس يصبّ في ذلك الاتّجاه. لم يتوقّع أن تسارع إلى الفرار بتلك العجلة. لقد صار ذلك دأبها: أن تهرب إلى عمّان كلّما اشتدّ كربها وضاقت بها السّبل. ولقد تفهّم ذلك في السّابق، لكن ليس بعد الآن.

كان الإحساس بالحنق يتصاعد بداخله. كان بوسعه أن يغمض عينيه ويتجاوز عن الكثير، وأن يراعيها ويتحمّل نزواتها، وأن يدعمها بشكل لا مشروط في كلّ ما ترغب في إنجازه -حتّى لو لم يقتنع به- لكنّ الوضع صار غير مقبول البتّة. صارع تلك الحاجة إلى الانفجار، وابتلع ألمه وغيظه.

بعد يومين، كان الكيل قد طفح، فاتّصل بأبي الحسن.

-أشر عليّ يا عمي أبا الحسن!

-خيرًا يا ولدي!

-إنها آية، ألا ترى ما آل إليه أمرها؟

تنهّد أبو الحسن وقال في قلّة حيلة:

-لقد سألتها حين جاءت: هل وافق زوجك على احتضان طفل جديد؟ فراوغت!

-يا عمّي، هل يرضيك ما تفعله؟

زفر الرّجل في ضيق. فاستمرّ عمر:

-لقد صبرت عليها طويلا، لكنّني لا أستطيع أن أفعل إلى ما لا نهاية. أريد فقط أن أعرف: ما الذي تفكّر به؟ هلّا تحدّثت إليها يا عمّي؟

-بالتّأكيد يا بنيّ.. سأجعل أمّ الحسن تفهم ما يدور برأسها.

في المساء، تربّعت أم الحسن فوق البساط ووضعت رأس آية في حجرها، وأخذت تخلّل شعرها بأصابعها كما كانت تفعل قديمًا في طفولتها. أغمضت آية عينيها واسترخت وتسلّل النّعاس إلى جفنيها. سألتها أمّ الحسن في اهتمام:

-لقد تكرّر غيابك عن بيتك وزوجك يا ابنتي. أليس في حضنك ما يكفي من الأطفال؟ يجب أن تحظي ببعض الاستقرار الآن.

فتحت آية عينيها. تمهّلت وهي تنظر إلى الفراغ، ثمّ سألت:

-خالتي.. متى يجوز للمرأة أن تطلب الانفصال؟

جفلت أمّ الحسن وتوقّفت حركة أصابعها الدّؤوبة. هتفت في صدمة:

-ماذا تقصدين يا ابنتي؟ هل الأمور بينك وعمر بخير؟

-هلّا أجبتني أوّلا؟

-الطّلاق أبغض الحلال، لا تنفصل المرأة عن زوجها إلا إذا

كان سيّء المعشر رديء الخلق، فيضربها ويهينها أو يحرمها ويبخل عليها في الإنفاق، أو إذا كان مرتكبًا لكبيرة والعياذ بالله.. ما عدا ذلك يمكن إصلاحه!

-ماذا لو كان...

توقّفت على لسانها «عقيمًا»، لكنّها ابتلعتها وقالت:

-ماذا لو كان يحبّ امرأة أخرى؟

استرسلت تقصّ تفاصيل اهتمامه بياسمين وابنها، وكلّ المرّات التي تركها فيها عمر ليسافر إليهما. استمعت أم الحسن في انتباه ثمّ سألتها وهي تعود إلى تحريك أصابعها خلال خصلاتها النّاعمة:

-هل تظنّين أنّه يتّخذها خليلة؟

استقامت آية وهتفت على الفور:

-أعوذ بالله! لست أتّهمهما بهذا!

نظرت أمّ الحسن في عينيها:

-زوجة ثانية إذن؟

-لا يمكنه أن يفعل هذا دون إذن منّي.. هذا قانون بلده!

-إذن هل يخلو بها، أو تخضع هي له بالقول؟

-يا خالتي، لست أطعن في أخلاقه أو أخلاقها. هما منزّهان عندي من هذا.

-هل يفضفض في أذنيها ويحدّثها بأسرار بيته؟ وهل تتّصل به باستمرار؟

البيت الخشبيّ جدرانه رقيقة. لو كان يحدّثها لتناهت إليها الأصوات. ولم يكن عمر يخفي عليها تواصله معها حين يفعل. لم يكن شيء في سلوكه يدعوها إلى الشكّ.

-لا أظنّهما يفعلان يا خالتي.

-إذن ما الذي تشكين منه؟!

-إنّها تشغل قلبه، حتّى لو تظاهر بالعكس!

-سبحان الله يا ابنتي، هل شققت عن صدره؟

-ولكن يا خالتي...

-متى سافر إليها آخر مرّة؟

تفكّرت آية. لم يكن عمر قد غادر لوزان منذ خضع عزّ الدّين للزّراعة. لقد لازمها منذ ذلك الوقت. سافرا معًا إلى الأردن ولأداء العمرة، لكنّه لم يغب عن ناظريها، إلّا حين تركته وراءها لتجلب المزيد من الأطفال.

-منذ سنة ونصف.

-وماذا حصل منذ ذلك الوقت؟

هزّت آية كتفيها.

-لم يحصل شيء.

-بل حصل الكثير! لقد كفلتما أطفالًا معًا، ومرضتِ فرعاك، وأجهضت فواساك، وشغلت نفسك بالأيتام المرضى فدعمك بكلّ السّبل، إن لم يكن هذا حبّا فماذا يكون؟ وماذا عليه لو حفظ عهد صاحبه الشّهيد ورعى أرملته وطفله؟ فبمثل هذا يُعرف معدن الرّجال! أمّا الباقي، فهو عليك.

-عليّ؟!

-أصغي إلى ما يحتاجه، واهتمّي براحته، وتغافلي عمّا يسوؤك وامدحي ما يسرّك. إنّ الرّجل يملّ المرأة العابسة كثيرة النّكد، وينفر من المتطلّبة المسرفة في الإنفاق، ويأنس إلى الرّاضية القانعة التي تفهمه وتقدّره...

أصغت آية بعقل غائب إلى موعظة أم الحسن عن الزّواج النّاجح، لكنّها لم تقدر قطّ أن تفضي إليها بما يشغلها حقيقةً.

حين فتحت مدوّنتها ذلك المساء، فكّرت بلميس وصفوان، وتذكّرت مازن ومي وآلاء، والجنينين اللذين حملتهما في بطنها لأسابيع، فكتبت:

«ليس هناك إحساس في الكون يضاهي الأمومة. لا تكتمل أنوثة المرأة إلا إذا صارت أمًّا، وما عدا ذلك من العواطف

ضئيل وهزيل، لا يصمد أمام نوائب الدّهر».

-40-

إنّ البدايات غالبًا ما تكون عسيرة. لكنّها تعوّدت على الانطلاق نحو آفاق جديدة. أوّل ما فتحت جناحيها، حلّقت نحو ليون، ومنذ ذلك الحين ما تنفكّ تطير مثل فراشة تنهل من زهرات مختلفة من شتّى البساتين. بعد باريس ولِيلْ وطبرقة، تعود إلى المنزل القديم الذي شهد طفولتها وشبابها في «المدينة العتيقة».

عوْدٌ على بدء.

ذلك التّغيير كان انحناءً للفروع المثقلة بالثّمر لتلامس الجذور المطمورة تحت التّربة. كانت تحتضن تجاربها الغزيرة ونضج قلبها وهي تمشي في شارعها الضيّق الذي تحفّه بيوت قديمة من الجانبين: مشهد مألوف وغريبٌ في آن. سيصبح ذلك مشوارها اليوميّ نحو مقرّ عملها الجديد في الجامعة الخاصّة التي التحقت بها في مطلع السّنة الدّراسيّة.

التحق عزّ الدّين بالمدرسة أيضًا. كان ذلك تغييرًا حقيقيًا. كانت ترافقه حتّى بوّابة مدرسة الحيّ كلّ صباح، وتحدّثه

على الطّريق عن كلّ ركن شهد شذرات من ذكريات طفولتها، وكان يرقبها بعيون مأسورة وهي تتحدّث وتضحك. كان بوسعها أن تقود سيّارتها، لكنّها كانت تفضّل تلك النّزهة الصّباحيّة، تليها رحلة قصيرة بالمترو، على زحام العاصمة الخانق.

كانت تلك الأيّام مليئة بالضّحك، كأنّها ما عرفت ضنكًا قطّ. وكأنّ الأيّام الحلوة التي كثيرًا ما تاقت إليها قد أتت أخيرًا. وماذا تريد من العالم أكثر من العافية والسّلام واجتماع شمل العائلة؟

إنّها ترى والديها أكثر ممّا فعلت في أي مرحلة من حياتها. لا تذكر متى كانا حاضرين بتلك الكثافة حولها! كانت تستيقظ كلّ صباح على رائحة القهوة العربيّة التي تحضرها فاطمة منذ الشّروق، فتجالسها في الفناء تحت ظلّ شجرة الياسمين. تمضيان ساعة أو نحوها في أحاديث مسترخية، عن أحوال البلاد والعباد، قبل أن ينطلق يومها خارج الدّار. وفي المساء، كان كمال يتّصل بها. وكانت الاتّصالات تتمدّد عمّا كانت عليه في السّابق. لقد كان هو من يتّصل غالبًا، وذلك تغيير نوعيّ مثير للاهتمام! في تلك العلاقة، كانت هي الآخذة بزمام المبادرة.. والآن، صار هو الذي يطلب رأيها في كلّ المشاريع

التي يروم إنجازها!

كانت جامعته الخاصّة في طور التّخطيط الجادّ، وتكاد ترى النّور قريبًا. كان يناقشها في مخطّط البناء وتجهيزات الفصول ويشكو التّعقيدات الإداريّة والبيروقراطيّة الوزاريّة، وما يفتأ يلحّ عليها حتّى تنضمّ إلى هيئة التّدريس الخاصّة به. ثمّ يطلب أن تمرّر الهاتف إلى عزّ الدّين. كان الحفيد يتعرّف إلى الجدّ الذي كان مجهولا لديه حتّى ذلك الحين، وفي نهايات الأسبوع يصحبه في جولات لمعانقة آثار المدينة التّاريخيّة ومنشآتها المعاصرة.

إن لم تكن تلك هي السّعادة الحقّة، فماذا يمكن أن تكون؟

كانت تحافظ على تواصلها مع رنيم التي استقرّ بها الأمر في القاهرة. كانتا تتراسلان من حين إلى آخر، رغم انشغال كلّ منهما بروتين حياتها الجديد. بدت رنيم منهمكة بشدّة، وغالبًا ما تتأخّر في الردّ، لكنّ مزاجها رائق. قالت مرّة في غموض:

-لديّ مفاجأة! ترقّبي خبرًا سارًّا قريبًا!

-طفل ثالث!

ضحكت رنيم بصخب ولم تردّ. لكنّ ياسمين باتت تحلم. لقد كانت وحيدة أمّها، وقد كتب لعزّ الدّين أن يكون وحيدها. ذلك قدر الله، وهي لا تملك أمامه شيئا. وقد كانت تشفق على طفلها من الوحدة، وهو لا يفتأ يذكر صهيبًا ويسأل عنه. وكلّ مساء، ترقبه وهو يطيّر الطّائرة التي أهداه إيّاها عمر منذ سنوات في فناء الدّار.

بعد مغادرته المشفى حرصت على اختلاطه بالأطفال في الشّارع والمدرسة، فأبعدته لفترة عن الأجهزة. أرادت أن يعود طفلا طبيعيّا، وقد حسبت أنّ محادثاته الطّويلة مع صهيب قد تزهده في الحياة الاجتماعيّة.

لا، لقد جعلته يبتعد عن صهيب لشيء في نفسها. حين اختفى عمر، ثمّ أرسل صكّ ملكيّة المزرعة إلى حميها، أرادت أن تثبت لنفسها أنّها قادرة على طيّ الصّفحة بدورها. لكنّ الشّهور مرّت، والطّفل لا ينسى صاحبه. أيقنت أنّها لا تحرز شيئًا، عدا حرمان ولدها من صديق صادق. فانتهت إلى الإذعان. حين فتح عزّ الدّين جهاز المحادثة، كان صهيب هناك، كأنّما ينتظره منذ الأزل!

وكانت تأخذه من حين إلى آخر إلى مركز الزّرع بمستشفى الأطفال في العاصمة، حيث شُخّص مرضه منذ سنوات، لمتابعة حالته. لم تحتفظ بتواصلها مع الدّكتور يوسف الحدّاد، لكنّ أطبّاء المركز صاروا محيطين بطبيعة مرض ابنها.

ثمّ جاء يوسف لزيارة المركز، وقدّم محاضرات توعويّة بالأمراض النّادرة لطلّاب كليّة الطبّ، وعقد ندوة مع المختصّين في المجال.

في تلك المرّة، أرسلت إليها الدّكتورة ولاء التي أصبحت تتابع حالة عزّ الدّين تطلب منها أن تُدلي بشهادتها أمام الطلّاب والاختصاصيين، كوالدة مريض أجرى زراعة ناجحة للخلايا الجذعيّة. كانت حالة طفلها قد غدت مثالا يدرّس بعد أن نشر الدّكتور يوسف بحثه، وبالنّظر إلى التّغطية الإعلاميّة التي حظيت بها التّجربة.

كان اللّقاء غريبًا. وقف الدّكتور يوسف إزاءها، وبدا جادًّا ومحرجًا:

-كيف حالك سيّدة ياسمين؟

عاد إلى الأسلوب الرّصين والحذر. تبادلا مجاملات عابرة قبل أن تصعد إلى المنصّة وتتحدّث إلى الحضور. ثمّ لم تتقاطع سبلهما بعد ذلك. كان من الواضح أنّه يتحاشاها، وكان ذلك يناسبها.

حكت قصّتها مع مرض طفلها بعفويّة منذ أخذت الأعراض المبكّرة في الظّهور، ودمعت عيناها وهي تذكر مراحل الخطر التي خشيت أن تكون النّهاية، فأبكت الحاضرين. وحين فرغت، وقف الجميع تحيّة وصفّقوا بحرارة.

في نهاية النّدوة، جاءت الدّكتورة ولاء لتحادثها. كانت طبيبة شابّة وحديثة الالتحاق بالمركز.

-أنت أمّ شجاعة، وعزّ الدّين محظوظ بك!

ابتسمت ياسمين في حرج. لم تكن تستحقّ ذلك الثّناء. لقد فعلت ما أملته عليها الظروف.

-لم أعرف طفلا أجرى زراعة ناجحة في مثل سنّ طفلك، وبعد ظهور الأعراض المتقدّمة. إنّها معجزة حقيقيّة!

أومأت ياسمين مصدّقة قولها. إنّها ما تزال تشعر بعظم رحمة المولى بها وبطفلها أن كتب له الشّفاء رغم التوقّعات المتشائمة.

-إنّها رحمة الله!

-ونعم بالله! سيكون ملفّ عزّ الدّين تحت مسؤوليّتي. المراقبة الدّوريّة تستدعي حضوره مرّة كلّ ستّة أشهر.. لكن لا تتردّدي في المرور كلّما رأيت حاجة إلى ذلك.

لم يعد عزّ الدّين إلى التّنويم بالمشفى، لكنّها كانت تأخذه باستمرار لزيارة قسم الأطفال المصابين بأمراض مستعصية منتظرين الزّراعة مثله. لقد كان طفلها محظوظا كفاية ليحصل على العلاج، لكنّ ذلك لم يكن وضع الكثيرين. وكانت تأتي محمّلة في كلّ مرّة بالكثير من الهدايا: قصص وألعاب وأطعمة متنوّعة تعرف أنّ الأطفال يشتهونها.

لم يكن يسعها أن تهديهم شفاءً وعلاجًا، لكنّها تحاول أن تقاسمهم شقاءهم وتدخل على قلوبهم وقلوب ذويهم بعض الفرح. ما تزال تذكر مقدار البهجة التي أدخلها عمر على الأطفال ذات مرّة، وهي تستعيد تلك المشاعر وهي تسعى

إلى توليد تلك الفرحة لديهم، بما تسمح به إمكانيّاتها.

كانت الممرّضات يتعرّفن إليها وعزّ الدّين في كلّ مرّة، وكانت تعرّج لزيارة الدّكتورة ولاء التي تعوّدت تردّدها على القسم. تجلس إليها في مكتبها أو في كافتيريا المركز وتتحدّثان، بينما يشارك عزّ الدّين الأطفال اللّعب. تقول ياسمين في رجاء:

-إذا كان هناك شيء خاصّ يحتاجه الأطفال، أخبريني ولا تتردّدي!

رمقتها ولاء في إشفاق. كانت قد عادت من بعثتها في الولايات المتّحدة الأمريكيّة لتكتشف الحال المزرية التي كانت عليها المستشفيات المحليّة. إنّ التّجهيزات التي يحتاجها القسم لا تعدّ ولا تحصى! لكنّها تخشى الإثقال على ياسمين. قالت في اعتذار:

-بعض الأطفال لا يحصل على التّغذية المناسبة بسبب حساسيّة الطّعام.. الحليب الخالي من اللاكتوز والأطعمة الخالية من الجلوتين لا تتوافر بسهولة.

دوّنت ياسمين في دفترها، ثمّ رفعت رأسها في اهتمام:

-حسنًا، وماذا أيضا؟

تردّدت ولاء، لكنّها قالت في حرج:

-معظم الأطفال هنا يأتون من المناطق الدّاخليّة والنّائية. الأهالي يشكون من حال ماديّة ضعيفة، ومعظم الأمّهات ينمن على الأرض لمرافقة أطفالهنّ! إنّنا لا نملك أن نوفّر أسرّة إضافيّة.. وإقامة الفنادق والشّقق المفروشة مكلفة...

أصغت ياسمين في صمت. علقت تلك الكلمات في ذهنها حتّى المساء. حين عادت إلى بيت والدتها وسط العاصمة، وقفت في الفناء وتأمّلت الجدران المرتفعة إلى طابقين. كان منزل العائلة واسعًا. كانت فاطمة تشغل غرفة وياسمين وابنها غرفة أخرى في الطّابق الأرضيّ، بينما كانت ثلاث غرف إضافيّة في الطّابق الأوّل تبقى شاغرة.

رنت ياسمين إلى والدتها وقالت متسائلة:

-هل فكّرت يومًا في استغلال الغرف الخالية؟

ابتسمت فاطمة وقالت:

-حين كنت أعيش بمفردي، فكّرت في تأجير الغرف لبعض طالبات الجامعة. كان وجودهنّ ليؤنس وحدتي.. لكنّ أشغال التجديد مكلفة، فلم أتجاسر على بدء المشروع.. والآن، أنت وعزّ الدّين برفقتي، فلم تعد بي حاجة إلى هذا.

قالت ياسمين بعينين تشعّان حماسًا:

-أودّ أن أقترح عليك أمرًا آخرا!

حكت لها عمّا دار بينها وبين الدّكتورة ولاء ذلك اليوم، ثمّ أضافت:

-بوسعك تأجير الغرف بسعر رمزيّ للأمّهات اللاتي يرافقن أطفالهنّ إلى مستشفى الأطفال. المسافة بين المركز والمنزل قصيرة.. ربع ساعة على الأقدام. وهذا عمل صالح ثوابه عظيم!

تفكّرت فاطمة للحظات ثمّ تنهّدت.

-ماذا عن الأشغال؟

-لا تقلقي بشأنها.. سأهتمّ بكلّ شيء.

تبادلتا نظرة طويلة، ثمّ ربّتت فاطمة على كفّ ابنتها معلنة موافقتها.

***

صدر حكم نافذ بالسّجن لسنتين بحقّ كزافيي!

عادت رنيم إلى القاهرة بعد نهاية المحاكمة. ورغم رضا الشّقيقتين عن الحكم النّهائيّ، فإنّ الأجواء لم تكن احتفاليّة أبدًا.

تمزّق فؤاد رانيا بين إحساسها بالارتياح والجزع. اتّصلت بها ميار، بعد أن عرفت بالحادثة. أقسمت أنّها لم تكن تدري بما يدبّره شقيقها. قال أنّه يرغب في إرسال هديّة لرانيا، ولمّا كانت تصدّه غالبًا، فقد طلب مساعدتها. لم تكن تدرك ما ينويه! ورغم معرفتها بتفاصيل الحادثة لاحقًا، فقد ترجّتها أن تصفح وتسحب الدّعوى ضدّه!

كان تعرف أنّ ميار ستكون في صفّ شقيقها بلا تردّد. إنّها تلومها على مصادرة حريّة كزافيي، وهو الذي لم يعتقد قطّ أن تكون لتصرّفاته عواقب تذكرا لقد تجاوز الحدّ، هاجمها بسلاح أبيض وترك بصمة لا تمحى على ذراعها، لكنّ عاطفة الفتاة اليافعة ظلّت منحازة رغم ذلك.

لقد تفهّمت سكينة الأمر. اتّصلت بها واعتذرت نيابة عن طفليها الطائشين. بكت وهي تقول في حرقة:

-لقد فقدت جاسر منذ زمن.. وصرت أخشى على ميار منه! اغفري لي يا ابنتي فقد أخفقت مرّتين!

إنّها تدرك في ألم التحوّل الذي ما ينفكّ يبعد طفلها عن جادّة الصّواب. لقد فقدته منذ سنوات حين رفض أمومتها، واستمرّت تفقده بعد ذلك، وهي تزداد يقينًا يومًا بعد يوم بأنّه قد اختار طريقًا لحياته تحرّكه قيم ومبادئ لا تُرضيها. في وقت ما، باتت تخشى على ميار من مخالطتها إيّاه وسوء تأثيره عليها!

إنّها تلمح بعين القلق شذرات التمرّد التي باتت تخالط سلوك البنت المتّسمة بالهدوء غالبًا. لكنّها صارت تجرؤ على تجربة

أشياء كثيرة غير تقليديّة بعد كلّ زيارة لشقيقها: مرّة تكتشف وشمًا على كتفها، حرصت على أن يكون في موضع خفيّ لا تقع عليه عين والدتها اليقظة بسهولة! وأخرى تعود وفي أنفها قرط بشع يحتلّ مساحة بيّنة من وجهها، في تحدّ سافر!

إنّها لم تعد طفلة. لا يمكنها مواجهة تمرّدها بالحرمان من المصروف وإغلاق الغرفة عليها. إنّها طالبة في الجامعة، ومعرّضة لكلّ أنواع المؤثّرات الخارجيّة، الحسن منها والقبيح. لكن من بين كلّ المخاطر القابعة في المحيط الخارجيّ، كان جاسر أسوأها على الإطلاق!

لقد كانت ميار مفتونة بصورة الشقيق الأكبر المتحرّر الذي لا يعاملها بتسلّط، بل يشجّعها على خوض تجارب ممنوعة في ظلّ مراقبة والدتها. وكانت تفخر بتلك العلاقة أمام صديقاتها المشرقيّات اللاتي يحسدنها ويشتكين من علاقاتهنّ المتوترّة بالإخوة الأكبر سنًا.

وكانت سكينة تستجوبها بدقّة بعد كلّ زيارة إلى باريس: أين ذهبت وماذا فعلت وأيّ المصائب اقترفت هذه المرّة! لقد راودها حلم بادئ الأمر بأنّ التقارب بين الشقيقين قد يعيد الابن العاقّ إلى حضنها، وأنّ المسافات ستتقلّص وارتباطه

بالعائلة سينمو.. لكنّها باتت تخشى خسارة الاثنين إن استمرّ الأمر على ما هو عليه. قالت على الهاتف في حرقة:

-سيكون عليها أن تنسى أنّ لها شقيقًا. لن أتركها تسافر إلى فرنسا بعد الآن!

حين عرفت بسلوك جاسر المشين: إدمانه ومخالطته لشلّة سوء واعتدائه على رانيا، وجدت الفرصة مواتية لتضع حدًا لرحلات ميار إلى باريس. أعلنت أنّ ذكر جاسر لم يعد مرغوبًا في المنزل، وأنّ ميار لن تسافر للقاء المتحرّش المترصّد الذي كانه!

وميار لم تكن لتسامح رانيا على تسبّبها في ذلك أبدًا.

***

لم تنم آية تلك اللّيلة. كانت لميس متعبة منذ مساء الأمس، وقد عرفت بحدسها بأنّ النّهاية قد اقتربت. قبل أن تشرق شمس النّهار الجديد، كانت الطّفلة المسكينة قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

قضت آية ساعات اللّيل إلى جوارها، تمسك بكفّها، ترتّل القرآن أو تذكر الله في استرسال عجيب. كان إحساس عميق بالسّكينة يغمرها وهي تقبّل جبين الصّغيرة التي فارقتها الحياة. تركت الغرفة التي عبقت برائحة الموت، وجلست على الأرجوحة في الشّرفة، بعد أن صلّت الفجر.

جاء عمر ليجلس إلى جوارها. سألها بنبرة هادئة:

-هل ماتت؟

أومأت في صمت. كانت دمعة عنيدة تتعلّق بأهدابها المغلقة وتأبى الانحدار. سيكون ذلك كلّ ما ستناله لميس من حداد. في الشّهور الماضية، رحلت مي، وبعدها عدنان ذو الثلاث سنوات ونصف والمصاب بضمور العضلات. لقد حرصت على حصوله على الحقنة الباهظة رغم وعيها بتأخّر الأجل. لكنّها لن تدّخر جهدًا لعلاج أطفالها ما دام ذلك ممكنًا.

-متى تسافرين؟

بات ذلك أمرًا مفروغًا منه. ما إن تفقد طفلا حتّى تحلّق إلى دار الرّعاية لتحضر غيره. لقد حسب أنّ إدمان الألم سيكون

مؤقّتًا لديها. فعل كلّ ما يفترض به لتستعيد توازنها، لكنّ الكفّة كانت قد رجحت بشكل دائم! مرّت سنة ونصف على رحيل آلاء، ولم تبرأ آية أبدًا من ورم فقدها الذي يستوطن سويداء قلبها.

-سأحجز على طائرة الغد.

كانت كمن يدير مصحّة رعاية خاصّة: حالما يصبح سرير شاغرًا تسارع باستقبال نزيل جديد.

كان كلاهما يعرف كيف سيمضي النّهار المقبل: تتّصل بالطّوارئ لنقل الجثمان إلى المشفى حيث يصدر تقرير الوفاة، ومن ثمّ تصريح بالدّفن. لا يستطيع عمر أن يألف ذلك الرّوتين السوداويّ الذي تكرّر ثلاث مرّات خلال سنة واحدة. ولا يعرف كيف يمكن لآية أن تتماسك وتنطلق في رحلة أمومة جديدة، مع طفل آخر لا حظوظ له في حياة طبيعيّة وطويلة الأمد!

-أودّ الحديث إليك بأمر ما.

استدارت لتواجهه، لكنّ نظراته كانت تسرح إلى الأمام،

تتحاشى الالتقاء بعينيها.

-حين تعودين من السّفر، سأكون قد انتقلت وصهيب إلى شقّة في لوزان.

شعرت بانسحاق قلبها في صدرها. إذن قد آن الأوان. لقد دفعته حتّى الحافّة. لعلّها تريد منه أن يتّخذ عنها القرار الذي تعجز عنه. إنّها تعي في صميم فؤادها أنّ عمر قد تحمّلها فوق ما يطيق الرّجال. وأيّ حياة بقيت بينهما وكلّ وقتها يلتهمه الأطفال المرضى وعالمها الافتراضيّ؟!

-لقد أخذت صهيبًا من دار الرّعاية، لأنّني أردت أن يحظى بحياة طبيعيّة. لكن هذا.. ما نعيشه داخل هذا المنزل.. ليس حياة عائليّة طبيعيّة!

استنفرت غددها الدّمعيّة لتنتج الماء المالح بسخاء، تمتمت في قلّة حيلة وبلهجة منفعلة:

-أنا آسفة. لكنّني لا أستطيع أن أعيش الحياة التي تسمّيها طبيعيّة بعد الآن!

مضت شهور على حديثهما الأخير في الشّرفة. لقد طلبت وقتًا مستقطعًا وقد نالته. لكنّ شيئًا لم يتغيّر، حتّى مع إمعانها التّفكير في نصائح أمّ الحسن. كانت تمضي في طريق لا رجعة فيه، وهي واعية بذلك تمامًا. غير أنّها لم تكن مستعدّة لتلك اللّحظة بعد.

زفر في إرهاق ثمّ قال:

-سوف تبقى كاميليا معك، والممرّضة. سأعيّن حارسًا وسائقًا أيضا لخدمتكن. سأنتهي من ترتيب كلّ شيء قبل عودتك. لكنّني لا أستطيع الاستمرار في هذا الوضع.

-هذا سخاء منك!

تجاهل نبرة التهكّم في صوتها وهو يتابع:

-حين تشعرين بأنّك تحتاجين زوجًا.. وأنّك مستعدّة لاستئناف حياتنا القديمة، سأكون في انتظارك.

ثمّ ترك مجلسه على الأرجوحة ليعود إلى الدّاخل.

في الشّرفة، استمرّت آية تحرّك الأرجوحة بنسق بطيء، وهي تراقب الشّمس التي أخذت تتدرّج في منازلها باتّجاه عنان السّماء، لتصبغ الرّداء الدّاكن بحمرتها الدّافئة.

لقد كان عمر شمسًا في سماء وجودها. وقد أظلمت دنياها وأشرقت لإعراضه أو اهتمامه. لكنّها لم تعد تأبه للشّمس التي أحرقتها. إنّها تكتفي بالقمر الذي يضيء بهدوء أوقاتًا يسيرة من مشوارها. بل لديها أقمار كثر، وهي قادرة على جلب المزيد منهم. وستكون حياتها أكثر إضاءة ممّا كانت عليه قبلا.

-41-

حصل كلّ شيء بسرعة. ذلك الانتقال إلى الشّقة في المدينة كان يشغل تفكيره منذ بعض الوقت. لكنّه لم يستطع أن يترك آية بينما لميس تُحتضر. لقد فعل كلّ شيء ظنّه كفيلا بإنجاح زواجه. لقد منحها كلّ ما بوسعه، من دعم ومساندة وتفهّم.

لكنّه قد أخطأ التّقدير.

إنّ الزّواج أخذ وعطاء، وهو رغم ارتياحه لدور المانح ذي اليد العليا، لم يعد يكتفي بالامتنان كمقابل. كان على آية أن تنتبه إلى حضوره واحتياجاته، ولعلّها لن تفعل إلّا في غيابه. لقد كان انتقاله حتميّا. ربّما يكون ورقة ضغط أخيرة، لتستيقظ من غفلتها.

كان قد قرأ تدوينتها عن الأمومة منذ زمن. لقد أيقن في تلك اللّحظة أنّ مخاوفه قد تحقّقت! لقد استيقظت في آية رغبة أن تكون أمًّا حقيقيّة، ولا شيء يفعله يمكن أن يصنع فرقًا. لقد خيّرها من قبل، فتمسّكت به وألحّت. والآن،

سيكون من الفظاظة أن يخيّرها مرّة أخرى، بعد أن امتلأ البيت بالأطفال المرضى. رغم كبريائه الجريحة واهتزاز ثقته، فإنّه لن يقدم على عمل متسرّع الآن. فضّل الابتعاد.. سيترك الخيار الأخير لها.

كان يحتاج إلى الانغماس في العمل من جديد، وإغراق نفسه بالمشاريع الطّموحة والمعقّدة. يحتاج انطلاقة طازجة ومفعمة بالطّاقة!

ربّما كان ذهنه مشتّتًا في الشّهور الماضية، بسبب كلّ المشكلات التي شغلت تفكيره. لم يعرف الاستقرار منذ أمد، وهو كان يتوق إلى إرساء توازن في حياته وحياة صهيب الذي أصبح كلّ عائلته في تلك الآونة.

رغم الانتقال، كان يصحب صهيبًا إلى مدرسة القرية كلّ صباح، وينتهز الفرصة للمرور على البيت وأهله. لم يكن من الصحّي أن يسجّله في مدرسة جديدة في منتصف السّنة الدّراسيّة. سينتظر مطلع السّنة المقبلة. ومن يدري، ربّما يعود إلى منزل القرية، إذا ما ثابت آية إلى رشدها قبل ذلك. يترك الباب مشرعًا أمام الاحتمالات. ما زال يحتفظ بالأمل رغم كلّ شيء.

كان صهيب يمضي فترات الظّهيرة أمام الجهاز غالبًا في انتظار أن يفرغ عمر من اجتماعاته على الهاتف. ولم يكن يأمن ترك الطّفل لأوقات طويلة متّصلا بالعالم الافتراضي، فيحرص على إلقاء نظرة بين الفينة والأخرى إلى ما يفعله.

على الشّاشة، يطالعه غالبًا وجه عزّ الدّين. رغم تباعدهما جغرافيّا، استعاد الطّفلان تواصلهما عن بعد منذ أشهر قليلة.

لقد اختفى عزّ الدّين بعد خروجه من المشفى. وكان صهيب يسأل عنه كلّ يوم. وهو لم يشأ التّدخّل هذه المرّة. كان يعرف أنّه بخير بعد الجراحة، وهذا كافٍ. إن كانت ياسمين ترى من الأفضل لولدها أن يبتعد عن الأجهزة، فربّما كان ذلك خيرًا له.

خمّن أنّ عزّ الدّين يرتاد المدرسة الآن. ربّما كانت أوقاته مختلفة ويومه الدّراسيّ أطول. ربّما لم تعد المواعيد السّابقة مناسبة نظرًا لاختلاف التّوقيت. كلّ الأعذار كانت واردة. حتّى الاختفاء المتعمّد، لا بأس به. يكفي أن يكونوا بخير.

ثمّ، ظهر عزّ الدّين على الشّاشة ذات يوم! فابتهج صهيب، واطمأنّ فؤاد عمر. كان يبدو في صحّة جيّدة. لم يكن يسأل

صهيبًا عن تفاصيل ما يتحدّثان بشأنه، غير أنّ الولد يثرثر على المائدة، حين يجلسان متقابلين يتناولان وجبة العشاء. لم يأت قطّ على ذكر الدّكتور يوسف، أو عن زواج قريب لوالدة عزّ الدّين. وهو رغم تظاهره بالتّجاهل، فإنّ بداخله فضولا ليعرف كيف انتهت القصّة!

لم يكن قد انقضى وقت طويل على عودتهما إلى تونس -سنة ربّما- وهي في عرف الكثيرين فترة غير كافية لتجهيز العروس وإقامة مراسم الزّفاف. بعض العلاقات تستمرّ سنوات قبل أن تكلّل بالزّواج! كان يفاجئ نفسه أحيانًا وهو يحلّل ويفسّر أسباب تأخّر الخبر المرتقب. قد تكون ياسمين رفضت في نهاية المطاف. ربّما كانت حياتها مثالية بذلك الشّكل برفقة طفلها، ولا تريد أن يفسدها عليها رجل!

وكان يزجر نفسه كثيرًا حين تنحرف أفكاره عن المسار السّويّ، فيسترجع حقيقة المتاهة العجيبة التي صارت عليها حياته! إنّ لديه ما يكفيه من التّعقيدات في الوقت الحاليّ ليعذّب نفسه بتوقيت زواج ياسمين المحتمل.

لقد وصلت آية بالأمس، وبرفقتها رضيعة مصابة بمتلازمة داون. استقبلها في المطار ورافقها وصهيبًا إلى المنزل

الرّيفي. رغم تباعده وآية، فإنّه يسترجع شكل العائلة من حين إلى آخر، في نهايات الأسبوع، وفي أوقات أخرى، حين يكون في مزاج رائق يسمح بامتصاص جرعة ألم مركّزة!

بعض النّاس مجبولون على فطرة التّعاطف اللا محدود، يمكنهم السّهر على احتياجات عشرات المرضى لساعات ممتدّة، دون تأفّف أو تعب. حتّى هؤلاء -مثل الأطباء والممرّضين- يحظون بأوقات خاصّة ينفصلون فيها عن الإطار المهنيّ الثّقيل، ويتزوّدون بالطّاقة التي تمكّنهم من الاستمرار. لكنّ آية من طينة أخرى! إنّها لا تمانع الانغماس في حياة البؤس تلك عن طواعية واختيار حرّ.

حين فرغ من اتّصالاته ذلك المساء، دخل المطبخ ليحضّر وجبة عشاء لشخصين. كان يستعيد في تلك الأيّام مهاراته القديمة في الطّبخ، أيّام العزوبيّة. لم يكن يجيد الكثير من الأصناف، لكنّه يعرف كيف يحضّر وجبة متوازنة خلال نصف ساعة: يشوي شريحة لحم ويقطّع سلطة ويسلق الأرز، أو يطهو بعض الخضار على البخار ويقلي سمكة وبطاطس.. كانت الوجبات التي تجهز في وقت قصير هي الأفضل عند صهيب أيضًا.

أخذا يأكلان في صمت وجبة ذلك المساء: نقانق مشويّة وبطاطس مهروسة. قال صهيب بعد برهة:

-لماذا لا تعيش آية معنا؟ هل ستنفصلان؟

فاجأته تساؤلات الطّفل الذي ينتبه لما يدور حوله. ربّت عمر على رأسه وقال:

-نحن لن ننفصل. لكن آية بحاجة إلى بعض الوقت لتتعافى من فقدان آلاء. لولو كانت بمثابة العائلة بالنسبة إليها، وهي تعاني منذ رحيلها.

إنّه يكرّر بداخله تلك الأعذار منذ سنة ونصف، حتّى أنّها صارت بلا معنى. لم يكن مقنعًا، ولم يشعر باقتناع صهيب أيضًا.

-لكن نحن ما زلنا هنا. هل كانت لولو أهمّ منا؟

تنهّد عمر ثمّ قال:

-ربما يا صغيري.. ربما كانت لولو أهم منا معًا عند آية.

أطرق الطفل في حزن، ثم قال:

- إن كانت آية تفضل الحصول على أطفال آخرين.. فهل يمكننا إيجاد أمّ أخرى؟

- صهيب، ما الذي تقوله؟

- أنا غاضب، وحزين. ليس أنك لست كافيًا بالنسبة لي، لكن هذه ليست عائلة! ألا تتكون العائلات من أم وأب؟!

ثم أضاف وقد التمعت عيناه:

- عزّ الدين ليس له أب! لماذا لا نكون عائلة نحن الأربعة؟

شعر عمر بدفقة حزن تنتشر في صدره. قال بمرارة:

- ربما يحصل عزّ الدين على أب في القريب. ونحن لدينا آية، لا تنس.. حتى لو كانت بعيدة اليوم، فهي ستعود في وقت قريب. لا تفكر في هذا بعد الآن، اتفقنا؟

***

لم تجرّب ياسمين التّدريس من قبل. منذ حازت شهادتها، عملت بالبحث في مؤسّسة اجتماعيّة في مدينة ليل الفرنسيّة، ثم كأمينة مكتبة في قرية بطبرقة، لكنّها لم تجد نفسها من قبل أمام جمع من الطلّاب يتشرّبون كلماتها وتصقل أفكارها شخصيّاتهم.

كان تدرّس علم الاجتماع لطلاب العلوم السياسيّة والحقوق. وكانت تستعدّ بكثافة لكلّ درس جديد، تقرأ وتستزيد وتراجع كلّ التّفاصيل. تحرص أن يتضمّن كلّ درس أحجية وحلّا ونوادر طريفة تكسر خطّ التّلقين الرّصين. وكانت تعيش كلّ أسبوع مثل مغامرة تستحقّ الخوض.

ما عدا حصصها المعدودة وساعاتها المكتبيّة، فإنّها لم تكن تختلط بأحد من أعضاء هيئة التّدريس. كانت تترك مبنى الجامعة فور انتهاء مواعيدها، لا تنضمّ إلى لقاءات اجتماعيّة ولا تصادق أحدًا. كان الجميع يعرف أنّها أرملة تربّي طفلها بمفردها، وكان ذلك كافيًا لتكسب تعاطف الكثيرين، ويتجنّبها آخرون. لكنّ هذا لم يكن يمنعهم من التّهامس وراء ظهرها.

كانت تمرّ في طريقها إلى محطّة المترو بدور الحيّ على

امتداد شارعها الضيّق، وتتوقّف لتلقي التحيّة على هذه وتلك. وكانت جارتها أمّ عماد غالبًا ما تستوقفها لتتحدّث مطوّلا، حتى تكاد تؤخّرها عن مواعيد دروسها. تلك السيّدة المسنّة كانت جارة لوالدتها منذ عقود، وقد عرفتها طفلة وشابّة، لكنّها لم تكن تهتمّ من قبل بشخصها كما تفعل تلك الأيّام.

ذلك المساء، قالت فاطمة وهما تتسامران في غرفة المعيشة:

-لقد جاءت أم عماد لزيارتي اليوم، وهي لم تفعل ذلك من سنين!

رفعت ياسمين حاجبيها في انتباه وقالت:

-لقد لاحظت اهتمامها الغريب هذه الأيّام. إنّها تناديني حين أعبر أمام نافذتها وتتحدّث بلا توقّف!

ضحكت فاطمة ثمّ قالت:

-هل تذكرين ابنها عماد؟

أومأت ياسمين بفتور. كان عماد طفلًا مشاغبًا يكبرها بخمس سنوات. لم تكن تذكره إلا في تلك الفترة من الطّفولة الغرّة، حين كانا يتشاركان اللّعب في ساحة الحيّ مع آخرين، فيسدّد الكرة إلى رأسها ويرفض انضمامها إلى فريق الكرة الخاصّ به لأنّها فتاة! كان ذلك كلّ ما تحتفظ به عن الولد الذي صار رجلًا فوق الأربعين اليوم بلا شكّ.

-لقد عرفت أنّه قد انفصل عن زوجته، وله منها طفلان. وأمّ عماد تبحث له عن زوجة جديدة!

يبدو كلّ ذلك منطقيّا الآن. لكنّه لا يثير لديها أدنى درجة من الاهتمام.

في الصّباح، كانت قد نسيت تلك المحادثة العابرة. جاء العمّال مبكّرين إلى المنزل العتيق لترميم غرف الطابق العلويّ. كانت الأشغال على قدم وساق منذ شهرين، لكنّها تستعجل انتهاءها. استمعت في تذمّر إلى أعذار رئيس العمّال التي تتكرّر عن نفاد المواد الخامّ من الأسواق وندرة اليد العاملة البارعة، ثمّ ألقت التّعليمات قبل أن تنصرف إلى عملها.

لم تظهر أمّ عماد عند نافذتها مثل العادة، فحثّت الخطى

لتتجاوز بيتها بسرعة قبل أن يطلّ رأسها الفضوليّ فتضطرّ إلى التوقّف. أوصلت عزّ الدّين حتّى بوّابة المدرسة، لوّحت له ثمّ مضت باتّجاه المحطّة. اتّخذت ركنًا هادئًا، ولبثت تترقّب وصول المترو.

امتطت العربة وبحثت بعينيها عن مقعد شاغر فلم تجد. وقفت قرب الباب وتمسّكت بالعمود. لم تكن رحلة المترو تتعدّى الدّقائق العشر، لكنّها تجدها فرصة للتّأمّل والتعرّف على شوارع المدينة التي نسيت ملامحها. كانت تلحظ من حين إلى آخر فتاة تقرأ، فتبتسم. تتذكّر أيّام شبابها ورحلات المترو الفرنسيّ. يمكنها أن تتخيّل لقاءات مشوّقة بين أغراب يجمعهم فضاء العربة، وتحدوهم نشوة الشّباب...

-ياسمين!

التفتت في دهشة حين وصلها صوت ينادي باسمها. حملقت في الرّجل الواقف إزاءها. كان أربعينيّا في منتصف العمر، طويل القامة ذا كرش مستديرة بارزة بقدر وشارب أنيق، وقد أخذ الصّلع يغزو مقدّمة رأسه. كان يطالعها بابتسامة ودودة.

-أنا عماد، جاركم القديم. هل تذكّرتني؟

رفعت حاجبيها وهي تحاول التعرّف في ملامحه على الطّفل الذي عرفته منذ عقود.

-عماد، بالتّأكيد!

-كيف حالك؟ عرفت أنّك قد عدتِ إلى السّكن في الشّارع منذ وقت قصير.

-أنا بخير، شكرًا لسؤالك.

-لقد عدتُ أيضًا السّنة الماضية. لقد انفصلت، وأمّي ترعى ولديّ في الوقت الحالي.

-آه، حقّا!

-كنتُ.. أودّ الحديث إليك لبعض الوقت، إن كان وقتك يسمح؟

تطلّعت إلى مسار المترو وقالت:

-آسفة لكنّني سأنزل في المحطّة المقبلة. عليّ أن ألتحق بالعمل!

-أين تعملين؟ صيّدليّتي ليست بعيدة من هنا. يمكنني أن أدعوك إلى احتساء فنجان قهوة بعد نهاية الدّوام؟

-سيكون ذلك صعبًا. عليّ أن أحضر ولدي من المدرسة!

-كم عمره؟ ربّما يمكنه أن ينضمّ إلى الولدين للعب، ونتحدّث قليلا؟

كان توقّف المترو في محطّتها في تلك اللّحظة منقذًا مناسبًا. قالت على الفور:

-أنا آسفة.. عليّ الذّهاب الآن!

-هل أراك لاحقًا؟

سارعت بتجاوز الركّاب لتغادر العربة دون أن تردّ وهي تتنفّس الصّعداء. مشت بسرعة دون أن تلتفت. لكنّها باتت تدرك أنّ توقّعات فاطمة صحيحة!

-آسفة لكنّني سأنزل في المحطّة المقبلة. عليّ أن ألتحق بالعمل!

-أين تعملين؟ صيّدليّتي ليست بعيدة من هنا. يمكنني أن أدعوك إلى احتساء فنجان قهوة بعد نهاية الدّوام؟

-سيكون ذلك صعبًا. عليّ أن أحضر ولدي من المدرسة!

-كم عمره؟ ربّما يمكنه أن ينضمّ إلى الولدين للعب، ونتحدّث قليلا؟

كان توقّف المترو في محطّتها في تلك اللّحظة منقذًا مناسبًا. قالت على الفور:

-أنا آسفة.. عليّ الذّهاب الآن!

-هل أراك لاحقًا؟

سارعت بتجاوز الرّكّاب لتغادر العربة دون أن تردّ وهي تتنفّس الصّعداء. مشت بسرعة دون أن تلتفت. لكنّها باتت تدرك أنّ توقّعات فاطمة صحيحة!

غير أنّها ليست مهتمّة على الإطلاق. إنّها تعرف دون حاجة إلى أدنى قدر من المعاينة أنّ عماد لا يناسبها. ولم تكن تنوي إعطاءه فرصة، ولا مجاراته. إنّها تعرف كيف ستنتهي المحادثة الأولى: هذا رجل لا يعرف شيئا عن شخصها، كلّ ما يبحث عنه هو امرأة تهتمّ بطفليه! فكيف له أن يطيق أحمالها؟

تفقّدت ياسمين تقدّم الأشغال في المساء. كان البلاط القديم قد أزيل واستقرّ الجديد في مكانه. وحظي الحمّام بتحوّل شامل مع اقتلاع تامّ لكلّ مكوّناته واكتسائه حلّة جديدة بالكامل. لم يبق إلا الانتهاء من الطلاء الطازج الذي سيشمل جميع جدران البناء.

حين فرغتا من مناقشة شؤون المشروع العقاريّ، قالت فاطمة بلهجة ذات معنى:

-هل تعلمين علام أندم وأنا أمّك؟ على العمر الذي ضاع، وأمضيته جلّه وحيدة! كان عليّ أن أستمع إلى صوت العقل، وأجدّد حياتي بزواج آخر بعد كمال.

رنت إليها ياسمين وهي تقول باهتمام:

-ولماذا لم تفعلي؟

-لأنّني لم أجد الشّخص المناسب!

ضحكتا معًا. ثمّ أضافت فاطمة:

-لقد أقنعت نفسي، وأقنعتك والجميع.. أنّ التّضحية هي المحرّك الأساسيّ لرفضي. لكنّ ذلك ليس صحيحًا تمامًا. لو أنّني وجدت الشّخص الذي أأتمنه على نفسي، وعليك.. وأثق في خلقه وصدقه، لكنت تزوّجت بلا تردّد!

قالت ياسمين مازحة:

-هل تقولين الآن أنّ عماد ابن جارتنا هو الشّخص المناسب؟

توقّفت فاطمة ثمّ قالت بهدوء:

-إنّه صيدليّ، لديه مركز اجتماعيّ مناسب، منزل خاصّ وسيّارة، وهو رجل ناضج. لا أقول تزوّجيه، بل أعطه فرصة!

هزّت ياسمين رأسها وقالت في اعتذار:

-لا أفكّر في الزّواج الآن. لقد مرّ عزّ الدّين بفترة عصيبة، وهو في حالة نقاهة. كلانا يحتاج وقتًا مستقطعًا للتّأقلم مع الوضع الجديد.

ثمّ أضافت بمرح:

-لدينا ما يكفي من أسباب السّعادة نحن الثلاثة، وكلانا مشغول خاصّة مع مشروع الإقامة في الطّابق العلويّ! أم تراك مللت وجودنا؟ وإذا كنت ترين حاجتنا لرجل في الجوار، فلماذا لا تستعيدين أبي؟ ألا تلحظين التغيّر الذي طرأ عليه؟

رمقتها فاطمة بنظرة ممتعضة، ثمّ قالت:

-حسنًا، لن ألحّ عليك. لكن كوني منفتحة على الفرص المتوافرة. أنت شابّة، والبنات في سنّك لم يتزوّجن بعد.

ضحكت وقالت:

-أنا في الثامنة والثلاثين يا أمّي!

أردفت فاطمة بجديّة:

-وإن يكن؟ أعرف إخلاصك لذكرى زوجك الرّاحل. لكنّك عاشرت هيثم لسنتين وحسب، ولعلّه زوج صالح فعلًا.. لكنّ هذا لا يعني أنّك لن تجدي زوجًا أفضل منه.. في القديم، كانت الصّحابيّة يُستشهد زوجها، فيتسابق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى خطبتها. وكان من هديه صلّى الله عليه وسلّم أن يشجّع على الزّواج من الأرامل اللّواتي يفقدن أزواجهنّ في سبيل الله، حفظا لهنّ وكفالة لأيتامهنّ.

أصغت ياسمين في صمت، فاسترسلت فاطمة:

-هل سمعت عن أسماء بنت عميس؟ حين استشهد زوجها جعفر بن أبي طالب، ابن عمّ النّبيّ وأحد السّابقين إلى الإسلام، قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «على مثل جعفر فلتبكي البواكي!» تقديرًا له وإعلاءً من شأنه وهو أحد المبشّرين بالجنّة.. لكن بعد انتهاء عدّتها، عرض عليها الزّواج من أحد صحابته الكرام.. أبي بكر الصدّيق. فتزوّجت! ثمّ مات عنها أبو بكر، فتزوّجت ثالثة بعليّ بن أبي طالب!

أومأت ياسمين في استسلام ثمّ تنهّدت وقالت:

-لقد كان زمنًا غير زمننا، وأناسًا غير النّاس في وقتنا!

-لكنّك قد تمنحينه فرصة؟

ابتسمت. لم تكن فاطمة لتستسلم بسهولة. وهي لا تريد الرّفض لمجرّد الرّفض، لكنّها باتت قادرة على استشراف المستقبل. إنّ رجلا عاديّا مثل عماد، لم يغادر مدينته قطّ منذ ولادته، حياته تتلخّص في الوقوف وراء حاجز الصّيدليّة ورعاية طفليه لا يبدو نموذجًا واعدًا.

قالت بنيّة مبيّتة:

-إذا زارتك أمّ عماد مرّة أخرى، أودّ الحديث إليها.

بعد أيّام قليلة، حين جلست إلى الجارة الفضوليّة في صالة المنزل، قالت ياسمين بدون مقدّمات:

-هل تعرفين لماذا رجعنا للإقامة في تونس؟

رنت إليها أمّ عماد باهتمام، فتحدّثت ياسمين. لم تُخفِ شيئا -كما فعلت أمام يوسف- عن قضيّة هيثم ووفاته، ومرض ابنها وحالته التي تحتاج متابعة مستمرّة. حين فرغت من سرد قصّتها، كان شحوب المرأة علامة كافية. اعتذرت الزّائرة لتغادر دون تأخير، فنظرت ياسمين إلى والدتها بابتسامة جانبيّة. إنّها تعرف ذلك الإحساس بالرّفض والنّفور، ولا تريد أن تعيشه من جديد.

قالت زهور في عتاب:

-لماذا تعمّدت إخافتها؟ يمكنك منح الرّجل فرصة، فإذا ما تقاربتما بُحتِ له بكلّ شيء!

قالت ياسمين في إصرار:

-ماضيّ جزء من هويّتي يا أمّي. مثلما أنا أمّ لعزّ الدّين ومدرّسة في الجامعة، فأنا أرملة شهيد! وأنا فخورة بهذا الجزء منّي أكثر من أيّ شيء آخر، فلا أرى داعيًا لإخفائه. من كان ليقترب منّي فعليه أن يقبل كلّي! لن أنكر هويّتي حتّى أخدع خاطبًا. وماذا لو علّقني به ثمّ تركني لهذا السّبب؟ الكتمان ليس الحلّ.

خلال الأيّام التي تلت، استقبلت دار الضّيافة أولى ساكناتها، ثمّ امتلأت الغرف في وقت قصير. رحّبت الأمّهات اللاتي تعوّدن زيارات ياسمين إلى مركز الزّراعة بالاقتراح، ووجدن في السّكن فضاءً عائليًّا يصبن فيه نصيبًا من الرّاحة ويعينهنّ على استكمال صراعهنّ مع أمراض أطفالهنّ. كما كانت ياسمين وفرح وكاترينا سندًا إحداهنّ للأخرى، وجدت أمينة وإيناس وخديجة في وحدتهنّ عزاءً ومواساة.

ولم تتّصل أم عماد أبدًا إثر تلك الزّيارة. ولقد فهمت فاطمة، فلم تحدّثها في أمر الزّواج بعد ذلك.

-42-

اتصلت آية منذ يومين. قالت أنّها عالقة في الأردن. كانت إجراءات الكفالة تأخذ وقتًا أطول من المعتاد. والسّفارة السّويسريّة ليست متعاونة. لقد تعرّضت للتّحقيق المطوّل بخصوص نشاطها الإنسانيّ من طرف ممثّل السّفارة واستُبقيت في المكتب لساعات قبل أن يسمح لها بالمغادرة. كانت رحلاتها المتكرّرة لجلب أطفال أيتام محلّ شكّ وريبة.

قالت في استنكار:

-تخيّل أنهم استجوبوني مثلما يُستجوب المجرمون، كأنّني عضو شبكة متاجرة بالأعضاء البشريّة!

استمع عمر إلى شكواها في صبر ثم عرض عليها:

-هل تحتاجين منّي المجيء؟

هتفت على الفور:

-لا، لا.. سأتصرّف. لكن كاميليا تحتاج إجازة، والممرضة لا يمكنها البقاء حتّى المساء.

قال بهدوء:

-فهمت.

في المساء، أعدّ حقيبة صغيرة فيها حاجياته وصهيب لبضعة أيّام واتّجه إلى المنزل الرّيفيّ. كانت الممرّضة في انتظاره وبدت في عجلة من أمرها. شرحت بسرعة حالات الأطفال ووضعت بين يديه دفترًا يحوي مواعيد الدّواء ثم استأذنت. ستعود في الصّباح مثل العادة، وسيكون عليه الاهتمام بهم في الفترة الليليّة. فتح الثلاجة ليجد الوجبات مخزنة ومعنونة بقصاصات واضحة. تنهّد في ارتياح. لم تتركه كاميليا بلا مساعدة. نظر إلى صهيب ثم قال بابتسامة:

-هيّا إلى العمل!

أجلس الأطفال على المقاعد الخاصّة، وشاركه صهيب مسؤولية إطعامهم وجبة العشاء، ثم راجع الدّفتر من أجل مواعيد الدّواء. بعد ذلك تولّى عمليّة التّحميم وتغيير

الحفّاضات، قبل أن يضع كلا منهم في سريره.

في السّاعة الثّامنة، كان الهدوء يعمّ المنزل، ففتح صهيب جهازه ليحادث عزّ الدّين، بينما جلس عمر إلى جواره يقرأ بعض التّقارير على حاسبه الآليّ.

كان عزّ الدين يجلس أمام الشاشة بدوره بينما استلقت ياسمين على سريرها تطالع كتابا قبل النّوم. همست برفق:

-سيكون عليك إنهاء الاتّصال بعد خمس دقائق!

قال في رجاء:

-ربع ساعة!

ابتسمت في استسلام. إنه لا يملّ الحديث إلى صهيب، مهما امتدّت الجلسة وطالت.

تناهى إليها بعد حين صراخ رضيع استمرّ لدقائق طويلة. سمعت صوت صهيب يقول بتذمّر:

-لقد استيقظت الطّفلة، وعمر لا يستطيع إسكاتها، إنها تبكي بلا توقّف!

قال عزّ الدّين بلهجة واثقة:

- الأمّهات يعرفن كيف يفعلن ذلك.

-آية في الأردن، وعمر يجد صعوبة في السّيطرة على الوضع!

تنهّد صهيب في قلّة حيلة، فقال عزّ الدّين على الفور:

-ماما يمكنها المساعدة!

رفعت ياسمين عينيها عن الكتاب في دهشة، لتجد نظرات طفلها متعلقة بها في رجاء، ثم سمعت صوت صهيب وهو يقول:

-عمر، الخالة ياسمين يمكنها أن ترشدك بما ينبغي فعله مع الطفلة!

بعد ذلك، جاء صوت عمر بعيدًا:

-حقّا؟ يمكنها أن تفعل؟

شعرت بالارتباك يغمرها، مع أنّها لم تكن ترى صورته على الشّاشة. فكّرت لوهلة بالفرار خارج الغرفة، أو الاعتذار، لكنّها عدلت سريعًا. همست في توتّر:

-اسأله ما الذي تعاني منه الطفلة؟

تولى الولدان نقل الأسئلة والإجابات، رغم أن صوتها كان يصل إليه بخفوت كما يصلها صوته. قالت أخيرًا:

-أظنّها تعاني من مغصٍ.. يجب أن يضعها على بطنها لبعض الوقت ويساعدها على التّخلّص من الغازات بتدليك دائري للأمعاء.

جاءها صوت عمر قريبًا دون أن ينتظر نقل صهيب للجواب:

-شكرا ياسمين، سأجرّب هذا.

لم تردّ ياسمين.

لم يكن بوسعها استئناف المحادثة بتلك البساطة، كأنّهما التقيا بالأمس! هذا يبدو غير واقعيّ. لقد اختفى فجأة بعد عملية الزّرع وغاب دون وداع. ثم جاءت تلك الرّسالة إلى عبد الحميد لتعلن رحيله بلا رجعة. لم تسأله قطّ عن المزرعة التي سجّلها باسم طفلها، فكيف يمكنهما أن يتخاطبا كأنّ شيئًا لم يكن؟

على الجانب الآخر، انتظر عمر أن تقول شيئًا. لكنّ الولدين استأنفا الحديث عن اللعبة التي يحبّانها ولم تنطق ياسمين بشيء بعد ذلك.

لم يستطع أن يفسّر صمتها. هل كان حرجًا أم تجاهلًا أم غضبًا؟ شغلته تلك التّساؤلات وهو يمسّد بطن الرضيعة حتى استسلمت للنّعاس. خمّن أنّ من حقّها أن تغضب وتتجاهل. لقد كانت طريقة رحيله مريبة، وهو لم يعتذر أو يشرح قط. كان يملك أن يفعل، لكنّه اختار تلك النّهاية المبتورة.

كان الولدان يتواصلان باستمرار. وكان صوتها يتسرّب أحيانا حين يهمل صهيب استخدام السّمّاعات. يسمعها حين

تدعو عزّ الدّين إلى المائدة أو تذكّره بموعد النّوم.. كان ذلك كلّ شيء. كان يسعه خلال السّنة الماضية أن يتّصل أو يبعث رسالة، ولو على سبيل اللباقة والمجاملة. لم يحصل بينهما ما يستدعي القطيعة. لكنّه لم يقدر على ذلك مهما حاول. فلماذا يؤلمه جفاؤها اليوم بشكل لا يحتمل؟

***

-لا أسمع صوت الطفلة، هل صارت بخير؟

كانا يأخذان استراحة بعد جولة من اللّعب حين بادر عزّ الدّين بالسّؤال.

-عمر يدلكها باستمرار منذ ذلك اليوم، يبدو أنها قد أحبّت هذا. يشعرها بتحسّن فتنام بسرعة!

-ألم تعد آية بعد؟

-لا. إنها عالقة في الأردن!

أصغت ياسمين دون وعي منها رغم محاولتها الانسجام مع

الكتاب. كم مضى من الوقت على سفر آية؟ أسبوعان ربّما؟ لقد مضى ذلك الزّمن منذ الاتّصال السّابق الذي تحدّثا خلاله. لقد كان عمر يهتمّ بالأطفال طيلة ذلك الوقت! لم تكن تعرف عددًا من الرّجال الذين يمكنهم الاهتمام بأطفال بمفردهم في غياب زوجاتهم. إنّ ذلك مثير للإعجاب لا شكّ.

حاولت أن تعود إلى الكتاب، لكنّها كانت قد سرحت مع أفكارها. إنّهما يبدوان زوجين مثاليين. قليل من النّساء من ترضى بكفالة طفل يتيم وتبقى مع زوجها رغم عقمه، فما بالك بمن تكفل أطفالًا كثرًا وتفتح لهم بيتها بلا تردّد! وتصرّف عمر تجاهها مدهش، فهو يقدّر تضحيتها ويدعمها بالمقابل بشكل مثاليّ.

سمعت صوت صهيب يقول:

-أتمنى لو نستطيع زيارتكم في الإجازة!

قال عزّ الدين في حماس:

- سيكون ذلك رائعًا!

- يجب أن ترجع آية أولا، فنحن مقيّدان هنا.. أنت تعلم، بسبب الأطفال! أنا أشفق على عمر، لقد ترك المنزل بسبب الأطفال أيضًا.. لكنّ غياب آية أجبره على العناية بهم!

زوت ما بين حاجبيها في شكّ. لقد سمعت ذلك بشكلٍ واضح: لقد ترك المنزل!

واصل صهيب يقول:

-لقد كنا نتسلّى كثيرا في لوزان، لكن في الآونة الأخيرة عمر مرهق طوال الوقت بين العمل ورعاية الأطفال. نحن نحتاج عطلة بالفعل!

سمعت صوت عمر وهو ينادي الطّفل من بعيد، ثمّ أنهى صهيب الاتّصال.

جلس عمر إزاء صهيب على مائدة العشاء. كان قد حضّر قطعًا من الدّجاج المحمّر مع المعكرونة بصلصة الطماطم الجاهزة. ملأ الطّبقين ثمّ أخذا يأكلان بهدوء. بعد صمت قصير، قال عمر معاتبًا:

-لم يكن يفترض بك أن تحدّث عزّ الدّين بأسرار العائلة.

هتف صهيب في اعتراض:

-لكن عزّ الدّين من العائلة! ألم تقل أنّه أخي الأصغر؟

رمقه عمر في دهشة ثمّ قال:

-هذا صحيح، لكن لا أرغب أن تتكلّم عن آية بسوء حين تحادثه.

قال الولد في عبوس:

-لم أقل شيئًا غير الحقيقة!

التزم عمر الصّمت لبرهة. إنّ ذلك التّدهور في علاقته بآية لم يعد يخفى على أحد. وكان من العبث إلقاء اللّوم على صهيب، لأنّه جاهر بتوصيف الوضع أمام طفل من سنّه. لكن ماذا لو استمعت ياسمين إلى الحديث؟ هل كانت تضايقه نظرتها لزواجه؟ ماذا لو أدركت حجم الفراغ الذي يفصل بينه وبين آية؟ لم يكن يحتاج شفقة أو تعاطفًا من أحد.. وخاصّة

منها.

حين اتّصلت آية ذلك المساء، لم يكن الألم في صدره قد خبا. بل لعلّه تصاعد حتّى صار خانقًا. لم يستطع أن يتفهّم شكواها المتكرّرة هذه المرّة. استمع في برود ونفاد صبر. ولعلّها شعرت بتغيّره، لكنّها لم تتوقّف. كان توزيع الأدوار قد غدا نهائيّا وغير قابل للاسترداد: هي تشكو وهو يصغي. قالت حين فرغت من تعداد الصّعوبات التي تواجه كفالتها للطّفلة الجديدة:

-لا أحد يقدّر وضع رشا، ودار الرّعاية لا تعرف كيف تتعامل مع حالتها الصّحيّة، لكنّني لا أستطيع إخراجها من هنا! قل لي، ماذا أفعل يا عمر؟

أخذ عمر نفسًا عميقًا قبل أن يقول بهدوء:

-آية، عودي إلى لوزان. نحن بحاجة إليك هنا.

ارتجف صوتها وهي تهتف في قلق:

-عمر، ما الذي حصل؟ يارا وفادي بخير؟

ابتسم عمر في تهكّم ثمّ قال بلهجة مرّة:

-هل هما كلّ من خلّفت في لوزان؟ أليس لوجودي وصهيب أهميّة؟ سيّدة آية، لديك زوج ينتظرك هنا، أم أنّك نسيت؟

ساد الصّمت للحظات. بدا أنّها ترفض الحديث بذلك الشّأن.

-عمر، لقد سبق وتحدّثنا في هذا. أنت تعلم مدى أهميّة...

قاطعها بصوت صارم:

-هذا الوضع لا يمكن أن يستمرّ أكثر ممّا فعل. هذا ليس زواجًا، وهذه ليست حياة مقبولة!

-لا أستطيع! ليس بعد!

تنهّد بصوت مسموع ثمّ قال في تهديد:

-أنت لا تتركين بيدي خياراتٍ كثيرة. ماذا لو تزوّجتُ ثانية؟

تسرّبت الدّهشة النّابعة من سكونها وتشبّع بها الهواء الذي

يتنفّسه. إنّها لم تفكّر في تلك الإمكانية قطّ، فهو عقيم في نهاية الأمر! إنّ الاحتمالات تبدو ضئيلة ومتناهية الصّغر. وقد آلمه استخفافها واستهانتها، ألم تكن هي متفضّلة عليه بالبقاء إلى جواره رغم علّته؟

قالت أخيرًا بنبرة متهكّمة:

-هل تفكّر بامرأة بعينها؟

اخترق اتّهامها المبطّن صدره بقسوة. لم يكن ذلك عادلا. لقد فعل كلّ ما يسعه. لقد حاول بشتّى السّبل أن يحفظ وعوده ويصون عهوده. لكنّها لم تتوقّف عن الشكّ به. قال بحرارة:

-طوال السّنوات الماضية، لم يكن هناك سوى أنا وأنت! لقد كنتُ حاضرًا ومساندًا وداعمًا لك في كلّ ما أردتِ. ألم أفعل؟ لقد كانت هناك مساحة كافية للإصلاح والبدء من جديد. ولقد حاولتُ مرارًا وتكرارًا.. لكنّك لم تمنحيني فرصة. لم تمنحي زواجنا فرصة!

قالت في جمود متجاهلة عتابه:

-افعل ما بدا لك. لكن لا تحضرها إلى بيتي.

إنّ أيّ امرأة أخرى كانت لتقلق من علاقة ممكنة بالممرّضة أو ارتباط سريّ بالخادمة.. لكنّها ما تزال مهووسة بشبح امرأة تعيش وراء البحر. إنّ أيّ زوجة ثانية يتّخذها لن تكون سوى شريكة لها في التّعاسة والمصير الحزين، حين تدرك أنّ قلب زوجها سجين حكاية من الماضي.

غير أنّه قد يتزوّج ياسمين، إن هي وافقت! في زمن بعيد، كانت تلك الفكرة لتقتلها. لكنّها لا تشعر إزاءها إلا بضيقٍ عابر الآن. كان عليها أن تدرك أنّها قد تخلّت عن عمر من تلقاء نفسها. بشكل ما، قرّرت أن تفلت يده قبل أن يفلت يدها.

لم يتحدّث أحدهما عن الانفصال. إن لم يعد زواجها مهمّا، فلماذا تظلّ على ذمّته؟ إنّها لا تودّ الاعتراف بذلك، لكن لولا دعمه الماديّ لما كانت كفالتها لكلّ هؤلاء الأطفال ممكنة. لقد كان معطاءً، وهو يحبّ أن يلعب دور السّيّد السّخيّ. وهي لم ترفض الاستفادة من كرمه.

كيف يمكنها أن تسمّي هذه العلاقة؟ شراكة؟ علاقة الرّاعي الرّسميّ بصاحب المشروع؟ إنّها ليست زواجًا على كلّ حال.

لعلّها تظنّ المسوّغ الوحيد لحصولها على ماله هو ذلك العقد الذي يجمعهما. ولعلّها إن انفصلت عنه بشكل رسميّ تفقد دعمه المادّي جزئيًا أو كلّيًا. ويمكنها أن تساوم أيضًا، وتحصل على مؤخّر مجزٍ. لكنّها لا تفكّر في تلك الحيثيّات الآن. ما زالت تدفن رأسها في الرّمال مثل نعامة جبانة، ولا تواجه نفسها بمعاركها الدّاخليّة التي لم تُحسم بعد.

أنهت الاتّصال وتنهّدت بحرقة. تلفّتت حولها، واستعادت إحساسها بالمكان والزّمان بعد أن حلّقت بعيدًا بأفكارها. لديها رشا الآن. ورشا بحاجة إليها. ستطلب موعدًا مع المحافظ وآخر مع القاضي، ثمّ ستزور السّفارة السّويسريّة قبل أن ترجع إلى دار الرّعاية من أجل موعد الطّبيب. ليس أمامها وقت تضيّعه.

-43-

وقفت رنيم في قاعة الانتظار بمحطّة الوصول في مطار باريس شارل دو غول وهي تتطلّع إلى وجوه المقبلين من جوف البناء. كانت الطّائرة القادمة من تورنتو قد حطّت منذ أكثر من ساعة، وهي تترقّب ظهور صاحبتها في شوق ولهفة. حين لمحتها في البعيد، رفعت كفّها لتلوّح لها بحرارة، ثمّ هرولت إلى الأمام لتقف في استقبالها:

-كريستين، لقد افتقدتك كثيرًا!

عانقتها بقوّة، ثمّ ضحكت. كان قدومها على طائرة هذا المساء إعلانًا لنهاية معاناتها. بعد سحبها للتّسجيل في الجامعة لسنتين متتاليتين، كادت تفقد الأمل بمناقشة رسالتها في أيّ أجل قريب. لكنّ كريستين ردّت على رسائلها أخيرًا، وتفهّمت وضعها. حين وصلتها الرّسالة، لم تصدّق رنيم عينيها:

«عزيزتي رنيم، لم أعتقد أنّ الأمور ستسوء إلى هذه الدّرجة. أعتذر لأنّني عرّضتك إلى هذه الأزمة، وأعدك بفعل

ما بوسعي لتأمين انتهائك من الرّسالة في أفضل الظّروف».

لم تعرف حينها ما يمكن لكريستين فعله. بعد أن رشّحت البروفيسور برانس للإشراف عليها، لم يكن بوسعها الثّقة في أيّ خيارات جديدة. لكنّها كانت قد عدمت أيّ حلول أخرى، وهي لن ترفض المساعدة مهما كانت. بعد أسبوعين من الصّمت وصلتها رسالة أخرى:

«عزيزتي رنيم، لقد تواصلت مع إدارة الجامعة، وعقدت معهم اتّفاقًا غير مسبوق: رغم كوني في إجازة مفتوحة من العمل الأكاديميّ، سيكون بوسعي مواصلة الإشراف على رسالتك وحدها، بشرط مناقشتها خلال ستة أشهر من الآن. استعدّي لنسق جنونيّ انطلاقًا من اليوم!».

وقد كان الأمر كذلك!

لقد عملت بجدّ والهدف نصب عينيها: إنهاء تلك المرحلة ووضع أزمة الرّسالة وراء ظهرها.

واليوم وصلت كريستين أخيرًا لحضور مناقشتها التي تقام خلال أيّام قليلة!

رافقتها إلى فندقها، حيث عكفتا سويّا على مراجعة التّقرير النّهائيّ وملف العرض الذي ستقدّمه أمام لجنة المحكّمين. حين غادرت الفندق في ساعة متأخّرة من اللّيل، كان الإرهاق قد أخذ منها مأخذه. رجعت إلى شقّتها وإحساس بالإنجاز يغمرها رغم التّعب الشّديد. تناولت هاتفها وراسلت ياسمين:

«هل أخبرك عن المفاجأة؟ لقد تحدّد موعد مناقشة رسالتي!».

جاءتها على الفور رسالة من ياسمين:

«هذا رائع! تهانيّ الحارّة».

ثمّ أضافت بعد هنيهة:

«خسارة، ليس طفلا إذن!».

ضحكت رنيم. إنّ التّوأمين كافيان بالنّسبة إليها. لم تكن تتطلّع إلى طفل ثالث، لكنّها تتفهّم حسرة ياسمين التّابعة من هاجسها الشّخصيّ. لعلّها تأمل أن يكون لعزّ الدّين أخ ذات يوم.

تكرّرت جلسات العمل تلك في اليومين التّاليين، حتّى أحكمت التّدريبات وأتقنت خطابها. عرّجت على المكتب ذلك الصّباح، لتدعو جورج لحضور المناقشة. صافحها مهنّئا ثمّ قال مداعبًا:

-أنا في شوق لوليمة ما بعد المناقشة.. أيّ الأصناف المصريّة ستقدّمين؟

ضحكت تجاريه، فأضاف بسرعة:

-أنا واثق أنّ العرض سيكون مميّزًا، لست قلقًا بهذا الشّأن!

ابتسمت في امتنان. طوال رحلة عملها في باريس، كان جورج عونًا وسندًا بلا شرط أو تردّد. لقد وجدته إزاءها في كلّ مرّة كانت بحاجة إليه، وقليلا ما يكون المرء محظوظًا برئيس عمل متفهّم ومرن. لقد كانت تتجهّز لنقلة في حياتها المهنيّة، وقد لا تتسنّى لها الفرصة للعمل إلى جواره بعد ذلك الحين. إنّ التوجّه إلى التّدريس كان خيارها المثاليّ، وهي تتوق إلى الوقوف أمام الطلّاب أخيرًا ومشاركة خبرتها المهنيّة مع براعم فتيّة!

كانت تغادر المكتب، حين استوقفتها السّكرتيرة لتقول:

-أستاذة رنيم، جيّد أنّك هنا. لقد ورد اتّصال منذ حين.. الوكيل العقاريّ قال أنّ هناك مشتريًا من أجل العقار المعروض للبيع من قبيل موكّلك، عمر الرّشيدي.

رفعت رنيم حاجبيها في دهشة. لقد مرّ بعض الوقت منذ نشر الإعلان، لكنّ الوكيل العقاريّ لم يتلقّ عروضًا وافرة، ولم يكن أحدها جادًا بدرجة كافية. قال حين اتّصلت به رنيم منذ شهور:

-السّوق تعرف بعض الكساد في هذه الفترة. لكنّنا سنجد مشتريا. أعدك سيّدتي!

لم يكن هناك ما يدعو إلى العجلة. فعمر ليس في حاجة إلى قيمة الشقق المادّيّة، لكنّه يريد الخلاص وحسب. ولمّا كانت تتنقّل بكثرة وتغيب في القاهرة لأسابيع ممتدّة، فقد تركت للمكتب إتمام المعاملة. لقد نسيت أمر العقار في خضمّ انشغالها برسالتها. لكنّها لا تمانع أن تنهي تلك المسألة، ما دامت موجودة في باريس.

-شكرًا لك، سأتولّى الأمر.

لم يكن تواصلها بعمر قد استمرّ منذ زيارته السّابقة -منذ ما يزيد على السّنة ونصف السّنة. لقد أبدى رغبة صريحة في الانتهاء من كلّ ما يربطه بباريس، وهي لم تملك مسوّغًا للاتّصال بعد شفاء عزّ الدّين ورحيله إلى تونس. ولمّا كانت تشعر باضطراب ما قبل المناقشة، فقد وجدت في نفسها رغبة في مباشرة بعض الأعمال التي تخلّصها من شحنة التوتّر.

اتّصلت على الفور بالوكيل العقاريّ لتتأكّد من جدّية المشتري، ثمّ راسلت عمر من أجل تحديد موعد لتوقيع العقد في المكتب.

***

تحرّكت أمام شاشة العرض بهدوء وثقة. ألم تفعل ذلك طوال سنوات عملها؟ لم تكن مناقشة الرّسالة إلّا مرافعة إضافيّة. مرافعة من نوع خاصّ، أمام قضاة صارمين، وهي كانت حاضرة الحجّة سريعة البديهة.

-تهانينا دكتورة رنيم!

غمرتها سعادة مبهجة وهي تتلقّى التّهاني من مشرفتها وأعضاء لجنة التّحكيم، ثمّ عانقت شهابًا وطفليها وقد دمعت عيناها. لقد انتهى الكابوس! لقد أفنت سنوات طويلة لتحمل أخيرًا ذلك اللّقب المتوّج لمجهوداتها. وقفت العائلة الفخورة إزاء المدعوّين من أصدقاء وزملاء، وبدا إياد وسمر في غاية الأناقة بالبدلة الرّسميّة والفستان الملكيّ الواسع.

-تفضّلوا رجاء، من هنا.

أشارت رنيم إلى قاعة الاحتفال التي حرص شهاب على تزويدها بأفخر أنواع المقبّلات الخفيفة والحلويات الباريسيّة. كانت مائدة عامرة، لكنّها لم تكن مصريّة. لم تكن رنيم نفسها طبّاخة ماهرة، ولا كانت أمّها! فكّرت أنّ أحدًا لن يلحظ غياب الأصناف التي تميّز هويّتها، باستثناء جورج! لم يكن ذلك ليفسد يومها على كلّ حال.

في تلك اللّحظة، دخلت رانيا على عجل وهي تحمل صناديق مغلّفة. همست في حرج:

-آسفة، لقد تأخّرت!

-ما هذا؟

-لا يمكن أن تكون المائدة مكتملة بدون المحشيّ، أليس كذلك؟

-المحشيّ؟ من أين جئت به؟

غمزتها وهي تقول بخفوت:

-لقد حصلت على بعض المساعدة!

سارعت بفتح صناديقها وتوزيع محتوياتها على موائد الضّيوف وهي تتحدّث إلى هذا وذاك:

-يجب أن تجرّب هذا.. ما رأيك في المحشي؟ نعم هذه وجبة مصريّة.. هل تعجبك؟

همست في أذن رنيم حين انفردتا:

-لقد توصّلت إلى عنوان سيّدة مصريّة مقيمة بباريس تصنع أطباقًا منزليّة وتبيعها لمحلّات الوجبات الشرقيّة!

راقبتها رنيم بابتسامة راضية. لقد كبرت تلك الفتاة وأصبحت تتحمّل مسؤوليّات وتقدّم مبادرات. جاء جورج وهو يلوك إصبعًا من محشي الملفوف وقال:

-هذه مميّزة، طعمها مختلف! لم تخيّبي ظنّي! أحبّ اكتشاف الأطعمة الغريبة من ثقافات أخرى. تهانينا يا رنيم على الرّسالة الرّائعة والمائدة المدهشة!

ضحكت في امتنان. إنّها مدينة لشقيقتها بذلك الإطراء.

-ما الذي تنوين فعله الآن؟

زفرت في ارتياح ثمّ قالت:

-سنتحدّث بهذا الشّأن لاحقًا، أحتاج إجازة مستحقّة في الوقت الحالي!

كانت أمامها فرصة الالتحاق بهيئة التّدريس في إحدى

الجامعات الباريسيّة، أو العودة النّهائيّة إلى مصر، وهي لم تحسم أمرها بعد. ألقت نظرة جانبيّة على شهاب الذي انشغل بإطعام الطّفلين على بعد خطوات. هل يمكنه أن يتفهّم هذه المرّة رغبتها في تمديد التّجربة الفرنسيّة أطول؟ أم أنّها قد استهلكت كل فرص التّسامح والتغافل؟

بعد يومين، جاء عمر من لوزان إلى المكتب مباشرة، ولم يعرّج على شققه القديمة. كان مستعجلا، ولم يبد على ملامحه أيّ شكل من أشكال الحنين أو التردّد. ابتسمت رنيم. لقد كان جادًّا في إنهاء الأمر إذن.

قدّمت نسختين من العقد إلى الرّجلين الجالسين إزاءها ومنحتهما بعض الوقت للاطّلاع على بنود الاتّفاق. كانا قد حدّدا سعر البيع في وقت سابق، ولم يكن عليها إلا تدوين التّفاصيل. حين فرغا من مراجعة العقد، وقّع البائع والمشتري على الوثيقة، ثمّ تصافحا بودّ. سيكون عليها تسجيل العقد والتّأكد من وصول المبلغ المحوّل إلى حساب عمر السّويسريّ لتكون المعاملة منتهية.

بعد أن غادر المشتري، استدار عمر نحو رنيم وقال بامتنان:

-شكرًا لاهتمامك بهذا الأمر. لقد انتهى كلّ شيء هنا.

ثمّ أضاف وقد تذكّر شيئا:

-لقد علمت من جورج أنّك قد ناقشت رسالة الدّكتوراه الخاصّة بك. تهانينا. أنت تستحقين كلّ خيرا!

نظرت إليه ولمّا تفارق الابتسامة شفتيها. كان إحساس بالرّضا يغمرها. وهو يستحقّ أن يطوي الصّفحة بشكل جادّ وقاطع ويلتفت إلى حياته في مكان آخر. يراودها إحساس الـ«ديجا فو»، فقد وقفا في هذا المكتب سابقًا لإعلان نهايات أخرى، لكنّ الوداع يبدو نهائيّا هذه المرّة.

أشارت إلى صندوق كرتونيّ في ركن الغرفة وقالت:

-لقد جمعت بعض متعلّقاتك الشخصيّة التي وجدتها في المبنى. ظننت أنّك قد ترغب في إلقاء نظرة عليها، ربّما تودّ الاحتفاظ ببعض القطع للذّكرى؟

شعرت بتردّده. لم يقل شيئًا، لكنّ خطواته تحرّكت ببطء في اتّجاه الصّندوق، ليفتحه بنزعة فضوليّة. لم يكن ينوي

أخذ شيء، لكنّ رغبة طارئة في إلقاء نظرة أخيرة على بقايا حياته السّابقة دفعته إلى الانحناء أمام الصّندوق. كانت هناك قطع ثياب ورسوم بيانيّة، تحف تذكاريّة وكتب.

قلّبها بهدوء لبعض الوقت بدون انفعال واضح، ثمّ تحوّل انتباهه نحو الكتب. بدا عليه الاهتمام فجأة. كانت تلك التي تركها على سطح المكتب. إذن لم تأخذها ياسمين!

تفحّص العناوين في حسرة، وهو يسترجع لحظات جمعته بها في أوقات ماضية. كان لكلّ منها قصّة وذكرى. لكنّ شيئًا غريبًا كان يحصل هنا. عاد ليتفرّس في الكتب في اهتمام متزايد وقد استيقظ بداخله الشكّ.

راقبته رنيم في استغراب، ثمّ سألت:

-هل تبحث عن شيء محدّد؟

رفع رأسه ليسأل في ريبة:

-هل كان هذا كلّ ما وجدت؟

-تقصد الكتب؟ نعم هذه كلّها. لا أظنّني تركت شيئا.

تابعته بعجب متنامٍ وهو يقلب الصّندوق رأسا على عقب ويكوّم محتوياته على المنضدة في ركن الغرفة. لقد حسبت أنّه لا يحتاج تلك الأشياء ويرغب في التخلّص منها، لكنّ سلوكه الآن يشير إلى عكس ذلك!

فرز عمر الكتب جانبًا برويّة وراجع العناوين بدقّة، وقد سيطرت عليه اللّهفة.

لم يكن مخطئًا. كان هناك كتاب واحد ناقص.

كتاب «التّعافي من الصّدمة»!

-44-

حدّقت في الرّجل الذي تجاوز مدخل القاعة، ثمّ سار بتؤدة حتّى انتهى إلى صفّ المقاعد الخلفيّ. أشكل عليها الأمر بدايةً، كأنّها رأت شبحًا. هذا مشهد يتداعى من الذّاكرة، لكنّه لا يمتّ للواقع بصلة. توقّفت الكلمات المتدفّقة على لسانها لوهلة، وقد استحوذ الشّبح الباسم على كلّ تركيزها، ثمّ انتبهت إلى حيث تكون: داخل قاعة الدّرس، وإلى من تتحدّث: إلى طلّابها!

حانت منها نظرة باتّجاه لوحها، فالتقطت خيط الأفكار التي كانت بصدد شرحها والذي كاد ينقطع مع دخوله. سرعان ما استعادت توازنها وانتبهت إلى محاضرتها. خلال الدّقائق التي فصلتها عن نهاية الحصّة، تحاشت النّظر تجاه الرّجل الذي لم تفارقها عيناه. كانت تشعر بهما عليها، وهي تتحرّك أمام شاشة العرض، وتشير بحركات واسعة تشتّت بها موجات الارتباك التي أخذت تنتابها.

ألقت نظرة على ساعتها. كانت لديها خمس دقائق بعد، لكنّها قرّرت إنهاء الحصّة قبل الأوان.

صرفت طلابها وتلكّأت بينما تجمع حاجياتها. بطرف عينها، كانت ترصد اقترابه من مكتبها. لقد كان حقيقيّا في نهاية الأمر! وقف إزاءها مخفيًا كفّيه في جيوب بنطاله ولمّا تفارق البسمة شفتيه. بدا مسترخيًا، بينما كان التوتّر كلّ ما تشعر به. قالت في فتور:

-عمر، هذه مفاجأة!

-ياسمين، كيف أنت؟ وكيف حال عزّ الدّين؟

-بخير.. نحن بخير!

لم تسأل كيف وصل إلى موقعها، ولا هو برّر. بات معروفًا من هو مصدر المعلومات.

سكتت، تنتظر أن يفصح عن سبب زيارته. صارت تعرف أنّه لا يتحرّك إلا وفي ذهنه حاجة ما، وهي لم تعد قادرة على مجاراته. لذا، كان من الأنسب لكليهما أن يفصح بأسرع ما يمكن.

وبدا أنّه لم يعد يطيق صبرًا للمداهنة والتّسويف، إذ قال بشكل مفاجئ:

-ياسمين، لماذا أخذت كتاب «التّعافي من الصّدمة»؟

توقّفت ياسمين عن التنفّس فجأة وارتفع وجيب صدرها. أدركت على الفور أنّها قد وقعت في مصيدة. لقد حسبت أنّ حقيقة احتفاظها بالكتاب لن تكون ملحوظة إلى تلك الدّرجة، ولا ذات مغزى بالنّسبة إليه. لقد تصرّفت بلا تفكير، ولم تتوقّع أنّها ستُسأل ذات يوم عن دوافعها. قالت بلهجة دفاعيّة:

-إنّه مجرّد كتاب! إن كنت تحتاجه، يمكنك استعادته...

قاطعها عمر بقوّة:

-لا.. لم أقصد هذا. لا أريد الكتاب، لم أعد بحاجة إليه. لكنّني وددت أن أعرف، لماذا أخذته؟

ضحك في حرج أمام صمتها، ثمّ قال بما أمكنه من هدوء:

-أنا آسف، لا أجد الكلمات المناسبة. لكنّني فعلا بحاجة إلى

هذا الجواب. لقد جئت لسبب وحيد: لأعرف ببساطة ما الذي فكّرت به حين قرّرت أخذ الكتاب؟ قد يكون أمرًا سخيفًا بالنّسبة إليك. لكنّه هامّ بالنّسبة إليّ. لا، لا يمكن أن يكون سخيفًا حتّى عندك، أليس كذلك؟

كان يتطلّع إليها في ارتباك، وقد انتقلت إليها عدوى الحرج وتصاعدت الحمرة لتلوّن وجنتيها.

أطرقت ياسمين وقالت في اعتراض:

-لكنّني أخذته منذ أكثر من سنتين!

قال عمر مبرّرًا:

-لم أكتشف ذلك إلا منذ أسبوع، حين سافرت إلى باريس لأوّل مرّة منذ سنتين. لقد كنت بصدد بيع الشّقّة...

توقّف في تردّد. حتّى لو كان عرف منذ سنتين، ماذا عساه كان يفعل إزاء وضعه المعقّد؟ لعلّه عرف في الوقت المناسب، حين صار قادرًا على اتّخاذ تلك الخطوة دون أن يشعر بالذّنب.

لكنّه تابع بلهجة جادّة:

-لقد أردت أن أعرف على الفور، فيم فكرت حين اشتريت الكتاب، وحين أخذته، هل هو ما فهمته، أم أنّها مجرّد أوهام في رأسي؟ من أجل هذا جئت!

كان السّؤال مباشرًا ومحرجًا، وهي لا تملك أن تجيب بنفس الصّراحة والانفتاح.

انتبهت إلى حركة الطلّاب عند الباب، فتطلّعت إلى ساعتها في توتّر. كانت الحصّة الثّالية على وشك البدء.

في تلك اللحظة أبصر عمر علّاقة المفاتيح التي تتأرجح في طرف حقيبة يدها: كانت على شكل زجاجة رمل أثرية! تلك العلّاقة التي منحها صهيب كذكرى لعزّ الدّين، وجدت مكانها أخيرًا برفقتها. ابتسم وقد انتهى من التردّد وهو يقول:

-هل يمكنني أن أزور البروفيسور كمال، والدك، مساء الغد؟

تسمّرت مكانها وقد التبس عليها الفهم. قالت في بلادة:

-من أجل الكتاب؟

ضحك بخفّة، ثمّ قال:

-نعم، سنواصل حديثنا عن الكتاب، إن كان ذلك يناسبك؟

انفرجت شفتاها، لكنّها لم تصدر غير همهمة غير مفهومة لفرط توتّرها. قال وهو يلحظ اضطرابها:

-سأتّصل به، حسنًا؟

هزّت رأسها بسرعة وقالت في حرج:

-عن إذنك.. لديّ درس الآن.

بعد انصرافه، توافد الطّلاب إلى داخل القاعة. هتفت طالبة وهي تمرّ إلى جوارها:

-هل هو زوجك، دكتورة؟

فأضافت أخرى بحرارة:

-أنتما لائقان جدّا!

ابتسمت في إشفاق ولم تعلّق، ثمّ أخذت تستعدّ لدرسها.

***

لأوّل مرّة، لم يرافقه صهيب في رحلته لرؤية عزّ الدّين. ترك الطّفل في عهدة شقيقته بالمغرب، واغتنم فرصة الزّيارة ليحادث عائشة بشأن ما يزمع القيام به.

قبل ذلك، كان قد تحدّث إلى آية وإلى خالها أبي الحسن. لقد كان ذلك الأمر يخصّه وحده، وهو قرار واعٍ ورصين، رغم كونه لا ينكر جرعة العاطفة التي تدفعه إليه. لم يكن في أيّ وقت سابق أكثر اقتناعًا من اليوم برغبته في الارتباط، وهو لا يكاد يطيق صبرًا للسّفر إلى ياسمين وطرح السّؤال المصيريّ عليها، لكن أمامه استعدادات كثيرة وتمهيدات وفيرة حتى يهيّئ محيطه إلى ما هو بصدده.

لقد عاش لحظة صدمة وبهجة حين اكتشف غياب الكتاب، فاستجوب المحامية في لهفة، وهي تحدّثت. كان الدّكتور يوسف قد غدا من الماضي! لم يكن هناك شيء أبدًا بينهما!

وقد أراد أن يعرف السّبب لكنّه أحجم عن السّؤال. وما همّه بسبب فشل علاقتها بغريم غير مرغوب؟ لقد عادت إلى تونس وانتهى اتّصالها به، وهذا كل ما يهمّه. لا، لقد أخذت الكتاب معها، وهذا.. هذا كلّ ما يهمّه!

لا يزال يذكر ذلك اليوم، حين ألفاها تجلس في شرفة مطعم «البيت الصّغير» وتقرأ ذلك الكتاب. لقد تساءل يومها: ما الذي قد يدفعها للقراءة في كتاب «التّعافي»؟ وأيّ الصّدمات قد تحتاج إلى الشّفاء منها؟ ولماذا أهدته الكتاب لحظتها بلا تردّد؟ لقد ساوره الشكّ وداعبه الأمل: ماذا لو كانت فكّرت به واشترت الكتاب من أجله؟

لقد كان من الجنون أن يصغي إلى صوت العاطفة الذي يهمس في أذنه بأنّها قد فعلت! لقد كانت على أبواب الزواج من هيثم، ولم يكن يليق بها أو به أن يضع وزنا لحادثة عابرة كتلك! لكنّها استردّت الكتاب، منذ سنتين! أعاد إليها كتبها كلّها، لكنّها أخذت كتابًا واحدًا من بينها: ذلك الكتاب الذي يعني أنّ أمله لم يكن سرابًا!

لقد اختار النّسيان، واختارت هي أن تحتفظ بالذّكرى.

أوَلَا يعني ذلك شيئا؟

بل يعني كلّ شيء!

حين استعاد اتّزانه، فكّر فيما عليه عمله. لم يكن هناك مجال للتردّد هذه المرّة. لقد ضيّع ما يكفي من الفرص وتخطى عتبة الأربعين. كان من الظلم أن يستمرّ في تلك الحياة الباردة، ورفيقة روحه تنتظر!

على الجانب الآخر، كانت هناك تأويلات سطحيّة وبسيطة: مثل أن تكون أخذت الكتاب لأنّها لم تنته من قراءته في السّابق، أو أنّها قد تحتاج شيئا من نصائحه في حياتها، أو لعلّها تريد إهداءه لشخص آخر! كلّ تلك تفسيرات ممكنة ومقبولة، لكنّها ساذجة وغير ذات معنى! وهو يشعر بصدق حدسه.

ثمّ، حتّى لو تبيّن خطؤه، وحتّى لو رجع خائبًا، فإنّ الأمر يستحقّ المحاولة. لقد انتهى من التردّد، وسيذهب ليطرح عليها السّؤال بوضوح.

اتّصل بآية أوّلا. لم يكن اتّصالهما الأخير قد انتهى على

وفاق. رغم تصريحها بموافقتها على زواجه من أخرى، فإنّ التّهديد شأن والإقدام شأن آخر. كان بحاجة إلى مصارحتها بما ينويه، فذلك حقّها. قال بهدوء:

-لقد نويت الزّواج.

ازدردت لعابها في توتّر. لم يعد الأمر مجرّد كلمات في الهواء. قالت بلهجة متهكمة تداري اضطرابها:

-ومن تكون سعيدة الحظ؟

أجاب بصوت ثابت:

-ياسمين.

طبعًا، ومن غيرها؟ أغمضت عينيها وهمست بصوت مبحوح:

-هل وافقت؟

- لم أتحدّث إليها بعد. رأيت من واجبي أن أخبرك أوّلا.

- وهل ستتراجع، لو طلبتُ منك ذلك؟

ساد الصّمت على الجانب الآخر. قاوم عمر انفعالاته ليقول بمرارة:

-بأيّ حقّ؟ لقد هجرتني يا آية!

تساقطت العبرات على وجنتيها تباعًا. إنّها تعرف في قرارة نفسها أنّها تتحمّل مسؤولية قراره ذاك، لكن ما زال يحلو لها أن تلعب دور الضّحيّة. تلك النهاية كانت محتومة في نظرها: كان ليطلب ياسمين اليوم أو غدًا. وإن لم يفعل، فستظل ثالثتهما الغائبة الحاضرة. لكنّها رغم ذلك منحته الفرصة ليضع اللّوم عليها. تلك المسألة معقّدة ولا فكاك منها. قالت بفتور:

-افعل ما بدا لك!

أضاف عمر:

-آية، فكري فيما تودّين عمله، وما تطمحين إليه في حياتك. أنت تحتاجين إلى شيء من التّوازن والاستقرار.

ابتسمت في سخرية. إنه يقدّم النصائح الآن!

حين أنهى الاتّصال، لم يكن يشعر بالرّاحة. بينه وبين آية كانت هناك خيبة ومرارة وحسرة. كان زواجًا واعدًا على الورق، لكنه تعثّر بمطبّات هوائيّة لم يتحمّلها. لقد كانت زهرة يانعة حين عرفها، تشعّ ذكاءً وحكمةً وجمالًا. وقد ضيّعت سنوات غالية من عمرها بسببه، وليس هناك ما يعوّضها عنها. هل كان عليه أن يهدر سنوات مماثلة في انتظارها ليكونا متعادلين؟

لم تعد آية إلى لوزان منذ شهور. كانت تعمل على الدّفاع عن مهمتها الإنسانية بشراسة. ظهرت مرّات على وسائل الإعلام المرئيّة، وأنشأت مبادرة على مواقع التّواصل تحمل اسم «أنقذوا الطّفلة رشا»، لاستدرار تعاطف شعبي مع حالة الرّضيعة المريضة التي تستحقّ بيئة صحيّة أفضل، لكنّها لا تنجح في إخراجها من الأردن وإتمام إجراءات الاحتضان. كانت نشطة على مدوّنتها، وقد كانت يوميات رشا مصدر إلهامها. كانت مدهشة كما عرفها دائمًا، قويّة مفوّهة ومثيرة للإعجاب. فكّر أنّ أيّ رجل سويّ كان ليتمناها زوجة، لكنّ حظّها العاثر أوقعها في طريقه هو.

تولّى ترتيب الأمور في لوزان قبل رحيله من أجل الطّفلين الرّضيعين اللذين بقيا في عهدته منذ سفرها وترك لكاميليا تدبير شؤون المنزل بشكل كامل، ثم اصطحب صهيبًا إلى المغرب. كان بحاجة إلى محادثة شقيقته وجهًا لوجه.

قال حين جمعتهما جلسة حميميّة في فناء منزلها بعد أن انشغل صهيب مع طفليها:

-هل تعلمين؟ منذ خمسة عشر عامًا، كانت هناك فتاة وددت خطبتها!

نظرت إليه عائشة في دهشة. لم يكن قد ذكر تلك القصّة قطّ من قبل. لكنّها تذكر، حين كانت ترشّح بنات العائلات المعروفة في مسقط رأسها علّه يتقدّم لإحداهنّ، كانت تشعر بتباعده. أحسّت في ذلك الوقت بأنّ فتاة بعينها تشغل باله، لكنّه لم يحدّثها عنها. لقد مضى زمن طويل، ومرّت به نوائب لا حصر لها منذ ذلك الحين، وقد تزوّج وكفل أطفالا، فلا ترى ما يدعوه إلى استرجاع تلك الذّكرى البعيدة الآن.

-هل أعرفها؟ لم تخبرني من تكون!

ابتسم في وهن:

-إنّها ياسمين.. أرملة هيثم رحمه الله!

وضعت كفها على فمها في صدمة، فأضاف:

-لقد تزوّجتُ آية لأنّ الظروف حكمت. بينما لم يتحرّك هذا.. (وضع كفّه على الشقّ الأيسر من صدره) إلّا من أجل امرأة واحدة.. وأظنّني لم أبرأ من حبّها أبدًا!!

لقد برّر تعلّقه بها في أوقات سابقة بأشياء كثيرة، وارتكب حماقات لا تحصى بسبب تشتّته وضياع صوابه. كانت رؤيتها تفتح جرحًا في صدره لم يندمل حتّى السّاعة. فهل يمكن أن تكون عاطفته تجاهها غير ذلك؟

حدّقت عائشة في عينيه في إشفاق. لم تره بتلك الهشاشة والألم من قبل. لقد رأته على كرسيّ متحرّك بعد احتراق مختبره وبعد تعرّضه لطلق ناريّ، لكنّه لم يهتزّ من الدّاخل رغم كل شيء. أمّا اليوم، وهو يعترف بتعلقه القديم، كان يكشف ضعفًا وحاجة. ذلك الرّجل الحديديّ الذي رأى العالم صلابته في مناسبات عدّة كان عليل القلب منذ زمن.

حزرت على الفور أنّ هيثم قد سبقه إليها، لكنّ ذلك لم يمنع صداقتهما من الاستمرار. وهي أرملة منذ زمن، فلماذا الآن؟
قالت باسمة:

-أرى أنك لم تحدثني بهذا إلا وقد عزمت شيئا!

-ألا ترين أنني انتظرت وقتًا كافيًا؟

-ماذا عن زوجتك؟

كانت تدرك أنّ زواجه لم يكن بخير. لم تحضر آية لزيارتهم منذ بعض الوقت، ولم تكن تبادلها الحديث حين تتّصل بشقيقها. لكنّه لم يصارحها بالخلل قبل ذلك.

- لقد تحدّثتُ إلى آية.

- وهل تفهّمت؟

- أظنّها تفعل.

قالت في استنكار:

-ليست هناك من امرأة في الكون قد تتفهّم هذا!

-لدينا مشكلاتنا الخاصّة.

- ألا سبيل إلى حلّها؟

عقد حاجبيه وأطرق في صمت، فأردفت تقول:

-لستُ أحاول ثنيك عن عزمك، لكنّ مشكلات الزّواج لا تحلّ بالهروب إلى الأمام! هل تحاول عقاب آية وتأديبها بزواج ثانٍ؟

-هذا الزّواج ليس من أجل آية، بل من أجل نفسي!

سألت في شكّ:

-هل هي أزمة الأربعين؟

ضحك عمر وقال:

-بل استفاقة الأربعين! إن لم أفعل هذا اليوم، فربّما أندم بقيّة حياتي.

-هل لياسمين يد في انهيار زواجك؟

هتف في حرارة:

-أقسم لك يا عائشة، لقد حاولت نسيانها، لقد كرّست كلّ جهدي لينجح هذا الزّواج.. لكنّ كلّ ما نفعله هو التسبّب بالأذى لبعضنا البعض! أنا متعب يا عائشة! آية في الأردن منذ شهور.. لقد بحثت عن العزاء بعيدًا عنّي ووجدته في أطفال دار الرّعاية. أليس من حقّي أن أجد عزائي؟

قالت برفق:

-وهل ياسمين عزاؤك؟

أطرق بابتسامة فاترة وقال:

-لو أنّها توافق!

-45-

وصلت إلى شقّة والدها قبل الموعد ببعض الوقت. كان كمال متحمّسًا من أجل الزّيارة. أخذ يتحرّك عبر غرفة الجلوس لينقل أطباق المقبّلات التي طلبها من المطعم القريب إلى المائدة. هتف حتّى يصل صوته إلى ياسمين التي انشغلت بتحضير الشاي:

-ما تراه سرّ هذه الزّيارة؟ هل أخبرك عمر الرّشيدي بشيء؟

هزّت كتفيها ولم تنطق، فاستمرّ يحاول أن يحزر:

-هل يكون مهتمّا بمشروع الجامعة الخاصّة؟ لو أنّه يشاركني الاستثمار، يمكننا أن نفتح فروعًا في مختلف الولايات! هل تتوقّعين أن يرغب في التّدريس؟

التزمت ياسمين الصّمت إزاء حماس والدها، بينما كان يقول بابتسامة راضية:

-أنا أحبّ هذا الشّاب كثيرًا. أتوسّم فيه الخير، وأقرأ في

ملامحه عزيمة وتألّقًا...

قطع وصلة ثنائه رنين الجرس، فتوجّه إلى الباب بخطوات واسعة وهو يهتف:

-ها قد وصل ضيفنا!

استقبل كمال الشّابّ بمصافحة حارّة وعناق وديّ، ثمّ رافقه إلى الدّاخل. قال وهو يأخذ عنه باقة الورود الحمراء الزكيّة وعلبة الشكولاتة الفاخرة:

-لم يكن هناك داعٍ لتجشّم نفسك هذا العناء!

ابتسم عمر وهو يقول بثبات:

-إنّها من أجل ياسمين.

ضحك كمال بصوت عالٍ، ثمّ قال:

-طبعًا، طبعًا.. السيّدات يحببن الورود!

أخذت ياسمين الباقة عن والدها وقد اصطبغ وجهها بأحمر قانٍ يحاكي لون الورود، حتّى شعرت بالتهاب أذنيها. جاء عزّ الدّين راكضًا وارتمى في حضن عمر، فاستقبله بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحين.

-عمّي عمر، أين صهيب؟

-لم يأت هذه المرّة، لكنّه قد يصحبني في الزّيارة المقبلة.

-أرجوك، أحضره معك!

ربّت على رأسه، ثمّ دسّ كفّه في جيب سترته ليخرج مغلّفًا وضعه بين يدي الطّفل:

-لقد بعث إليك رسالة!

-حقًّا!

ركض عزّ الدّين لينزوي في ركن الغرفة ويفضّ الظرف. أخذ يطالع الرّسالة في شغف، بينما قاد كمال ضيفه ليجلسا متجاورين على الأريكة. في الأثناء، كانت ياسمين قد اختفت

داخل المطبخ لتداري خجلها وتضبط انفعالاتها. كانت تصلها أطراف الحديث من حيث تقف، وهي تضع كفّها على صدرها محاولة السّيطرة على تنفّسها المضطرب. حملت طبق الشّاي ومشت إلى مجلسهما، وضعته على المائدة المنخفضة وجلست على المقعد البعيد إلى جوار طفلها، بينما كان كمال يقول:

-نحن في مرحلة متقدّمة من التّخطيط واستخراج التّصاريح.. هل تودّ أن ترى التّصاميم؟

أومأ عمر بابتسامة مجاملة، فوقف كمال دون انتظار واتّجه إلى غرفته وهو يقول في حماس:

-هذا مشروع مضمون، ستودّ المشاركة في الاستثمار حين ترى المخطّط!

ران السّكون على ثلاثتهم، بعد اختفاء كمال داخل الغرفة. كانت ياسمين ترنو إلى عزّ الدّين محاولة الانشغال به عن الضّيف الذي يجلس قبالتها، بينما كان تركيز الولد على الأوراق الملوّنة بين يديه.

كان عمر أوّل من كسر جدار الصّمت، وهو يقول مبتسمًا:

-أين كنّا إذن؟

كان يشير إلى حديثهما السّابق في قاعة الدّرس. هل سيسأل عن الكتاب مرّة أخرى؟

-حسنًا، أنت تعلمين لماذا جئت اليوم؟

أطرقت في حرج. إنّها تعرف. لم يكن غرض الزّيارة مناقشة مشاريع استثماريّة كما يهيّأ لوالدها.

لقد تمكّن منها الاضطراب منذ صباح الأمس، حين فاجأها في الجامعة. لقد مرّ عقد من الزّمن، على لقائهما في «البيت الصّغير». استعادت المشهد في ذاكرتها بكلّ حذافيره، حين لمحته يقف تحت السّماء المثلجة وقد غطّت كتفيه طبقة رقيقة بيضاء، كأنّه يستمتع بالبقاء خارجًا في البرودة اللّاذعة.

نعم، كانت قد فكّرت به حين اشترت الكتاب. لكنّها لم تحسب أنها ستلقاه يومها. ولم تعرف أنّها ستتجرّأ على

إهدائه إيّاه. كانت تلتهم الصّفحات وكلّ ما تتمنّاه أن تجد تلك الكلمات طريقها إلى عمر، وأن تطبطب عليه، وتسرّي عنه، ويجد سبيلا إلى التّعافي.

حين وجدت الكتاب فوق سطح المكتب في شقّة الشّركة، استرجعت ذلك الموقف من أعماقها، الكتاب الذي وقع من كفّها، ليلتقطه ويقلّبه في دهشة جليّة. هل عرف حينها، أنّها قد اشترت الكتاب من أجله؟ هل عرف اليوم، أنّها أخذت الكتاب الذي يشهد على عاطفتها القديمة لأنّها أرادت الاحتفاظ بالذّكرى؟

إنّه يعرف، ومن أجل هذا بالذّات قد جاء. لقد حسبت أنّ فِعلتها لن تثير شكوك أحد، وهي لا تعرف الآن كيف تجيب على أسئلته المعقّدة، الصّريحة والمربكة!

تناهت إليها خطوات والدها وهو يرجع إلى الصّالة وبيده التّصاميم. استمرّ صدرها ينبض بقوّة وأصابعها تتحرّك في توتّر تمسّد رأس طفلها، بينما انهمك كمال في شروحات طويلة لا تهمّ أحدًا. إلّا أنّ عمر استمع إليه دون مقاطعة، وأبدى ملاحظات أصغى إليها والدها بقدر من الاهتمام. حين وضع كمال دفاتره وأوراقه على الطاولة، تنحنح عمر وقال

معتذرًا:

-في الحقيقة، يا عمّي.. لقد جئت في شأن آخر، غير المشاريع الاستثماريّة.

التفت كمال في دهشة. وقرأت ياسمين علامات الاستغراب على ملامح والدها، وقد تحوّل فجأة من «البروفيسور» إلى «عمّي» تناسبًا مع الموقف الحميميّ. كان المشهد مربكًا لثلاثتهم، لكنّ عمر لم يكن يبالي. قال بشكل مباشر:

-لقد جئتك خاطبًا لكريمتك ياسمين، فلا تردّني خائبًا!

طالع كمال وجه ياسمين الملتهب حرجًا، ثمّ عاد لمواجهة عمر الذي بدا في منتهى الجدّيّة. حدّق في ملامحه الحازمة ولمّا يتجاوز الصّدمة بعد، ثمّ التفت إلى ابنته وقال:

-وما رأي ياسمين في الأمر؟

كانت وجنتاها متورّدتين وهي تهمهم في ارتباك:

-عزّ الدّين.. تعال! سأحضّر لك وجبة خفيفة!

أمسكت بكفّ طفلها وهربت من المجلس وهي ترتجف. أغلقت خلفهما باب المطبخ واستندت إليه لتتنفّس من جديد. لم تكن تعرف ما يحصل بالخارج، لكنّها ترتعش رغم ذلك فرَقًا. جاءها صوت ولدها:

-ماما.. أصابعي تؤلمني. أنت تضغطين بشدّة!

-آسفة يا حبيبي، لم أقصد!

أفلتت كفّه معتذرة، ثمّ تحرّكت نحو الثلاجة لتجهّز شطيرة جبن بعقل غائب.

-أنت غاضبة؟

استدارت نحوه في دهشة.

-لا، ما الذي يمكن أن يغضبني؟

-وجهك أحمر، وحاجباك عابسان.. كأنّ عمّي عمر قال شيئا أغضبك!

زفرت، ثمّ رسمت البسمة على شفتيها. إنّه طفل، ولا يدري ما الذي يحصل هنا.

-أنا بخير، كلّ شيء على ما يرام. تناول شطيرتك الآن.. حسنًا؟

في الخارج، كانت لهجة كمال قد تغيّرت وهو يطالع عمر بنظرة مختلفة. منذ حين كان يخاطبه كشريك محتمل، لكنّه الآن قد غدا خاطبًا لابنته. كان يعرف أنّهما متقاربان في السنّ، وكلاهما يحمل شهادة الدّكتوراه في مجاله، وبالتّالي فإنّ التّكافؤ حاصل. قال مستفسرًا:

-كيف هي أعمالك في سويسرا؟

-ممتازة يا عمّي. لديّ شركة تصنيع للبطاريات وهي تصدّر لمختلف الدّول الأوروبية وعدد من دول العالم. العائدات أكثر من مجزية.

كان كمال يلحظ لفظ «عمّي» الذي لم يتعوّد عليه للمرّة الثّانية، لكنّه تجاوز ليسأله:

-وأين تنوي أن تستقرّ إذن؟

-سيكون مثاليًا أن تأتي ياسمين للاستقرار معي في لوزان، حيث مقرّ الشركة.

-هل اتّفقت وياسمين على هذا؟

-لم نتحدّث في الأمر بعد. لقد رأيت أن أتقدّم إليها بشكل رسميّ أوّلا، ثمّ يمكننا معالجة التّفاصيل.

انتفخت أوداج كمال وهو يشعر بالأهميّة فجأة. لقد كان لديه ثلاثة أبناء، لكنّه لم يلعب دورًا محوريًّا في ارتباط أحدهم! حتّى لو كان ذلك زواج ياسمين الثّاني، فهو سيكون سعيدًا بلعب دور الأب على أكمل وجه هذه المرّة.

-ماذا عن عائلتك؟

-والداي قد توفّاهما الله منذ زمن، وأشقائي يعيشون في المغرب.. أنا أصغرهم. ولقد كفلت منذ سنتين طفلا فلسطينيّا، عمره عشر سنواتٍ الآن.. وهو يعيش معي في الوقت الحالي.

-آه، حقّا؟ هل تعرف ياسمين بالأمر؟

-نعم، لقد التقى صهيب بعزّ الدّين بضع مرّات.. وهما صديقان في الواقع.

أغفل متعمّدًا ذكر آية. رغم كونها عنصرًا محوريًّا في حياته، لكنّها غائبة ولا تأثير لها في قراراته. ولم يكن من الحكمة أن يثير زوبعة لدى العائلة في الوقت الحاضر بذكر زوجته الأولى، ليس قبل أن يحصل على موافقة ياسمين نفسها. قال كمال بهدوء:

-إذا كانت ياسمين موافقة، فليس لديّ مانع.

-شكرًا لك يا عمّي.

رجعت ياسمين برفقة عزّ الدّين وقد استعادت شيئا من هدوئها. قال كمال وهو يشير إليها:

-تعالي يا ابنتي وتحدّثي إلى خاطبك!

ثمّ وقف وهو يشدّ عزّ الدّين ليتبعه:

-آه، حقّا؟ هل تعرف ياسمين بالأمر؟

-نعم، لقد التقى صهيب بعزّ الدّين بضع مرّات.. وهما صديقان في الواقع.

أغفل متعمّدًا ذكر آية. رغم كونها عنصرًا محوريًّا في حياته، لكنّها غائبة ولا تأثير لها في قراراته. ولم يكن من الحكمة أن يثير زوبعة لدى العائلة في الوقت الحاضر بذكر زوجته الأولى، ليس قبل أن يحصل على موافقة ياسمين نفسها. قال كمال بهدوء:

-إذا كانت ياسمين موافقة، فليس لديّ مانع.

-شكرًا لك يا عمّي.

رجعت ياسمين برفقة عزّ الدّين وقد استعادت شيئا من هدوئها. قال كمال وهو يشير إليها:

-تعالي يا ابنتي وتحدّثي إلى خاطبك!

ثمّ وقف وهو يشدّ عزّ الدّين ليتبعه:

-تعال يا ولد، سأريك شيئا في الشّرفة.

-الشّرفة؟ ماذا فيها غير أصيص الزّهور يا جدّي؟

ضحك كمال وهو يقود الطّفل مبتعدًا:

-تعال، سترى ماذا هناك.

جلست ياسمين في موقعها الأوّل، تابعت بنظراتها طفلها وهو يتحرّك خلف زجاج الشّرفة مصغيًا إلى أحاديث جدّه وهو يأخذ قضمة من شطيرته كلّ حين، ثمّ أطرقت وقالت في حرج:

-لقد.. فاجأتني!

ابتسم عمر وقال بهدوء:

-هل هي مفاجأة سعيدة؟

استمرّ إطراقها وقد تزايد خجلها.

- ياسمين، انظري إليّ!

رفعت عينيها في تردّد. كانت عيناه في العادة تفرّان ولا تستقرّان، يغضّ عنها بصره كلما التقيا، فلا يحدّق فيها ولا يطيل النظر، لكنّهما اليوم ثابتتان واضحتان. ينظر إليها وتنظر إليه. هل هذه هي الرّؤية الشّرعية؟ كانت تميّز لعينيه لونًا بنيًّا داكنًا قريبًا من السّواد، وتلمح تلك الندبة القديمة على جانب وجهه الأيسر، يختفي جزء منها تحت لحيته الكثّة.

ارتجف قلبها في صدرها وقد تسرّبت تلك العاطفة في صوته لتدغدغ حواسّها وتتسلل عبر مسامّ جلدها. لم تكن تتوهّم هذه المرّة. إنّها لا تسيء تفسير الإشارات، ولا تعيش خيالات موغلة في الفانتازيا. إنّه يجلس أمامها ويكلّمها مباشرة، كما لم يفعل من قبل.

-ليس هناك ما تجهلينه بشأني، ولقد جئتك بكل عيوبي التي لا تخفى عليك.

لقد كان ذلك حقيقيّا. كلاهما يعرف الآخر، كلّ ندوبه الظاهرة والخفيّة. سألت في حيرة:

-لماذا أنا؟

ضحك بخفة ثم قال معترفًا:

-لقد كنتِ أنت منذ البداية، وطوال الوقت! لقد رأيت فيك الرّفيقة التي تفهمني وتخاطب عقلي، منذ أيّام المترو.. وحين تحضرك أسباب وجيهة للبكاء أريد ألا أشعر بالعجز مرّة أخرى، أن أمنحك كتفًا تبكين عليها على الأقلّ.. وأريد أن يكبر عزّ الديّن مع صهيب، وأن تكون له عائلة مكتملة الأركان.

أصغت في دهشة. لم تكن واهمة، الآن وفي السّابق، لقد كان كل ذلك حقيقيّا. لكنّ الظروف كانت عكس الاتجاه على الدّوام. ولقد كان حلمه جميلًا، ومغريًا.

-لكن.. أنت تعرفين، لن يكون بوسعي أن أمنحك أطفالا آخرين، فالحروق شوّهت جسدي.

كانت ملامحه تشي بالألم والإرهاق، لكنّ الابتسامة ثابتة. ضحك بمرارة ثمّ قال:

-لا أدري ما الذي قد يجعلك توافقين بعد كلّ هذا!

قالت بنبرة هادئة:

-عمر، لا تبخس نفسك قدرها!

اتّسعت ابتسامته وهو يقول مازحًا:

-لعلّي أحتاج من ترفع معنويّاتي!

كتمت بسمتها وهي تعبث بطرف ثوبها، فأردف:

-ياسمين، أنا.. أحتاجك. هل تعلمين؟ بعد كلّ المصائب التي عشتُها -وعشتِها أنت أيضًا- أشعر أنّ قربك هو المكافأة المرضية الوحيدة! أيّ خيارات أخرى هي بدائل ناقصة. خبّريني، ألا نستحقّ بعض الرّاحة؟

ازدردت ريقها في توتّر وهي تقول:

-لكنّك...

توقّفت الكلمة على طرف لسانها، فأكمل عمر عنها:

-متزوّج؟

-ألست كذلك؟

تنهّد عمر ثمّ قال:

-أنا متزوّج هذه حقيقة.. لكنّها ليست كلّ الحقيقة. لقد تزوّجت آية لاعتبارات كثيرة، ليس من ضمنها الميل القلبيّ.. والآن، كلانا يعيش في منزل منفصل، وآية في الأردن معظم الوقت.

ساد الصّمت للحظات قبل أن يضيف بهدوء:

-ما يجمعني بآية زواج شكليّ.. بينما كلّ ما نتّفق عليه هو قضيّة مشتركة. وهي.. تتفهّم.

-تتفهّم؟

هتفت بنبرة استغراب. وهل هناك امرأة ترضى بمن تشاركها

زوجها؟

-آية مشغولة الآن، بالأطفال الذين تكفلهم.. الأطفال هم حياتها كلّها، وتحقّق برعايتها لهم رسالتها في الحياة. لكنّني أضمنها من أجل الاحتضان. تعلمين.. المسكن والدّخل الثّابت والاستقرار، إنّها شروط للاحتفاظ بالأطفال، لذلك لا يمكنها الانفصال. ولست أريد أن أكون سببًا في حرمانها من الشيء الوحيد الذي يعطي لحياتها قيمة ومعنى. لكن.. لم تعد هناك حياة بيننا.

استمعت ياسمين في دهشة. إنّها لا تستوعب بعد. أيّ نوع من العلاقات هذا؟

-وماذا لو تغيّر الوضع في المستقبل؟

إنّها تذكر بوضوح غيرة آية ونظراتها المتملّكة تجاه زوجها. إنّها لا تأمن أن تكون امرأة كتلك ضرّة لها. حتّى لو كان زواجهما بلا روح، فإنّها لا ترضى المشاركة. وإنّ ذلك الوضع يشعرها بالإحباط، وبالغضب. لماذا يضعها في موقف مماثل؟

تردّد عمر لبرهة. كان قد خطّط لكلّ شيء: يمكنه أن يعقد

قرانه في المغرب، لكنّه لن يستطيع إحضارها إلى سويسرا كزوجة رسميّة، فالقانون هناك لا يسمح بالزّواج من اثنتين. لكنّ الحلول متوفّرة: يمكنه أن يمنحها وظيفة صوريّة في شركته تبرّر إقامتها.

في المقابل، لم يكن بوسعه أن يعدها أنّ آية ستختفي من حياته إلى الأبد. إنّ المستقبل في علم الغيب، وهو لا يريد أن يظلم آية إن هي ثابت إلى رشدها. لا يعرف كيف يمكنه أن يتعامل مع الوضع، لو أنّها طلبت الصّلح وعودة المياه إلى مجاريها. لا يمكنه أن يجبرها على الانفصال. لعلّه لا يعالج الخلل بشكل قاطع ويترك الأبواب مشرعة، لكنّ ذلك لا يبدو مرضيًا في عيني ياسمين!

إزاء صمته المستمرّ، همست ياسمين في فتور:

-أعتذر، عن إذنك.

ثمّ هرولت في اتّجاه الحمّام. تحصّنت بالباب وأطلقت العنان للعبرات لتغرق وجنتيها. إنّها مغتاظة وحزينة، لكنّها لا تملك أن تتّخذ موقفًا حاسمًا تجاهه. زوجة ثانية! إنّه يريدها زوجة ثانية! وهي لا تعرف كيف تتعامل مع هذا الطّلب. إنّها

لا تريد الرّفض.. لكنّها لا تستطيع الموافقة أيضًا!

بعد دقيقتين، سمعت باب المدخل يغلق. غسلت وجهها بسرعة وجفّفت عينيها بحرص، ثمّ خرجت. ألفت والدها يقف في الرّدهة في استغراب. سألت في حذر:

-هل انصرف؟

-نعم. هل كنت تبكين؟ هل قال شيئا يؤذيك؟

هزّت رأسها بقوّة وقالت مبرّرة:

-إنّها.. حساسيّة!

ثمّ عانقته. تلقّاها بين ذراعيه في تعجّب متزايد، وسأل من جديد:

-إن كنت لا تريدين هذا الارتباط، فلا بأس.. سوف أتّصل به وأقول: ليست لدينا بنات للزّواج!

همست في إعياء:

-هل يمكن أن نتحدّث بهذا في وقت لاحق؟ أشعر بالإنهاك الآن.

قبّلت وجنتيه، ثمّ نادت عزّ الدين لتنسحب وهي لا تلوي على شيء. في طريقها نحو المدخل، حانت منها نظرة سريعة نحو الباقة الحمراء، فانقبض صدرها.

***

لاحظت فاطمة شرودها. لم تكن ياسمين على طبيعتها. كانت قد أمضت الأمسية السّابقة في شقّة كمال. لم تكن تستنكف تواصلهما الغزير مؤخّرًا، لكنّها استغربت تلك الزيارة خلال أيّام الدّراسة، فغالبًا ما كانت تلقاه في نهاية الأسبوع.

كانت الدّار تضجّ بالحياة في المساءات. لقد غدت ساكنات الطّابق الأوّل جزءًا من العائلة. تأتي أولئك الأمّهات المرهقات في وقت متأخّر، بعد أن يكنّ قد أمضين نهارهنّ بين المستشفى ومكاتب التأمين والضّمان الاجتماعيّ، فتقدّم لهنّ فاطمة وجبة ساخنة وتجاذبهنّ أطراف الحديث.

حين عادت ياسمين، لم تنضمّ إلى جلستهنّ كما اعتادت.

انسحبت إلى غرفتها وساعدت عزّ الدّين على إنهاء واجباته المدرسيّة، ثمّ خلدت إلى النّوم مبكّرة. وحين استيقظت صباحًا، كانت الهالات السّوداء تلتهم وجهها.

سحبتها فاطمة إلى ركن الفناء حيث تجمعهما جلسات الفضفضة عادةً، وقالت بجدّية:

-تحدّثي، ما الذي يشغل بالك؟

تململت ياسمين. لم تكن قد حظيت بليلة نوم مريحة، رغم بقائها في سريرها لساعات طويلة. كان القلق يدبّ في صدرها دبيبًا مستمرًّا. وهي كانت تحتاج أن تسكب ما يجيش بصدرها في أذن مصغية. تعرف أنّ والدتها مستمعة جيّدة، وهي قد غدت في تلك السنّ صديقة تشاركها كلّ همومها. قالت في ارتباك:

-إنّه عمر الرّشيدي!

رنت إليها فاطمة في دهشة، فتحدّثت بإسراف عن زيارته للجامعة، ثمّ عن لقائه في منزل والدها. وكانت فاطمة تعقد حاجبيها باستمرار. سألتها حين فرغت من حكايتها في شكّ:

-أوَلم يكن متزوّجا؟

قالت ياسمين في فتور:

-إنّه ما يزال متزوّجا!

نظرت إليها فاطمة مليّا. هذه ليست ابنتها العاقلة التي تعرفها. إنّ ياسمين واقعيّة وناضجة، لكنّها بعد أن رفضت كلّ الخاطبين، تفكّر برجل متزوّج!

إنّه شخص -رغم غموضه- معروف الهويّة لدى كلّ أفراد العائلة. لقد كان هناك في مناقشة رسالة ياسمين وفي حفل زفافها أيضا. وهو فوق ذلك رفيق زوجها الرّاحل وشريكه في المشاريع والقضيّة. ليس هناك ما يجهله بشأن وضعها الدّقيق والمعقّد. لكنّه متزوّج!

إنّها تشعر بحيرتها وتمزّق روحها بين ما ترغب فيه وما ينبغي عليها فعله. لم تكن بجعبتها كلمات تفيد في وضعها ذاك. إنّ الاستنكار لن يزيد إلّا من ألمها. فتحت ذراعيها، فعانقتها ياسمين، وأرسلت زفرة حارّة على صدرها.

***

عُقد في نهاية الأسبوع اجتماع عاجل في صالة منزل كمال. كان قد اتّصل بعبد الحميد وزهور وفاطمة، وجعل ثلاثتهم يحضرون على جناح السّرعة بعد أن شرح الوضع. جلس قبالتهم وقد اكتّست ملامحه قناع الجدّيّة وقال:

-ماذا ترون بشأن هذا الخاطب؟

قالت زهور باستياء:

-ماذا يظنّ نفسه عمر الرّشيدي هذا؟ أنّه قد يشترينا بماله؟ فليستردّ مزرعته ويتركنا وشأننا!

عقّب عبد الحميد برصانته المعهودة:

-لا أظن هذا قصد الرّجل. لم يطلب شيئًا حين اشترى العقار باسم عزّ الدّين منذ سنوات.. ولا أحسب ياسمين توافق من باب الامتنان! هذا أمر وذاك أمر آخر.

لوت زهور شفتيها في امتعاض ولم تعلّق، ثم نظرت إلى

فاطمة:

-ما رأيك أنت؟

تلفّتت فاطمة حولها في ضيق. لم يكن يعيب الرّجل شيء، عدا كونه متزوّجًا! لو كانت ابنتها صبيّة يافعة، لكانت رفضت بشكل قاطع، لكنّها أرملة.. وجلّ المتقدّمين لها مطلقون أو أرامل، وفوق ذلك يفرّون فور اكتشافهم لحوادث الماضي! إنها ترجو لابنتها زيجة سعيدة، وقد لمست رغبة ياسمين في القبول. ياسمين التي رفضت كل المتقدّمين دون أن تمنح أحدهم فرصة تذكر، تميل إلى رجل أخيرًا، فهل يمكنها ألا تجاريها؟

لكنّه متزوّج، وتلك علّة حقيقيّة. غير أنّها تعرف زهور: إنّها لا تريد لياسمين الزواج في المطلق! لعلها تحسب أن عزّ الدين أولى باهتمامها وأنّ تجربة زواج واحدة -ولو كانت قصيرة الأمد- كافية! وهي نفسها -فاطمة- قد رأت ذلك في الماضي، حين امتنعت عن الزواج ثانية، غير أنّها لا تريد لياسمين مصيرًا مماثلًا.

-رأيي من رأي ياسمين. لو وافقت فلا اعتراض لي!

هتفت زهور في استنكار:

-وماذا بشأن زوجته؟

- لا نعرف شيئًا بعد. ربما يكون قد انفصل عنها!

- وإن لم يفعل؟

- ذلك شأنهما، وهذا شرع الله. طالما لا يظلم ابنتي، فلا يهمّني زواجه!

لم تكن تلك الحقيقة الكاملة. كانت تفضّل أن تكون ابنتها زوجة وحيدة وملكة على قلب زوجها. لكنّ ردّة فعل زهور كانت تثير غيظها، فتعمّدت استفزازها. تلفتت زهور حولها تبحث عن مؤيّد:

-هل يرضيكم هذا الكلام؟ هل انتهى الرّجال من العالم؟

أطلقت فاطمة بلهجة اتّهام:

-أنت لا تريدين لها الزّواج على الإطلاق، لا عمر الرّشيدي

ولا غيره!

واجهتها زهور وقالت في تحدّ:

-لو أنّها تتزوّج شخصًا مناسبًا، فلن أمنعها!

قال كمال الذي اكتشف متأخّرًا مسألة زواجه تلك:

-في الواقع، الرّجل يعجبني! أعرفه منذ زمن، وهو لا ينفكّ يثير دهشتي. رجل عصاميّ وتفكيره لامع، وهو فوق هذا مهذّب وأخلاقه عالية! لكنّ مسألة زواجه هذه تحتاج وقفة. إنّهم يتزوّجون اثنتين وأكثر في المغرب، لكنّ العرف مختلف عندنا.

أطلقت زهور ضحكة مغتصبة ثم استدارت إلى زوجها تهمزه:

-قل شيئًا!

تنحنح عبد الحميد ليقول في حرج:

-فلنستدع الرّجل ونستمع إلى قوله.. سنعرف حينها.

أومأ كمال موافقًا وكذلك أمّنت فاطمة، فتنهّدت زهور في استسلام.

-46-

ألقت رانيا نظرة سريعة على بريد صفحتها على موقع التّواصل الاجتماعيّ. بعد أن نشرت تفاصيل قصّتها على المدوّنة، انهالت عليها الرّسائل من فتيات عشن قصصًا مشابهة. وكانت تهتمّ بمطالعتها والردّ على صاحباتها بنصائح وتوصيات مستقاة من خبرتها. كانت تمضي عدّة ساعات يوميّا في مهمّتها الجليلة، وتأخذ كلّ رسالة تصلها على محمل الجدّ إلى حدّ بالغ.

منذ أنشأت المدوّنة، سمعت عن حوادث مميتة، ذهبت ضحيّتها بنات في سنّها. وكلّما قرأت عن جرائم القتل بدافع العاطفة، ارتجفت وانهمرت عبراتها. لقد كانت محظوظة، وغيرها لم يكن. وقد اكتشفت فجأة أنّ المجانين والمهووسين كثر في المجتمع، وكلّ فتاة معرّضة إلى أن يتقاطع طريقها مع واحد منهم!

خرجت من تلك التّجربة القاسية بزاد من النّضج والوعي، فانهمكت في التّدوين بإخلاص. كتبت منذ ذلك الحين مقالات عدّة، بمواضيع مثل: «العلاقات السّامّة»، و«علامات

اضطراب الشخصيّة»، و«خطوات الخلاص من المترصّد»، و«حركات الدّفاع عن النّفس التي يجب أن تتقنها كلّ فتاة»...

خلال أشهر، كانت قد كرّست وقتها لحضور دورات تدريبيّة وقراءة آلاف الصّفحات من كتب التّنمية الذّاتية وعلم النّفس ودراسة الشّخصيّة، وتلخيص ما تقرأ، لتنقل خبرتها إلى من يحتاجها بأسلوب بسيط وسلس.

توقّفت أمام رسالة بعينها.

«مرحبا، أنت رانيا شاكر؟».

لم تكن مدوّنتها تحمل اسمها الحقيقيّ، ولا تحسب أنّها قد باحت بقصّتها لأحد يمكنه التعرّف إليها!

كتبت في شك: «من أنت؟».

جاء الردّ على الفور في برنامج المحادثة:

«أنا معجب».

عقدت حاجبيها في تحفّز. هل يمزح؟ أم لعلّه يتحدّى؟ لقد كانت كتاباتها تصبّ في اتّجاه واحد: الابتعاد عن العلاقات العابثة وتجنّب الشخصيّات المشبوهة. لا يمكن أن يكون قارئًا جادًّا لمدوّنتها!

على السّطر التّالي ظهرت عبارة إضافية:

«بمقالاتك».

كتبت في عصبيّة: «هذا الحساب ليس للّهوا».

ردّ على الفور: «لقد ضغطت على زرّ الإرسال خطأ. لم أقصد المعاكسة».

ابتسمت في تهكّم، وكتبت:

«طالما تعجبك مقالاتي، فأنت تعرف ما يجب فعله حين تخبرك آنسة بأنّها غير مهتمّة؟».

توقّفت الكتابة لبرهة، ثمّ:

«أمضي في شأني؟».

«تماما!».

ثمّ حظرت الحساب دون تفكير. بعد دقائق، رنّ هاتفها برقم غريب. طالعته في شكّ وقد أخذ القلق ينمو بداخلها. ماذا الآن؟ هل حظرت الحساب ليتّصل على الهاتف؟ كانت تلك علامات السّلوك المترصّد المنذرة بالخطر!

راقبت الشّاشة وهي تومض بمكالمة واردة، لكنّها لم تردّ. تنهّدت حين توقّف الرّنين. لقد باتت ترتاب بشكل مبالغ فيه. ماذا لو كان اتّصالا يهمّها؟ حدّقت بالرّقم الغريب في توتّر. هل عليها أن تعاود الاتّصال؟

لم تكن قد حسمت أمرها حين أخذ الجهاز يهتزّ في كفّها وقد ظهر الرّقم الغريب ذاته. عضّت على شفتها السّفلى، ثمّ ضغطت على زرّ الردّ ولم تتكلّم. جاءها صوت أنثويّ:

-آنسة رانيا شاكر؟

-نعم؟

-أنا منال فوزي من مجلّة «قضايا المرأة»، أتّصل بك بشأن مقابلة عمل. هل يناسبك المجيء غدًا، في السّاعة العاشرة؟

ابتهجت ملامحها على الفور وقد تذكّرت إرسالها لسيرتها الذّاتية إلى بعض المجلّات المحليّة. كانت تهتمّ باحتراف الكتابة الصّحفيّة والانتقال من المدوّنة الإلكترونيّة إلى المواقع المؤثّرة.

-بالتّأكيد، هذا مناسب!

تنهّدت وهي تنهي الاتّصال. لقد غدت شديدة الارتياب، هذا مؤكّد.

في الصّباح، ارتدت زيًّا رسميًّا وحذاءً بكعب عالٍ، وصفّفت شعرها بشكل متحفّظ. كانت تودّ أن تبدو جادّة وعمليّة. في مقرّ المجلّة، استقبلتها منال الّتي تحدّثت إليها على الهاتف، ثمّ قادتها إلى مكتب رئيس التّحرير.

-تفضّلي، السيّد حازم شوقي في انتظارك.

بدا لها الاسم مألوفًا. لا شكّ أنّها اطّلعت عليه على موقع

المجلّة. طرقت الباب ثمّ دلفت، فوقف حازم لاستقبالها. أشار إلى المقعد أمامه بحفاوة، فجلست. لاحظت الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على وجه الشاب الثلاثيني. كانت تبدو مبالغًا فيها. لم تعرف إن كان عليها أن تعتبرها علامة طيّبة.

-آنسة رانيا، ما الذي جعلك تهتمّين بالعمل في مجلّتنا؟

تحدّثت لبضع دقائق لتعبّر عن إعجابها بالمنّهج التحريريّ والمواضيع الجسورة التي يتطرّق إليها المحرّرون ومواكبتها للواقع المعاصر وقضايا السّاعة.. بينما تتحدّث بجديّة، كانت تلحظ رغبته الملحّة في الضّحك، ومحاولته السّيطرة عليها. هل يسخر منها؟

قاطعها فجأة ليقول:

-أنا آسف، أجد صعوبة في التخلّص من ذكرى موقف الأمس!

توقّف سيل الكلمات على لسانها وفغرت فاها في صدمة. موقف الأمس؟ تذكّرت على الفور أين قرأت اسم «حازم شوقي»: لقد كان اسم الحساب الذي حظرته مساءً!

-بالمناسبة، لقد كنت صادقًا تمامًا.. أردت التّعبير عن إعجابي بمقالاتك، فأنا من متابعي المدوّنة منذ زمن. وحين وردت سيرتك الذّاتية إلينا، وجدت تشابهًا في الأسلوب التحريريّ بين المقالات التي أرسلتها وتلك التي تنشرينها.. فأردت التأكّد من أنّك الشّخص ذاته!

غمغمت في حرج:

-أنا آسفة، لم أدرك.. ظننت.. أنّني أحادث مترصّدًا.. لقد ذكرت اسمي، وبدوت على معرفة بهويّتي.. وهذا مثير للشكّ.

ضحك ثمّ قال:

-هل ترفعين الحظر إذن؟

تورّدت وجنتاها وهي تقول:

-سأفعل، بالتّأكيد. أعتذر على فظاظتي.

-لا عليك، أتفهّم موقفك. لكنّني وددت أن أبدي بعض التحفّظ، إذا سمحت لي.

هزّت رأسها في انتباه، فتابع بجدّية:

-لقد شعرت بين السّطور بمرارة تجربة شخصيّة قاسية، ربّما جعلتك تتحاملين إلى درجة مبالغ فيها. أنا أوافقك: الحذر واجب. لكن صدّ كلّ محاولات التقرّب بلا تمييز قد تضيّع فرصًا جيّدة.. ثمّ، تشخيص الشّخصيّة النّرجسيّة ليس أمرًا بهذه البساطة! وإلّا لكان كلّ مطّلع على بعض المقالات والتسجيلات مرشّحًا لممارسة الطبّ النّفسي!

أومأت ببطء، لكنّ ملامحها بقيت على جمودها. لقد كانت تأتيها استشارات من سيّدات كثر يكتشفن فجأة أنّ شريك حياتهنّ نرجسيّ -وفقًا لتأويلات ذاتيّة باعتبار المواصفات التي تذكرها المقالات- فيصبن بالهلع ويرغبن في الانفصال على الفور. من المؤكّد أنّها ليست مؤهّلة لتقييم اضطرابات الشّخصيّة المختلفة، وقارئاتها أقلّ تأهيلا لا شكّ! هل كانت تمارس التّضليل بلا وعي منها؟

-لديك أسلوب آسر ومقنع.. وأفكارك مميّزة ولامعة، لكن.. تحتاجين تكوينًا وتأطيرًا لصقل موهبتك وتوجيهها.

تململت في جلستها في قلق وتساءلت: ماذا بشأن مقابلة العمل؟ هل بقيت لديها حظوظ بالقبول؟ جاءها الردّ على الفور:

-إذن، متى تبدئين العمل؟

كادت تقفز عن مقعدها.

-هل قُبلت؟

-بالتّأكيد!

ابتسم الأستاذ حازم ثمّ قال بلهجة مازحة:

-هل سيكون من المثير للرّيبة أن أدعوك إلى احتساء فنجان قهوة.. مع فريق التّحرير لدينا؟

ابتسمت في حرج، ثمّ تبعته إلى قاعة التّحرير المفتوحة، لتتعرّف إلى زملاء عملها.

***

كما توقّعت ياسمين، ورد اتّصال من رنيم بعد يومين. سألت في حذر:

-هل زاركم عمر الرّشيدي؟

تنهّدت ياسمين ثمّ قالت:

-لقد فعل.

سكتت رنيم لبرهة، فأردفت ياسمين تستفسر رغم معرفتها بالجواب:

-هل اتّصل بك؟

اعترفت رنيم على الفور:

-لقد كان في باريس منذ حوالي أسبوعين، من أجل توقيع عقد البيع الخاصّ بشقق الضاحية الجنوبية.. وحين فتح صندوق الحاجيات التي احتفظت بها من متعلّقاته الشّخصيّة، أصبح يتصرّف كالمجنون! كان كتاب ما ينقص المجموعة، ولا أدري ما علاقة ذلك بالاستجواب الذي

تعرّضت إليه!

-استجواب؟

-سألني عن الدّكتور يوسف، وإن كانت هناك علاقة جادّة بينك وبينه، ثمّ إن كان هناك رجل في حياتك.. ثمّ طلب العنوان، ومقرّ عملك.. كان كلّ ذلك جنونيّا!

أضافت بسرعة بلهجة اعتذار:

-كان يجب أن أستشيرك قبل أن أتحدّث بما يخصّك، لكنّني لم أعتقد أنّ ذلك قد يسبّب إشكالا، أليس كذلك؟

تنهّدت ياسمين بصوت مسموع، فسألت رنيم في اهتمام:

-ما الأمر؟ ما الذي جرى بينكما؟

قالت ياسمين في حرج:

-لقد قابل والدي.

هتفت رنيم في إثارة:

-خطبك؟! لقد فعلها إذن!

قالت ياسمين في ارتياب:

-هل كنت تعرفين؟

تمهّلت رنيم قبل أن تعترف:

-حسنًا.. لقد عرفت منذ زمن، بأنّ عمر يهتمّ لأمرك. لقد اتّصل بي، منذ سنتين ربّما. في ذلك الوقت، كنت أعتقد أنّ يوسف مناسب لك. فطلبت من عمر أن يتركك وشأنك! ربّما لم يكن من حقّي أن أتصرّف عنك.. لكنّني.. خشيت أن يكون سبب تشويش عليك.

فغرت ياسمين فاها دهشة، بينما توقّفت رنيم لثوانٍ قليلة، ثمّ استأنفت:

-لا، لم أعرف منذ سنتين.. في الحقيقة، أعلم مقدار اهتمامه بشأنك منذ مغادرته السّجن! هناك ما عليّ إخبارك به...

أنصتت ياسمين في اهتمام وقد أثار الحديث فضولها، فتابعت رنيم:

-حساب الادّخار الذي أخبرتك أنّني عثرت عليه في ملفّات القضيّة.. لقد كان في الحقيقة من عمر!

شعرت ياسمين بقلبها يهوي بين قدميها. استرجعت في لمح البصر كلّ المواقف التي تشدّقت فيها أمامه بالمكتبة التي يواصل هيثم رعايتهما من خلالها.. وتلك المواقف الأخرى التي اتّهمته فيها بالتّخاذل والظّهور في حياة ولدها فقط حين اكتشف علّته! كم كانت سخيفة ومغفّلة!

في الأثناء، كانت رنيم تواصل:

-فاتورة المصحّة التي أخبرتك أنّ شركة التّأمين قد قبلت التكفّل بها؟ حسنًا.. لقد سدّدها عمر أيضًا. وحين مرض عزّ الدّين، وجئتِ به إلى باريس.. لقد كان عمر في الأردن لمّا وصله الخبر، فطار في الآونة ذاتها إلى باريس مباشرة، وتعرّض للتّحقيق في المطار وكان يفترض به أن يرحّل على الفور.. لكنّه أصرّ رغم ذلك على دخول فرنسا، والاطمئنان على عزّ الدّين قبل رحيله.

ساد الصّمت لبعض الوقت، ريثما تستوعب ياسمين ذلك الكمّ من الصّدمات. قطعت رنيم حبل السّكون وهي تضيف:

-لقد اعتقدت لوقت طويل أنّ عقدة الذّنب هي ما يحرّكه. لكن في وقت ما، أدركت أنّ استمراره في رعايتك وعزّ الدّين بحرص وتفانٍ لا يمكن أن يكون مجرّد ذنب. إنّ المكتبة وحدها كانت تعويضًا كافيًا لمن يرغب في التخلّص من عذاب الضّمير. كانت تضمن لكما عيشًا كريمًا ومستقبلًا آمنًا. لكن عمر.. لقد كان في حاجة إلى الحضور حيث كنتما.. في تونس، في باريس. غير أنّه...

أكملت عنها ياسمين في مرارة:

-متزوّج!

-تحديدًا!

-قال أنّ زواجه صوريّ، لكنّه لن يطلّقها حتّى تطلب هي ذلك.

قالت رنيم في إحباط:

-لن يطلّقها إذن! يريدك زوجة ثانية؟

ما زال وقع العبارة كريهًا في أذنيها كما كان حين نطقتها على مسمع منه في اتّصال بعيد. أضافت رنيم بلهجة جادّة:

-ياسمين، أنت امرأة راشدة، وهذا قرار يخصّك وحدك.. لكنّني أحدّثك كمحامية: بوسعكما عقد الزّواج في المغرب، بموافقة من الزّوجة الأولى.. لكنّ العقد سيكون بلا قيمة في سويسرا أو تونس! القانون لن يحميك ولن تكون لك حقوق لديه! هل فهمتني؟

أصغت ياسمين في انتباه. إنّها امرأة عاقلة، غالبًا ما كانت تمحّص الخيارات دون اندفاع، وتفكّر فيما فيه صالحها وصالح طفلها. تعترف لنفسها بيسر: إنّها تميل إليه بشكل جليّ. غير أنّها لن تفكّر في الزّواج بناء على العاطفة وحدها، أو لمجرد الامتنان. لقد فعل عمر الكثير من أجلها وعزّ الدّين، لكنه لا يمكن أن يتوقّع موافقتها لهذا السّبب! ذلك الزواج لا يضمن حقوقها. لن تكون زوجته أمام القانون والناس ولن تحمل اسمه بشكلٍ علنيّ. وهذا سبب كافٍ للرّفض.

حين أنهت اتّصالها برنيم، كانت تشعر بسلام داخليّ. لم تكن مبتهجة بقرارها، لكنّ الصّراع بداخلها قد حسم واستقرّ خاطرها بشكلّ نهائيّ. لعلّها فكرت بعمر في وقت سابق، ولعلّها تمنّت أن يأتي إليها كما فعل. هو يعرفها، ويفهمها، ولعلّه الرّجل المثاليّ الذي يناسبها. لكنّها لن تتزوّج بهذا الشكل. وتأمل أنّها لن تندم.

***

كان ينتظرها في محطة المترو. لمحت شبحه في البعيد وهي تخطو خارج مبنى الجامعة. كانت قد استعدّت لتلك المواجهة، لكن ما إن وقعت عيناها عليه حتّى تملّكها الاضطراب. ابتسم حين أبصرها مقبلة، ثم غضّ عنها بصره. وقفا متباعدين، في صمت. ثم قال أخيرا:

-أنتِ بخير؟

كان يشير إلى انسحابها المفاجئ من الجلسة في شقّة والدها. هزّت رأسها ببطء ثمّ قالت:

-أنا آسفة، لا أظنّ هذا الأمر ممكنًا.

لم ترفع عينيها، لكنّها شعرت باختفاء البسمة عن ملامحه وتغضّن جبينه. استمرّ الصّمت لبرهة، قبل أن يتنهّد بصوت مسموع ثمّ يقول في فتور:

-كان الأمر يستحقّ المحاولة!

استمرّت عيناه تتابعان حركة علّاقة المفاتيح التي تتأرجح يمينًا وشمالًا على طرف حقيبتها، كما يتراقص بندول السّاعة، معلنًا انسحاب الثّواني ومضيّ الزّمن إلى الأمام بلا هوادة. ما الجدوى؟ لقد كان التّوقيت خاطئًا على الدّوام. قالت فجأة:

-بالنّسبة إلى المزرعة...

قاطعها على الفور:

-لم آت للحديث في هذا!

أردفت في إصرار:

-وفاتورة المصحّة.. والدي قد صار في صحّة جيّدة واستعاد أملاكه وبوسعه تسديد ديونه بنفسه. أمّا المكتبة والمزرعة، فسأحتاج لبعض الوقت حتّى أبيعهما. سأجد طريقة لتوصيل ثمنها إليك.. ربّما تعرف رنيم وسيلة ما...

تمتم في ضيق:

-لا تفعلي هذا!

-أنا ممتنّة لكلّ ما فعلته من أجلنا. لكن لديّ وظيفة الآن تؤمّن دخلا جيّدا، وبوسعي الاهتمام بنفسي وبولدي.

شعر بالغضب تجاه رنيم. ما الذي جعلها تتحدّث وتفسد كلّ شيء؟ قال في إعراض:

-سأسافر اليوم إلى المغرب. لقد تغيّب صهيب عن المدرسة كثيرًا، وعلينا العودة إلى لوزان.

تمتمت ببطء:

-رافقتكما السّلامة.

لمحت المترو يقترب من المحطّة، فخطت إلى الأمام. تجاوزت زحام المسافرين حتّى وجدت لها موقعًا قرب النّافذة. حين تحرّك المترو، أطلّت على استحياء عبر الزّجاج، ونظرت حيث كان يقف. كان قد اختفى. تنهّدت، ثمّ أغمضت عينيها في حزن. لقد فعلت ما يجب فعله. فلماذا تشعر بخواء رهيب داخل صدرها؟

***

وصلها ذلك الصّباح اتّصال من والدها في «بون». كان يزفّ إليها بشرى وضع عمّتها رقيّة لوليدها الأوّل.

كان إنجاب رقيّة معجزة! كانت قد تجاوزت الخامسة والأربعين ولم ترزق الذريّة. ليس لعيب فيها أو في زوجها، بل لأنّ الرّجل أسير سجون الاحتلال منذ عشرين عامًا، وقد صدرت في حقّه ثلاثة أحكام بالسّجن المؤبّد!

تعرف آية أنّها قد حاولت منذ سنوات تهريب نطف زوجها من السّجن في محاولة للحمل بالحقن المجهريّ، لكنّ العمليّة فشلت. خلال العشريّة الأخيرة، كان ما يزيد على ثلاثين أسيرًا قابعين في سجون الاحتلال قد أصبحوا آباء من خلال

عمليّات التّهريب تلك. وها أنّها بعد لَأْيٍ تنجح في الحصول على مبتغاها.

خلال عقدين، استمرّت رقيّة تشيّد منزل الزّوجيّة بمفردها وتحلم باليوم الذي يجتمع فيه شملهما تحت سقف واحد. كانت معلّمة في المدرسة الثّانويّة، وقد نذرت حياتها لطلّابها، واكتفت بهم عن الحياة الأسريّة الدّافئة. لكنّها منذ سنوات، ومنذ أخذت تقترب من الأربعين، أدركت أنّ حظوظها في بناء عائلة في انحدار، واستيقظت داخلها رغبة أمومة طارئة. لقد بذلت الغالي والنّفيس من أجل غايتها، حتّى تحقّق حلمها بالإنجاب أخيرًا.

قالت أم الحسن في حسرة حين نقلت إليها آية الخبر:

-لك الله يا رقيّة!

-لماذا تقولين هذا يا خالتي؟ إنّها بطلة ورمز للمقاومة!

تنهّدت أمّ الحسن وقالت:

-لعلّها كذلك.

لاحقتها آية إلى المطبخ وهي تسأل في إلحاح:

-لقد اعتبرتها قدوتي طيلة حياتي! لكن كأنّ في خاطرك شيئًا منها؟

حدجتها أمّ الحسن بنظرة طويلة ثمّ قالت:

-لا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها! لم يأمرنا الله بسلك الطّريق الصّعب الذي يفوق قدرة احتمال البشر. ماذا جنت رقيّة غير عذابها؟

قالت آية في حرارة:

-لقد منحت زوجها الأسير أملا وأحيت في قلبه رغبة في الاستمرار! وأعطت الوطن مثالا على الصّبر، وكانت رمزًا في أعين الكثيرين!

-البشر مختلفون، وطاقة تحمّلهم متباينة. ما تفعله رقيّة لا تقوى عليه إلّا قلّة نادرة. لقد نذرت حياتها للوحدة، وبقيت في انتظار زوج قدّر له الغياب الطّويل.

قالت آية في احتجاج:

-وأنت أيضًا يا خالتي، لقد نذرت نفسك لحياة بلا ذريّة!

ابتسمت أمّ الحسن في إشفاق وقالت:

-أنا لم أختر هذا الطّريق يا ابنتي.. لكنّه ابتلاء من الله، وقد رضيت به!

تردّدت آية قبل أن تتساءل في خفوت:

-هل عرفتما.. فيمن العيب؟

لم تتخلّ أمّ الحسن عن ابتسامتها.

-لم نحاول أن نعرف. حياة المخيّمات كانت قدرنا، وهي عسيرة بما فيه الكفاية.. لدينا من الأعمال ما يشغلنا طوال الوقت، فلم نجد وقتًا للتّركيز على ما يفرّقنا ولا يجمعنا.

-كان يمكن أن تحصلا على علاج!

-هذا قدر الله يا ابنتي، وقد رضينا به.

-هل خطرت ببالك يومًا.. مفارقة خالي؟

-إنّ الحياة بدون خالك في نظري لا تطاق. وما يهوّن عليّ قسوة الأيّام وشدّتها هو وجوده إلى جواري.

رنت إليها آية وسألت بلهجة ذات معنى:

-تحبّينه إلى هذه الدّرجة؟

ضحكت المرأة السّتينية ثمّ قالت في عجب:

-وما هو الحبّ؟ هذا شيء لم نسمع عنه إلا في الأفلام والمسلسلات! غير أنّه عشير العمر، ورفيق الصّبا. لقد خطبني دون أن يعرف أحدنا الآخر. لكنّه أكرمني وراعاني، ولم يقس عليّ أبدًا، ولم أسمع من لسانه إلا الكلمة الطيّبة. وحين تأخّر الإنجاب ورأى حزني، كان يطيّب خاطري بالهدايا ويذكّرني بعوض الله. ولقد عوّضنا الله بأطفال كثر ليسوا من أصلابنا. لقد جعل الله في الزّواج سكنًا ومودّة، فما معنى الزّواج إذا كان الوصال مستحيلا؟

تنهّدت ثمّ أردفت:

-إنّ ما تعيشه رقيّة ليس هيّنا. المرأة ضعيفة بطبعها، تحتاج الأنس والصّحبة والمشاركة.. وتركها كلّ هذا باسم الحبّ أو المقاومة أو أيّا كان سببها، يحتاج عزيمة فولاذيّة وإرادة من حديد. ألم أقل لك؟ إنّ قدرة احتمال البشر متباينة.

أشاحت آية بوجهها. تمشّت في الغرفة بلا وجهة، ثمّ استدارت لتقول وقد تلألأت قطرات الدّمع في عينيها:

-ماذا لو كانت الحياة بلا طفل أحمله في بطني تسعًا وأرضعه من صدري حولين لا تطاق؟

رنت إليها زوجة خالها في رقّة:

-لقد أتت تلك المرأة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: إنّي أصرع، وإنّي أتكشّف، فادع الله تعالى لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك»، فقالت: أصبرا وامرأة أخرى أتت تشتكي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبح زوجها فقالت: «يا رسول الله إني لا أعيب عليه في خلق ولا دين فهو نعم الناس بأخلاقه

ودينه، لكنى أكره الكفر في الإسلام»، فطلب إليه رسول الله أن يطلّقها، لأنّها لا تطيقه. لذلك.. إن كنت لا تستطيعين الرّضا بهذا النّصيب يا ابنتي، فقد شرع الله الفراق بين الزّوجين إذا استحالت بينهما العشرة.

أغمضت آية عينيها وتركت العبرات تسيل على وجهها بهدوء. لعلّها تشبه عمّتها في هذا. لقد رضيت رقيّة من الزّواج برمزه وارتبطت برجل قدّر لها ألّا تشاركه من حياته إلا اللّمم، لكنّها لم تقدر على البقاء دون طفل، ففعلت المستحيل حتّى تنجب من زوجها الأسير!

لقد كان أمرها عجيبًا. ما الذي كان يعنيه لها ذلك الزّواج حتى تحرص عليه كل ذلك الحرص؟ صورتها أمام المجتمع -أمام والدها وأخوالها- وهي التي ضحّت بالكثير حتى تتزوّجه؟ البكاء على ذكرى عاطفة كانت يومًا متّقدة؟ وجاهة الاسم الذي ارتبط بالمقاومة؟ أم خجلها من لقب «مطلقة»؟ هل كان أيّ من تلك الأسباب يبرّر تمسّكها بزواج خالٍ من الرّوح؟

توقّفت. هل كانت تفكّر بعمّتها، أم بنفسها؟ كم كانتا متشابهتين، رغم اختلاف الملابسات!

وقفت أمام المرآة، تحدّق في ملامحها المرهقة، تلك الملامح التي تكسوها الشّراسة والقوّة حين تكون في الخارج، تدافع عن أطفالها، تصبح ليّنة وشاحبة حين تغلق عليها بابها مساءً.

لقد تعبت من الفرار.

إنّها تفرّ إلى الأمام منذ ذلك اليوم.. منذ فقدت حملها الثّاني، وطلب منها عمر أن يتوقّفا عن المحاولة. ببساطة، لم يعد ذلك ممكنًا. إنّها لا تستطيع التّخلّي عن حلم الأمومة الحقّة، ولا تريد فراق عمر.. لذلك هربت من كليهما واختارت مسارًا ثالثًا قوامه الوجع.

إنّها ليست سعيدة. رغم العوض الذي تجده في كفالة الأطفال، فإنّها لم تجبر الكسر الذي بداخلها بعد، ولم تكمّل النّقص الذي يجوّف فؤادها. إنّها تبحث عبثًا عمّا يملأ فراغ وجدانها، لكنّها لا تجده. تعرف أنّها تفتّش في المكان الخطأ، وتدرك بوضوح ما الذي ينقصها، لكنّها لا تسعى إليه بجدّ كما يجدر بها.

تقف الآن أمام انعكاسها على السّطح المصقول. تلك

التّجاعيد التي أخذت تغزو بشرتها، والشّعيرات البيضاء التي ما تنفكّ تكتشفها بين سواد خصلاتها تنبئها بأنّ قطار العمر لا يتوقّف، وأنّها تضيّع أغلى سنواتها بوعي كامل منها. لقد وجدت رقيّة مخرجًا، وعليها أن تفعل بدورها. لعلّ أوان إسدال السّتار على تلك المرحلة من حياتها قد حان. ولعلّها ما زالت تملك أن تنقذ ما يمكن إنقاذه.

إنها تريد أن تكون أمًّا. وتريد رجلًا يحترم ذاتها ويحبّها. إنّها تستحق أن تكون محبوبة. وتريد أن تكون أمًّا. لقد تمسكت بعمر في السّابق، رغم تعثر علاقتهما، لأنّها ظنّت أنّها تعرف أولويّاتها. لكن كل شيء اختلف منذ حملت آلاء بين ذراعيها وأرضعتها. لقد عرفت في ذلك الوقت أنّها.. تريد أن تكون أمًّا!

همست لنفسها بحرارة:

-آية، اختاري نفسك هذه المرّة! اختاري أن تكوني سعيدة. لا تفكّري في الآخرين، وما يتوقّعونه منك. لا تفكّري في القضايا النّبيلة والتّضحيات الجسام. كلّ هذا بلا معنى إذا كان ما يورثك إيّاه هو التّعاسة والألم. كوني أنانيّة هذه المرّة، اختاري نفسك، ولتكن الأولويّة لذاتك وحدها!

-47-

حدّقت في حيرة في شبح الرّجل الذي ظهر خلف النّافذة الزّجاجيّة المطلّة على الرّواق لثانيتين ثمّ توارى عن ناظريها. عادت إلى درسها وهي تشعر بالتّشتّت. تكاد تقسم أنّها قد رأته! لكنّ تلك اللّمحة العابرة لا تكفي لتجزم، فهو لم يدخل القاعة ليجلس في مؤخّرة الفصل كما فعل منذ شهرين.

هل يُهيّأ إليها؟

ألم تأمل عودته في أيّ وقت من الأسابيع الماضية؟ ألم تتخيّل رؤيته في الممرّ، وفي المحطّة وأمام منزل والدتها؟ لقد حسبت نفسها قد لمحت ظلّه في مناسبات كثيرة، لكنّها كانت واهمة في كلّ مرّة.

حين انتهى الدّرس، تدفّق الطلّاب خارج القاعة، وتأخّرت لتمسح اللّوح وتجمع حاجياتها. تنبّهت مع اقتراب خطوات وئيدة متردّدة من مكتبها. التفتت في تحفّز، لتفاجئها الهامّة الضّئيلة التي توقّفت على بعد خطوات منها. هتفت في دهشة:

-صهيب!

قال الولد بابتسامة مؤدّبة:

-مرحبا خالة ياسمين، هل يمكنني زيارة عزّ الدّين؟

-بالتّأكيد أيّها الرّجل الصّغير.

تطلّعت إلى الباب المغلق وقد خلت القاعة إلّا منهما. يقينًا، لم يأت الطّفل بمفرده! لكنّها لا تجد أثرًا لمرافقه. لعلّه يتجنّبها. يبدو ذلك منطقيّا. قالت مدارية ارتباكها:

-حسنًا، أنت لم تأت بمفردك، أليس كذلك؟

-أنا طفل، خالة ياسمين، لا يمكنني السّفر وحيدًا!

-وهذا ما أقوله!

-سوف يأتي عمر لاصطحابي في المساء.

هزّت رأسها في تفهّم. كان بوسعه الاتّصال أوّلا. لم تكن لترفض استقبال الولد على كلّ حال، رغم تعمّدها منع عزّ الدّين من الاتّصال به. لقد حسبت ذلك الخيار أفضل للجميع. لكنّه هنا الآن، وهي ليست بتلك القسوة. تنهّدت، ثمّ وضعت بين كفّيه جزءًا من دفاتر طلّابها وقالت بابتسامة:

-هل يمكنك مساعدتي في حمل هذا؟

أومأ صهيب في انقياد، ثمّ تبعها وبين ذراعيه الدّفاتر. تلفّتت مرّة أخرى حين صارت في السّاحة. لقد رأته، باتت واثقة الآن. لعلّه يختفي خلف أحد الأعمدة أو في ممرّ قريب. لم يكن هناك داعٍ للعبة الاختباء! يبدو تصرّفه صبيانيّا وسخيفًا. لعلّه لا يريد رؤيتها: لقد رفضته! وهذا مسوّغ كافٍ ليتجنّب أحدهما الآخر. لماذا أتى بالطّفل كلّ هذه المسافة إذن؟

لم تتوقّف التساؤلات وهي تسير إلى محطّة المترو، وأثناء رحلة العربة، ثمّ وهي تعبر الشّارع حتّى منزل والدتها. حين فتحت الباب، نظرت فاطمة إلى الطّفل الذي يرافق ابنتها في حيرة، فقالت ياسمين في حرج:

-هذا صهيب.. ادخل إلى الفناء، ستجد عزّ الدّين بالدّاخل.

همست إلى والدتها بعد أن ابتعد الصّبيّ:

-هذا الولد الذي يحتضنه عمر.. لا أدري كيف وصل إلى الجامعة!

حدّقت فاطمة فيها بنظرات يملؤها الشكّ. إنّ هذا لا يبدو منطقيّا. ياسمين تخفي عنها شيئًا لا محالة. كيف يجيء الولد بمفرده إلى الجامعة، فتصحبه إلى البيت ببساطة؟!

بعد لحظات، تناهت إليهما صيحات المرح والحبور مع التقاء الولدين. تنهّدت ياسمين. تعلم أنّه لم يكن عليها أن تمنع ولدها عن رفيقه، لكنّها تفعل هذا رغم ذلك.. للمرّة الثّانية! قالت وهي تتّجه إلى المطبخ:

-سأحضّر وجبة خفيفة للأولاد.

إنّها تتشاغل بأيّ شيء، هربًا من شكوك والدتها، وحتّى لا تمعن في التّفكير. لكنّ التّساؤلات تستمرّ تعشّش في رأسها، ولا سبيل إلى حلّ الأحجية: ما الذي جاء به؟

***

عاد عمر إلى لوزان مثقلا بالخيبة. لقد رفضت.

كان يضع ذلك الاحتمال نصب عينيه منذ البداية. وكان مستعدّا لتقبّل الصّدمة. لكن حين رآها في قاعة الدّرس، ثمّ في صالون شقّة والدها، شعر بأنّ هناك شيئًا ما حقيقيًّا وملموسًا يجمعهما. وأن يأتي الرّفض بعد أن داعبه الأمل، فإنّ ألمه مضاعف.

لم ترفضه من أجلّ علّته أو تاريخه، بل بسبب زواجه الأوّل.

لم يستطع أن يكتم الحنق الذي تصاعد داخله تجاه آية، وتجاه نفسه، لأنّه غير قادر على اتّخاذ قرار حاسم بشأنها. إنّه يشعر بالبؤس، والعجز. يمكنه أن يكون أنانيّا، وأن يرفض استمرار الزّواج الفاشل الذي ما زال يسبّب له الأذى، رغم تباعد المسافات. لكنّه لا يستطيع. تقديرًا لخالها، وعطفًا على الأطفال المساكين الذين تكبّدت عناء إخراجهم من دار الرّعاية، واحترامًا لألمها وحدادها على أمومتها المهدرة.

لكنّ الوضع خانق ومرهق أكثر من أيّ وقت مضى. إنّه لا

يقدر بعد أن يمضي في حياته.

ظهرت العصبيّة في سلوكه تلك الأيّام. كان صامتًا. تلك عادته القديمة، لكنّ صهيبًا لم يألفها. وقد لحظ بعد برهة انعكاس عصبيّته على الطّفل. كان يبدو منزويًا وحزينًا، وقد عرف أنّه السّبب في تعاسة الولد دون أن يدري. قال معتذرًا ذلك المساء وهما يجلسان على مائدة العشاء:

-أعرف أنّني لا أمضي معك ما يكفي من الوقت مؤخّرا.. لكن عليّ بعض الضغط في العمل.

هزّ الولد رأسه في تفهّم، ثمّ قال:

-هل كانت زيارتك إلى تونس سيّئة؟

توقّف عمر عن الأكل وطالع الطّفل في دهشة.

-هل عزّ الدّين بخير؟ لم يتحدّث إليّ منذ أيّام.

تنهّد عمر. تلك الأزمات التي يعيشها الكبار تترك أثرًا في نفوس الصّغار لا محالة. قال يطمئنه:

-عزّ الدّين بخير.

-هل سأراه قريبًا؟

لقد كان ذلك الوعد الذي قطعه عليه حين تركه في المغرب إلى جوار عمّته عائشة. قال أنّه سيأخذه في زيارته المقبلة إلى تونس -لو كانت هناك زيارة مقبلة- لكنّ كلّ ذلك قد صار سرابًا الآن. كان الحزن يعتريه وهو يقول في أسف:

-لا أعرف. لا يبدو ذلك ممكنًا في الوقت الحالي.

لم يظهر عزّ الدّين خلال الأيّام التّالية. ولم يفتر صهيب عن السّؤال. كان عليه أن يحترم قرار ياسمين، لكنّه لا يملك أن يشرح للولد ولا يعرف كيف يواسيه لفقدانه صديقًا بشكل مفاجئ. فكّر أنّ عزّ الدّين سيلحّ على والدته بدوره، ولعلّها تصغي إليه في وقت ما. في الأثناء، سيكون على صهيب أن ينشغل بأشياء أخرى، علّه يسلو صاحبه.

ثمّ جاءت آية. كان من الغريب أن يلقاها بعد تلك الشّهور الطّويلة من الغياب.

كان يفكر في ترك المنزل الرّيفي فور عودتها، لكنّها بدت شاردة ومتعبة. لم تكن قد تمكّنت من إخراج الطّفلة رشا رغم كلّ ما بذلته. لم يتحدّثا كثيرًا على المائدة مساءً. لم تأكل إلّا النّزر اليسير، ثمّ انسحبت إلى الدّاخل لتغدق الحنان بسخاء على أطفالها الذين انفصلت عنهم مرغمة.

كانت أكثر انتعاشًا في الصّباح التالي. كانت قد قضت اللّيلة على أريكة غرفة التّمريض، في حين كان عمر يشارك صهيبًا غرفته منذ عودتهما إلى المنزل الرّيفي، لتبقى غرفة النّوم الرّئيسيّة مهملة.

بعد الإفطار، اصطحب عمر الولد إلى المدرسة، ثمّ رجع أدراجه إلى المنزل. لم يكن قد دار بينه وبين آية حديث جادّ كراشدين منذ أمد، وربّما كانت تلك فرصة مواتية. بحث عنها بعينيه حين خطا إلى غرفة المعيشة، فلم يجد لها أثرًا. خمّن أنّها برفقة الأطفال مثل عادتها. تردّد للحظة، إن كان عليه أن يذهب إليها، لكنّ صوتها جاءه فجأة:

-عمر.

التفت إلى مصدر الصّوت الآتي من الشّرفة. هل كانت في

انتظاره؟ أم لعلّها انتبهت للتوّ إلى وجوده؟ لم يكن حضوره يعني لها شيئا خلال الأيّام الأخيرة التي سبقت انتقاله إلى الشقّة. لم يعد سوى زميل سكن عابر وبلا أهمّية. سار لينضمّ إليها في الشّرفة. جلسا على الأرجوحة متباعدين مثل غريبين، ثم كانت هي من بادر بالسّؤال:

-هل وافقت ياسمين؟

قال بنبرة جافّة:

-لا ينبغي أن تشغلي بالك بهذا.

شعرت بظلال الحزن تثقل صوته وبنفاد الصّبر في لهجته. لعلّها رفضت في نهاية الأمر! هل يكون ذلك بسببها؟ إنّها لا تعرف ياسمين بشكل شخصيّ، لكنّها تبدو من منظورها الضيّق امرأة ناضجة ومستقلّة، ومعتمدة على نفسها. ربّما لا يروقها أن تكون زوجة ثانية. تتابعت تلك الأفكار في رأسها في صمت، ثمّ انتبهت. لم يكن عليها أن تشغل نفسها بأمر لا يخصّها.

زفرت وهي تقول:

-لقد جئت لاصطحاب الطّفلين.. سأعود إلى عمّان.

التفت إليها في دهشة. لقد كان يتابع مدوّنتها، ويعرف أنّها ما زالت تسعى لاحتضان رشا وإحضارها إلى سويسرا. هل تراها يئست؟ أم أنّ أمد الإجراءات قد طال، فقرّرت أن تأخذ الطّفلين حتّى يكونا إلى جوارها؟ يبدو ذلك القرار مناسبًا ومريحًا بالنّسبة إليه. سيتخلّص من عبء المراقبة والتردّد المستمرّ على منزل صارت تشغله الممرّضة والعاملة المنزليّة أكثر ممّا يفعل.

لكنّها أضافت بصوت واضح:

-لقد قرّرت البقاء في عمّان.

ترقّب أن تفصح أكثر. كان إعلانها يحمل الكثير من التّأويلات، وهو لم يعد قادرًا على مجاراة مزاجها المتقلّب وقراراتها المباغتة.

استجابت حين قالت:

-عمر، أريد الانفصال.

لم يتمكّن من السّيطرة على أمارات المفاجأة التي تقافزت بين عينيه. قال في شكّ:

-ماذا عن الطفلين؟ أعني.. حكم الاحتضان؟

-أنت لا تريد الاحتفاظ بهما، أليس كذلك؟

-طبعًا.. باستثناء صهيب!

-بالتّأكيد. سيرافقني الطّفلان، ألم أقل هذا؟

-وماذا بعد ذلك؟

-لديّ بعض الشّروط.

-أنا موافق!

-لم أقل بعد ما هي!

-مهما كانت، لك ما تريدين.

ابتسمت وهي تقول بسخرية:

-لو عرفت، لأمليت شروطي منذ زمن! أم تراك تتعجّل الفكاك منّي؟

قال عمر بلهجة جادّة:

-آية، نحن نستحقّ أفضل من هذه الحياة الخاوية، ألا توافقينني؟

تنهّدت في صمت.

إنّها تكبر فيه أن تركها تتّخذ القرار بنفسها. لم يدفعها إلى الانفصال، لم يحاصرها أو يجبرها على شيء لا تريده. لقد طلبت مساحة فترك لها المنزل. استمرّت تستنزف حسابه البنكيّ، فلم يتذمّر يومًا. ملأت حياته بالأطفال المرضى وصادرت حريّته حين جعلته يعتني بهم في غيابها. ولعلّه قد واجه الرّفض من ياسمين، لكنّه لم يساومها ولم يتحدّث بشأن الانفصال إطلاقًا.

هل كانت تختبر صبره؟ إلى أي مدى يملك أن يستمرّ؟

لعلّها أرادت أن تثبت له -أو لنفسها- أنّها خير منه، وأنّه لن يصبر مثل صبرها. لكنّه فعل. وكلّما شدّت الحبل أرخى. لم يأت انفصالهما بعد صراع مشنّج للأعصاب، يتبادلان خلاله الشّتائم ويتقاذفان الاتّهامات. بل كانت الفترة الأخيرة هادئة بالقدر الكافي الذي سمح لها بتصفية ذهنها وإدراك ما تحتاجه. لقد اختارت البقاء في السّابق، والآن تختار الرّحيل بملء إرادتها. وهذا حوار متحضّر ينهي كلّ شيء.

فعلا، إنّهما يستحقّان أفضل من هذه الحياة الخاوية.

***

تعالى رنين الجرس قبيل الخامسة مساءً. تبادلت فاطمة وياسمين نظرات مرتابة، ثمّ وقفت فاطمة وهي تقول:

-سأفتح الباب.

كانت كلتاهما تتوقّع هويّة الزّائر. لم يكن قد حان موعد عودة قاطنات الطّابق العلويّ، والولدان ما زالا يلهوان في الغرفة وتنطلق صيحاتهما من حين إلى آخر، حماسًا أو احتجاجًا. يختلف الطّفلان أثناء اللّهو، ويتشاجران، لكنّ

حبل الودّ بينهما لا ينقطع. سرعان ما يرضي أحدهما الآخر، ويستأنفان اللّعب بلا ملل. وكان يفترض بعمر أن يأتي خلال وقت قصير لاصطحاب صهيب.

ظهر كمال عند باب المنزل. حدّقت فيه فاطمة في استغراب، ثمّ استدارت إلى الدّاخل على الفور:

-ياسمين، والدك هنا!

جاءت ياسمين مهرولة وقد استولت عليها الدّهشة.

-أبي؟ هل حصل شيء؟ تفضّل بالدّخول.

قادته إلى جلسة القهوة في الفناء المكشوف، بينما غابت فاطمة داخل المطبخ. لم تكن تلك الزّيارة طبيعيّة. لم تطأ قدما كمال أرض ذلك الفناء لعقود، ومجيئه اليوم يدعو إلى العجب. أوّلا صهيب يأتي إلى الجامعة.. ثمّ كمال يزور منزل طليقته!

-لقد اتّصل بي عمر الرّشيدي.. وضرب موعدًا هنا. ألم يصل بعد؟

هزّت ياسمين كتفيها ونمّت عيناها عن جهلها بما يجري. قالت في شكّ:

-هل قال شيئا آخر؟ عن الغاية من الزّيارة؟

تبادلا نظرات حائرة، قبل أن يرتفع رنين الجرس من جديد. هتفت فاطمة وهي تتّجه نحو المدخل:

-سأفتح!

ظهر عمر عند الباب هذه المرّة، قال بلهجة مهذّبة:

-كيف حالك خالتي؟ أنا عمر.

قالت فاطمة باقتضاب:

-بخير، شكرًا لسؤالك. أهلا بك يا ولدي.

كانت قد تعرّفت إليه رغم مضيّ سنوات كثيرة. لقد لمحته في مناسبات سابقة من بعيد. غير أنه لم يتحدّث إليها قبلا. تردّدت للحظات: هل كان عليها استدعاء صهيب أم دعوته

إلى الدّاخل للقاء كمال؟ لم تكن قد حسمت أمرها حين انتبهت إلى السيّدة التي تقف خلفه. قال يعرّف بها:

-هذه شقيقتي عائشة.

اقتربت عائشة خطوتين لتعانقها بحرارة مباغتة، استقبلتها فاطمة بفتور، ثمّ لم تجد بدّا من دعوتهما إلى الدّاخل. لم يقل الولد شيئا عن تلك الزّائرة غير المتوقّعة، ولعلّ تلك الأمسية تحمل المزيد من المفاجآت!

سبقتهما إلى المجلس حيث كان كمال يرتشف قهوته وحيدًا، بينما غابت ياسمين. تصافح الرّجلان في ودّ، ثمّ وضعت عائشة سبت الفواكه على المائدة. شكرتها فاطمة وهي تسحب مقعدين جانبًا وتدعوها إلى الجلوس. قالت عائشة بابتسامة عريضة بعد أن استقرّ بهم المقام:

-أين هي ابنتنا ياسمين؟ كم أنا مشتاقة للقائها!

حدّقت فيها فاطمة في استغراب متزايد، ثمّ تمتمت:

-سأدعوها للحضور.

مضت بضع دقائق قبل أن تعود فاطمة وبرفقتها ياسمين. ما إن رأتها عائشة حتّى وقفت لتعانقها بشدّة وحفاوة، كأنّها ترحّب ببعض أهلها. لم يكن قد جمعهما في الماضي سوى لقاء يتيم، بعد الحادثة، ولم تكن تحسب أن يكون لديها دافع لزيارتها في أيّ وقت من الأوقات، إذا أخذت بعين الاعتبار الأحداث السّابقة.

تنحنح عمر ثمّ قال:

-نعتذر على الزّيارة المفاجئة!

استدارت إليه عائشة في صدمة، ثمّ هتفت:

-زيارة مفاجئة؟ يا لهذا الولد!

ثمّ عادت إلى مضيّفيها وقالت في أسف:

-سامحونا يا جماعة! والله لم أدر أنّه لم يتّصل ولم يرتّب للزّيارة! لقد تأخّرت طائرتي من المغرب، وحسبته هيّأ للأمر وجاء بصهيب إليكم أوّلا.

قال بعمر بغموض:

-كان يجب أن تكون مفاجأة!

رمته عائشة بنظرة عتاب، لكنّها لم تؤثّر بمزاجه الجيّد. امتدّت كفّه لتضع أمام ياسمين ظرفًا من الحجم الكبير. رفعت رأسها في دهشة لتواجه ابتسامته المسترخية. سألت في حيرة:

-ما هذا؟

أجاب في ثقة:

-مهرك! لقد أردت أن يكون عمّي كمال وخالتي فاطمة شاهدئن عليه.

عبست في استنكار وتجلّت الدّهشة في نظرات والديها، فضحك عمر ثمّ أضاف يستعجلها:

-افتحي الظّرف رجاءً!

انصاعت في ضيق أمام أزواج العيون التي تتابع حركاتها بانتباه. لبعض الوقت، لم تسمع إلا خشخشة الورق، في حين ران الصّمت على الجلسة. تطلّعت ياسمين إلى الوثيقة الأولى وقرأت الكلمات المخطوطة، فاتّسعت عيناها دهشة: شهادة عزوبيّة! تسارعت نبضاتها وهي تسأل في حيرة وريبة:

-هل طلّقتها؟

كانت الفجيعة في قسماتها تحمل سؤالا إضافيّا: بسببي؟

ابتسم ثمّ قال بنبرة هادئة:

-لقد أرادت آية الانفصال. ألم أخبرك أنّ الأطفال هم كلّ حياتها؟ قرّرت البقاء في عمّان.. فانفصلنا بسلاسة ويسر، وبرضا الطّرفين.

حين انتهى من مراجعة شروط العقد وتدقيق الفصول، غمره الارتياح. لقد أمل منذ زمن أن تقدم على تلك الخطوة. كان ذلك القرار الذي تمنّى أن تتّخذه بملء إرادتها. لقد أهانها يومًا حين عرض عليها أن يسرّحها، ولم يرد أن يكرّر الأمر في وقت لاحق، مهما كان مدى اقتناعه بانتهاء العلاقة بينهما.

كان عليها أن تكون البادئة، وأن يتمّ الانفصال بشكل يحفظ كرامتها. ولم يكن ليخطو خطوة في ذلك الاتّجاه أبدًا، ما لم تكن رغبتها وقناعتها. استعاد في صمت كلّ اللّحظات التي جمعته وآية منذ عرفها. إنّها تستحقّ مستقبلا أفضل، ورجلًا خيرًا منه. وهو يتمنّى لها أن تجد سعادتها أينما حلّت.

لقد توقّع شروطها. طلبت أن يموّل إنشاء جمعيّة خيريّة في عمّان، للعناية بالأطفال المرضى. لم تطلب شيئا لنفسها، بل للصّغار الذين سخّرت حياتها لرعايتهم. لقد عرف منذ زمن أنّ كلّ ما يبقيها في تلك العلاقة الهشّة هم الأطفال، فهو ضامنها للاحتضان. وها أنّها قد وجدت سبيلا أخرى للمكوث إلى جوارهم. وهذا يجعله يكبر تضحياتها أكثر. حتّى لو لم يكونا متوافقين، وإن عجز عن تحقيق حلمها بالأمومة، فإنّها تبقى سيّدة نبيلة وذات أثر.

حين فرغ من حداده على الزّواج المنتهي، ذيّل الملفّ بتوقيعه. لقد غدا حرّا.

-الآن، انظري إلى الوثيقة الثانية.

أطاعت ياسمين في صمت. كانت وثيقة باللّغة الفرنسيّة،

عقد بيع، النّسخة الخاصّة بالبائع. حدّقت في دهشة متنامية، ثمّ قالت بنفس النّبرة المستنكرة:

-هل بعت الشّركة؟

-هذا وعد بالبيع. لكن، نعم. لقد اتّفقت على التّفريط بها.. لقاء مقابل مناسب طبعًا.

عادت إليها كلماته الأولى: مهرك! فتدفّقت الدّماء الحارّة إلى وجنتيها.

كان حديثه إلى آية ملهمًا. مثلما تبيّنت أنّها تريد الاستقرار في عمّان إلى جوار خالها وأطفال المخيّمات، فإنّه يدرك الآن أنّه يريد أن يكون في تونس! كان يفكّر فيما سيفعله بعد أن ينتهي من معاملات الانفصال، وقد وجد أنّ بداخله رغبة واحدة، وهي أن يرى ياسمين.

في غيابها، كان عليه أن يفكّر بصفاء. أثناء انغماسه في العمل وانهماكه بترتيب أشغاله في لوزان، انتهى إلى فكرة واضحة: بوسعه إنشاء شركة جديدة كلّ يوم وفي أيّ مكان من العالم. لن يموت جوعًا إن تخلّى عن أعماله في سويسرا.

لكن هناك ياسمين واحدة!

-أفكّر بالاستقرار في تونس الآن. لقد عاينت بعض العقارات المعروضة للبيع.. لكنّ القرار لك في النهاية.

غاصت ياسمين في مقعدها حرجًا، في حين تنهّدت عائشة وهي تقول:

-أتحايل عليه منذ زمن حتّى يعود إلى المغرب، لكن ماذا أفعل؟ القلب وما يريده.

هزّت فاطمة رأسها في استحسان، ثمّ وقفت وهي تقول في ارتياح:

-شرّفتمونا بالزّيارة.. اعذروني لحظات حتّى أحضّر الشاي!

وقفت عائشة وهي تقول:

-أين هو عزّ الدّين؟ لا شكّ أنّه قد كبرا!

-تعالي، سآخذك إليه.. إنّه يلهو في الدّاخل مع صهيب.

ابتعدت السيّدتان وغابتا عن الأنظار، فساد الصّمت على الفناء. قال كمال أخيرًا بأسارير مبتهجة:

-هذه مفاجأة! مفاجأة حقيقيّة!

كان الوضع مثاليّا: لقد عاد عمر، وبحوزته وثائق ملموسة تثبت جدّيته وتمسّكه بياسمين، واعتزامه الاستقرار في تونس كان مؤشّرًا حسنًا يدعو إلى الاستبشار. قال عمر بلهجة جادّة:

-بعد إذنك يا عمّي، أودّ أن نعقد القران الشّهر المقبل.

التفتت إليه ياسمين مبغوتة. لم تدرك أنّ الحديث قد انتقل بتلك السّرعة إلى عقد القران. إنّها لم تعبّر عن موافقة صريحة بعد! ضحك كمال ثمّ قال:

-ولماذا العجلة يا بنيّ؟

-نحن لم نعد في مقتبل العمر يا عمّي، ولا وقت لدينا نضيّعه!

رمشت ياسمين في عصبيّة وهي تتابع حديث الرّجلين، ولا تكاد تجرؤ على المقاطعة. التفت إليها كمال أخيرًا، وهو يقول:

-هل ياسمين موافقة؟

حين أصبحت العيون موجّهة إليها، ندمت فجأة على رغبتها في المشاركة. كان يجب أن تُسأل عن رأيها، لكن ليس بتلك الطّريقة المباشرة. غير أنّها تجاسرت لتقول بهدوء:

-أحتاج بعض الوقت للتّفكير!

***

لم يرغب في الحديث إلى صهيب عن الهدف من الزّيارة، حتّى يتأكّد من نيله ما تمنّى. حين غادر ثلاثتهم منزل ياسمين ذلك المساء، كان يشعر بالارتياح والتّفاؤل. لعلّ الوقت قد حان ليفضي إلى الولد بالبشرى. بعد وصولهم إلى الفندق، رافق عائشة حتّى غرفتها، ثمّ انفرد بصهيب أخيرًا في غرفتهما. ساعده على تغيير ثيابه ثمّ وقفا أمام مرآة الحمام يغسلان أسنانهما. راقبه من خلال السّطح العاكس

وقد بدا بمزاج حسن بعد لقائه بصديقه الذي انقطع عنه لزمن طويل.

حين استلقى على السّرير ليقصّ عليه «حكاية ما قبل النّوم» -التي باتت جزءًا من روتين حياتهما معًا، حتّى بعد أن كبر الطّفل- أنشأ يقول:

-كانت هناك عائلة دببة، تتكوّن من أب وطفل وحيد. في يوم ما، كان الدبّ الصّغير يلهو في الغابة، فالتقى دبًّا صغيرًا آخر، فلعبا معًا طوال اليوم. وفي المساء، جاءت أمّ الدّبّ الثّاني لتأخذه، فحزن الدّبّ الصّغير الأوّل.

أنصت صهيب بانتباه وقد بدت له القصّة مألوفة، بينما واصل عمر:

-حين رجع إلى جحره، قال لوالده: هل يمكن لصديقي الدّبّ الصّغير أن يأتي ليعيش معنا هو وأمّه، ونصبح كلّنا عائلة واحدة؟ صديقي ليس لديه أب وأنا ليس لديّ أمّ، ونحن نستمتع كثيرًا معًا!

صاح صهيب في حماس:

-الدّبّان يشبهاننا أنا وعزّ الدّين!

ابتسم عمر ثمّ قال بهدوء:

-ما رأيك، كيف سيردّ الأب الدبّ؟

فكّر صهيب مليّا ثمّ قال، وقد تذكّر موقف عمر السّابق من اقتراحه القديم:

-لعلّ الأب الدّبّ ينتظر أمًّا أخرى ستعود؟

ضحك عمر ثمّ أجاب:

-أمّ الدّبّ الصغير رحلت ولن ترجع أبدًا. هل تودّ أن يجتمع الدّبّان الصّغيران مع عائلتهما الجديدة؟

-بالتّأكيد! لن يشعر الدّبان الصّغيران بالملل، إذا ترافقا كلّ يوم! والأم الدّبّة تعرف كيف تهتمّ بالدّببة الصّغيرة أكثر من الدّب الأب، لا شكّ.

قهقه عمر بصوت عالٍ، ثمّ تمالك نفسه ليسأله ثانية:

-أنت محقّ! هل ترغب إذن أن يأتي عزّ الدّين والخالة ياسمين للعيش معنا، ونكون كلّنا عائلة واحدة؟

هبّ صهيب جالسًا وقد اتّسعت عيناه حماسًا:

-هل أنت جادّ؟ هل يمكن أن يأتيا حقّا؟ متى سيكون ذلك؟

ضحك عمر ثانية، ثمّ قال:

-ربّما.. خلال شهر من الآن.

قفز الولد من السّرير وأخذ يطلق صيحات الفرح والحبور. استمرّ عمر يضحك وهو يرقبه بنظرات تشعّ سعادة. كان جميلا أن تكون أمنيتهما واحدة. وقد شعر بأنّ الولد سيرى أحلامًا هانئة تلك اللّيلة.

في الأثناء، كانت ياسمين تستلقي على السّرير إلى جوار طفلها وهي تمسّد خصلاته في شرود. كانت عودة عمر ذلك اليوم أملًا بعيدًا وشبه مستحيل. لكنّه كان هنا منذ سويعات قليلة، وقد ذلّل الصّعوبات التي تفصلهما بعصاه السّحريّة

التي تصنع المعجزات. ما زالت لا تستطيع تصديق الكلام الذي قيل في فناء المنزل، ولا تستوعب التّسارع الرّهيب الذي يترصّد حياتها. إنّها لا تفهم حالة الكآبة الغريبة التي أصابتها، ولا رغبتها الملحّة في البكاء. كان يفترض بها أن تكون سعيدة. أليس هذا ما أرادته؟ لكنّها تشعر بضيق في صدرها. رفع عزّ الدّين عينيه إلى وجهها وسألها في اهتمام:

-ماما، أنت حزينة بسبب زيارة عمّي عمر؟

التفتت إليه في دهشة، ثمّ تذكّرت الزيارة الأخيرة التي كان الولد شاهدًا عليها. قالت بابتسامة حانية:

-أنا لست حزينة.. لكنّني أفكّر.

-فيمَ تفكّرين؟

-أفكّر في مستقبلنا.

قالت بعد لحظات بصوت مبحوح من التأثّر:

-أنت لا تذكر والدك، لكنّه كان يحبّك كثيرًا!

حدّق فيها الطّفل دون أن يفهم سبب تقلّب مزاجها السّريع والغريب. لم يعرف والده إلا من خلال الصّور، وهي كانت تحدّثه عنه باستمرار، لكنّه لا يدرك سبب حزنها اللّيلة. سألته فجأة:

-أنت تحبّ صهيبًا؟

أومأ برأسه بسرعة وشدّة، فأضافت:

-وعمّك عمر؟

أومأ من جديد بنفس الحماس. فقالت في حذر:

-ما الذي ستشعر به، لو جاءا للعيش قريبًا منّا؟

-وألعب مع صهيب كلّ يوم؟

-نعم.

-واو، سيكون هذا رائعًا!

-ماذا لو.. أصبحا جزءًا من العائلة؟

قال بثقة:

-أساسًا، صهيب أخي الأكبر. سبق واتّفقنا على هذا.

ابتسمت ثمّ قالت:

-حسنًا، هل سيروقك أن يأتيا للعيش معنا في البيت ذاته؟

-إلى الأبد؟

-نعم، إلى الأبد.

-هذا يبدو مدهشًا! نعم، أحبّ هذا!

ثمّ أضاف في حذر:

-لكنّك لن تحزني بسبب عمّي عمر، أليس كذلك؟ سأتحدّث إليه بهذا الشّأن.

استرسلت ياسمين في الضّحك، ثمّ سألت في حيرة:

-ما الذي ستحدّثه به؟

-سأوصيه ألّا يحزنك أبدًا حين يأتي في المرّة القادمة.

ربّتت على رأسه في رضا وقالت:

-سأعتمد عليك إذن لحمايتي أيّها البطل الصّغير.

ثمّ سرحت نظراتها وعادت إلى شرودها. خلال شهر واحد، ستكون لديهما عائلة جديدة.

-48-

خلال الأسابيع التي تلت، انهمك الجميع في التّحضير للزّواج المرتقب. وافقت ياسمين أخيرًا على مقترح عمر: عقد قران عائليّ ووليمة، ثمّ يسافران. لم يكن أحدهما يرغب في احتفال صاخب أو بروتوكولات اجتماعيّة لا طائل وراءها. ثمّ، لقد سبق لكليهما الزّواج، وهما باتا يدركان أنّ المبالغة في الاحتفال والإسراف في الإنفاق لا يغيّران من القدر شيئًا. إنّهما سعيدان، وكذلك كان الولدان. أمّا تقديم عرض عن السّعادة، فلن يكون إلّا إرضاءً للعيون الفضوليّة والألسنة النمّامة، التي ستجد بسرور مادّة تلوكها لبعض الوقت.

حلّقت رنيم ورانيا برفقة التّوأمين من مصر، لتثبتا أنّ الصّداقة الحقّة لا تحدّها المسافات. أحاطت الفتيات بياسمين، في الصّالة الدّاخليّة لمنزل والدتها، وارتفعت أصواتهنّ بأهازيج البهجة والفرح. في الأثناء، اتّجه الرّجال إلى جامع صاحب الطّابع في المدينة العتيقة، لإشهار الزّواج والاستماع إلى الموعظة. في المطبخ، انغمست فاطمة وزهور ونسوة أخريات في تجهيز طعام الوليمة للضّيوف والأقارب الذين قطعوا مسافات بعيدة للانضمام إلى الاحتفال.

حين رجع الرّجال من الجامع، كانت الموائد قد نصبت في الفناء، وخرجت أطباق الكسكسي بالمرق ولحم الضّأن لتوزّع على بيوت الجيران.

سألت ميساء وهي تساعد ياسمين على تثبيت ردائها:

-أين تسافران؟

هزّت ياسمين كتفيها ثمّ تنهّدت وهي تقول:

-لا أعرف! قال عمر أنّها مفاجأة!

هتفت ميساء في ظفر:

-جزر المالديف! لا شكّ أنّه سيأخذك إلى جزيرة نائية حيث تحظيان بوقت خاصّ ورومانسيّ!

تبادلت ياسمين ورنيم نظرات ذات معنى، ثمّ انفجرتا ضاحكتين. قالت ياسمين تشرح لها:

-انسي الأمر! جزر المالديف: حرارة ورطوبة، وهذا لا يناسب عمر أبدًا. أخشى أنّنا سنمضي الإجازة في مكان جبليّ ومثلج!

-في الصّيف؟ أين سيجد الثّلوج؟

ابتسمت رنيم وهي تقول في سخرية:

-هذا وقت مثاليّ لزيارة النصف الجنوبيّ من الكرة الأرضيّة!

ابتسمت ياسمين في شرود. كانت فكرة رحلة طويلة إلى نهاية العالم تثير قلقها. لم يسبق لها أن ركبت الطّائرة لتذهب إلى مكان أبعد من باريس. ساعتان ونصف، مقدور عليها بالنّسبة لمصابة برهاب الطّيران مثلها، لكنّها تخشى أنّ عمر سيأخذها أبعد من باريس بكثير. انتبهت فجأة إلى انغماس رانيا في الرّقن على شاشة هاتفها وانشغالها عنهنّ فربّتت على كتفها وهي تقول مداعبة:

-العقبى لك يا رانيا!

التهبت وجنتا رانيا بغتة وبدا عليها الحرج تحت وطأة نظراتهنّ المحمّلة بالتّأويلات. كانت العزباء الأخيرة بينهنّ، ولعلّ الانتباه يتحوّل إليها لسبب وجيه. ضحكت وهي تضع هاتفها جانبًا:

-إنّه رئيس تحرير المجلّة.. هناك مقال يحتاج التّسليم قريبًا!

استمرّت الفتيات يحدجنها ويتغامزن بنفس الابتسامات الغامضة، ثمّ قالت ميساء في دهاء:

-وكيف هو رئيس التّحرير؟ هل هو متزوّج؟

لوّحت رانيا بكفّيها علامة نفي قاطعة، ثمّ قالت وقد تزايد حرجها:

-انسي الأمر، لست على عجلة من أمري. أودّ الانتهاء من الدّراسة أوّلا!

كانت قد شرعت في متابعة دروس في علم النّفس في جامعة القاهرة. تريد أن تكتب عن دراية، وهذا هو أسلوب

المحترفين. لقد انتبهت بعد انغماسها لفترة في الكتابة العشوائيّة على المدوّنة أنّها تحتاج إلى التخصّص. كانت تقدّم محتوى سطحيّا ومغلوطا عن حسن نيّة، ولم تكن نيّتها الحسنة شفيعًا معتبرًا. حين تذيّل مقالاتها بلقب علميّ -اختصاصية في علم النّفس السّلوكي، أو في العلاقات الأسريّة، أو في اضطرابات الشّخصيّة- ستحوز ثقة القرّاء وتكفّر عن ذنوبها السّالفة!

بالتّزامن مع دراستها كانت تستمرّ في الكتابة على صفحات المجلّة، وتصقل أسلوبها والمحتوى الخاصّ بها مع تنامي معرفتها وإلمامها بمواضيعها. وقد وجدت في توجيهات حازم وإشرافه مصدر إلهام وتحفيز.

لم تكن شكوك الفتيات وهميّة تمامًا. يمكنها الاعتراف بيسر بأنّها معجبة! لكنّها قد باتت رصينة وغير مندفعة. لم تتخلّ عن حذرها تجاه الجنس الآخر، لكنّها شفيت من خوفها المرضيّ النّاتج عن الصّدمة. يمكنها الانتظار والمراقبة، ولتر على أيّ شاطئ يرسو قاربها.

قالت ميساء محذّرة:

-لا تستعجلي، وأحسني الاختيار! لا تغرّك الوعود التي يقدّمونها في فترة الخطبة والتودّد، فكلّها تتلاشى فيما بعد! فليثبت كلّ شيء بشكل ملموس وواضح منذ البداية!

ارتفعت ضحكات رنيم وياسمين، بينما واصلت ميساء بنفس اللّهجة الجادّة:

-اسمعي منّي، والزمي الحذر.. للأسف، ليس كلّ الرّجال سواسية! أحدّثك عن تجربة!

بهتت ضحكة ياسمين حتّى تلاشت، ورمقتها بنظرة تعاطف. ما زالت ميساء تفرّ من منزل حميها وتحتمي بالمكتبة لساعات النّهار، وما زال زوجها لا يفي بوعده بالمنزل المستقلّ. حملتها أفكارها إلى الشقّة التي اشتراها عمر منذ وقت قريب، فهتفت مغيّرة الموضوع:

-تردن رؤية صور المنزل؟

تحلّقن حولها بينما أخذت تقلّب الصّور على هاتفها. كانتا شقّتين متجاورتين في واقع الأمر، تتكوّن كلّ منهما من غرفتين وصالة. لقد كانت فكرتها، ولقد قبلها عمر باستحسان.

كان الوضع العائليّ الخاصّ بهم مميّزا، ويحتاج تخطيطًا هندسيًا غير تقليديّ. قريبًا، سيصبح صهيب شابًا أجنبيًا عنها، وسيكون عليها الاحتجاب في حضوره. لذلك، فكّرت في شقّتين منفصلتين، واحدة للولدين والثانية لها ولعمر، يفصل بينهما باب داخليّ. لم تكن تودّ أن يشعر صهيب بالنّبذ، أو باختلاف معاملتها له عن عزّ الدّين. لذلك، فقد كانت الشّقة الخاصّة بالأولاد فكرة مناسبة: سيكون لكلّ منهما غرفته الخاصّة وصالة تنفع كمجلس للرّجال والزّوار الغرباء، بينما تحتوي شقّتها على غرفة نوم رئيسيّة ومكتب، بالإضافة إلى غرفة جلوس عائليّة. حين يعودان من شهر العسل، ستكون أشغال ضمّ الشّقتين إلى بعضهما قد انتهت.

دخلت النّسوة إلى الصّالة بعد أن انتهين من إطعام الضّيوف. اقتربت فاطمة وقبّلت ياسمين بابتسامة راضية، ثمّ جاءت من ورائها زهور. ما إن وقعت عينا ياسمين عليها حتّى استعادت إحساس الكآبة الذي ما زال يلحّ عليها. كانت عينا زهور نديّتين، وهي تهمس بصوت مرتجف:

-مبارك يا ابنتي!

تذكر يومًا بعيدًا، باركت لها فيه لزواجها من ولدها. وقد

كانت تلك المباركة الحديثة مصدر ألم لكلتيهما. وقفت ياسمين لتحتضنها بحرارة، وخلال لحظات كانت العبرات تجري على وجنتيهما بسخاء. لوهلة، تحوّل مناخ الغرفة إلى السّكون العميق، وقد استحال الفرح مأتمًا. كانت ذكرى هيثم تعبق في الجوّ بشكل لا يمكن تجاهله.

لقد حسبت أنّها قد تموت، يوم رحل. ولم يحمها من القنوط إلّا طفلها الوليد الذي كان في أمسّ الحاجة إليها. وقد ظنّت أنّها لن تستعيد رغبتها في الحياة أبدًا، وأنّ كلّ نفَس تأخذه سيكون عذابًا، وأنّ الألم في فؤادها لن يخبو قطّ. لكنّ الأيّام والشّهور والسّنوات كفيلة بالسّلوى، وقد استمرّ وجعها يخفت حتّى صارت الحياة محتملة، ثمّ عادت إليها ذات يوم متعة الوجود. وها هي اليوم تستعدّ لزواج جديد!

حين عادت إلى تونس، اختارت أن تمكث إلى جوار والدي هيثم، حتّى لا يكون فقدهما مضاعفًا. وقد قدّرت زهور مبادرتها تلك، فعاملتها بودّ واحترام. وكثيرًا ما شعرت أنّها قد غدت تشغل مكان زوجها الرّاحل في تركيبة العائلة، فقد كان الجميع يرجع إليها بالمشورة، ولها رأي مسموع لديهم. ولعلّها أخذت مع الوقت تعتبر ميساء شقيقتها الصّغرى، وزهور أمّها الثّانية. تلك المكانة الاستثنائيّة، كانت بصدد خسارتها اليوم.

ستصبح اليوم زوجة رجل غريب، ولن تكون «زوجة هيثم» وظلّه في نفوسهم بعد الآن.

لقد خشيت أشدّ ما خشيت نظرة زهور وردّة فعلها. هي ليست خائنة! هي لم تنس ذكرى الرّاحل ولم تدفن الماضي، لكنّها تريد أن تستمرّ، وأن تحيا، وأن تضمن لولدها مستقبلا مستقرّا في حضن عائلة محبّة ومكتملة الأركان. همست في اعتذار:

-سامحيني يا خالتي!

ربّتت زهور على رأسها في حنان وقالت:

-لا تثريب عليك يا ابنتي!

-أنا ابنتك اليوم وغدًا، ولن يتغيّر بيننا شيء.

ضمّتها من جديد، ثمّ رفعت رأسها وأطلقت زغرودة عالية، ردّدتها النّسوة من بعدها، لتستأنف أجواء الفرح.

***

لوّحا لأفراد العائلة الذين رافقوهما إلى بوّابة المطار، ثمّ ابتعدا إلى الدّاخل ليلتهمهما زحام المسافرين. تمالكت ياسمين نفسها حتّى لا تسترسل في البكاء، وهي تلتفت مرّة ثمّ مرّة لتلمح عزّ الدّين وهو يتبارى وصهيبًا على القفز أعلى ليلوحا أكثر وهما يضحكان. كانت تشعر بالارتياح، لأنّه لم يودّعها بوجه باكٍ، لكنّها لا تعرف بعد كيف ستكون الأيّام القادمة محتملة وهو بعيد عنها. كانت قد رضيت بترك الولدين في رعاية فاطمة على مضض. لم تنفصل من قبل عن طفلها إلّا للضّرورة القصوى، ولم تعتقد أنّها قد تستمتع يومًا بالسّفر دونه! لقد فكّرت بمرافقته لهما، لكنّ والدتها نهرتها بحزم:

-عزّ الدّين في أمان برفقتي، وهو سينغمس في اللّعب مع صهيب ولن ينتبه لغيابك. ثمّ، أنت تحتاجين إلى الاهتمام بنفسك وبزوجك هذه الأيّام.. كيف تجدان مساحة لنفسيكما إذا انشغلتما بالطّفلين طوال الوقت؟

حين انفردا أخيرًا في مقاعد الطّائرة، سألت ياسمين في فضول:

-إلى أين نذهب؟

كانت رحلة الخطوط الإماراتيّة باتّجاه دبي، لكنّها بالتّأكيد ليست الوجهة النّهائيّة، ليس في هذا الوقت من السّنة! ودبي نقطة عبور تصل المسافرين بعدد لا حصر له من الوجهات حول العالم، وليس بوسعها التّخمين. أمامها بعد ستّ ساعات قبل أن تكتشف وجهة الطّائرة التّالية. ابتسم عمر في غموض وقال:

-ألم أقل أنّها مفاجأة؟

لوت ياسمين شفتيها في استياء. تحاول أن تجاريه وتستقبل الدّعابة بأريحيّة، لكنّها لا تستطيع كتم قلقها. إنّها ليست مجرّد مفاجأة. إنّها مفاجأة.. أخرى! ألم يمطرها بالمفاجآت في السّنوات الماضية؟ لقد بات لزامًا عليها أن تتعرّف إلى طباع الرّجل الذي سيشاركها حياتها، تتفهّمها وتتأقلم. وكثيرًا ما يهيّأ إليها أنّه قد تعوّد التصرّف بشكل أحاديّ الجانب، ويجد راحته حين يخطّط بمفرده ويتّخذ القرارات دون الرّجوع إلى أحد بالنّظر أو المشورة. ولقد أبصرت ذلك الطّبع في مناسبات كثيرة. وإنّها تحتاج إلى أن تعلّمه رويدًا رويدًا كيف يجعلها شريكة له في كلّ شيء.

لقد كانا متشابهين في نقاط كثيرة، وبينهما اهتمامات مشتركة ومجالات التقاء لا ريب. ما عدا ذلك، فهما غريبان لم يسبق لهما التّعاطي بشأن تفاصيل الحياة اليوميّة الدّقيقة.

قال بلهجة حانية، عاطفًا على موضوع آخر يشغله:

-لم يسألني أحد عن مسألة الإنجاب، ألم تخبريهم عن إصابتي بالعقم؟

قالت بصرامة وقد اكتست ملامحها الجدّية:

-هذا لا يخصّ أحدًا غيرنا!

-ألا تشتاقين إلى طفل آخر؟

لمحت في صوته انكسارًا. كانت تلك علّته ونقطة ضعفه، ولعلّه رغم رضاه بقدره ما زال يخشى نظرتها. فكّرت فجأة: ربّما كانت ثقته الهشّة وإحساسه بعدم الأمان تجاه العلاقات ما يدفعه إلى الانفراد بالرّأي ونزعة التحكّم. قالت بلهجة دافئة:

-لدينا عزّ الدين وصهيب.. وهما كافيان جدّا بالنّسبة لي!

-ولي أيضا!

-معظم العائلات اليوم تكتفي بطفل أو اثنين.. ونحن محظوظان بهما.

ابتسم في رضا وقد تحسّن مزاجه وقال مؤمّنا:

-نحن كذلك. والآن، هل تخبرينني؟

-بماذا؟

-لماذا أخذت الكتاب؟

التهبت وجنتاها، وقد عاد إلى موضوع الكتاب مجدّدا. لكنّها دارت حرجها وهي تقول بابتسامة ماكرة:

-بعد أن تخبرني إلى أين نتّجه!

قال متضاحكًا:

-إلى مكان يتساقط فيه الثّلج! والآن دورك.

تنهّدت. لن تجبره على الإفصاح. ما زالت أمامها مسافة طويلة حتّى يتعلّم المشاركة على طريقتها. لكنّها ستتجاوز اليوم، فليستمتع بمفاجأته! لانت ملامحها وهي تقول:

-أوَلم تدرك ذلك بعد؟

-أحبّ أن أسمع منك!

-لقد أردت أن أحتفظ به كذكرى.

-ذكرى لماذا؟

-ذكرى لمشاعر كانت تبدو خاطئة في ذلك الوقت. لقد اشتريت كتابا من أجل رجل يهمني أمره، لكنّه لا يشعر بي!

-ياسمين...

أشارت إليه بالسّكوت وهي تواصل:

-وهو لم يكن خاطبي، ولا كان يجدر بي أن أهديه الكتاب.. لكنّني فعلت. وقد شعرت بالذّنب لذلك، ثم وطنت نفسي على النّسيان وطي الصّفحة إلى الأبد! ثمّ، حين ظهر الكتاب بعد كلّ ذلك الوقت، انتابني حنين إلى زمن الصّبا، وإلى القصص الجميلة والمستحيلة.

تنهّد عمر ثم أمسك بكفها بحرارة:

-لقد كان ذلك قدرنا.. وكله خير بإذن الله!

لم يتكلم أحدهما بعد ذلك. تعانقت أصابعهما بقوّة، وفكرا في الوقت ذاته بالرّجل الذي رحل. كان صاحبه وشريك طموحه وقضيّته، وكان زوجها الذي وهبها طفلها الوحيد وإحساس الأمومة الأول والأخير.

***

وقف عمر إزاء رمزي أمام مبنى المزرعة التي يديرها بيد مرتعشة منذ ثماني سنوات، بينما انشغل الخبير بتقييم أداء مختلف الآلات والأقسام التي وضع فيها كل مدخرات العائلة. قال رمزي في قلق:

-هل يمكنه أن يفعل شيئًا ليصلح الأمر؟

طمأنه عمر بابتسامة:

-هذا هو دور الخبراء: الوقوف على مواطن الخلل وتقديم المقترحات التي من شأنها تحسين الأداء.

-هل ستكون الاستشارة مكلفة؟

-لا تشغل نفسك بهذا. إنها تستحقّ كل مليم يدفع فيها!

منذ قرّر أن يستجيب إلى الدّعوة ويكون شريكًا في المشروع الفلاحي، أمسك عمر بزمام الأمور وأخذ يهتمّ بالمشروع على طريقته.

-هناك العديد من النّقاط التي تستحق المراجعة.. سيكون التقرير النهائي جاهزا خلال أسبوع!

صافح عمر الخبير شاكرًا ثم رافقه نحو المخرج.

على الغداء، احتدم النقاش بين عمر ورمزي وعبد الحميد

بشأن التّغييرات التي ينوي عمر إدخالها على المشروع العائلي. كان رمزي يرفض المخاطرة، بينما يحاول عمر دفعه نحو إنشاء مفهوم جديد للمزرعة البيولوجية المفتوحة:

-سيأتي النّاس لقضاء اليوم في المزرعة، حيث يمكنهم قطف الخضر والفواكه الموسمية بأيديهم واقتناؤها بسعر الجملة، ويمكن للأطفال التعرّف على حيوانات المزرعة عن قرب، وركوب الخيل، حلب البقرات وجمع البيض.. ثم تتناول العائلة وجبة إفطار مكونة من منتجات المزرعة من بيض وحليب وجبن وزبدة وعسل صافٍ وخبز طازج، كما يمكن ترتيب وجبات غداء قوامها المشاوي والسلطات والخضروات المنتجة محليّا...

قال رمزي محتجًا:

-نحن لسنا محترفي ضيافة مثل أصحاب المطاعم، لم نتعلم كيف تدار محلات الأكل...

-الناس مضيافون هنا بطبعهم ويعاملون الزوّار على الفطرة، وهذا كل ما نحتاج إليه: جوّ قرويّ حميمي ومريح بلا تكلف! حتّى قسم المطعم، سيتكون من جلسات منخفضة مثل تلك

الموجودة في دور القرية، أو طاولات خشبية في الهواء الطلق.

-ماذا عن إنتاج الجبن والعسل؟ نحتاج المزيد من العمالة المختصّة!

-هذا صحيح، المنحلة ووحدة صنع الجبن ستكون استثمارًا إضافيًا، لكنها ضروريّة من أجل ضمان عمل المطعم: من المهمّ أن تكون كل المنتجات المقدّمة محلية! أما الخبز، فلا نحتاج مخبزا من أجله: سوف نتعاون مع سيدات القرية اللاتي يخبزن بشكل مستمرّ ونطلب الكميّات التي نحتاجها حسب تطوّر نشاط المزرعة.

ابتسمت ميساء وهي تقول لياسمين:

-أنا متفائلة بهذا المشروع! برأيك، كم من الوقت يحتاج حتى يتمكن رمزي من شراء منزل لنا؟

كتمت ياسمين ضحكتها وهي ترقب زوجها بعين الإعجاب. إنه يملك عقلية رجال الأعمال النّاجحين، ورغم خروجه من دائرة اختصاصه، قادر على تقديم رؤية تجديدية ربما تنقذ

المزرعة العائلية من شبح الإفلاس. راقبت عزّ الدّين وصهيبًا بابتسامة سارحة وهما يطاردان الدّجاجات في الفناء دون أن ينهرهما أحد. ثمّ ركض الولدان باتّجاه المجلس وتزاحما للجلوس إلى جوار عمر، فأوسع لهما مساحة عن يمينه وشماله عن طيب خاطر. راقبته وهو يربّت بيمناه على شعر طفلها الرّمادي اللامع الذي استطالت شعيراته النّاعمة لتنزل على جبينه العريض، بينما احتضن بيسراه كتفي صهيب.

كان عزّ الدّين قد احتفل بيوم مولده التّاسع منذ شهور، ولم يعد هاجس بلوغه السّابعة يقض مضجع ياسمين. لكنّها لا تركن إلى الاطمئنان، فالمرض باقٍ في جيناته، وهي لا تأمن أن يعلن عن نفسه ذات يوم في المستقبل. عليها أن تكون متيقظة طول الوقت.

جاءت زهور لتضع أكواب الشاي على المائدة ثم جلست إلى جوارهما وفي عينيها ابتسامة رضا. لقد كان جلّ ما تخشاه أن يبعد زواج ياسمين حفيدها عنها، لكنّها وبسبب شراكة عمر لزوج ميساء صارت تراه كل نهاية أسبوع! قالت في حفاوة:

-ياسمين، لماذا لا تأكلين؟ هذه الفطيرة المفضلة لديك!

شكرتها ياسمين وهي تقضم من الفطيرة باستمتاع. لقد كانت زهور أمًا ثانية لها، ولما كان عمر فقدَ والديه منذ زمن، فقد طاب لها أن تحتفظ بذلك الدّور الذي لا يزاحمها عليه أحد.

انطلقت بهم السيارة في المساء باتجاه العاصمة، فلوّح لهم أهل الدّار حتى توارت المركبة عند المنعطف آخر الشارع. خلال وقت قصير، استسلم صهيب وعزّ الدين إلى النّعاس على المقاعد الخلفية. ساد الصّمت لبعض الوقت قبل أن ترنو ياسمين إلى زوجها وتقول في إشفاق:

-عمر.. أنت لست مضطرًا إلى هذا.

ابتسم وعيناه معلقتان بالطريق أمامه وقال:

-أعرف، لكنّهم عائلتك.. وما يسرّك يسرّني. لأجل عين تكرم ألف عين!

ألقى نظرة عابرة على سحنتها الرّائقة، ثمّ عاد إلى التّركيز على القيادة. كان اجتماع أربعتهم داخل تلك السيّارة العائليّة التي تقطع الرّحلة بين ريف طبرقة وأحياء العاصمة ضربًا

من الحلم! بالنّسبة لغيره، كانت «توأمة الأرواح» نظريّة عارية من الصّحّة، لكنّها كانت الحقيقة الوحيدة في نظره. لم تكن حياته لتكتمل بدون ياسمين. لقد عرف ذلك طوال الوقت، وإن حاول الإنكار والنّسيان. أيّ امرأة أخرى لم تكن سوى بديل منقوص، وعجزه عن تقبّل العوض كان ينغّص عليه حياته.

أحيانا، يداهمه إحساس مباغت بالغيرة. لم يكن الرجل الأول في حياتها، وهذا أمر لم يجهله في أيّ وقت من الأوقات. وهي كانت حريصة على أن يعرف ولدها أباه ولو عن طريق الصّور والسّيرة المحكية. لذلك يلازمه شعور بتحليق شبح هيثم فوق جمعهم على الدّوام. كلّما دخل عليهما وهما منكبّان على ألبوم الصّور، وياسمين تستعيد حوادث الماضي فتضحك، ثمّ يسألها عزّ الدّين فتمعن في الوصف والمدح، يشعر بوخزة في صدره.

وكان يكبت تلك الهواجس على الفور. وهل يسعه أن يغار من الشّهيد الذي رحل؟ كانت غيرة صبيانيّة سخيفة، وكان عليه أن يعدل عن محاولة مزاحمة صاحبه على مكانة الصّدارة في فؤادها. كان يعرف أنه يأتي في مكانة ثانية بعد عزّ الدين وأبيه!

ومن يملك أن ينافس شهيدا؟! تلك معركة خاسرة.

أخبره أبو الحسن خلال اتصالهما ذلك الأسبوع بعد أن أرسل مبلغ الرّعاية للطلاب المتفوقين في المخيم:

-ستتزوّج آية الشهر المقبل!

شعر بالاضطراب وهو يتلقّى الخبر. لم يكن قد تحرى أخبارها منذ أرسلت إليه معاملة الانفصال. مرّت سنة كاملة على لقائهما الأخير. قال أبو الحسن أمام استمرار صمته:

-لقد تقدّم إليها الطبيب الشّابّ الذي يهتمّ بأطفال دار الرّعاية. إنّه يشاركها شغفها بالصّغار، ويمضيان الكثير من الوقت معًا.. هذا ارتباط مرضٍ لكلّ الأطراف.

-تهانينا.

كان صادقًا في تهنئته، رغم كلّ شيء. لقد أورثت تلك العلاقة الكثير من المرارة لكليهما، ولا يمكنه إلّا أن يشعر بالارتياح لاقتراب نيلها ما تتمنّى. إنّها تستحقّ نصيبها من السّعادة، وربما تعرف الأمومة الحقّة التي تتوق إليها أخيرًا.

كانت قد أنشأت مؤسسة لرعاية الأم والطفل في المخيّمات. تتنقّل بشكل مستمرّ بين مخيمات الأردن للتّوعية ضدّ الأمراض الجينية التي تصيب الأطفال في العائلات التي تربطها زيجات الأقارب لأجيال متعدّدة. تحرص على حصولهم على اختبار ما قبل الزّواج بشكل مجانيّ، وتوفير متابعة صحيّة للمواليد الجدد لتشخيص الأمراض الوراثية بشكل مبكر.

ما زال يذكر التّأثر الذي كسا ملامحها بعد زيارتهما لمخيّم الزّعتري منذ سنوات. كانت قد قرّرت العودة منذ ذلك الوقت، لكنّ الظّروف اقتضت تأخير مشروعها. لعلّها استمرّت تخطّط لنشاط المؤسّسة في الخفاء وتحلم بما يمكنها تغييره في حياة اللّاجئين منذ أمد، وحين جاء الوقت المناسب، كانت تعرف ما تريد عمله تمامًا.

كانت الأنباء تصله دون اجتهاد منه، فهي قد صارت وجها معروفا يظهر بكثافة في وسائل الإعلام المحلية والعالمية. إنها تزهر من جديد بعيدًا عنه، وتمضي قدمًا لتحقيق رؤيتها الإصلاحية الخاصّة.

***

حملت آية الفتاة الرّضيعة بين ذراعيها، وسارت تهدهدها حتّى توقّفت عن البكاء واستغرقت في النّوم. راقبت وجهها الملائكيّ بابتسامة حالمة. كان فيها شيء من آلاء. وكلّ الأطفال فيهم شيء من آلاء! ما زالت ترى ملامح طفلتها الأولى في كلّ الوجوه الصّغيرة المنمنمة.

اقتربت الممرّضة وأخذت عنها الرّضيعة، وقالت في ودّ:

-لا تحمليها لوقت طويل، أنت بحاجة إلى الاهتمام بنفسك!

ابتسمت وهي تومئ في تفهّم. لقد حرصت على إخفاء حملها في الشّهور الماضية، حتّى يستقرّ ويثبت. لا تريد أن تعيش الوهم ذاته مرّة أخرى. لكن انتفاخ بطنها المستمرّ وشى بوجود كائن صغير في طور التخلّق داخلها. وإنّها لتصبو إلى اليوم الذي يخرج فيه إلى النّور، لترفعه بين ذراعيها وتملأ من قسماته عينيها. لذلك، عليها أن تتوخّى الحذر، وتحرص على نظامها الغذائيّ ولا ترهق نفسها.

في الأثناء، تواصل نشاطها في المؤسّسة الخيريّة بدوام

مرن. تستقبل كلّ صباح فتيات في عمر الزّهور، يشعرن بالخوف من المستقبل، لأمومة مبكّرة أو وليد عليل، أو زواج أقارب. تصغي إلى همومهنّ، وتطيّب خواطرهنّ ثمّ توجّههنّ إلى طبيبة النّساء أو إلى الاستشاريّة النّفسيّة. ثمّ تمضي جزءًا من يومها في قسم الحضانة، ترافق الكائنات الصّغيرة الوحيدة وتغدق عليها من مشاعرها الفيّاضة. ثمّ يأتي زوجها، الدّكتور فادي، ليذكّرها بنيل قسط من الرّاحة أو شرب الماء.

كان لقاؤهما طبيعيّا، وتقاربهما تلقائيّا. لم تبذل جهدًا لتجذبه إليها، ولم تجد في تعاطيه معها ابتذالًا أو تصنّعًا. كان يعرف قصّتها، وقد اختصر ذلك عليهما الكثير. وفي ظلّ اهتمامهما بالمسائل ذاتها، فقد نشأ إعجاب متبادل وهادئ بينهما.

لم يتغيّر الشيء الكثير في روتين يومها منذ حضورها إلى الأردن، غير أنّ عدد الأطفال الذين تحت رعايتها قد ازداد. وهي صارت قادرة على احتواء الكثيرين منهم. وسعادتها بتحقيق فرق في حياتهم ما تزال تنمو وتتمدّد. كانت وفادي يتحدّثان كثيرًا عن الأطفال، في العيادة والحضانة وفي البيت. تتدفّق الأحاديث دون توقّف، ولا تجد صعوبة في الحصول على اهتمامه لتناقشه فيما يؤرقها، ولا كانت تملّ

الاستماع إلى شروحاته عن آخر الاكتشافات في علم الوراثة وطبّ الأجنّة والتشوّهات الخلقية.

كانت تأتيها أوقات تذكر فيها عمر. وقد تشعر بالأسى لحماقتها وصفاقتها. كانت تودّ أن تعتذر ذات يوم، لكنّها لا تملك الشّجاعة بعد. قريبًا تكتمل سعادتها، ولعلّه قد وجد ضالّته برفقة ياسمين. لكنّها قد أجبرته قبل ذلك على عبور تجربة مريرة هي نتاج أنانيّتها. حين وجدت طريقها أخيرًا، أدركت أخطاء الماضي، واختيارها المسار الصّعب بلا مبرّر. كتبت ذلك المساء في مدوّنتها:

«إنّ الدّنيا دار شقاء، لكنّ العاقل لا يختار الحزن بملء إرادته، إنّما يصبر على الابتلاء إذا أصابه. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما خيّر بين أمرين إلا واختار أيسرهما. فرفقًا، رفقًا بنفوسكم.. «فإنّ القلوب إذا كلّت، عميت»!

***

غادرت ياسمين مبنى الجامعة على عجل. كان روتينها اليوميّ قد تغيّر منذ انتقالها إلى المسكن الجديد. صارت رحلة المترو أطول وأكثر إرهاقًا مع اضطرارها إلى تغيير

الخطّ في منتصف الطّريق. من حسن الحظّ أنّ عمر يعمل في مكتبه بالشّقة في انتظار افتتاح مكاتب شركته الجديدة، وبوسعه اصطحاب الطّفلين من المدرسة في الوقت المناسب. لعلّه يمضي وقتًا برفقتهما أكثر ممّا تفعل. ربّما عليها أن تفكّر جدّيا باسترداد سيّارتها القابعة في مرأب منزل والدتها. لكنّها لم تتكيّف بعد مع زحام العاصمة.

بحثت عن مقعد شاغر وجلست قرب النّافذة. سرحت بنظراتها عبر الزّجاج وهي تفكّر فيما ستحضّره على العشاء. لقد كانت فاطمة تكفيها مؤنة الطّبخ في السّابق، ومن قبلها زهور. لسنوات، كان دخولها المطبخ عابرًا ومتباعدًا، لكنّها قد غدت سيّدة بيت الآن، ومسؤولة عن إطعام ثلاثة أفواه جائعة وشرهة!

تنهّدت، لم تعد تقرأ حين تركب المترو. كانت في خاطرها مسائل كثيرة تلتهم وقتها وتشغل ذهنها. كانت تفكّر بعرض والدها بالانتقال إلى جامعته الخاصّة التي تفتح أبوابها قريبًا. كانت قد تعوّدت على مقرّ عملها، وهي لا تشكو شيئا يدفعها إلى التّغيير. لكنّ دعم مشروع والدها دافع كافٍ. ثمّ هناك اختبارات نهاية الدّراسة الابتدائيّة الخاصّة بصهيب. قريبًا سينتقل إلى مدرسة إعداديّة، وسيبتعد عن عزّ الدّين. عليها

أن تأخذ أزمة الانفصال الخاصّة بهما على محمل الجدّ. لم يكن طفلها قد اتّخذ رفيقًا مقرّبًا في وقت سابق، وعلاقته بصهيب استثناء يسعدها ويقلقها. كانا مثل أخوين حقيقيّين من حيث الانسجام والتّلازم وقد قبلا التّغيير معا حين انتقلت العائلة إلى مسكنها المستقلّ، وكلاهما سيواجه فترة صعبة حين يضطرّ إلى التّعامل مع محيط دراسيّ بلا وجوه أنيسة ومعروفة.

- سيّدتي، هل هذا المقعد شاغر؟

سحبت حقيبتها إلى صدرها لتوسع المكان إلى الرّجل الذي ركب عند المحطّة الأخيرة، ثمّ انتبهت إلى تلك النّبرة المألوفة فاستدارت في دهشة لترمقه بعينين متّسعتين.

- عمر، ما الذي تفعله هنا؟

ابتسم وهو يجاورها ثمّ قال مازحًا:

- لقد أردت استرجاع ذكريات المترو في ليون. من يدري، ربّما ألتقي فتاة جميلة تقرأ، فنتحدّث قليلا عن الكتب!

رمقته بنظرة جانبية فاستدرك على الفور:

- لكنّ الفتاة الجميلة لم تعد تقرأ! لعلّها تسدّ السّبل أمام الغرباء، حتّى لا يفتح أحدهم حديثًا متذرّعًا بالكتب؟

قالت متضاحكة:

- الفتاة الجميلة تفكّر بقيادة السيّارة من الآن فصاعدًا!

ثمّ ضيّقت عينيها وهي تقول في شكّ:

- هل كنت تتذرّع بالكتب، لتحدّثني؟

قال في غموض:

- ربّما!

سألت بسرعة وقد استعادت تركيزها:

- أين الولدان؟

- رافقتهما إلى النّادي الرّياضيّ، ثمّ سيأتي عمّي كمال لاصطحابهما.

- حقّا؟

- ما رأيك، هل نتركهما يمضيان الليلة عنده، ونتناول العشاء في المطعم ثمّ نستمتع بأمسية هادئة؟

فكّرت لبرهة. كان المقترح مغريًا، لن تضطرّ إلى الطّبخ اليوم. لكنّها لم تتحمّس. قالت في رجاء:

- نذهب إلى المطعم جميعنا؟

ضحك بخفّة، ثمّ أومأ موافقًا. إنّه يعرف. لم تكن تجد لذّة في شيء وطفلها بعيد عنها. ولم يكن ذلك يضايقه، فهو يحبّ عزّ الدّين كما يحبّ صهيبًا وأكثر.

حين وصلا إلى المحطّة، لم يراقبها وهي تبتعد في سبيلها كما كان يفعل في الماضي. أخذ عنها حقيبتها، ثمّ ساعدها على شقّ الطّريق خلال زحام روّاد المترو، حتّى أفضيا إلى الرّصيف. مشى بخطوات متمهّلة على نسقها وهو يرقبها

بطرف خفيّ، وعلى وجهه تعبير ينضح بالرّضا. التفتت حين شعرت بنظراته، وسألت في شكٍّ:

- فيم تفكّر؟

استمرّ يحدّق بها في صمت، فرفعت حاجبيها دهشة. قال أخيرًا بلهجة حالمة:

- أتأمّل في هذا الجمال، وأستشعر كم أنا محظوظ!

ضحكت في رقّة. كان من الغريب أن يتحدّث عمر عن الحظّ. لقد حسبت لوقت طويل أنّه قليل بخت! لقد نجا بأعجوبة من كوارث مميتة، ودخل السّجن مرّتين. أصيب بحروق خطرة أدّت إلى العقم، ثمّ انفصل عن زوجته الأولى. إنّ رجلا مرّ بكلّ تلك المحن لا يعدّ محظوظًا في عُرف المجتمع والأشخاص الطبيعيّين.

- لقد وصلت إلى المحطّة التي يمكنني أن أرتاح فيها.. وهذا حظّ وفير أرجو أن يدوم إلى الأبد!

كان يسير جنبًا إلى جنب مع فتاة المترو خاصّته، باتّجاه

عشّهما. يمكنه أن يستغرق في حالة ذهنيّة عجيبة، يعود بعجلة الزّمن إلى الوراء، كأنّه يستأنف مسيرته الخاصّة منذ رحلة المترو الأخيرة. في خياله، يكون قد تحدّث إليها فابتسمت، ثمّ لم يفترقا بعد ذلك.

ينتبه إلى جسده الأربعينيّ المرهق والمشوّه. لم تكن رحلته عبر الزّمن إلا أمنية خياليّة. لا يمكنه أن يطمس حوادث السّنوات الخمسة عشر بمجرّد التمنّي. لعلّ مأساته الشخصيّة كانت ضروريّة، حتّى يدرك ما يريده حقّا، ويقدّر حياته الحاضرة حقّ قدرها.

استعاد في شرود كلمات الطّبيب النّفسيّ منذ سنوات، وفكّر في الأشياء الثّلاثة التي تجعله سعيدًا. كانت الإجابة سهلة ويسيرة هذه المرّة: ياسمين وعزّ الدّين وصهيب، هم أسباب سعادته، وثلاثتهم يجتمعون تحت سقف بيته. ذلك الإحساس بالارتياح، حين يمرّ على غرفهم كلّ فجر فيتأمّل الوجوه النّائمة بدِعة، ثمّ يوقظهم بهزّة خفيفة قبل نزوله إلى المسجد، لم يكن يضاهيه إحساس في العالم. يذكر وقتًا كان خلاله اجتماعهم مستحيلا، وكان فؤاده فارغًا، فامتلأ بهم وبفضلهم.

تمت بحمد الله